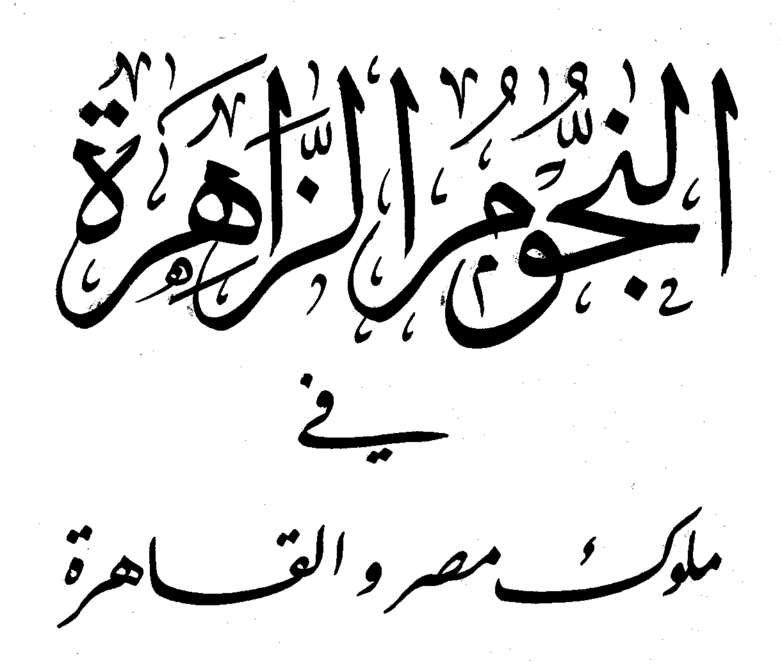


النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

تأليف

جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي

٨١٣ - ٨٧٤

قدم له وعلق عليه

محمد حسين شمس الدين

الجزء السابع

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ تلكس : Nasher 41245 Le
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحابته والمسلمين

ذكر سلطنة الملك المعِزّ أَيْبَك(١) التُّركمانيّ على مصر

هو السلطان الملك المُعِزّ عِزُّ الدين أَيْبَك بن عبد الله الصالِحيّ النَّجْمِيّ المعروف بالتُّرْكُمانيّ(٢)، أوّل ملوك الترك بالديار المصرية. وقد ذكرهم بعض الناس في أبيات مواليا إلى يومنا هذا، وهم الملوك الذين مَسَّهم الرِّق، غير أولادهم، فقال:

أَيْبَكْ قُطُزْ يَعْقُبو بِيبَرْس(٣) ياذا الدين — بعدو قَلاوون بعدو كَتْبُغَا لاجين

بِيبرس بَرْقُوق بعدو شيخ ذو التبيين — طَطَرْ بَرْسَباي جقمق صاحب التمكين

قلت: هذا قبل أن يتسلطن الملك الأشرف إينال العلائِي، فلمّا ملك إينال قلت أنا:

---

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك: ٣٦٨/٢/١، والخطط المقريزية: ٢٣٧/٢، والجوهر الثمين لابن دقماق: ٥٢/٢، وبدائع الزهور: ٢٨٨/١/١، وعقد الجمان (عصر سلاطين المماليك): ص ٣٤ وما بعدها، وخطط علي مبارك: ٧٩/١، ومعجم زامباور: ١٦٢، ودائرة المعارف الإسلامية: ٢٧٢/٥، وشذرات الذهب: ٢٦٨/٥.

وهذا الاسم مركب من لفظين تركيين وهما «آي» و«بك». ومعنى أولهما القمر، ومرادف الثاني في العربية لفظ الأمير. ويلاحظ أن أسماء معظم سلاطين المماليك، وأسماء جميع أمراء دولتهم تقريباً، عبارة عن أسماء أشياء أوحيوانات في اللغات التركية والفارسية والتترية؛ مثل ذلك بيبرس ومعناه الأمير الفهد، وقلاوون ومعناه البطة، وطوغان ومعناه الصقر، وبكتمر ومعناه الأمير حديد. ومن أسمائهم ما يدل على صفات، مثل سلار ومعناه الهاجم، وإزبك ومعناه النبيل. (السلوك: ٣٦٨/٢/١، حاشية).

(٢) التركماني: نسبة إلى أحد أمراء بني رسول الذين استقلوا باليمن، وكانوا قد عملوا في خدمة بني أيوب بمصر. وقد عرفوا خطأ بالتركمان، مع أنهم عرب غسانية. (المرجع السابق).

(٣) هذا هو الظاهر بيبرس العلائي البندقداري الصالحي المتوفى سنة ٦٧٦هـ. أما بيبرس الذي سيأتي فهو المظفر بيبرس الجاشنكير المنصوري المتوفى سنة ٧٠٩هـ.

أَيْبَكْ قُطُزْ يعْقُبو بِيبرْس ذو الإكمال بعدو قلاوون بعدو كَتْبُغَا المِفضال
لاجين بِيبرْس برقوق شيخ ذو الإفضال ططر بَرْسَبَاي جقمق ذو العلا إينال[١]

وقد خرجنا عن المقصود. ولنعد إلى ذكر الملك المعزّ أَيْبَك المذكور، فنقول:

أصله من مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيّوب؛ اِشتراه في حياة والده الملك الكامل محمد، وتنقّلت به الأحوال عنده، ولازم أستاذَه الملك الصالح في الشرق حتّى جعله جَاشْنَكِيرَه[٢]، ولهذا لمّا أمَّره كان عَمِل رَنْكَه[٣] صورة خَوَانْجا[٤]. وآستمرّ على ذلك إلى أن قُتِل المعظّم تُوران شاه وملَكت شجرةُ الدُّرّ بعده.

اِتّفق الأمراء على سلطنة الملك المُعِزّ أَيْبَك هذا وسلطنوه بعد أن بَقِيت الديارُ المصريّة بلا سلطانٍ مدّةً، وتَشوّف إلى السلطنة عِدّةُ أمراء، فخِيف من شرّهم؛ ومال الناس إلى أَيْبَك المذكور، وهو من أوسطِ الأمراء، ولم يكن من أعيانهم؛ غير أنّه كان معروفاً بالسَّدَاد وملازمة الصلاة، ولا يشرب الخمر؛ وعنده كرمٌ وسَعَةُ صدرٍ ولِينُ جانبٍ. وقالوا أيضاً: هذا متى أردنا صرفه أمكننَا ذلك لعدم شَوْكته، وكونه من أوسط

---

(١) وأورد ابن إياس في بدائع الزهور مقطوعة مشابهة تتضمن أسماء ملوك الترك والجراكسة على الترتيب من ابتداء أمرهم إلى أيامه. (بدائع: ٢٩٦/١/١).

(٢) الجاشنكير: هو الذي يتحدث في أمر السماط مع الأستادار، ويتذوق الطعام والشراب قبل السلطان خوفاً من أن يدسّ فيه سمّ أو نحوه. والكلمة فارسية مركبة من لفظين، أحدهما «جاشنا» بجيم في أوله، وهي الفارسية القريبة من الشين، ومعناها الذوق؛ ولذلك يقولون فيمن يذوق الطعام «الشيشني». والثاني «كير» ومعناها المتناول، أي الذي يتذوق الطعام. (صبح الأعشى: ٢١/٤، ٤٦ و٥/٤٦٠).

(٣) الرَّنك: لفظ فارسي بمعنى اللون والصبغة. وقد استعمل في مصطلح المؤرخين بمعنى الشعار الذي يتخذه الأمير عند تأمير السلطان له، علامة على وظيفة الإمارة التي يعين عليها؛ فيكون رنك الدوادار الدواة والمقلمة، ويكون رنك الأمير آخور نعلة الفرس، ويكون رنك السلاحدار القوس.. إلخ. وقد شرح القلقشندي الرنك وبينّ نواحي استعماله فقال: «ومن عادة كل أمير من كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه ما بين هناب أو دواة أو بقجة أو فرنسيسة ونحو ذلك بشطفة واحدة أو شطفتين». (انظر صبح الأعشى: ٦١/٤ ــ ٦٢، والتعريف بمصطلحات الصبح: ١٦٣).

(٤) خوانجا: كلمة فارسية معناها الخوان أو المائدة.

الأمراء. فبايعوه وسلطنوه وأجلسوه في دَسْت المُلْك في أواخر شهر ربيـع الآخر سنة ثمانٍ وأربعين وستّمائة. وحُمِلت الغاشِية[١] بين يديه، وركِب بشعائر السلطنة. وأوّل من حَمَل الغاشيةَ بين يديه الامير حُسَام[٢] الدِّين بن أبـي عليّ، ثمّ تَداولها أكابُر الأمراء واحداً بعد واحد.

وتم أمره في السلطنة وخُطِب له على المنابر، ونُودِي في القاهرة ومصرَ بسلطنته، إلى أن كان الخامسُ من جُمَادَى الأولى بعد سلطنته بخمسة أيّام ثارت المماليك البَحْريّة الصالحيّة وقالوا: لا بدّ لنا من سلطانٍ يكون من بني أيّوب يجتمـع الكلُّ على طاعته؛ وكان الذي قام بهذا الأمر الأميرُ فارس الدين أَقْطاي الجَمَدَار[٣]، والأمير ركن الدين بِيَبرْس البُنْدُقْدَارِيّ، والأميرُ سيف الدين بَلَبان الرشيديّ، والأمير شمس الدين سُنْقُر الرُّومِيّ؛ وآتّفقوا على أن يكون الملك المُعِزّ أَيْبَك هذا أتابَكاً[٤] عليهم، وآختاروا أن يُقيموا صبياً عليهم من بني أيّوب يكون له آسمُ السلطنة، وهم يُدَبِّرونه كيفما شاؤوا ويأكلون الدنيا به!

كل ذلك والملك المُعِزّ سامـع مطيـع. فوقـع الآتّفاق على المَلِك الأشرف مـظفَّـر الـدين مـوسى آبن الملك النـاصـر يـوسف آبن الملك المسعـود أَقْسِيس آبن السلطان الملك الكامل محمد آبن السلطان الملك العادل أبـي بكر آبن الأمير

(١) الغاشية: أصل الغاشية السرج أو الغطاء المزركش الذي يوضـع على ظهر الفرس وفوق البرذعة. وكان سلاطين الأيوبيين ــ والمماليك من بعدهم ــ يخرجون في المواكب وبين أيديهم غاشية. يقول القلقشندي: «وهي غاشية سرج من أديم مخزوزة بالذهب، يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب، تحمل بين يدي السلطان عند الركوب في المواكب، يحملها الركابدار رافعاً لها على يديه، يلفتها يميناً وشمالاً. وهي من خواص هذه المملكة». (صبح الأعشى: ٤/٧، ٤٧ ومعجم دوزي)..

(٢) هو حسام الدين محمد بن أبـي علي الهذباني، نائب السلطنة بمصر، كما سيأتي في حوادث سنة ٦٥٨هـ.

(٣) الجمدار: موظف يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه. وهي كلمة فارسية مركبة من لفظين أحدهما «جاما» ومعناه الثوب، والثاني «دار» ومعناه ممسك، أي ممسك الثوب. وأصل الكلمة «جامـادار» واستعملت مخففة بصيغة جمدار. وفي العصر العثماني أطلق على صاحب هذه الوظيفة أسم «الجوخدار» كما أطلق عليه اسم «آثوابجي باشي» (انظر صبح الأعشى: ٥/٤٥٩؛ وتأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ص ٧١).

(٤) الأتابك: هو قائد العسكر. راجع في تأصيل هذه الكلمة الجزء الرابـع من هذا الكتاب، ص ٢، حاشية (٢).

نجم الدين أيّوب؛ وكان هذا الصبيّ عند عَمّاته القُطْبِيّات[١]، وتقديرُ عمره عشرُ[٢] سنين، فأحضروه وسلطنوه وخَطَبوا له، وجعلوا الملك المعزَّ أَيْبَكَ التُّرْكمانِيّ أتابَكه، وتمّ ذلك. فكان التوقيع يخرُج وصورتُه: «رُسِم بالأمر العالِي المَوْلَوِيّ السلطانيّ المَلَكيّ الأشرفيّ والملَكِيّ المُعِزِّيّ». وآستمرّ الحال على ذلك مدّةً، والمعزّ هو المستولِي بالتدبير ويُعَلِّم على التواقيع، والأشرف المذكور صورة[٣].

وبينما هم في ذلك ورد الخبرُ عليهم بخروج السلطان الملك الناصر صلاح الدِّين يوسف صاحب الشام وحلب، خرج من دِمَشْق إلى المِزَّة يريد الديارَ المصريّة ليَمْلِكَها لمّا بلغه قتلُ آبنِ عمّه الملك المعظم تُوران شاه. فاجتمع الأمراءُ عند الملك المُعِزِّ أَيْبَك وأجمعوا على قتاله وتأهبوا لذلك، وجهّزوا العساكر وتهيؤوا للخروج من مصر.

وأمّا الملك الناصر فإنّه سار من دِمَشْق نحوَ الديار المصرية بإشارة الأمير شمس الدين لؤلؤ [الأَمِينِيّ][٤]، فإنّه ألَحَّ عليه في ذلك إلحاحاً كان سبباً لحضور منيّته، وكان لؤلؤ المذكور يستهزىء بالعساكر المصريّة، ويستخفّ بالمماليك، ويقول: آخذها بمائتي قِناع[٥]؛ وكانت تأتيه كتبٌ من مصر من الأصاغر فيظنّها من الأعيان.

ودخلوا الرَّمل ودَنَوْا من البلاد؛ وتقدّم عسكر الشام ومعهم الأمير جمال الدين بن يَغْمُور نائب الشام وسيفُ الدين المُشِدّ وجماعةٌ؛ وآنفرد شمس الدين لؤلؤ، والأمير ضياء الدين القَيْمُرِيّ؛ وخرجت العساكر المصريّة إليهم، وآلتقَوْا معهم وتقاتلوا فانهزم المصريّون ونُهِبتْ أثقالُهم، ووصلتْ طائفةٌ منهم من البَحْرِيّة على

---

(١) هنّ بنات الملك العادل أبي بكر بن أيوب. ويعرفن بالقطبيات نسبة إلى شقيقهن الملك المفضل قطب الدين أحمد. وكانت مساكنهن بقلعة الجبل بالقاهرة. (مفرج الكروب: حوادث سنة ٦٤٨هـ).

(٢) كذا أيضاً في عقد الجمان. وذكر المقريزي في الخطط والسلوك أن عمره كان نحو ست سنين.

(٣) ذكر العيني في عقد الجمان أن مدة سلطنة المعز أيبك الأولى هذه كانت خمسة أيام من آخر ربيع الآخر يوم السبت إلى يوم الخميس الخامس من جمادى الأولى.

(٤) زيادة عن السلوك. وقد كان لؤلؤ هذا مقدم جيش الملك الناصر ومدبّر مملكته، كما في عقد الجمان.

(٥) القناع هنا كناية عن المرأة.

وجوههم إلى الصعيد، وكانوا قد أساؤوا إلى المصريّين ونهبوهم وآرتكبوا معهم كلّ قبيح، فخافوا منهم فتوجّهوا إلى الصعيد. وخُطِب في ذلك النهار بالقاهرة ومصر والقلعة[١] للملك الناصر صلاح الدين يوسف المذكور وفي جميع البلاد. وأيقن كلُّ أحد بزوال دولة الملك المُعِزّ أَيْبَك. وبات في تلك الليلة جمالُ الدين بن يَغْمور بالعباسة، وأَحْمَى الحَمام للملك الناصر صلاح الدين يوسف، وهيّأ له الإقامة. كل ذلك والملك الناصر ما عنده خبرٌ بما وقع من القتال والكَسْرة، وهو واقف بسَنَاجقه[٢] وأصحابِه ينتظِر ما يرد عليه من أمر جيشه.

وأمّا أمر المصريّين فإنّه لمّا وقعت الهزيمةُ عليهم ساق الملكُ المعزّ أيبك وأَقْطَاي الجَمَدَار المعروف بـ«أقطيا» في ثلاثمائة فارس طالبين الشامَ هاربين، فعثَروا في طريقهم بشمس الدين لؤلؤ المقدَّم ذكرُه والضِّياءِ القَيْمُريّ، فساق شمس الدين لؤلؤ عليهم فحملوا عليه فكسروه وأَسَروه وقتلوا ضياءَ الدين القَيْمُرِيّ، وجيء بشمس الدين لؤلؤ إلى بين يدي الملك المُعِزّ أَيْبَك، فقال الأمير حُسَام الدين بن أبي عليّ: لا تقتلوه لنأخذ به الشام، فقال أَقْطَاي الجَمَدَار: هذا الذي يأخذ مصر منّا بمائتي قِناع! وجعَلَنا مَخانيثَ، كيف نتركه! وضربوا عنقه، وساقوا على حَمِيَّة إلى جهة، فاعترضوا طُلْب[٣] السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف فوقع المَصَافُّ بينهم، فخامَر على الملك الناصر جماعةٌ من المماليك العَزِيزيّة من مماليك أبيه، وجاؤوا إلى الملك المُعزّ أَيْبَك التُّرْكُمانيّ، وقالوا له: إلى أين تتوجّه؟ هذا السلطان واقفٌ في طُلْبِه ليس له عِلْمٌ بكسرتهم، فعطفوا على الطُّلْب، وتقدمتهم العزِيزيّة فكَسروا سَناجِقَ السلطان وصناديقه ونَهبوا مالَه، ورمَوه بالنُّشَّاب، فأخذه نَوْفل

---

(١) كذا أيضاً في السلوك. وفي عقد الجمان: «وخطب ذلك اليوم للملك الناصر يوسف صاحب حلب بالقلعة وجامع مصر، وأما القاهرة فلم يقم بجامعها خطبة، وتوقفوا ليتحققوا». وقال المقريزي في السلوك: « وكان بجامع القاهرة الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فقام على قدميه وخطب خطبتين خفيفتين، وصلى بجماعة الجمعة، وصلى قوم صلاة الظهر. فما هو إلا أن انقضت صلاة الجمعة حتى وردت البشارة بانتصار الملك المعز وهزيمة الناصر، فدقّت البشائر. . ».

(٢) السناجق: جمع سنجق، وهي الرايات. وكانت سناجق الأيوبيين صفراء اللون.

(٣) الطُّلْب: ويجمع على أطلاب؛ وهو الكتيبة من الجيش.

البدوي(١) وجماعة من مماليكه وأصحابِه وعادوا به إلى الشام؛ وأَسَر المصريّون الملك المعظّم [تُوران شاه](٢) ابن السلطان صلاح الدين بعد أن جرحوه وجرحوا ولدَه تاج الملوك، وأخذوا الملك الأشرف صاحب حِمْص، والملك الزاهِرَ عمَّه، والملك الصالح إسماعيل صاحب الوقائع مع الملك الصالح نجم الدين أيّوب، وجماعة كثيرة من أعيان الحلبيّين؛ ومات تاج الملوك من جراحة كانت به، فحُمل إلى بيت المقدس ودفن به. وضُرِب الشريف المرتضَى في وجهه بالسيف ضربةً هائلةً عَرْضاً وأرادوا قتله، فقال: أنا رجلٌ شريف وآبنُ عمّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم فتركوه؛ وتمزّق عساكر دِمَشق كلّ مُمَزَّق، ومشَوْا في الرمل أيّاماً.

وأمّا المصريّون فإنّهم لمّا وقعتْ لهم هذه النُّصْرة عادوا إلى القاهرة بالأسارَى، وسناجق الناصر مقلوبةٌ وطبولُه مشقَّقة، ومعهم الخيولُ والأموال والعُدَدُ وشقّوا القاهرة. فلما وصلت المماليكُ الصالحيّة النَّجْمِيّة إلى تُرْبة أستاذهِم الملك الصالح نَجْم الدين أيّوب ببين القصرين أخذوا الملك الصالح إسماعيل الذي أَسَرُوه في الوقعة، وكان عدو أستاذهم الملك الصالح المذكور، ووقفوا به عند التُّرْبة، وقالوا: يا خَوَنْد، أين عينك ترى عدوّك أسيراً بأيدينا! ثمّ سحبوه ومَضَوا به إلى الحبس، فحبسوه هو وأولادَه أيّاماً ثم غيَّبوه إلى يومنا هذا، ولم يُسمع عنه خبرٌ إلّا ما تحدّثَ به العوامّ بإتلافه.

وأمّا عساكر الناصر الذين كانوا بالعَبّاسة (أعني الذين كسَروا الملكَ المعِزّ أَيْبَك أوّلًا) فإنّ المعزّ لمّا تمّ له النصر وهَزَم الناصرَ ردّ إلى المذكورين في عَوْده إلى القاهرة، ومال عليهم بمن معه قتلاً وأسراً حتى بدَّد شَملهم، ورحل إلى القاهرة بمَن معه من الأسارَى وغيرِهم. ولمّا دخل الملك المُعِزّ أَيْبَك هذا إلى القاهرة ومعه المماليك الصالحيّة مالوا على المصريّين قتلاً ونهباً ونَهبوا أموالَهم وسبَوْا حريمهم وفعلوا بهم ما لم يفعله الفرنج بالمسلمين.

---

(١) كذا أيضاً في عقد الجمان. وكلاهما ينقل على ما يبدو عن مرآة الزمان. والمراد به نوفل الزبيدي، سيّد عرب زبيد. كان ذا حرمة ووجاهة ومكانة. توفي سنة ٦٧٥هـ، كما جاء في المنهل الصافي للمؤلف.

(٢) زيادة عن السلوك.

قلت: وسببُ ذلك أنّه لمّا بلغهم كَسْرةُ المُعِزّ فَرِحُوا وتباشروا بزوال المماليك من الديار المصريّة، وأسرعوا أيضاً بالخُطْبة للملك صلاح الدِّين يوسف صاحب الشام المقدَّم ذكره. وكان [السامريّ][1] وزيرُ الملك الصالح إسماعيل المقدَّم ذكره مُعْتَقلاً بقلعة الجبل هو وناصر الدين [إسماعيل][2] بن يَغْمور نائب الشام وسيف الدين القَيْمُرِيّ والخُوارَزْمِيّ صِهرُ الملك الناصر يوسف، فخرجوا من الجُبّ[3] وعصَوْا بقلعة الجبل، فلم يوافقهم سيف الدين القَيْمُرِيّ بل جاء وقعد على باب الدار التي فيها أعيان[4] الملك المعزّ أَيْبَك وحماها من النهب، ولم يَدَعْ أحداً يَقْرَبها؛ وأمّا الباقون فصاحوا: «الملك الناصر يا منصور!». فلما جاء الترك فتحوا باب القلعة ودخلوها، وأخذوا من كان عَصَى فيها، وشَنَقُوا وزير الصالح وابن يَغْمور والخُوارزميّ متقابلين، وشنقوا أيضاً مُجير الدين بن حَمْدان، وكان شاباً حسناً، وكان تعدَّى على بعض المماليك وأخذ خيلَه.

وأمّا الملك الناصر يوسف فإنّه سار حتّى وصل إلى غَزّة وأقام ينتظر اصحابه، فوصل إليه منهم مَنْ سَلِم من عسكر الشام وعسكر المَوْصِل[5] ومضَوْا إلى الشام.

وأمّا العساكر المصريّة فإنّ الملك المُعِزّ أَيْبَك المذكور لمّا دخل إلى مصر بعد هذه الوقعة عظُم أمرُه وثبتتْ قواعدُ مُلْكه ورَسَختْ قدمُه. ثمّ وقع له فصول مع الملك الناصر يوسف المذكور يطول شرحها. محصول ذلك: أنّه لما كانت سنةُ إحدى وخمسين وستمائة وقع الاتّفاق بينه وبين الملك الناصر المذكور على أن يكون للمُعِزّ وخُشْداشِيَّته[6] المماليك الصالحيّة البحريّة الديارُ المصريّة

---

(١) زيادة عن عقد الجمان، وما سيأتي ذكره للمؤلف.

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) راجع ص ٥٤ من الجزء السادس.

(٤) في عقد الجمان: «التي فيها عيال الملك المعز...» وهي أنسب في المقام كما نرى.

(٥) في عقد الجمان: « وابن صاحب الموصل وكان معه».

(٦) الخشداشية: جمع خشداش. من الفارسية «خواجه تاش» أي الشريك في السيّد. وتطلق هذه الكلمة بصيغها المختلفة (خشداش، خوشداش، خجداش) على المملوك ينشأ مع مملوك غيره في خدمة سيد واحد مشترك، فهما مولياه، وهما أخوا ولاء له. ولقد كان الخشداشية يتوارثون. فقد نقل كاترمير عن المنهل الصافي لابن تغري بردي أن «الأجناد يموت الواحد منهم، فيستولي خشداشيته على موجوده». =

وغَـزّة والقُدْس، ومـا بقي بعد ذلـك من البلاد الشـاميّة تكـون للملك الناصـر صلاح الدين يوسف. وأَفْرج الملك المُعِزّ عن الملك المعظَّم توران شاه آبن الملك الناصر صلاح الدين يوسف المذكور وعن أخيه نُصرة الدين وعن الملك الأشرف صاحب حِمْص وغيرِهم من الاعتقال، وتوجّهوا إلى الشام.

ولمّا فرَغ الملك المُعِزّ من ذلك أخذ ينظر في أمره مـع فارس الدِّين أَقْطَاي الجَمَدار، فإنّه كان أمرُه قد زاد في العظمة وآلتفّتْ عليه المماليك البحريّة، وصار أقطاي المذكور يركب بالشاويش[١] وغيرِه من شِعار المُلْك، وحدّثْته نفسه بالمُلْك، وكان أصحابه يسمُّونه «الملك الجَوَاد» فيما بينهم. كلّ ذلك والمُعِزّ سامـع مطيـع، حتّى خطَب أقطاي بنتَ الملك المظفَّر تَقِيّ الدين محمود صاحب حَمَاة، وكان أخوها الملك المنصور هو يومئذ صاحب حَمَاة بعد موت أبيه. وتحدّث أقطاي مـع الملك المُعِزّ أَيْبَك أنّه يريد يُسْكِنُها في قلعة الجبل لكونها من بنات الملوك، ولا يَلِيق سكناها بالبلد، فاستشعر الملك المعزُّ منه بما عَزَم عليه، وأخذ يدبِّر أمره وعَمِل على قتله فلم يقدر على ذلك[٢]. فكاتب الملك المُعِزُّ السلطانَ صلاحَ الدين يوسفَ وآستشاره في الفتك به، فلم يُجِبْه في ذلك بشيء، مـع أنّه كان يُؤْثِرُ ذلك، لكنّه علِم أنّه مقتول على كلّ حال، فترك الجواب. ثم سيَّر فارسُ الدِّين أَقْطَاي الجَمَدار المذكور جماعةً لإحضار بنت صاحب حَمَاة إليه، فخرجتْ من حَمَاة ووصلت إلى دِمَشْق بتَجَمُّل عظيم في عِدّة محفّات مُغَشّاة بالأطلس وغيرِه من فاخر الثياب وعليها الحُلِيّ والجواهر، ثم خرجتْ بمَن معها من دِمَشْق متوَجِّهةً إلى الديار المصريّة.

= واستعمل ابن تغري بردي في المنهل الصافي لفظ «خشداشة» لشجرة الدر. (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ٧٧ ــ ٧٨).

(١) الشاويش أو الجاويش: لفظ تركي يجمع على شاويشية وجاويشية. وكان الجاويشية في نظام دولة المماليك بمصر أربعة جنود من الحلقة وظيفتهم السير أمام السلطان ــ أو النائب ــ في مواكبه، للنداء وتنبيه المارة. والجاويش أيضاً جندي من رتبة بسيطة يكلفه مخدومه بحمل الرسائل وتبليغها. (انظر صبح الأعشى: ٤/٤٧، ٤٨، ٢٣٩ ومسالك الأبصار: ١٠٣).

(٢) وذكر ابن دقماق أن أقطاي كان قد طلب من المعز أن يعطيه القلعة يسكن فيها بزوجته، وأن يسكن المعز في المدينة. وأخذ منه أيضاً الإسكندرية زيادة على إقطاعه. (الجوهر الثمين: ٢/٥٤).

وأمّا الملك المُعِزّ فإنّه لمّا أبطأ عليه جوابُ الملك الناصر صلاح الدين في أمر أَقْطَاي وتحقّق أن بنت صاحب حَمَاة في الطريق بقِي متحيِّراً؛ إن منعه من سُكْنَى القلعة حصلت المباينة الكليّة، وإن سكّنه قَوِيت أسبابُه بها ولا يعود يتمكّن من إخراجه، ويترتّب على ذلك آستقلال الأمير فارس الدين أَقْطاي بالمُلْك، فعَمِل على معاجلته؛ فدخل أَقْطاي عليه على عادته، وقد رتّب له الملك المُعِزُّ جماعةً للفتك به، منهم الأمير سيف الدين قُطُز المُعِزي (أعني الذي تسلطن بعد ذلك)؛ [وبَهادُر وسَنْجَر الغتمي][1] فلمّا دخل أقطاي وثَبُوا عليه وقتلوه في دار السلطنة بقلعة الجبل في سنة آثنتين وخمسين وستمائة؛ فتحرّك لقتله جماعةٌ من خُشْدَاشِيتِهِ البحريّة، ثم سكن الحال ولم ينتطح في ذلك شاتان![2]

ولمّا وقع ذلك آلتفت الملك المُعِزُّ إلى خلع الملك الأشرف مظفَّر الدين موسى الأيُّوبيّ فَخلعه وأنزله من قلعة الجبل إلى حيث كان أوّلاً عند عماته القُطْبِيّات. ورَكِب الملك المُعز بالسناجق السلطانيّة وحَملت الأمراءُ الغاشية بين يديه واستقلّ على المُلْك بمفرده آستقلالاً تامّاً إلى أن قصدت المماليكُ العَزيزيّة القبضَ عليه في سنة ثلاث وخمسين، فشعر بذلك قبل وقوعه فقَبض على بعضهم وهَرَب بعضهم.

ثم وقعت الوحُشة ثانياً بين الملك المُعِزّ هذا وبين الملك الناصر صلاح الدين يوسف، فمشى الشيخ نجم الدين البَادَرائي[3] بينهما حتّى قرّر الصلحَ بين المُعِزّ وبين الناصر، على أن تكون الشام جملةً للملك الناصر، وديار مصر للملك المُعِزّ؛

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) ذكر المقريزي وابن دقماق أن أعيان المماليك البحرية وأجنادهم تحركوا على أثر ذلك لنجدة أقطاي ــ ظناً منهم أنه أسر ولم يقتل ــ فلما وصلوا إلى القلعة لم يشعروا إلا ورأس أقطاي قد رمى بها المعز إليهم؛ فأسقط في أيديهم وتفرقوا. وكان أعيانهم: بيبرس البندقداري، وقلاوون الألفي، وسنقر الأشقر، وبيسري، وسِكِز، وبرامق؛ ثم إن هؤلاء خرجوا في الليل من القاهرة، من باب المدينة المعروف بباب القراطين بعد أن أحرقوه فعرف من ذلك اليوم بالباب المحروق؛ وتفرقوا في بلاد الشام والكرك والقدس. وبعد هروبهم أمر المعز بالحوطة على أموالهم ونسائهم وغلمانهم.

(٣) انظر حوادث سنة ٦٥٥هـ.

وحدُّ ما بينهما بئر القاضي(١)، وهو فيما بين الوَرّادة(٢) والعَريش؛ وآستمرَّ الحالُ على ذلك. ثم إنّ الملك المُعِزّ تزوّج بالملكة شجرة الدُّرّ أمّ خليل في هذه السنة ودخل بها، وكان زواجُه بها سبَباً لقتله على ما تقدّم في ترجمتها، وعلى ما يأتي في هذه الترجمة أيضاً.

ولمّا تزوّجها وأقام معها مدّة أراد أن يتزوّج ببنت الملك الرحيم صاحب الموصل، وكانت شجرة الدرّ شديدة الغَيْرة، فعَمِلت عليه وقتلتْه في الحَمّام، وأعانها على ذلك جماعةٌ من الخُدّام. وقد ذكرنا ذلك كلَّه مفصَّلاً في ترجمة شجرة الدرّ فيما مضى. وكان قتل الملك المُعِزّ في يوم الثلاثاء الثالثِ والعشرين من شهر ربيع الأوّل سنة خمس وخمسين وستّمائة. وكان مَلِكاً شجاعاً كريماً عاقلاً سَيُوساً كثيرَ البَذْل للاموال؛ أطلق في مدّة سلطنته من الأموال والخيول وغير ذلك ما لا يُحصى كثرةً حتّى رضِي الناسُ بسلطانٍ مسَّه الرِّقّ. وأمّا أهل مصر فلم يرضَوْا بذلك إلى أن مات، وهم يُسْمِعونه ما يكره، حتّى في وجهه إذا رَكِب ومَرَّ بالطرقات، ويقولون: لا نريد إلّا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفِطْرة. على أنّ الملك المعزّ كان عفيفاً طاهرَ الذَّيْل بعيداً عن الظلم والعَسْف كثير المداراة لخُشْدَاشِيَته والاحتمال لتجَنّيهم عليه وشرّ أخلاقهم، وكذلك مع الناس. وخلَّف عِدّة أولاد منهم الملك المنصور عليّ الذي تسلطن بعده، وناصر الدين قان.

قال الشيخ قُطْب الدين اليُونينيّ في الذيل على مرآة الزمان: «ورأيتُ له ولداً

---

(١) ذكر ابن فضل الله العمري ــ ونقل عنه القلقشندي ــ هذه البئر كواحدة من محطات البريد بين مصر وغزة. (انظر التعريف بالمصطلح الشريف: ٢٤٦، وصبح الأعشى: ١٤/٤٢٤). وذكر الأستاذ محمد رمزي في تعليقاته أن مكان هذه البئر يقع في الجهة التي تعرف اليوم باسم «عقرة الزول» على بعد عشرة كيلومترات غربي العريش بالقرب من السكة الحديدية من الجهة البحرية.

(٢) الورّادة: مكانها يعرف اليوم باسم «المزار» بقرب محطة المزار الواقعة على بعد ١١٠ كلم. شرقي القنطرة الشرقية في الطريق الحديدي بينها وبين العريش بقسم سينا الشمالي. (محمد رمزي).

آخرَ بالديار المصريّة في سنة تسع وثمانين وستمائة، وهو في زِيّ الفقراء الحَريريّة»[١]. اِنتهى.

وكان للمعزّ بِرّ ومعروف وعمائر، من ذلك: المدرسة المُعِزّيّة[٢] على النيل بمصر القديمة ووقف عليها أوقافاً. ودِهْلِيز المدرسة متَّسِعٌ طويلٌ مُفْرِط؛ قيل: إنّ بعض الأكابر دخل إلى هذه المدرسة المذكورة فرآها صغيرة بالنسبة إلى دِهْليزها، فقال: هذه المدرسة مجاز بلا حقيقة! اِنتهى. وكان مدرّسها القاضي بُرْهان الدين الخَضْر بن الحسن السِّنْجَاريّ إلى أن مات[٣]. وكانت مدّةُ سلطنة الملك المُعِزّ على مصر سبعَ سنين. ومات وقد ناهز السّتّين سنة ـ رحمه الله تعالى ـ.

قلت: وقد تقدّم أنّ الملك المعزّ أَيْبَك هذا أوّل مَنْ ملك الديار المصريّة من الأتراك الذين مَسَّهم الرِّقّ. وقد ذكرنا مبدأ أمره وما وقع له من الحروب وغيرها على سبيل الاختصار. ولنذكر هنا أيضاً من عاصره من ملوك الأقطار ليعلم الناظر في هذه الترجمة بأصل جماعة كبيرةٍ من الملوك الآتي ذكرهم في الحوادث، وأيضاً بحدّ مملكة الملك المُعِزّ يوم ذاك، وحد تحكُّمه من البلاد؛ ومع هذا كان له من المماليك والحَشَم والعساكر أضعاف ما لملوك زماننا هذا مع اتّساع ممالكهم. اِنتهى. ونذكر أيضاً من أمر النار التي كانت بأرض الحجاز في أيّام سلطنته في سنة أربع وخمسين وستمائة، فنقول:

اِستهلت سنة أربع وخمسين المذكورة والخليفةُ المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله العباسيّ ببغداد، وسلطان مصر الملك المُعِزّ أَيْبَك التُّرْكمانِيّ هذا، وسلطان الشام إلى الفرات الملك الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي ما خلا حَماةَ وحِمْص

---

(١) هم أتباع علي بن الحسين بن المنصور الحريري المتوفى سنة ٦٤٥هـ. متصوّف؛ كان شيخ الفقراء الحريرية، وهو حوراني الأصل. (الأعلام: ٤/ ٢٧٩).

(٢) أنشأها الملك المعز سنة ٦٥٤هـ برحبة دار الملك التي تعرف برحبة الخروب (الانتصار: ٤/ ٩٢) وكانت هذه المدرسة واقعة على شاطىء النيل، ومكانها اليوم جامع عابدي بك الشهير بجامع الشيخ رويش المطلّ على النيل في آخر شارع مصر القديمة من الجهة الجنوبية. (محمد رمزي).

(٣) راجع ابن دقماق، فقد ذكر خمسة من مدرسيها على التوالي.

والكَرَك وبلاداً أُخَرَ نذكر ملوكَها فيما يأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ وهم: صاحب حماة الملك المنصور ناصر الدين محمد بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيّوب. وصاحب الكرك والشوبك الملك المُغِيث فتح الدين عمر آبن الملك العادل أبي بكر آبن الملك الكامل محمد آبن الملك العادل أبي بكر بن أيّوب. وصاحب صِهْيَوْن وبُرْزَيْه وبَلاطُنُس الأمير مظفَّر الدين عثمان آبن الأمير ناصر الدين منكورس. وصاحب تَلّ باشِر والرَّحْبَة وتَدْمُر الملك الأشرف مظفَّر الدين موسى ابن إبراهيم بن شِيرِكوه بن محمد بن شِيرِكوه بن شادِي. وصاحب الموصل وأعمالها الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ الأَتابَكِيّ. وصاحب مَيَّافارِقين وديار بكر وتلك الأعمال الملك الكامل ناصر الدين محمد آبن الملك المظفَّر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب. وصاحب ماردين الملك السعيد إيلغازي الأَرْتُقِيّ. وصاحب إِرْبِل وأعمالها الصاحب تاج الدين بن صلايا العَلَوِيّ من جهة الخليفة. والنائب في حصون الإسماعيليّة[١] الثمانية بالشام رضيّ الدين أبو المعالي. وصاحب المدينة الشريفة ـ صلوات الله وسلامه على ساكنها ـ الأمير عِزّ الدين أبو ملك مُنِيف بن شِيحَة بن قاسم الحُسَيْنِيّ. وصاحب اليَمَن الملك المظفَّر شمس الدين يوسف بن عمر.

وأمّا ملوك الشرق فسلطان ما وراء النهر وخُوَارِزْم السلطان ركن[٢] الدين وأخوه

(١) وهي: الكهف، والقدموس، والمينقة، والعليقة، والخوابي، والرصافة، ومصياف، والقليعة. (كذا ذكرها المؤلف في ص ١٨٧ من هذا الجزء). وذكرها ابن فضل الله العمري في التعريف بالمصطلح الشريف: ص ٢٣٦، على أنه ذكر قلعة المرقب بدلاً من القليعة وهو الصواب. وعدَّ القلقشندي في صبح الأعشى ١٨٦/٤ ستَّ قلاع، وأسقط المرقب والرصافة. قال القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١هـ: «سميث بذلك لأنها كانت بيد الإسماعيلية، وهم يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية، وهؤلاء هم المعروفون في ديوان الإنشاء بالقصّاد، وبين العامة بالفداوية. وهذه القلاع عظيمة الشأن رفيعة المقدار. وكانت أولاً مضافة إلى طرابلس، ثم نقلت مصياف منها إلى دمشق. والبقية على ما كانت عليه من إضافتها إلى طرابلس». ويلاحظ أن القلقشندي ذكر أنها سبع قلاع وعدَّ منها ستاً. وذكر العمري في مسالك الأبصار (ص ١٣٨) أنها سبع قلاع على مسافة ما بين حمص وحماة متصلة بالبحر الرومي إلى جانب طرابلس الشام.

(٢) هو ركن الدين قليج أرسلان بن غياث الدين كيخسرو بن علاء الدين كيقباد. قتل سنة ٦٦٣هـ. (معجم زامباور).

عِزّ[١] الدين والبلاد بينهما مُناصفة، وهما في طاعة هولاكو ملك التَّتار.

وأمّا أمر النار التي ظهرت بالحجاز قال قاضي المدينة سِنان[٢] الحسينيّ: «لمّا كان ليلة الأربعاء ثالث جُمَادَى الآخرة سنة أربع وخمسين وستّمائة، ظهر بالمدينة الشريفة دويّ عظيمٌ ثم زَلْزَلَة عظيمة رجَفتْ منها المدينةُ والحيطان والسُّقوف ساعةً بعد ساعة إلى يوم الجمعة خامسَ الشهر المذكور ظهرت نار عظيمة، وقد سالت أوديةٌ منها بالنّار إلى وادي شَظَا[٣] حيث يَسيل الماء، وقد سدّت مسيل شَظَا وما عاد يسيل. ثم قال: والله لقد طَلَعْنا جماعةً نُبْصِرُها فإذا الجبال تسيل نِيراناً، وقد سَدت الحَرَّةَ طريقَ الحاجّ العراقيّ، وسارت إلى أن وصلت إلى الحرة فوقفت بعد ما أشْفَقْنا أن تجيء إلينا؛ ورجعت تسير في الشرق، يخرج من وسطها مهودٌ وجبالُ نِيرانٍ تأكل الحجارة، كما أخبر الله في كتابه العزيز فقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ. كَأَنَّهُ جمالات صُفْرٌ﴾[٤]. قال: وقد كتبتُ هذا الكتاب يوم خامس رجب سنة أربع وخمسين والنار في زيادة ما تغيَّرت؛ وقد عادت إلى الحَرَّة وفي قُرَيْظة طريقِ الحاجّ العراقيّ.

وأمّا أمرُ النار الكبيرة فهي جبالُ نِيرانٍ حُمْر، والأمّ الكبيرة[٥] النارُ التي سالت النيران منها من عند قُرَيْظَةَ وقد زادت، وما عاد الناس يَدْرُون أيّ شيء يتمّ بعد ذلك، والله يجعل العاقبة إلى خير؛ وما أقدر أصِف هذه النار». اِنتهى كلام القاضي في كتابه.

وقال غيره بعد ما ساق من أمر النار المذكورة عجائبَ نحواً ممّا ذكرناه وأعظَم إلى أن قال: «وقد سال من هذه النار وادٍ يكون مقدارُه أربعة فراسخ وعَرْضُه أربعةَ

(١) هو عز الدين كيكاوس بن كيخسرو. (المرجع السابق).
(٢) هو شمس الدين سنان بن عبد الوهاب بن نميلة الحسيني قاضي المدينة، كما في عقد الجمان عن الذيل على الروضتين لأبي شامة.
(٣) وادي شظا تلقاء جبل أحد، كما في السلوك للمقريزي.
(٤) سورة المرسلات، الآية: ٣٢ ـ ٣٣.
(٥) كذا أيضاً في الذيل على الروضتين. وفي عقد الجمان: « والأم الصغيرة» ولعله الصواب.

أميال وعمقُه قامة ونصفاً، وهي تجري على وجه الأرض، وتخرجُ منها أمهادُ وجبال صِغار تسير على الأرض، وهو صخر يذوب حتّى يبقى مثلَ الآنُكِ[1]، فإذا جَمَد صار أسود، وقبل الجمودِ لونُه أحمر؛ وقد حصل بسبب هذه النار إقلاعٌ عن المعاصي والتقُّرب إلى الله تعالى بالطاعات؛ وخرج أميرُ المدينة عن مظالم كثيرة».

ثم قال قُطْب الدين في الذَّيل: «ومن كتاب شمس الدين سِنان بن نُمَيْلة الحُسَينيّ قاضي المدينة إلى بعض أصحابه يصف الزَّلْزَلة إلى أن ذكر قِصّة النار وحَكَى منها شيئاً إلى أن قال: وأشفقْنا منها وخِفْنَا خوفاً عظيماً، وطَلَعْتُ إلى الأمير وكلّمتُه وقلتُ: قد أحاط بنا العذاب، ارجِعْ إلى الله! فأَعتَقَ كلَّ مماليكه، وردّ على جماعةٍ أموالهم، فلما فعل هذا قلت له: اِهبطِ الساعة معنا إلى النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ فهَبَط، وبِتْنَا ليلةَ السبت والناسُ جميعُهم والنسوان وأولادهم، وما بَقِي أحدٌ لا في النخيل ولا في المدينة إلّا عند رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وأشفقْنا منها وظهر ضوءها إلى أن أُبْصرت من مكّة، ومن الفلاة جميعها. ثم سال من ذلك نهرٌ من نار وأخذ في وادي أُحَيْلين وسدّ الطريق ثم طلع إلى بَحْرَة الحاجّ، وهو بحرُ نار يجري وفوقه جَمْرٌ يسير إلى أن قطعت الوادي: وادى الشَّظَا، وما عاد يجري سيلٌ قطُّ لأنّها حفرَتْه نحو قامتين. والمدينة قد تاب جميع أهلها ولا بَقِي يُسْمع فيها رَبَاب ولا دُفُّ. ثمّ ذكر أشياء مهولة من هذا الجنس إلى أن قال: والشمس والقمر من يوم طلعت النار ما يَطْلُعان إلّا كاسِفَيْن! قال: وأقامت هذه النارُ أكثر من شهرين». وفيها يقول بعضهم: [البسيط]

يا كاشفَ الضُّرِّصَفْحاً عن جرائمنا ... لقد أحاطت بنا يا ربِّ بأسَاءُ
نشكو إليك خُطوباً لا نُطِيق لها ... حَمْلاً ونحن بها حَقاً أَحِقَّاءُ
زلازلاً تَخْشَع الصمُّ الصِّلابُ لها ... وكيف يَقْوَى على الزّلْزَال شَمَّاءُ
أقام سبعاً يرجُّ الأرض فانصدعتْ ... عن مَنْظَرٍ منه عينُ الشمس عَشْوَاءُ

(١) الآنك: الرصاص الأسود. (المعجم الوسيط).

والقصيدة طويلة جداً كُلها على هذا المِنْوال. ولولا خشيةُ الإطالة لذكرنا أمرَ هذه النار وما وقع منها، فرأينا أنّ الشرح يطول، والمقصود هنا بقيّة ترجمة السلطان الملك المُعِزّ أَيْبَك.

ولمّا مات المُعِزُّ رثاه سِرَاج الدِّين الوَرّاق[١] بقصيدة أوّلها: [الطويل]

نُقِيُم عليه مَأتَماً بعد مَأتَمٍ ... ونَسْفَحُ دمعاً دون سَفْح المقطَّمِ
ولو أننا نَبْكِي على قدر فَقْدِه ... لَدُمْنا عليه نُتْبِع الدَّمْعَ بالدمِ
وسَل طَرْفي يُنبيك عنّي أنّني ... دعوتُ الكَرَى من بعده بالمحرَّمِ

ومنها في ذكر ولده الملك المنصور عليّ ـ رحمه الله ـ:

بنَى الله بالمنصور ما هدَّم الرَّدَى ... وإنّ بِناء الله غير مُهَدَّمِ
مليكُ الوَرَى بُشْرَى لمُضْمِر طاعةٍ ... وبُؤسَى لطاغٍ في زمانك مُجْرِمِ
فما للذي قدَّمتَ من متأخِّرٍ ... ولا للذي أخّرتَ من متقدِّمِ

وأَيْبَك صوابه كما هو مكتوب، وهو لفظ تركيّ مركَّب من كلمتين. فأَيْ هو القمر، وبَك أمير، فمعنى الاسم باللغة العربية أمير قمر، ولا عِبْرةَ بالتقديم والتأخير في اللفظ، وأَيْبَك (بفتح الهمزة وسكون الياء المثناة من تحت وتفخيمهما معاً) وبَكْ معروف لا حاجة إلى التعريف به[٢]. اِنتهى.

* * *

(١) هو عمر بن محمد بن حسن، أبو حفص، سراج الدين الورّاق. شاعر مصر في عصره. توفي بالقاهرة سنة ٦٩٥هـ. (الأعلام: ٥/٦٣).
(٢) راجع ص٣، حاشية (١).

السنة التي حكم في محرَّمها الملكُ المعظَّم تُوران شاه آبن الملك الصالح نجم الدين، ثم في صفر والربيعَين منها الملكة شجرة الدُّرّ أمُّ خَليل الصالحيّة، ثمّ في باقيها الملك المعِزّ أَيْبَك صاحب الترجمة، ومعه الملك الأشرف مظفَّر الدين موسى، والعُمْدة في ذلك على المعِزّ هذا.

وهي سنة ثمانٍ وأربعين وستّمائة.

فيها كانت كَسْرةُ الفِرنج على دِمْياط وقُبِض على الفرنسيس كما تقدّم.

وفيها قُتِل الملك المعظَّم تُوران شاه، وقد مرّ أيضاً.

وفيها كانت الوقعة بين الملك الناصر صلاح الدين يوسف وبين الملك المُعِزّ هذا. وفيها حَجّ طائفةٌ من العراق[1]، ولم يَحُجّ أحد من الشام ولا مصر في هذه السنة.

وفيها ثارت الجُنْد ببغداد لقطع أرزاقهم. وكلّ ذلك كان من عمل الوزير آبن العَلْقَمِيّ[2] الرافِضيّ، فإنّه كان حريصاً على زوال دولة بني العبّاس ونقلها إلى العَلَوِيين، وكان يُرْسِل إلى التتار في السّر والخليفة المستعصم لا يطّلع على باطن الأمور.

وفيها لمّا فرغوا من حرب دِمْياط وتفرّق أهلها نقلوا أخشاب بيوتهم وأبوابهم منها وتركوها خاويةً على عروشها، ثم بُنِيت بعد ذلك بُلَيدةٌ بالقرب منها تسمّى المنشيّة. وكان سور دِمْياط من أحسن الأسوار.

وفيها تُوُفِّيت أرغوان الحافظيّة عتيقةُ الملك العادل أبي بكر بن أيّوب، سمّيت

---

(١) ذكر ابن الفوطي في الحوادث الجامعة أنه «لم يحج في هذه السنة أحد من العراق، بل حج جماعة من بغداد على طريق البصرة؛ فلما عادوا أخبروا أن أبا سعيد أمير مكة أغلق بابها ومنع الناس من الخروج، وأنه أخذ من كل إنسان ديناراً عن نفسه وديناراً عن حمله، وأنه رتّب بالحرم الشريف إماماً للزيدية يقول حيّ على خير العمل تقرباً بذلك إلى صاحب اليمن».

(٢) سيأتي الكلام على موقفه من اجتياح هلاكو لبغداد سنة ٦٥٦هـ في ترجمة المنصور علي بن المعز أيبك.

الحافظيّة لأنّها رَبَّت الملك الحافظ صاحب جَعْبَر، وكانت آمرأةً عاقلةً صالحةً؛ وكانت مدّةَ حبس الملك المُغِيث ابن الملك الصالح نجم الدين أيّوب بدمشق تُهيِّىء له الأطعِمة والأشربة وتبعث له الثياب، فحَقَد عليها الملك الصالح إسماعيل فصادرها وأخذ منها أموالاً عظيمةً، يقال: إنّه أخذ منها أربعمائة صندوق. ولها تربة ومسجد ووقفتْ عليهما أوقافاً.

وفيها قُتِل الأمير شمس الدين لؤلؤ بن عبد الله مقدَّم عسكر حَلَب؛ وهو الذي قتلتْه المماليكُ الصالحيّة في الوقعة التي كانت بين الناصر والمُعِزّ صاحب الترجمة. وكان أميراً شجاعاً مِقداماً زاهداً مدبِّراً عظيم الشأن؛ وكان فيه قوّة وبأس، غير أنّه كان مستخفاً بالمماليك، ويقول: كلُّ عشرة من المماليك في مقابلة كُرْديّ، ولا زال يُمْعِن في ذلك حتى كانت منيته بأيدي المماليك الصالحيّة كما تقدّم ذكره.

وفيها تُوُفِّي أبو الحسن[1] المُتَطَبِّب وزير الملك الصالح إسماعيل؛ وهو الذي كان السببَ لزوال مُلْك مخدومه، فإنّه كان سيىء السِّيرة كثير الظلم قليلَ الخير، وكان يتستّر بالإسلام، وكان يُرْمَى في دينه بعظائم؛ وقيل: إنّه كان أوّلاً سامرياً فلم يحسُن إسلامه؛ وظهر له بعد موته من الأموال والجواهر والتُّحَف والذخائر ما لا يوجد في خزائن الخلفاء، وأقاموا ينقُلُونه مدّة سنين. وقيمة ما ظهر له غير ما ذهب عند الناس ثلاثة آلاف ألف دينار؛ ووُجِد له عشرة آلاف مجلّد من الكتب النفيسة والخطوط المنسوبة. قال الشيخ إسماعيل الكُورَانِيّ يوماً وقد زاره الوزير المذكور: لو بَقِيتَ على دِينك كان أصلح لأنّك تتمسّك بدِين في الجملة؛ وأمّا الآن فأنت مُذَبْذَب لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء!.

(١) هو أمين الدولة بن غزال بن أبي سعيد، أبو الحسن الطبيب. كان سامرياً وأسلم في دمشق، واستوزره بها الملك الأمجد بهرام شاه، فلم يزل عنده إلى أن توفي الأمجد سنة ٦٢٨هـ فاستوزره الملك الصالح إسماعيل، فأقام إلى أن ملك دمشق نجم الدين أيوب سنة ٦٤٣هـ ونقل الصالح إسماعيل إلى بعلبك والياً عليها، فأراد أمين الدولة اللحاق به فاعتقله نائب السلطنة بدمشق وأرسل إلى مصر فسجن في قلعة القاهرة خمس سنوات ثم أعدم شنقاً. (الأعلام: ٢/١٧).

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفِّي الإمام أبو محمد إبراهيم بن محمود بن سالم بن الخيِّر في شهر ربيع الآخر، وله خمس وثمانون سنة. والحافظ شمس الدين يوسف بن خليل الدِّمَشقيّ الأدَمِيّ بحلب في جُمَادَى الآخرة، وله ثلاث وتسعون سنة. والقاضي أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد العزيز بن الحَبّاب التَّميميّ السَّعْدِيّ، وله سبع وثمانون سنة في شهر رمضان. والمحدِّث أبو محمد عبد الوهاب بن رَوَاح، وآسمه ظافر بن عليّ بن فتوح القُرَشِيّ المالكيّ. وله أربع وتسعون سنة. وأبو المنصور مظفَّر بن عبد الملك بن الفُوِّيّ المالكيّ. ونائب الملك الناصر الأمير شمس الدين لؤلؤ قُتِل في جماعة في الوقعة الكائنة بين المصريّين والشاميّين.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وأربع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وإصبعان.

* * *

السنة الثانية من ولاية السلطان الملك المعِزّ أَيْبَك الصالحيّ النَّجْمِيّ التُّرْكمانِيّ على مصر

وهي سنة تسع وأربعين وستمائة.

فيها عاد الملك الناصر صلاح الدين يوسف من غَزّة إلى دِمَشق، وأرسل المُعِزُّ عسكَر مصر فنزل إلى غزّة والساحل، ثم عادوا إلى القاهرة.

وفيها أيضاً أخذ الملك المُغِيث آبن الملك العادل آبن الملك الكامل الكَرَك والشُّوبَك، أعطاه إيّاهما الخادم[١]. ولمّا سمِع الملك المعزّ بذلك جهّز الأمير فارس الدين أقْطاي الجَمْدَار في ألف فارس إلى غَزّة.

وفيها نقلوا تابوتَ الملك الصالح نجم الدين أيّوب إلى تربته بالقاهرة ببين

---

(١) هو بدر الدين الصوابي الصالحي، نائب الملك الصالح نجم الدين. راجع حوادث سنة ٦٣٨هـ.

القصرين، ولبِس الأمراء ثيابَ العَزَاء وناحوا عليه ببين القصرين، وتصدّقت جاريته شجرة الدّر في ذلك اليوم بمالٍ عظيم.

وفيها أخرب التركُ دِمْياط وحَمَلوا آلاتها إلى مصر وأخربوا الجزيرة (أعني الروضة) وأخلَوْها.

وفيها كثُر الظلم بالديار المصريّة وعظُم الجَوْر والمصادرات لكلّ أحد حتى أخذوا مال الأوقاف ومال الأيتام على نيّة القَرْض، ومن أرباب الصنائع كالأطباء والشهود[١].

وفيها تُوُفِّي الفقيه بهاء الدين عليّ بن هِبَة الله بن سَلَامة الجُمَّيْزِيّ؛ كان إماماً فاضلاً عارفاً بمذهب الشافعيّ ديِّناً، وكان يخالط الملوك. ولمّا حجّ قَبِل هديّة صاحب اليمن فأعرض عنه الملك الصالح نجم الدين أيّوب لذلك. وكانت وفاته في ذي الحجة بمصر، ودُفِن بالقرافة.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفي الإمام عبد الظاهر[٢] بن نَشْوان السَّعْديّ المقرىء النحويّ الضرير في جُمادى الأولى. وأبو نصر عبد العزيز بن يحيى بن الزبيديّ، وله تسع وثمانون سنة. والإمام أبو المظَّفر محمد بن مُقْبِل بن فِتْيان النَّهْرَوَانِيّ بن المنِّيّ في جُمادى الآخرة. وأبو نصر الأعزُّ بن فَضائل ببغداد في رجب. والأمير الصاحب جمال الدين يحيى بن عيسى المصري بن مطروح الأديب. وأبو القاسم عيسى بن أبي الحرم مَكّيّ بن

(١) كذا (؟). وفي حاشية طبعة دار الكتب المصرية عن نزهة الأنام «وفيها أحدث بمصر ظلامات كثيرة على الرعية وذلك بإشارة الأسعد الفائزي». وجاء هذا الخبر في السلوك مفصلاً في حوادث سنة ٦٥٠هـ على النحو التالي: «.. وفيها شرع المعز في تحصيل الأموال، فأحدث الوزير الأسعد شرف الدين هبة الله بن صاعد بن وهيب الفائزي حوادث، وقرر على التجار وعلى أصحاب العقار أموالاً، ورتب مكوساً وضمانات سماها الحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية، وأخذ الجوالي من أهل الذمة مضاعفة، وأحدث التصقيع والتقويم (أي إحصاء البيوت والعقارات وتقدير قيمة كل منها لأجل فرض الضريبة عليها) وعدة أنواع من المظالم».

(٢) هو والد المؤرخ والكاتب البليغ محيي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢هـ وصاحب كتاب تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون، وكتاب الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر بيبرس.

حسين العامريّ المصريّ المقرىء في شوّال. والإمام أبو محمد عبد الخالق بن الأنجب بن المعمَّر النَّشْتَبَرِيّ[١] بمارِدِين في ذي الحجة، وله تسعون سنة وأُسبوعان. والفقيه عُبيد الله بن عاصم خطيب رُنْدَة[٢]، وله سبع وثمانون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرةَ ذراعاً وثماني عشرةَ إصبعاً.

* * *

السنة الثالثة من ولاية الملك المعزّ أَيْبَك التُّرْكُمَانِيّ على مصر

وهي سنة خمسين وستّمائة.

فيها وصلت التَتار إلى الجزيرة ونهبوا ديار بكر ومَيَّافارِقين، وجاؤوا إلى رأس عَيْن وسَرُوج وغيرها، وقتلوا زيادةً على عشرة آلاف إنسان، وصادفوا قافلةً خرجت من حَرَّان تقصد بغداد، فأخذوا منها أموالاً عظيمة: منها ستّمائة حِمْل سكّر مصريّ وستّمائة ألف دينار، قاله أبو المظّفر في مرآة الزمان، قال: وقتلوا الشيوخ والعجائز وساقوا من النساء والصِّبْيان ما أرادوا، ثم رجعوا إلى خِلَاط. وقطع أهلُ الشرق الفُراتَ وخاض الناسُ في القَتْلَى من دُنَيْسِر إلى الفرات. قال بعض التّجار: عددتُ على جِسر بين حَرّان ورأس عين في مكان واحد ثلاثمائة وثمانين قتيلاً من المسلمين؛ ثم قُتِل ملك التّتار كشلوخان[٣].

---

(١) نسبة إلى نشتَبْرَى من نواحي بغداد. (معجم البلدان) وفي الأصل: «التستري» وهو تحريف.

(٢) رُنْدَة: في التقسيم الإداري الأندلسي كانت رندة مدينة تابعة لإقليم «تاكرنا» في كورة «استجة». واسمها معرب Arunda وهو اسمها أيام الرومان والقوط. وهي قائمة على حافة خانق في جبل يسميه صاحب الروض المعطار «طلوبره» وهو المعروف بجبال رندة Serranfa de Ronda. (الحلّة السيراء: ٢/ ٢٤١، حاشية: ٣).

(٣) ليس بين ملوك التتار من اسمه كشلوخان. والمعروف أن كشلوخان كان واحداً من مقدمي الخوارزمية، ولى وجهه منهزماً نحو التتار وخدم معهم بعد انهزام الخوارزمية في مطلع سنة ٦٤٤هـ في المصاف على عيون القصب على منزلة بريد من حمص. (راجع الجزء السادس، ص ٣٢٥) وجاء في الأعلاق

وفيها حُجّ بالناس من بغداد بعد أن كان بطَل الحج منذ عشر سنين من سنة مات الخليفة المستنصر.

وفيها قدِم الشيخ نجم الدين البَادَرَانِيّ رسولاً من الخليفة وأصلح بين المُعِزّ أيبك صاحب الترجمة وبين الناصر يوسف، وقد تقدّم ذلك، وكان كلّ واحد من الطائفتين قد سَئِم وضرس من الحرب، وسكنت الفتنةُ بين الملوك وآستراح الناس.

وفيها تُوفِّي العلاّمة رضِيّ الدين أبو الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن بن حَيْدَر بن عليّ القُرَشيّ العَدَويّ العُمَرِيّ الصاغانِيّ[1] الأصل الهِنْديّ اللاهورِيّ[2] المولد البَغْداديّ الوفاة المحدِّث الفقيه الحنفيّ اللغويّ الإمام صاحب التصانيف؛ وُلِد بمُنْيَة لاهُور في عاشر صفر سنة سبع وسبعين وخمسمائة ونشأ بغَزْنة، ودخل بغدادَ فسمع الكثير في عِدّة بلادٍ ورحَل. وكان إليه المنتهَى في علم العربية واللغة، وصنّف كتاب «مجمع البحرين» في اللغة، آثنا عشر مجلّداً، وكتاب «العُبَاب الزاخر» في اللّغة أيضاً عشرون مجلداً، وأشياء[3] غير ذلك. قال الحافظ الدِّمْياطي[4]: وكان شيخاً صَدُوقاً صالحاً صَمُوتاً عن فضول الكلام إماماً في اللغة والفقه والحديث؛ قرأتُ عليه يوم الأربعاء وتُوفِّي ليلة الجمعة تاسع عشر شعبان،

= الخطيرة: ٩٨/٣ في الكلام على الرها أنها «ما زالت في أيدي الخوارزمية، وكانت في يد كشلوخان الخوارزمي إلى أن كسرهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف سنة ٦٣٨هـ».
وفي السلوك للمقريزي أن هذه الغزوة التترية على ديار بكر وميافارقين ورأس عين وسروج كانت بقيادة هولاكو شقيق خاقان المغول في ذلك الوقت منكوخان.

(١) الصاغاني: نسبة إلى قرية بمرو يقال لها: جاغان، فعربت وقيل: صاغان. (عقد الجمان).

(٢) نسبة إلى «لاهور» بالهند.

(٣) عن بقية مؤلفاته انظر عقد الجمان (وفيات سنة ٦٥٠هـ) وهدية العارفين لإسماعيل باشا البغدادي: ٢٨١/١.

(٤) هو عبد المؤمن بن خلف الدمياطي، أبو محمد، شرف الدين. حافظ للحديث، من أكابر الشافعية. توفي سنة ٧٠٥هـ. من كتبه «معجم» ضمنه أسماء شيوخه وتراجمهم. ولعل أبا المحاسن ينقل عنه هنا. (انظر الأعلام: ١٦٩/٤).

وحضرتُ دفَنه بداره بالحريم الطاهريّ ببغداد. ثم ترجمه الدمْياطي ترجمة طويلة وأثنى على علمه وفضله ودينه.

وفيها تُوفّي الشيخ شمس الدين محمد بن سعد [بن عبد الله بن سعد بن مُفْلِح بن هبة الله][1] الكاتب المَقْدِسِيّ نشأ بقاسيُون على الخير والصلاح وقرأ النحوَ والعربيّة وسمع الحديث الكثير، وبَرَع في الأدب. وكان ديِّناً حسنَ الخط وكتب للملك الصالح إسماعيل وللملك الناصر داود. ومن شعره: [الوافر]

لنا بقدوم طلعتك الهنَاءُ ولـلأعداء وَيْحَهمُ الفَنَاءُ
قَدِمتَ فكنتَ شِبْهَ الغيث وافَى بلاداً قد أُحِلّ بها الظَّماءُ

قلت: ويعجبني في هذا المعنى قول القائل ولم أَدرِ لَمْن هو: [الطويل]

قدومُك أشهى من زُلالٍ على ظما وأحسن من نيل المُنَى في المآربِ
حكى الغيثَ وافى الأرضَ من بعد جَدْبها وأَطْلع فيها النبتَ من كلّ جانبِ

وفيها تُوفّي الأمير الصاحب[2] جمال الدين أبو الحسين يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن الحسين بن عليّ بن حمزة بن إبراهيم بن الحسين بن مطروح. كان أصله من صعيد مصر، ووَلِد به ونشأ هناك، ثم قدِم القاهرةَ وآشتغل وبَرَع في الأدب والكتابة وآتّصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيّوب. قال أبو المظَفَّر: كان فاضلاً كيِّساً شاعراً. ومن شعره لمّا فتح الناصرُ داود بُرْجَ داود بالقُدس، قال: [السريع]

المسجد الأقص له عادةٌ سارت وصارت مثلاً سائرا
إذا غدا للكفر مستَوْطَناً أن يبعث الله له ناصرا
فناصرٌ طهّره أوّلاً وناصر طهّره آخرا

قال: وتوفي في شعبان ودفن بسارية[3] بالقرافة وكانت له أخبار عظيمة؛ وكان

(١) زيادة عن شذرات الذهب.

(٢) تقدمت وفاته في السنة الماضية، نقلاً عن الذهبي.

(٣) في ابن خلكان والمنهل الصافي وعقد الجمان: «ودفن بسفح المقطم».

قد دخل بين الخُوَارَزْمِيّة والصالح أيّوب، وآستنابه أيّوب بالشام ولبِس ثياب الجند وما كانت تليق به. ثمّ غضب عليه الصالح وأعرض عنه إلى أن مات، فأقام خاملاً إلى أن مات. وقد كان جَوَاداً ذا مُروءة متعصباً سمحاً حليماً حسن الظَّنّ بالفقراء عارفاً فاضلاً. اِنتهى كلام أبي المظفَّر. قلت: وديوان شعره مشهور. ومن شعره القصيدة المشهورة: [الكامل]

هي رامةٌ فخُذُوا يمين الوادِي ... وذَرُوا السيوف تَقَرّ في الأغمادِ

وحَذارِ من لحَظَات أعينِ عِينِها ... فلكم صَرَعْنَ بها من الآسادِ

مَن كان منكم واثقاً بفؤادِه ... فهناك ما أنا واثق بفؤادي

يا صاحِبَيَّ ولي بجرعاءِ الحِمى ... قلبٌ أسيرٌ ما له من فادِي

سلبتْه مني يوم بانوا مُقلةٌ ... مكحولةٌ أجفانها بسواد

وبحَي من أنا في هواه ميّتٌ ... عَيْنٌ على العُشّاق بالمِرْصادِ

وأغن مِسْكِيٍّ اللَّمَى معسوله ... لولا الرقيب بلغتُ منه مرادي

كيف السبيلُ إلى وصال محجَّبٍ ... ما بين بِيضٍ ظُباً وسُمْرٍ صِعادِ

في بيت شَعْر نازلٍ من شعره ... فالحسن منه عاكفٌ في بادي

حرسوا مُهفْهفَ قَدِّه بمثقَّفٍ ... فتشابه المَيّاسُ بالمَيّادِ

قالت لنا أَلِفُ العذار بخدّه ... في ميم مَبْسِمه شفاءُ الصادي

وهي أطول من ذلك آختصرتُها خوفَ الإطالة. ويعجبني قصيدة الجَزّار[1] في مدح آبن مطروح هذا. أذكر غزَلها: [الرمل]

هو ذا الرَّبْعُ ولي نفسٌ مَشُوقَهْ ... فاحبِس الركبَ عسى[2] أَقْضِي حقوقَهْ

فقبيحٌ بيَ في شَرْع الهَوَى ... بعد ذاك البرّ أن أَرْضى[3] عُقُوقَهْ

لستُ أنْسى فيه ليلاتٍ مضتْ ... مَعَ مَنْ أَهْوَى وساعاتٍ أنيقه

---

(١) هو يحيى بن عبد العظيم، أبو الحسين الجزار، جمال الدين، المتوفى سنة ٦٧٩هـ. شاعر مصري ظريف. كان جزاراً بالفسطاط، وأقبل على الأدب، وأوصله شعره إلى السلاطين والملوك. (الأعلام: ٨/١٥٣).

(٢) في الأصل: «حتى أقضي» وهي غير مستقيمة. وما أثبتناه عن ابن خلكان.

(٣) في الأصل: «أن أقضي». والتصحيح عن ابن خلكان.

ولئن أَضْحَى مَجازاً بعدهم فغرامي فيه ما زال حقيقه
يا صديقي والكريمُ الحُرُّ في مثل هذا الوقت لا يَنْسَى صديقَهْ
ضع يداً منك على قلبي عسى أن تهدّي بين جَنْبيّ خُفُوقَهْ
فاض دمعي مُذْ رأى ربعَ الهوى ولكم فاض وقد شامَ بُرُوقَهْ
نَفِد اللؤلؤ من أدمعه فغدا ينثُر في التُّرْبِ عَقِيقَهْ
قف [معي](1) وآستوقف الركبَ فإنْ لم يقِفْ فاتْرُكْهُ يمضي وطريقَهْ(2)
فهي أرض قلّما يلحقها آمِلُ والرُّكْبُ لم أَعْدَم لُحوقَهْ
طالما آستجْلَيت في أرجائها من يَتِيه البدرُ إذْ يُدْعَى شقيقَهْ
يفضَح الوردَ آحمراراً خدُّه وتَوَدُّ الخمرُ لو تُشْبِه ريقَهْ
فبه الحسنُ خَلِيقٌ لم يزل والمعالي بابن مطروحٍ خليقه

وله بيتان ضمَّنهما بيتَ المتنبي الذي هو أوّل قصيدته، وهو: [الطويل]

تذكّرتُ ما بين العُذَيْب وبارِقٍ مَجَرَّ عوالينا ومَجْرَى السوابِق

فقال آبن مطروح مضمِّناً: [الطويل]

إذا ما سقاني ريقَه وهو باسمٌ تذكّرت ما بين العُذَيْبِ وبارِقِ
ويُذْكِرُني من قَدِّه ومدامعي مَجَرَّ عوالينا ومَجْرَى السوابِقِ

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي أبو البركات هبة الله بن محمد بن الحُسَين المعروف بآبن الواعظ المَقْدِسِيّ ثم الإسكندرانيّ عن إحدى وثمانين سنة. وأبو القاسم يحيى بن أبي السعود [نصر](3) بن قُمَيْرة(4) التاجر في جمادى الأولى، وله خمس وثمانون سنة. والعلامة أبو الفضائل الحسن بن

(١) زيادة عن ابن خلكان.
(٢) في الأصل: «يمضي في طريقه». والتصحيح عن ابن خلكان.
(٣) زيادة عن الشذرات والسلوك.
(٤) في الأصل: «ابن نهيرة». والتصحيح عن الشذرات والسلوك.

محمد بن الحسن العَدَوِي العُمَريّ الصَّغَانِيّ النحويّ اللغويّ. والأديب شمس الدين محمد بن سعد بن عبد الله المَقْدِسيّ الكاتب في شوّال. والمسنِد رشيد الدين أحمد بن المُفَرِّج[1] بن عليّ [بن عبد العزيز][2] بن مَسْلَمة العَدْل في ذي القعدة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وسبع أصابع. مبلغ الزيادة ثمانيَ عشرةَ ذراعاً وسبع عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الرابعة من ولاية الملك المعِزّ أَيْبَك الصالحِيّ النَّجْميّ التُّرْكُمانِيّ على مصر

وهي سنة إحدى وخمسين وستمائة.

فيها كانت الوقفة الجمعة.

وفيها عظُم بمصر أمرُ الأمير فارس الدين أَقْطاي الجَمَدار ورُشِّح للسلطنة، وكان من حزبه من خُشْدَاشيَتِه بيبَرْس البُنْدُقْدَارِيّ، وبَلَبان الرَّشِيديّ، وسُنْقُر الرُّوميّ، وسُنْقُر الأشقر. وصار الملك المُعِزُّ في خوف. وقد تقدّم ذكر هذه الحكاية في ترجمة المُعِزّ.

وفيها كان الغلاء بمكّة المشرَّفة، وأبيع فيها الشَّرْبَةُ الماء بدرهم، والشاة بأربعين درهماً.

وفيها تُوُفِّي الشيخ الإمام سعد الدين محمد بن المؤيد بن حَمّويه آبن عمّ شيخ الشيوخ صَدْر الدين[3]. مات بخُرَاسان؛ وكان زاهداً عابداً ديِّناً متكلِّماً في

(١) كذا في الشذرات والذهبي. وفي الأصل: «ابن الفرج».

(٢) زيادة عن الذهبي.

(٣) تقدمت وفاته سنة ٦١٧هـ.

الحقيقة، وله مجاهدَات ورياضات، وقدِم[١] الشام وحَـجّ وسكن بدِمَشْق، ثمّ عاد إلى الشرق بعد أن آفتقر بالشام، وآجتمـع بملك التّتار فأحسن به الظنّ وأعطاه مالاً كثيراً، وأسلم على يده خلقٌ كثير من التّتار، وبنى هناك خانقاه وتُرْبة إلى جانبها، وأقام يتعبَّد، وكان له قبول عظيم هناك ـ رحمه الله تعالى ـ.

الذين ذكر الذهبـيُّ وفاتَهم في هذه السنة، قال: وفيها تُـوفّي أبو البَقَـاء صالـح بن شُجَاع بن محمد بن سيّدهم المُـدْلِجِيّ الخَيّاط في المحـرَّم. وسِبْط السِّلَفِيّ[٢] أبو القاسم عبد الرحمن بن أبـي الحَرَم مَكِّيّ بن عبد الرحمن الطّرابُلسِيّ الإسكندرانيّ في شوّال عن إحدى وثمانين سنة. وأبو محمد عبد القادر بن حسين البندنيجـي البَوّاب آخر من رَوَى عن عبد الحق اليُوسُفِيّ.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وثماني أصابـع. مبلـغ الزيادة سبـع عشرة ذراعاً وسبـع عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الخامسة من ولاية الملك المعِزّ أيْبك الصالحِيّ النَّجْمِيّ التُّرْكُمانِيّ على مصر

وهي سنة آثنتين وخمسين وستمائة.

فيها وصلت الأخبار من مكّة بأنّ ناراً ظهرت في أرض عَدَن في بعض جبالها، بحيث يطير شررُها إلى البحرِ في الليل، ويصعَدُ منها دُخَان عظيمٌ في النهار، فما شكّوا أنّها النار التي ذكر النبـيُّ صلّى الله عليه وسلّم أنّها تظهر في آخر الزمان[٣].

(١) في عقد الجمان: «وقدم مصر، وحجّ، وسكن الشام، فأقام بقاسيون مدة في زاوية يتعبّد».

(٢) تقدمت وفاة السلفي في حوادث سنة ٥٧٦هـ.

(٣) في الحديث: « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى».

فتاب الناس وأقلعوا عمّا كانوا عليه من المظالم والفساد، وشرعوا في أفعال الخير والصدقات.

قلت: وقد تقدّم[١] ذكر هذه النار بأوسعَ من هذا في ترجمة الملك المعزّ هذا.

وفيها وصلت الأخبار من الغرب بآستيلاء إنسان على إفريقيّة وآدّعى أنّه خليفة، وتلقَّب بالمستنصِر[٢]، وخُطِب له في تلك النواحي، وأظهر العدلَ وبنى بُرْجاً وأجلس الوزير والقاضي والمحتسبَ بين يديه يحكمون بين الناس، وأحبّتْه الرعيّة وتَمّ أمرُه.

وفيها تُوفّي الإمام عبد الحميد بن عيسى الخُسْرُوشَاهِيّ[٣]. كان إماماً فاضلاً في فنون؛ وصحب الفخر الرازيّ خَطيب الرَّيّ، وأقام عند الملك الناصر داود سنينَ كثيرةً بدمشق والكَرَك، وكان متواضعاً كبير القدر كثير الإحسان. مات بدمشق ودفن بقاسِيون في تربة المعظَّم عيسى.

وفيها تُوفّي الشيخ الإمام العلاّمة مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن عبد الله بن تَيْمِيَّة الحَرّانيّ الحَنْبَليّ جَدّ الشيخ تَقِيّ الدين ابن تيميَّة. وُلد في حدود سنة تسعين[٤] وخمسمائة وتفقّه في صغره على عمّه الخَطيب فَخْر الدين؛ وسمع الكثير ورحل البلادَ وبرَع في الحديث والفقه وغيره، ودرّس وأفتى وآنتفع به الطلبة، ومات يوم الفطر بحَرّان.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتَهم في هذه السنة، قال: وفيها توفّي السديد أبو محمد

(١) النار التي تقدم ذكرها في ترجمة المعز أيبك ظهرت بالمدينة سنة ٦٥٤هـ.

(٢) هو المستنصر الأول، محمد بن يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاني، أبو عبد الله. من ملوك الدولة الحفصية بتونس. بويع له فيها بعد وفاة أبيه سنة ٦٤٧هـ. وأتته بيعة أهل مكة سنة ٦٥٧هـ. وهو أول من ضرب نقود النحاس بإفريقية. توفي سنة ٦٧٥هـ. (الأعلام: ١٣٨/٧).

(٣) نسبة إلى خسروشاه، من قرى تبريز.

(٤) في الأصل: «سبعين وخمسمائة». وما أثبتناه عن الشذرات.

مَكِّي بن المسلم بن عَلَّان القَيْسي في صفر، وله تسع وثمانون سنة. والرشيد إسماعيل بن أحمد بن الحسين العِراقيّ الحنبليّ عن نيّف وثمانين سنة في جُمَادى الأولى. والمفتي كمال الدين أبو سالم محمد بن طلحة النَّصِيبِيّ بحلب عن سبعين سنة. وأبو البقاء محمد بن علي بن بقاء [بن](١) السبّاك. والعلّامة مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تَيْمِيّة بحَرّان يوم الفطر عن آثنتين وستين سنة. وأبو الغَيْث فرج [بن عبد الله](٢) الحَبَشِيّ فتى أبي جعفر(٣) القُرْطُبي في شوّال. والإمام شمس الدين عبد الحميد بن عيسى الخُسْرُوشَاهِيّ بدِمَشْق. وأبو العزائم عيسى بن سَلَامة بن سالم الخَيّاط بحَرّان في أواخر السنة، وله مائة وسنة. والفارس أَقْطَاي مقدّم البحريّة، قتله المُعِزّ بمصر.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وسِتُّ أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وآثنتا عشرة إصبعاً.

* * *

السنة السادسة من ولاية الملك المعِزّ أَيْبَك الصالحيّ النَّجْمِيّ التُّرْكُمانّي على مصر.

وهي سنة ثلاث وخمسين وستمائة.

فيها عزمت المماليك العَزِيزّية على القبض على الملك المُعِزّ وكاتبوا الملك الناصر فلم يوافقهم أَيْدُغْدِيّ العَزيزيّ، وآستشعر الملك المعزّ منهم بذلك وعلم الخبر، وعلموا هم أيضاً فهربوا على حَمِيّة، وكبيرهم آقوش البرنلي، ولم يهرب أَيْدُغْدِيّ وأقام بمخيّمه، فجاء الملك المُعِزّ راكباً إلى قرب خَيْمته فخرج إليه أيدغدي فأمر المعزُّ بحمله، وقبض أيضاً على الأمير الأَتَابَكي ونُهِبت خيامُ العَزيزيّة وكانوا

(١) زيادة عن الشذرات.

(٢) زيادة عن الشذرات وعقد الجمان والبداية والنهاية.

(٣) ذكره المؤلف في حوادث سنة ٥٩٦هـ.

بالعَبّاسة. والأعيان الذين هربوا هم بَلَبان الرَّشِيديّ، وعزّ الدين أَزْدَمُر، وبِيبَرْس البُنْدُقْدَارِيّ، وسُنْقُر الأَشْقَر، وسيف الدين قَلاوون الأَلْفِي، وبَدْر الدين بَيْسَرِي، وسُنْقُر الرُّومي، وبَلَبان المُسْتنصريّ.

وفيها عاد الملك الناصر داود من الأنبار إلى دِمَشْق بعد أن حبسه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بقلعة حِمْص ثلاثَ سنين وبعث به إلى بغداد، ثم عاد إلى دمشق وأقام بها، ثم عاد في سنة ثلاثَ وخمسين إلى العراق، وحجّ وأقام بالحِلّة، وكان قد جَرى بين الحجّ العِراقيّ وأصحاب أمير مَكّة فتنةٌ، فأصلح بينهم.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي المفتي ضياء الدين صَقْر بن يحيى بن سالم الحَلَبِيّ في صَفَر عن نيّف وتسعين سنة. والمحدّث شهاب الدين أبو العَرَب إسماعيل بن حامد الأنصاري القُوصيّ في شهر ربيع الأول عن ثمانين سنة. والنور محمد بن أبي بكر بن خَلَف البَلْخِيّ ثم الدِّمَشْقِيّ في شهر ربيع الآخر، وقد رأى السِّلَفِيّ.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وآثنتا عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً سواء.

* * *

السنة السابعة من ولاية الملك المعزّ أَيْبك الصالحيّ النَّجْمِيّ التُّرْكُمانِيّ على مصر

وهي سنة أربع وخمسين وستمائة.

فيها فتح الملك الناصر صلاح الدين يوسف مدرستَه[١] التي أنشأها بدمشق بباب الفَرَاديس.

وفيها غَرِقتْ بغدادُ الغَرَقَ العظيمَ الذي لم يُعهد مثله بحيث آنتقل الخليفةُ،

(١) المدرسة الناصرية الجوانية. (انظر عقد الجمان: ص ١٢١، والدارس: ١/ ٣٥٠).

ودخل الماء إلى دار الوزير وغَرِقت خزائنُ الخليفة، وجرى شيء لم يَجْرِ مثلُه، وكان ذلك في شهر ربيع الآخر وجُمادَى الأولى.

وفيها تُوفّي الشيخ الزاهد العابد الورع المجاهد عِماد الدين عبد الله [بن أبي المجْد الحسن بن الحسين بن عليّ الأنصاريّ][١] آبن النحّاس؛ خدَم في مبادىء أمره الملوكَ، وولى الوزارةَ لبعضهم، ثم آنقطع في آخر عمره بقاسِيون بزاويته، فأقام بها ثلاثين سنة صائماً قائماً مشغولاً بالله تعالى ويَقْضِي حوائج الناس بنفسه وماله، ودُفِن بقاسِيون، وكان له مشهد هائل.

وفيها كان ظهور النار العظيمة بالمدينة الشريفة وهي غير التي ذكرناها في السنة الماضية، وهذه النار التي تقدّم ذكرها في ترجمة الملك المعزّ هذا.

وفيها آحترق مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في شهر رمضان، وهذا غير النار التي ظهرت بنواحي المدينة، فإن هذا الحريق له سبب[٢]، آبتدأ من زاوية الحرم النبويّ [الغربية من الشمال][٣]، فعلِقت في آلات الحرم ثم دَبّت في السُّقُوف، فما كان إلّا ساعةٌ حتى آحترقت سقوفُ المسجد أجمع، ووقع بعض أَسَاطينه، وكان ذلك قبل أن ينام الناس، وآحترق أيضاً سقف الحجرة. وأصبح الناس في يوم الجُمُعة فعزلوا موضعاً للصلاة. ونظَم في حريق المسجد غيرُ واحد من الشعراء، فقال مُعِين الدين بن تولو المغربي: [الكامل]

قل للرَّوافِضِ بالمدينةِ ما لكم ... يقتادُكُم للذَّمِّ كلُّ سفِيهِ
ما أصبح الحَرَمُ الشريف مُحرَّقاً ... إلّا لسبِّكم الصحابةَ فيهِ

وقال غيره: [الكامل]

---

(١) زيادة عن الشذرات.

(٢) ذكر صاحب الشذرات أن احتراق المسجد كان على يد الفراش أبي بكر المراغي بسبب سقوط ذبالة من يده.

(٣) زيادة عن عقد الجمان.

لم يحترق حَرَمُ النبي لحادثٍ يُخْشَى عليه ولا دهاه العارُ
لكنها أيْدِي الرَّوافِض لامَسَتْ ذاك الجنابَ فطهَّرته النارُ

قال: وعُدّ ما وقع من تلك النار الخارجة وحريق المسجد من جملة الآيات.

وقال أبو شامة: في ليلة السادِس عشر من جُمَادى الآخرة خسَفَ القمر أول الليل، وكان شديدَ الحُمْرة ثم آنجلى، وكَسَفَتِ الشمس في غده، احمرّت وقت طلوعها وقريب غروبها، وآتّضح بذلك ما صوّره الإمام الشافعيّ من آجتماع الخسوف والكسوف، وآستبعده أهل النِّجامة.

وفيها تواترت الأخبار بوصول هُولاكُو إلى أَذْرَبِيجان قاصداً بلادَ الشام، فتصالح العسكر المصريّ والشاميّ على قتاله وتهيّأ كلٌّ منهم للقاء التَّتَار.

وفيها تُوفّي الأمير مجاهد الدين[1] إبراهيم بن أدنبا الصَّوَابي نائب دمشق؛ وليها بعد حُسام الدِّين بن أبي عليّ، وكان في أول أمره أمير جانَدْار[2] الملك الصالح نجم الدين أيُّوب، وكان أميراً كبيراً عاقلاً فاضلاً شاعراً. ومن شعره ــ رحمه الله تعالى ــ: [مخلّع البسيط]

أشْبهكَ الغصنُ في خِصالٍ القَدّ واللين والتثنّي
لكنْ [تَجَنِّيك][3] ما حكاه الغصنُ يُجْنَى وأنت تَجْنِي

---

(١) في الأصل: «مجاهد بن إبراهيم». وما أثبتناه عن الشذرات والمنهل الصافي.

(٢) أمير جاندار: هو لقب على الذي يستأذن على الأمراء وغيرهم في أيام المواكب عند الجلوس بدار العدل، ويدخل أمامهم إلى الديوان. وكان من مهامه أيضاً تقديم البريد مع الدوادار وكاتب السرّ. وصاحب هذه الوظيفة كالمتسلم للباب. وإذا أراد السلطان تعزير أحد أو قتله كان ذلك على يد صاحب هذه الوظيفة، وهو المتسلم للزردخاناه التي هي أرفع قدراً في الاعتقالات، ولا تطول مدة المعتقل بها، بل إما يعجّل بتخلية سبيله أو إتلاف نفسه. وكان من مهامه أيضاً أن يطوف بالزفّة حول السلطان في سفره. واللفظ «أمير جاندار» مركب من ثلاثة ألفاظ: الأول عربي «أمير»، والثاني «جان» ومعناه الروح بالفارسية والتركية، والثالث «دار» ومعناه ممسك؛ فيكون المعنى: الأمير الممسك للروح. قال القلقشندي: ولم يظهر لي وجه ذلك إلا أن يكون المراد أنه الحافظ لدم السلطان، فلا يأذن عليه إلا لمن يأمن عاقبته. (انظر صبح الأعشى: ٤/٢٠ و٥/٤٣٣؛ ومسالك الأبصار: ١١٧).

(٣) زيادة عن الشذرات والمنهل الصافي.

وفيها تُوفّي الإمام العلاّمة عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافِر بن عبد الله بن محمد بن جعفر بن الحسن زكيّ الدين أبو محمد البغداديّ ثم المصريّ المعروف بآبن أبي الإصْبَع. كان أحد الشعراء المجيدين، وهو صاحب التصانيف المفيدة في الأدب وغيره. ومولده في سنة خمس وقيل سنة تسع وثمانين وخمسمائة بمصر وتُوفّي بها. ومن شعره في نوع «التصدير» وسمّاه الأوائل «ردَّ العَجُز على الصدر» على خلاف وقع في ذلك: [مخلّع البسيط]

اِصبِرْ على خُلْقِ مَنْ تصاحبُه وآصحَبْ صبوراً على أَذَى خُلُقِكْ

وذكر أيضاً في نوع «المدح في مَعْرِض الذم» أبياتاً يعارض بها القاضي السعيد آبن سَنَاء آلمُلْك في قَوّاد. فقال هو فيمن آدَّعى الفقهَ والكرم: [السريع]

إنّ فلاناً أكرمُ الناس لا يمنع ذا الحاجة من فَلْسِه
وهو فقيه ذو آجتهادٍ وقد نَصّ على التقليد في درسه
فيُحْسِنُ البحثَ على وجهه ويُوجِبُ الدَّخْلَ على نفسه

وأمّا قولُ آبن سناء الملك في قوّاد: [السريع]

لي صاحبٌ أَفْديه مِنْ صاحبٍ حُلْوُ التأتّي حسنُ الاحتيال
لو شاء من رِقّة ألفاظه أَلّف [ما][1] بين الهُدَى والضلال
يَكْفِيك منه أنّه ربما قاد إلى المهجور طيفَ الخيال

قلت: ويُعْجِبُني قول من قال في هذا المعنى ـ أعني في قَوّاد ـ: [الوافر]

إذا [ما][2] كان مَنْ تهواه غُصْناً وأقسَم لا يَرِقُّ لمن يَهِيمُ
فدونك والنَّسِيم له رسولٌ[3] فإنّ الغصن يَعْطِفُه النسيم

وأحسن من هذا قول من قال: [الكامل]

(١) زيادة من طبعة دار الكتب عن ديوانه.
(٢) زيادة لاستقامة الوزن.
(٣) لعلّ الصواب: « فدونك والنسيمَ له رسولاً» كما في طبعة دار الكتب المصرية.

لي صاحب ما زلتُ أشكر فعلَه قـد عمَّني بلطائف الإحسانِ
لـو لم يكن مثلَ النسيم لطافةً ما كان يَعْطِف لي غصونَ البانِ

وفيها تُوفِّي الشيخ الإمام الفقيه الواعظ المؤرخ العلّامة شمس الدين أبو المظفَّر يوسف بن قِزْأُغلي بن عبد الله البَغْداديّ ثم الدِّمَشْقيّ الحنفيّ سِبْط[1] الحافظ أبي الفرج بن الجَوْزِيّ. كان والده حُسام الدين قزأوغلي من مماليك الوزير عَوْن الدين يحيى بن هُبَيْرة[2] وكان عنده بمنزلة الولد، ربّاه وأعتقه وأدّبه. ومولد الشيخ شمس الدين هذا في سنة آثنتين وثمانين وخمسمائة ببغداد، وبها نشأ تحت كنَفَ جَدِّه لأمّه الحافظ أبي الفرج بن الجَوْزِيّ إلى أن مات في سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وآشتغل وبرَع في عدّة علوم، ووعظ ببغداد وغيرها، وقدِم دمشقَ وآستوطنها، ونالته السعادة والوجاهة عند الملوك، لا سيَّما الملك المعظَّم عيسى، فإنّه كان عنده بالمنزلة العُظْمَى؛ ورحَل البلادَ وسمِع الحديثَ وجلس للوعظ في الأقطار، وكان له لسان حُلْوٌ في الوعظ والتَّذْكار، ولكلامه موقع في القلوب، وعليه قابليّة من الخاص والعام؛ وله مصنفات مفيدة: تاريخه المسمَّى «مرآة الزمان» وهو من أجلِّ الكتب في معناها. ونقلتُ منه في هذا الكتاب معظم حوادثه. وكانت وفاته في ذي الحِجّة. رحمه الله تعالى. وقد آستوعبنا ترجمته في تاريخنا «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي» بأوسع من هذا إذ هو كتاب تراجم وليس للإطناب في ذكره هنا محلّ، كوْن أننا شرطنا في هذا الكتاب ألّا نُطْنِب إلّا في تراجم ملوك مصر الذين تأليف هذا الكتاب بصددهم، وما عداهم يكون على سبيل الاختصار في ضمن الحوادث المتعلقة بالمترجَم من ملوك مصر. اِنتهى.

وفيها تُوفِّي الأمير سيف الدين أبو الحسن يوسف بن أبي الفوارس بن مُوسَك القَيْمُريّ واقف المارَستان بجبل الصالحيّة[3]؛ كان أكبر الأمراء في آخر عمره

---

(١) أمه رابعة بنت الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي. (عقد الجمان).

(٢) هو يحيى بن هبيرة بن محمد بن هبيرة، أبو المظفر، الوزير عون الدين المتوفى سنة ٥٦٠ هـ. وزر للمقتفي والمستنجد العباسيين.

(٣) المراد به جبل قاسيون المطلّ على مدينة دمشق.

وأعظمَهم مكانة، وجميع أمراء الأكراد القَيْمُرِيّة وغيرهم كانوا يتأدّبون ويَقِفُون في خدمته إلى أن مات في شعبان، وهو أجلّ الأمراء مرتبة.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي العِماد أبو بكر عبد الله بن أبي المجد الحسن بن الحسين الأنصاريّ آبن النحّاس الأَصَمّ في المحرّم، وله آثنتان وثمانون سنة. والإمام أبو إسحاق إبراهيم بن محمد [بن عبد الرحمن][1] بن وَثِيق الإشْبِيليّ المُقْرِىء بالإسكندريّة، وله سبع وثمانون سنة، توفّي في شهر ربيع الآخر. والقاضي أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد السلام بن المَقْدِسيّة السَّفَاقُسِيّ، آخر من حضر على السِّلَفِي في جُمادَى الأولى. والمفتي شمس الدين عبد الرحمن بن نوح المَقْدِسِيّ. والواعظ شمس الدين يوسف بن قَزَأوغلي سِبْط ابن الجَوْزيّ في ذي الحِجّة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وستّ عشرةَ إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرةَ ذراعاً وثلاثُ أصابع.

(١) زيادة عن الشذرات.

ذكر سلطنة الملك المنصور عليّ[١] بن أَيْبَك التُّرْكُماني على مصر

السلطان الملك المنصور نور الدين عليّ آبن السلطان الملك المُعِزّ عِزّ الدين أَيْبَك التُّرْكُمانيّ الصالحيّ النجميّ ملَك الديارَ المصريّة بعد قتل أبيه المُعِزّ أَيْبَك في يوم الخميس خامس عشرين شهر ربيع الأوّل سنة خمس وخمسين وستمائة، وتمّ أمرُه وخُطِب له من الغد في يوم الجمعة سادس عشرينه على منابر مصر وأعمالها. والمنصور هذا هو الثاني من ملوك مصر من الترك بالديار المصريّة.

وتسلطن المنصورُ هذا وعمرُه خمسَ عشرة[٢] سنة، وركب في يوم الخميس ثاني شهر ربيع الآخر بشعار السلطنة من القلعة إلى قُبة النصر[٣] في مَوْكِبٍ هائل، ثم عاد ودخل القاهرةَ من باب النصر، وترجّل الأمراء ومشَوْا بين يديه ما خلا الأَتَابَك علم الدين سَنْجَر[٤] الحلبِيّ. ثم صعِد المنصور إلى القلعة وجلس بدار السلطنة ومدّ السِّماط للأمراء فأكلوا، ووزَر له وزير أبيه شَرَفُ الدين الفائزيّ وآنفضّ الموكبُ.

---

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك: ٤٠٥/٢/١، والخطط المقريزية: ٢٣٧/٢، والجوهر الثمين: ٥٧/٢، وبدائع الزهور: ٢٩٦/١/١، وعقد الجمان: ١٤٣، وخطط علي مبارك: ٨١/١، ومعجم زامباور: ١٦٢.

(٢) كذا أيضاً في خطط المقريزي والسلوك. وفي الجوهر الثمين: «وعمره عشر سنين» وفي بدائع الزهور: «وكان له لما ولي السلطنة إحدى وعشرين سنة».

(٣) كانت هذه القبة زاوية يسكنها فقراء العجم، وهي خارج القاهرة بالصحراء تحت الجبل الأحمر تجاه قبة الأمير يونس الدوادار الظاهري. (خطط المقريزي: ١١١/٢، ٤٣٣).

(٤) في السلوك للمقريزي: «... ما خلا الأمير عز الدين أيبك الحلبي المعروف بأيبك الكبير، فإنه توقف وأراد الأمر لنفسه، ثم وافق خوفاً على نفسه. فركب الأمير قطز ــ هو والأمراء ــ وقبض على الأمير سنجر الحلبي واعتقله. فركب الأمير أيبك الحلبي الكبير في الأمراء الصالحية فلم يوفّق، وتقنطر عن فرسه خارج باب زويلة، فأدخل إلى القاهرة ميتاً».

وفي يوم الجمعة ثالث شهر ربيـع الآخر خُطِب للملك المنصور وبعده لأَتَابكه عَلَم الدين سَنْجَر الحَلَبِيّ المذكور. وفَوَّض القضاءَ بالقاهرة وأعمالها إلى القاضي بدر الدين السِّنْجَارِيّ، وعزَل تاج الدين آبن بنت الأعزّ وأَبْقَى عليه قضاءَ مصر القديمة وأعمالها.

وفي عاشر شهر ربيع الآخر قبضَ الأمير قُطُزْ وسَنْجَر [الغَتْمِي](١) وبَهَادُر وغيرهم من الأمراء المُعِزِّيّة على الأَتَابك سَنْجَر الحَلَبِيّ، وأنزلوه إلى الجُبّ بالقلعة، وكان القبض عليه لأمور: أحدها أنّه كان طمِـع في السلطنة بعد قتل الملك المُعِزّ أَيْبَك لمّا طلبتْه شجرة الدُّرّ وعرَضتْ عليه الملك، والثاني أنه بلغهم أنه ندِم على ترك الملك وهو في عزم الوثوب؛ فعاجلوه وقبضوا عليه. ولمّا قُبِض عليه آضطربت خُشْدَاشِيتُهُ من المماليك الصالحيّة النَّجْمِيّة وخاف كلُّ أحد على نفسه، فهَرب أكثرُهم إلى جهة الشام، فخرج في إثْرهم جَماعةٌ من الأمراء المُعِزّيّة وغيرِهم، وتَقَنْطَر بالأمير عِزّ الدين أَيْبَك الحَلَبِي الكبير فرسُه، وكذلك الأمير خاصّ تُرْك الصغير فهلكا خارجَ القاهرة وأُدْخِلا ميتَيْن، وكانوا ركبوا في جماعة من المماليك الصالحيّة في قصد الشام أيضاً. وآتّبـع العسكرُ المهزومين إلى الشام، فقُبِض على أكثرهم وحُمِلوا إلى القلعة وآعتُقِلوا بها.

وقُبِض أيضاً على الوزير شَرَف الدين الفائزي(٢). وفُوِّض أمرُ الوزارة إلى القاضي بدر الدين يوسف السِّنجارِيّ مضافاً إلى القضاء، وأُخِذ موجودُ الفائزي وكان له مال كثير. ثم قُبِض على بهاء الدين عليّ بن حِنّا وَزير شجرة الدُّرّ، وأُخِذ خطّه بستّين ألف دينار.

ثم خلَـع الملك المنصور على الأمير أَقْطاي المُسْتعرِب بآستقراره أَتابكاً عِوَضاً

---

(١) زيادة عن عقد الجمان.

(٢) وقد اعتقل ثم قتل. وسبب قتله ــ كما جاء في عقد الجمان ــ أن والدة الملك المنصور كانت مجفوّة من زوجها الملك المعزّ، وكان قد اتخـذ سراري وصيرّهن عند الوزير، فنقمت عليه، وسأل أن يبذل عن نفسه مالاً فلم تـرض إلا بقتله». ــ والفائزي هذا كان أول قبطي يلي الوزارة. وكان سيء السيرة، أحدث ظلامات كثيرة ــ راجـع ص ٢١، حاشية (١).

عن سَنْجَر الحلبيّ. ثم في شهر رجب رُفِعت يدُ القاضي بدر الدين السِّنْجارِيّ من الوزارة وأُضيف إليه قضاءُ مصرَ القديمة، فكمل له قضاء الإقليم بكماله، ووَلِي القاضي تاج الدين آبن بنت الأَعَزّ الوزارة.

ثم في شعبان كثُرت الأراجيفُ بين الناس بأنّ الأمراء والأجناد آتّفقوا على إزالة حكم مماليك الملك المعز من الدولة، وأنّ الملك المنصور تغيّر على الأمير سيف الدين قُطُزْ المُعِزّيّ، وآجتمع الأمراء في بيت الأمير بهاء الدين بُغْدِي [الأشرفي] مقدّم الحَلْقة، وتكلّموا إلى أن صلح الأمر بين الملك المنصور وبين مملوك أبيه الأمير قُطُز. وخلَع عليه وطيَّب قلبه؛ ثم وقع الكلام أيضاً من المُعِزِّيّة وغيرهم.

فلمّا كان رابع شهر رمضان ركب الأمير بُغْدِي وبدر الدين[1] بلغان وآنضاف إليهما جماعة ووقفوا بآلة الحرب، فخرج إليهم حاشيةُ السلطان فقاتلوهم وهزموهم وقبضوا على بُغْدِي بعد أن جُرِح وعلى بلغان وحُمِلا إلى القلعة؛ ودخلت المُعِزِّيّة إلى القاهرة، فقَبضوا على الأمير عزّ الدين أَيْبَك الأسمر وأُرْزَن الرُّوميّ وسابق الدين بُوزنا الصَّيْرَفِيّ وغيرهم من المماليك الأشرفيَّة ونُهِبت دورهم، فآضطربت القاهرة حتّى نُودِي بالأَمَان لمن دخل في الطاعة؛ وسكن الناس وركب السلطان الملك المنصور في خامس شهر رمضان وشقّ القاهرةَ وفي خدمته الأمير قُطُزْ وباقي مماليك أبيه، ثم نزل أيضاً في عيد الفطر وصلّى بالمصلّى. وركب وعاد إلى القلعة ومُدّ السِّماط.

ثم ورد كتاب الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام وحَلَب على الملك المنصور بمُفَارقة البَحْريّة والصالحيّة له (أعني الأمراء والمماليكَ الذين خرجوا من القاهرة بعد القبض على علم الدين سَنْجَر الحَلَبِيّ المقدَّم ذكرُه). فلمّا وقف المصريّون على الكتاب ظنّوا أن ذلك خديعةٌ من الملك الناصر فآحترزوا لأنفسهم.

(١) في السلوك وعقد الجمان: «سيف الدين بلغان الأشرفي».

ثم جهّز المنصور عسكراً من المماليك والأمراء ومقدّمهم الدِّمياطيّ[١] إلى الشام، فتوجّهوا ونزلوا بالعَبّاسة؛ فوردت الأخبار على السلطان الملك المنصور بأنّ عساكر الملك الناصر وصلت إلى نابُلُس لقتال البَحْريّة الذين قدموا عليه من مصر ثُم فارقوه، وكان البحرية نازلين بغَزّة، ثم وردت الأخبارُ بأنّ البَحْريّة، وكان مقدّم البحريّة بَلَبَان الرَّشِيديّ وبِيَبْرس البُنْدُقْدارِيّ، خرجوا من غَزّة وكَبَسوا عسكر الملك الناصر وقتلوا منهم جماعة كثيرة ليلاً. ثم ورد الخبر ثانياً بأنّ عسكر الملك الناصر كسروا البحريّة وأنّ البَحْريّة آنحازوا إلى ناحية زُغَر[٢] من الغَوْر. ثم ورد الخبر أيضاً بمجيء البَحْريّة إلى جهة القاهرة طائعين للسلطنة، فقدِم منهم الأمير عزّ الدين أَيْبَك الأَفْرَم ومعه جماعة، فتُلُقُّوا بالإكرام، وأفرِج عن أملاك الأفرم وأرزاقه ونزل بداره بمصر. ثم بلغ السلطانَ أنّ البحريّة (أعني الذي بَقِي منهم) رحلوا من زُغَر طالبين بعض الجهات، فآتّضح من أمرهم أنّهم خرجوا من دِمَشْق على حَمِيّة وأنّهم قصدوا القُدْسَ الشريف، ومُقْطَع القدس يوم ذاك سيفُ الدين كَبَك من جهة الملك الناصر يوسف صاحب الشام وحلب، فطلبوا منه البحريّة أن يكون معهم فامتنع فآعتقلوه، وخطبوا بالقدس للملك المُغِيث بن العادل بن الكامل بن العادل بن أيّوب. ثم جاؤوا إلى غزّة وقَبضوا على واليها (أعني نائبَها) وأخذوا حواصل الملك الناصر من غَزّة والقُدْس وغيرهما. ثم إنّهم أطمعوا الملك المغيثَ صاحب الكَرَك في ملك مصر، وقالوا له: هذا مُلْك أبيك وجَدِّك وعمّك، ثم عزموا على قصد الديار المصريّة، فجاء الخبر إلى مصر بذلك فخرج إليهم العسكر المصريّ، وآجتمعوا بالصالحيّة وأقاموا بها فلمّا كان سَحَرُ ليلة السبت منتصَفَ ذي القعدة وصلت البَحْريّة بمَنْ معهم من عسكر الملك المُغِيث، ووقعتِ الحربُ بين الفريقين وآشتدّ القتالُ بينهم وجُرِح جماعة، والمصريّون مع ذلك يزدادون كثرةً وطلعت الشمسُ، فرأت البحريّة كثرَةَ المصريّين فآنهزموا وأُسِر منهم بَلَبَان الرَّشيديّ وبه جِراحاتٌ وهو من كِبار القوم، وهرَب بِيبَرْس البُنْدُقْدارِيّ وبَدْرُ الصَّوابـي إلى الكَرَك، وبعضُ البَحْريّة دخل في

(١) هو الأمير عز الدين أيبك بن عبد الله الدمياطي. انظر حوادث سنة ٦٧٦هـ

(٢) زُغَر ــ كزُفَر ــ قرية بمشارف الشام. (معجم البلدان).

العسكر المصريّ، ودخل العسكر المصريّ القاهرة، وزُيِّن البلدُ لهذا النصر وفَرِح الملك المنصور والأمير قُطُز بذلك.

وأمّا البَحْريّة فإنّهم توجّهوا إلى الملك المُغيث صاحب الكَرَك وحسنّوا له أن يركب ويجيء معهم لأخذ مصرَ فأصْغَى لهم وتجهَّز وخرج بعساكره من الكَرَك في أوّل سنة ستٍّ وخمسين وستِّمائة، وسار حتّى قدِم غَزّة، وأمرُ البَحْريّة راجعٌ إلى بِيبرس البُنْدُقْدَارِيّ. فلمّا بلغ ذلك المصريّين خرج الأميرُ سيف الدين قُطُز بعساكر مصر ونزل بالعَبَّاسة. فلمّا تكامل عسكرُه سار منه قاصداً الشاميِّين. وخرج الملك المُغيث من غَزّة إلى الرمل فآلتقى بالعسكر المصريّ وتقاتلا قتالاً شديداً في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر، فآنكسر الملك المُغيث بمَنْ معه من البَحْريّة، وقُبِض على جماعة كثيرة من المماليك البَحْريّة الصالحيّة، وهم: الأمير عِزّ الدين أَيْبَك الرُّومِي وعزّ الدين أَيْبَك الحَمَوِيّ وركن الدين الصَّيْرفيّ وآبن أَطْلَس خان الخُوَارَزْمِيّ وجماعةٌ كثيرة، فأُحضِروا بين يدي الأمير سيف الدين قُطُز والأمير الغَتْمِيّ والأمير بَهادُر المعزّيّة فأَمَروا بضرب أعناقهم فضُرِبت، وحُمِلت رؤوسهم إلى القاهرة وعُلِّقت بباب زُوَيلة، ثم أُنزلت من يومها لمّا أَنْكَر قتلَهم على المعزية بعضُ أمراء مصر وآستشنَع ذلك.

وأمّا الملك المغيث فإنّه هرب هو والطواشي بدر الصَّوَابـيّ وبِيبَرْس البُنْدُقْدَارِيّ ومن معهم، ووصلوا إلى الكَرَك في أسوأ حال بعد أن نُهِب ما كان معهم من الثَّقَل والخِيام والسلاح وغير ذلك وأقاموا بالكَرَك؛ وبينما هم في ذلك أرسل الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام جيشاً مقدَّمه الأمير مُجِير الدين إبراهيم [بن أبي بكر][1] بن أبي زكري والأمير نور الدين عليّ بن الشجاع الأكتع في طلب البحريّة، وخرجت البحريّة لمّا بلغهم ذلك إلى غَزّة، وآلتقَوْا مع العسكر الشاميّ وتقاتلوا فانكسر العسكر الشاميّ، وقُبِض على مُجِير الدين ونور الدين وحملوهما البحريّة إلى الكرك، وقوِيَ أمرُ البحريّة بهذه الكسرة وآشتدُّوا.

---

(١) زيادة عن المنهل الصافي.

وأمّا الملك الناصر لمّا بلغه كسْر عسكره تجهّز وخرج بنفسه لقتال البحريّة، وضَرب دِهليَزه قبلي دِمَشْق. فلمّا بلـغ البَحْريّة ذلك توجّهوا نحو دِمشق وضربوا أطراف عساكر الملك الناصر، وخَفّ بِيبَرْس البُنْدُقْدارِيّ حتّى إنّه أتى في بعض الأيام وقطـع أطنابَ خَيْمة الملك الناصر المضروبة، وذلك قبل خروج الناصر من دمشق. وبينما الناس في ذلك ورد الخبرُ بأخذ التّتار لبغداد وقتل هولاكو الخليفةَ المستعصمَ بالله وإخراب بَغْداد.

[سقوط بغداد بأيدي المغول]

قلت: نذكر سببَ أخذ هولاكو لبغداد ثم نعود إلى أمر المصريّين والشاميّين والبحريّة.

فأما أمر هولاكو فإنّه هُولاَكُو، وقيل: هولاو[١] بن تولي خان بـن جِنكِزْخان المغليّ. ولِي المُلْكَ[٢] بعد موت أبيه تولي قان، واتّسعتْ ممالكُه وعظُم أمرُه وكَثُرتْ جيوشُه من المُغل والتّتار، ولا زال أمره في زيادة حتى ملك مدينة أَلَمُوت[٣] وقتل

(١) وفي عقد الجمان: «هلاون». والصيغة المحققة المعتمدة هي «هولاكَو بن تولوي بن جنكَيزخان».

(٢) العبارة على هذا النحو غير دقيقة. إذ يجب الرجوع إلى معرفة تقسيم الامبراطورية التترية بين أولاد مؤسسها جنكيزخان (انظر في ذلك معجم زامباور: ٣٥٩ ـ ٣٦٩؛ وصبح الأعشى: ٣٠٨/٤) وفي مجمل الأحوال فإن هولاكو، لما توجّه إلى إيران وبغداد ما بين ٦٥٠ و٦٥٦هـ، لم يكن بعد قد أصبح خاقاناً، وإنما نائباً عن أخيه منكوقان. ونقل القلقشندي عن ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار قوله: «.. إلا أن هولاكو لم يملك ملكاً مستقلاً (يعني في بداية حملته على إيران) بل كان نائباً عن أخيه منكوخان، ولم يضرب باسمه سكة درهم ولا دينار، وإنما كانت تضرب باسم أخيه منكوقان.. وكان يكون لصاحب التخت أمير لا يزال مقيماً في مملكة إيران مـع هولاكو».

(٣) سار هولاكو للقضاء على الإسماعيلية في فارس، ووصل إلى بلادهم سنة ٦٥٤هـ. ولما صار وجهاً لوجه أمام تلك القلاع المنيعة الجبارة، أخذ هو وقواده يعملون على تخريبها وتحطيمها، عملاً بوصيّة أخيه منكوخان. لأن المغول حين فكروا في إزالة الدولة العباسية، أدركوا أن طائفة الإسماعيلية ستكون شوكة في ظهورهم تحول دون تحقيق أطماعهم في السيطرة على الشرق الإسلامي. واستطاع هولاكو بعد لأي أن يتغلب على أكثر تلك القلاع. وطال حصاره لقلعتي «ميمون دز» «وألموت» وأخيراً وجد ركن الدين خورشاه، آخر حكام الإسماعيلية أن الأمر خرج من يده، ولم تعد له طاقة على المقاومة، فنزل من قلعة ميمون دز التي كان يقيم فيها، وسلم نفسه إلى هولاكو الذي أرسله إلى قراقوم عاصمة ملك المغول حيث أمر منكوخان بقتله. وعلى الرغم من استسلام حاكم الإسماعيلية، فقد رفض قائد ألموت الخضوع =

متوليها شمس الشموس وأخذ بلاده، ثمّ أخذ الروم وأبقى بها ركن الدين كَيْقُبَاد بن غِياث الدين كَيْخُسْرُو صورةً بلا معنى والحكمُ والتصرّفُ لغيره.

وكان وزير الخليفة المستعصم بالله مؤيّد الدين بن العَلْقَمِي ببغداد، وكان رافضيّاً خبيثاً حريصاً على زوال الدولة العباسيّة ونقل الخلافة إلى العلويّين، يدبِّر ذلك في الباطن ويُظهر للخليفة المستعصم خلاف ذلك، ولا زال يُثِير الفِتَن بين أهل السُّنّة والرافضة حتّى تجالدوا بالسيوف، وقُتِل جماعةٌ من الرافضة ونُهِبوا، فاشتكى أهلُ باب البَصْرة إلى الأمير مجاهد الدين[1] الدَّوَادار وللأمير أبـي بكر آبن الخليفة فتقدّما إلى الجند بنهب الكَرْخ فركبوا من وقتهم وهَجموا على الرافضة بالكَرْخ وقتلوا منهم جماعةً وآرتكبوا معهم العظائم فخنِق الوزير ابن العَلْقَمِي ونَوَى الشرَّ في الباطن وأمر أهلَ الكَرْخ الرافضة بالصّبر والكفّ عن القتال، وقال لهم: أنا أكفيكم فيهم. وكان الخليفة المستنصر بالله قد آستكثر من الجند قبل موته حتّى بلـغ عددُ عسكره مائةَ ألف. وكان الوزير آبنُ العَلْقَمِيّ مـع ذلك يصانـع التَّتار في الباطن ويكاتبهم ويُهادِيهم، فلمّا آستُخْلِف المستعصم بعد موت أبيه المستنصر، وكان المستعصم خَلِيّاً من الرأي والتدبير، فأشار عليه آبنُ العَلْقَمِيّ المذكور بقطـع أرزاق أكثر الجند، وأنّه بمصانعة التتار وإكرامِهم يحصل بذلك المقصود، ولا حاجة لكثرة الجند ففعل الخليفةُ ذلك!

قـلت: وكلمة الشيـخ مطاعة!

ثم إنّ الوزير بعد ذلك كاتـب التَّتَار وأطمعهم في البلاد سِراً، وأرسل إليهم غلامه وأخاه وسهَّل عليهم فتحَ العراق وأخذَ بغداد، وطلب منهم أن يكون نائبَهم

= واستمر في المقاومة حتى سقطت هي الأخرى في يد المغول بعد قتال مرير، فاستطاعوا بذلك أن يقتحموا الوكر الأصلي للحسن بن الصباح وخلفائه، وحطموا ما وجدوه من الأسلحة واستولوا على الكنوز والأموال، ووقعت في أيديهم تلك المكتبة النفيسة التي تعب الإسماعيليون في إعدادها وصرفوا في ذلك سنوات عديدة حتى طبقت شهرتها الآفاق. وبذلك دالت دولة هذه الطائفة بعد أن عمرت نحو ١٧١ سنة، وكان ذلك في أول ذي القعدة سنة ٦٥٤هـ. (انظر: مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني، ص ٢٨ ـ ٣٠ نقلاً عن كتابه جامع التواريخ).

(١) هو الأمير مجاهد الدين أيبك بن عبد الله، المعروف بالدويدار الصغير. قتل على يد التتار سنة ٦٥٦هـ.

بالبلاد فوعدوه بذلك، وتأهبوا لقصد بغداد وكاتبوا لؤلؤاً صاحب المَوصِل في تهيئة الإقامات والسلاح، فكاتب لؤلؤ الخليفة سِراً وحذّره، ثم هيّأ لهم الآلات والإقامات. وكان الوزير آبنُ العَلْقَمِيّ المذكور ليس لأحد معه كلامٌ في تدبير أمر الخليفة، فصار لا يُوصِّل مكاتبات لؤلؤ ولا غيرِه للخليفة، وعمّى عنه الأخبار والنصائح، فكان يقرؤها هو ويُجيب عنها بما يختار، فنتج أمرُ التّتار بذلك غاية النّتاج وأخذ أمرُ الخليفة والمسلمين في إدبار[1]! وكان تاج الدين بن صلايا نائب الخليفة بإرْبِل حذّر

(١) تطرح هنا مسألة موقف الوزير ابن العلقمي من سقوط بغداد بيد التتار، وهل كان خائناً للخليفة المستعصم؟ إن معظم المؤرخين المتأخرين ـ أمثال ابن تغري بردي والمقريـزي والعيني وابن كثير والسيوطي وغيرهم ـ يتهمون ابن العلقمي صراحة بالمخامرة على الخلافة العباسية ومواطأة التتار على سقوط بغداد، ويردّون ذلك إلى ميوله الشيعية. ورواياتهم في ذلك مشابهة لرواية أبي المحاسن هنا. غير أن بعض المؤرخين ـ ومنهم الثقات ـ نفى عنه تهمة المخامرة. وفي هذا الصدد يقول ابن الطقطقي في تاريخه الفخري: «ونسبه الناس إلى أنه خامر، وليس ذلك بصحيح. ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامته في هذه الدولة (يعني دولة سلطة التتار) فإن السلطان هولاكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلّم البلد إلى الوزير وأحسن إليه حكمه. فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه». وإذا كانت الدلائل التي قدّمها ابن الطقطقي غير مقنعة، خاصة أنه متشيّع، فإن ما ذكره ابن واصل لا يؤكد تهمة المخامرة على ابن العلقمي، وإن كان لا ينفي طمعه في استغلال الموقف لصالحه. قال ابن واصل: «وكان الوزير مؤيد الدين قد أطمع نفسه بأن الأمور تكون مفوضة إليه في العراق، وكان قد عزم أن يحسّن لهولاكو ملك التتر أن يقيم ببغداد خليفة من الشرفاء الفاطميين، فلم يتمّ له ذلك، واطرحه التتر وبقي معهم على صورة بعض الغلمان، فمات بعد قرب كمداً، وندم على ما فعل حيث لم ينفعه الندم» (انظر السلوك: ١/٢/٤٤٠ حاشية: ٢). والثابت من جميع روايات المؤرخين أن الوزير ابن العلقمي نجا من بطش هولاكو، وزيادة على ذلك ثبت في الوزارة، ثم انتقلت إلى ابنه عز الدين من بعده. (الحوادث الجامعة: ١٦٠). وفي اعتقادنا أن موقف ابن العلقمي يمكن فهمه في سياق مواقف جملة الأمراء والحكام في ذلك الوقت. فقد كانت السلطة المركزية في بغداد متداعية ضعيفة، وجاءت حملة هولاكو لتلقي الرعب في نفوس الأمراء في العاصمة والأطراف: فها هو الملك الناصر صاحب حلب يرتعد خوفاً ويتوسل جميع السبل لإرضاء هولاكو (انظر تاريخ مختصر الدول: ص ٢٧٨) وها هو بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل والأتابك أبو بكر في إقليم فارس يمدون هولاكو بالمال والرجال طمعاً في رضاه وتجنباً لسخطه (مؤرخ المغول رشيد الدين الهمذاني: ص ٣٥) حتى إن بعض سلاطين سلاجقة الروم، وهو عز الدين كيكاوس الثاني، رسم صورته على نعل زوج من الأحذية، وقدمها للخان قائلاً: «عبدك يأمل أن يتفضل الملك فيشرف رأس عبده بوضع قدمه المباركة عليها» (المصدر السابق: ص ٤١). كان هذا هو الموقف قبيل وعقب سقوط بغداد. إلى ذلك لا بد من الإشارة إلى «التكتيك» السياسي الناجح الذي اعتمده هولاكو، وكان من نتائجه تمويه أهدافه الحقيقية وفي نفس الوقت تفكيك جبهة المسلمين مستغلاً بذلك =

الخليفة وحرَّك عزمه، والخليفةُ لا يتحرّك ولا يستيقظ! فلمّا تحقّق الخليفةُ حركة التّتار نحوَه سيَّر إليهم شرف الدين[١] بن محيي الدين بن الجوزي رسولاً يعِدهم بأموال عظيمة، ثم سيَّر مائةَ رجل إلى الدَّرْبَنْد يكونون فيه يطالعون الخليفة بالأخبار، فمضَوْا فلم يطلُع لهم خبر، لأنّ الأكراد الذين كانوا هناك دَلُّوا التَّتار عليهم، فهجموا عليهم وقتلوهم أجمعين.

= تناقضاتهم السياسية والمذهبية. فهو في رسالته إلى الخليفة المستعصم يلمح إلى عدم رغبته في إسقاط الخلافة ويضع حملته في سياق السعي لتسلم مركز النفوذ على غرار ما كان موجوداً أيام البويهيين والسلاجقة والأتابكة وغيرهم، أي تسلم الوزارة مع إبقاء الخليفة؛ وفي هذا الصدد يقول: «. . . وعلمت أية مذلّة لحقت بأسر خوارزمشاه والسلاجقة وملوك الديلم والأتابكة وغيرهم ممن كانوا أرباب العظمة وأصحاب الشوكة، ومع ذلك لم يغلق باب بغداد قط في وجه أية طائفة من تلك الطوائف التي تولت هنا السيادة. فكيف يغلق في وجوهنا رغم ما لنا من قدرة وسلطان؟ . . . . فإذا أطعت أمرنا فلا حقد ولا ضغينة ونبقي لك ولايتك وجيشك ورعيتك». (انظر نص هذه الرسالة الهامة في ملاحق هذا الجزء). كذلك استغلّ هولاكو النزاعات السنيّة العلوية، ووعد العلويين بحجب دمائهم، بل لعلّه منّاهم بالسلطة والنفوذ في ظل سيطرته. يضاف إلى ذلك موقف النصارى الذين لم يعتبروا أنفسهم مستهدفين بحملة هولاكو؛ وهكذا كانت دار ابن العلقمي ودور العلويين والنصارى أماكن محيّدة يلتجىء إليها كل خائف من بطش التتار. (الحوادث الجامعة: ١٥٨، ومختصر الدول: ٢٧١). ونحن نميل إلى الاعتقاد أن ابن العلقمي ــ عندما أقنع الخليفة بأنه لا داعي للهرب من بغداد لأنه مهّد طريق الصلح، وسوف يأتيه هولاكو والمغول طائعين كان قد وقع ضحيّة نفس الخدعة التي أوقع بها الخليفة. وبالنتيجة كان سقوط بغداد والخلافة وبالاً على جميع المسلمين بجميع مذاهبهم وفرقائهم.

(١) هو شرف الدين عبد الله بن محيي الدين أبي محمد يوسف، وحفيد أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي العالم المشهور. كان محتسب بغداد ومدرساً بالمدرسة البشيرية، كما كان مبعوث المستعصم إلى هولاكو عدة مرات قبل وصوله إلى بغداد وفي أثناء حصاره لها. (مؤرخ المغول الهمذاني: ص ٣٤، حاشية: ١). والواقع أن شرف الدين هذا كان يحمل رسالة الخليفة إلى هولاكو رداً على رسالة هولاكو التي أشرنا إليها. وهذه الرسالة مليئة بالتهديد والوعيد، ظناً منه أن ذلك قد يرعب هولاكو ويجعله يفكر ملياً قبل أن يقدم على خطوته. (انظر نص رسالة الخليفة ونص رسالة هولاكو في المصدر السابق مترجمتين نقلاً عن جامع التواريخ. ولعل الهمذاني في جامع التواريخ هو المصدر الوحيد الذي أورد هاتين الرسالتين كاملتين). وقد غضب هولاكو غضباً شديداً، وأعاد رسل الخليفة قائلاً لهم: «إنني متوجه إلى بغداد بجيوش كالنمل والجراد، فإذا تغيّرت الأحوال فذلك تقدير الله العظيم» (المصدر السابق). وانظر نصّ الرسالتين المتبادلتين بين هولاكو والمستنصر في ملحق بآخر هذا الجزء. ثم رسالة هولاكو إلى الملك الناصر صاحب حلب بعد استيلائه على بغداد.

ثم ركِب هُولاكُوبن تُولي خان بن جِنْكِزخان في جيوشه من المُغل والتَّتار وقصدوا العراق، وكان على مقدّمته الأمير بايْجُونُوين، وفي جيشه خلْقٌ من أهل الكَرْخ الرافضة ومن عسكرِ بركة خان آبنِ عمّ هولاكو، ومَدَدٌ من صاحب المَوْصِل مع ولده الملك الصالح ركن الدين إسماعيل، فوصلوا قرب بغداد وآقتتلوا من جهة البّر الغربيّ عن دِجْلة، فخرج عسكر بغداد وعليهم ركن[1] الدين الدَّوَادار، فالتقَوْا على نحو مرحلتين من بغداد، فآنكسر البغداديّون وأخذتْهم السيوف، وغَرِقَ بعضهم في الماء وهرب الباقون. ثم ساق بايْجُونُوين مقدّمةَ هولاكو فنزل القرية[2] مقابل دار الخلافة وبينه وبينها دِجْلة لا غير. وقصد هولاكو بغداد من البرّ الشرقيّ، وضرب سُوراً وخَنْدقاً على عسكره وأحاط ببغداد، فأشار الوزير آبنُ العلقمِيّ على الخليفة المستعصِم بالله بمصانعتهم. وقال له: أَخْرُج إليهم أنا في تقرير الصلح فخرج إليهم، وآجتمع بهولاكو وتوثّق لنفسه وردّ إلى الخليفة، وقال: إنّ الملك قد رَغِب في أن يُزَوِّج بنته بآبنك الأمير أبي بكر، ويُبقيك على مَنْصِب الخلافة كما أبقى صاحب الروم في سلطنته، ولا يطلب إلّا أن تكون الطاعة له كما كان أجدادُك مع السلاطين السَّلْجوقيّة، وينصرف هو عنك بجيوشه! فتُجيبه يا مولانا أمير المؤمنين لهذا، فإنّ فيه حَقْنَ دماءِ المسلمين، ويمكن أن تفعل بعد ذلك ما تريد! والرأيُ أن تخرج إليه؛ فسَمِع له الخليفة وخرج إليه في جَمْع من الأعيان من أقاربه وحواشيه وغيرهم. فلمّا توجّه إلى هُولاكو لم يجتمع به هولاكو وأُنزِل في خيمة؛ ثم رَكِب الوزير وعاد إلى بغداد بإذن هولاكو، وآستدعى الفقهاءَ والأعيانَ والأماثلَ ليحضُروا عَقْدَ بنت هولاكو على آبن الخليفة، فخرجوا من بغداد إلى هولاكو، فأمر هولاكو بضرب أعناقهم! ثم مُدّ الجسرُ ودخل بايْجُونُوين بمن معه إلى بغداد وبذلوا السيف فيها وآستمرّ القتلُ والنهبُ والسَّبْيُ في بَغداد بضعة وثلاثين يوماً، فلم ينجُ منهم إلّا مَن آختفى[3]. ثم أمر هولاكو بعدّ القَتْلَى فبلغوا أَلفَ ألفٍ وثمانمائة ألف وكسراً. وقال

(١) صوابه: «وعليهم مجاهد الدين أيبك الدوادار الصغير» كما في عقد الجمان والحوادث الجامعة.

(٢) القرية: محلة ببغداد في حريم دار الخلافة، فيها محال وسوق كبيرة. (معجم البلدان).

(٣) قال ابن الفوطي في الحوادث الجامعة: «.. ولم يبق من أهل البلد ومن التجأ إليهم من أهل السواد إلا القليل، ما عدا النصارى فإنهم عين لهم شُحّان حرسوا بيوتهم، والتجأ إليهم خلق كثير من المسلمين

الذهبيّ ــ رحمه الله ــ في تاريخ الإسلام: والأصحّ أنّهم بلغوا ثمانمائة ألف. ثم نُودِي بعد ذلك بالأمان، فظهر مَنْ كان آختفى وهم قليل من كثير.

وأمّا الوزير آبن العَلْقَمِيّ فلم يتم له ما أراد، وما آعتقد أنّ التّتار يبذُلُون السيف مطلقاً في أهل السُّنّة والرافضة معاً، وراح مع الطائفتين أيضاً أممٌ لا يُحْصَوْن كثرةً، وذاق آبنُ العَلْقَمِيّ الهوانَ والذّلّ من التّتار! ولم تطُل أيامه بعد ذلك كما سيأتي ذكره. ثم ضرَب هولاكو عُنُق مقدَّم جيشه بايْجُونُوين لأنّه بلغه عنه من الوزير آبن العَلْقَمِيّ أنّه كاتب الخليفة المستعصم لمّا كان بالجانب الغربيّ.

وأمّا الخليفة فيأتي ذكره في الحوادث على عادة هذا الكتاب في محلّه غير أنّنا نذكره هنا على سبيل الاسْتطراد. ولمّا تم أمرُ هُولاكو طلب الخليفةَ وقَتله خَنْقاً. وقيل غُمَّ في بِساط، وقيل جعله هو وولده في عِدْلَيْن[1] وأمر برَفْسِهما حتّى ماتا. ثم قتل الأمير مجاهد الدين الدَّوادَار، والخادم إقبال الشَّرابي صاحب الرِّباط بحرم مكّة، والأستادار محيي الدين بن الجَوْزِيّ وولداه[2] وسائر الأمراء الأكابر والحجاب والأعيان. وآنقضت الخلافة من بغداد وزالت أيامهم من تلك البلاد، وخرِبَت بغدادُ

= فسلموا عندهم. وكان ببغداد جماعة من التجار الذين يسافرون إلى خراسان وغيرها قد تعلقوا من قبل على أمراء المغول وكتب لهم فرامين، فلما فتحت بغداد خرجوا إلى الأمراء وعادوا ومعهم من يحرس بيوتهم. والتجأ إليهم جماعة من جيرانهم فسلموا، وكذلك دار الوزير ابن العلقمي فإنه سلم بها خلق كثير، ودار صاحب الديوان ابن الدامغاني ودار حاجب الباب ابن الدوائي. وما عدا هذه الأماكن فإنه لم يسلم فيه أحد إلا من كان في الآبار والقنوات».

(١) لعلها الرواية الأشهر. وإنما قتل المغول المستعصم بهذه الطريقة جرياً على عادتهم، كما أشار إلى ذلك ابن خلدون: «وتقبض على المستعصم فشدخ المعاول في عدل تجافياً عن سفك دمه بزعمهم». ويروي النويري في نهاية الأرب أن المغول لا يريقون على الأرض دم السلاطين والأمراء الذين يحكم بقتلهم. ويشرح ماركوبولو الكيفية التي تمّ بها قتل أحد الأمراء المغول المسمى «تايان» على يد قوبيلاي قان بما يؤيد رواية النويري. مؤرخ المغول الهمذاني: ص ٤٠).

(٢) عبارة شذرات الذهب: «وقتل معه أولاده الثلاثة: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن يوسف، وشرف الدين عبد الله بن يوسف، وتاج الدين عبد الكريم بن يوسف».
وعبارة الحوادث الجامعة: «.. وولده جمال الدين عبد الرحمن، وأخوه شرف الدين عبد الله، وأخوه تاج الدين عبد الكريم».

الخراب العظيم، وأحْرِقت كتب العلم التي كانت بها من سائر العلوم والفنون التي ما كانت في الدنيا؛ قيل: إنّهم بَنَوْا بها جِسْراً من الطين والماء عِوَضاً عن الآجُرّ، وقيل غير ذلك. وكانت كَسْرة الخليفة يوم عاشوراء من سنة ستّ وخمسين وستّمائة المذكورة، ونزل هُولاكُو بظاهر بغداد في عاشر المحرّم، وبَقِي السيفُ يعمل فيها أربعةً وثلاثين يوماً وآخر جُمُعةٍ خَطَب الخطيب ببغداد؛ كانت الخطبة: «الحمد لله الذي هدَم بالموت مشيّد الأعمار، وحكَم بالفناء على أهل هذه الدار، إلى أن قال: اللهمّ أَجِرْنا في مصيبتنا التي لم يُصَب الإسلامُ وأهلُه بمثلها، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون!» ثم عمِل الشعراءُ والعلماءُ قصائدَ في مراثي بغدادَ وأهلها، وعمل الشيخ تقي الدين إسماعيل [بن[1] إبراهيم] بن أبي اليُسْر [[1] شاكر بن عبد الله التَّنُوخِيّ] قصيدَته المشهورة، وهي: [البسيط]

لسائلِ الدَّمْعِ عن بغداد أخبارُ ... فما وُقُوفُك والأحبابُ قد ساروا
يا زائرين إلى الزَّوْرَاء لاتَفِدوا ... فما بذاك الحِمَى والدارِ ديّارُ
تاجُ الخلافةِ والرَّبْعُ الذي شَرُفَتْ ... به المعالمُ قد عَفّاه إقفارُ
أضحى لعَطْفِ البِلَى في رَبْعه أثرٌ ... ولِلدُّموع على الآثارِ آثارُ
يا نارَ قلبيَ من نارٍ لحربِ وَغى ... شَبَّتْ عليه ووافي الرَّبْعَ إعصارُ
علا الصليبُ على أعلى منابرها ... وقام بالأمر مَن يَحْوِيهِ زُنَّارُ

ومنها:

وكم بُدورٍ على البَدْرِيَّة انخسفتْ ... ولم يَعُد لبدور منه إبدارُ
وكم ذخائر أضحتْ وهي شائعةٌ ... من النِّهاب وقد حازتْه كُفارُ
وكم حدودٍ أقيمت من سيوفهمُ ... على الرِّقاب وحُطَّتْ فيه أوزارُ
ناديتُ والسَّبْيُ مهتوكٌ يَجُرُّهُمُ ... إلى السفاح من الأعداء دُعّارُ

ومنها:

(١) زيادة عن فوات الوفيات.

وهم يُساقُون للموت الذي شَهِدوا النار يا ربِّ من هذا[1] ولا العارُ
يا للرِّجالِ بأحداث تحدِّثنا بما غدا فيه إعذارٌ وإنذارُ
من بعد أَسْرِ بني العبّاسِ كُلِّهِمِ فلا أَنارَ لوجه الصُّبْح إسفارُ
ما راق لي قطُّ شيء بعد بَيْنِهِم إلّا أحاديثُ أَرْوِيها وآثارُ
لم يبقَ للدِّين والدنيا وقد ذَهبوا سوقٌ لمجدٍ وقد بانوا وقد باروا
إنّ القيامة في بغدادَ قد وُجِدتْ وحدّها حين للإقبال إدبار
آلُ النبِيّ وأهل العلم قد سُبِيُوا فمَنْ ترى بعدهم تَحْويه أمصارُ
ما كنتُ آملُ أن أبقى وقد ذهبوا لكن أَبَى دون ما أختار أقدارُ

وهي أطول من ذلك. وجملة القصيدة ستة وستون بيتاً. وقال غيره في فقد الخلافة من بغداد بيتاً مفرداً وأجاد: [الكامل]

خَلَتِ المنابرُ والأَسِرَّةُ منهمُ فعليهم حتّى المماتِ سلامُ

اِنتهى ذكر بغداد هنا، ولا بدّ من ذكر شيء منها أيضاً في الحوادث.

وأمّا أمر البحريّة فإنّه لمّا دخلت سنة سبع وخمسين وستمائة رَحَل الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام بعساكرَ في أثر البَحْرِيّة[2]، فاندفعوا البحريّة أمامه إلى الكَرَك؛ فسار الناصر حتى نزل بِركة زَيْزَاء[3] ليحاصر الكَرَك، وصُحْبتُه الملك المنصور صاحب حَمَاة؛ فأرسل الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل صاحب الكَرَك رُسُلَه إلى الملك الناصر يطلب الصلح، وكان مع رُسُله

---

(١) زيادة عن تاريخ الإسلام للذهبي.

(٢) يذكر هنا أن الملك الناصر أرسل ابنه الملك العزيز ـ على أثر سقوط بغداد ـ إلى هولاكو يحمل إليه الهدايا والتحف ويقدم الطاعة ويطلب إليه على لسان أبيه أن يمده بنجدة تساعد في الاستيلاء على مصر وتخليصها من المماليك. فأمر هولاكو أن يتوجه إليه عسكر عدته عشرون ألف فارس. (السلوك: ٤١١/٢/١) ويذكر ابن العبري في حوادث سنة ٦٥٦هـ أن «الأشرف بن الملك الغازي بن الملك العادل صاحب ميافارقين توجه إلى الملك الناصر صاحب حلب يطلب منه نجدة ليمنع المغول من الدخول إلى الشام، فاستخفّ برأيه ولم يسمع مشورته بل صرفه بكلام وسرّحه من عنده بالأمان».

(٣) زيزاء: من قرى البلقاء، يطؤها الحاج، ويقام بها لهم سوق، وفيها بركة عظيمة. (معجم البلدان).

الدارُ[١] القُطْبِيَّة آبنة الملك المفضَّل قُطْب الدِّين بن العادل، وهي من عَمّات الناصر والمُغِيث يتضرَّعون إلى الناصر ويطلبون الصلح ورضاه على آبن المُغِيث، فشرَط عليه الناصر أن يَقبِض على مَنْ عنده من البحريّة، فأجاب إلى ذلك وقَبَض وجهزهم إلى الملك الناصر على الجِمال، وهو نازل ببركة زَيْزَاء. فحملهم الملك الناصر إلى حَلَب وآعتقلهم بقلعتها ما خلا الأمير بِيبرس البُنْدُقْدَارِيّ، فإنّه لمّا أحسّ بما وقع عليه الصلح هرب من الكَرَك في جماعة من البَحْرِيّة وأتى إلى الملك الناصر صلاح الدين المذكور داخلاً تحت طاعته، فأكرمه الملك الناصر وأكرم رُفقته إكراماً زائداً؛ وعاد الناصر إلى دِمَشْق وفي خدمته الأميرُ ركن الدين بِيبَرْس البُنْدُقْدَارِيّ وغيره من البَحْرِيّة.

وأمّا المصريّون فإنّه لمّا بلغ الملك المنصورَ علياً والأميرَ قُطُزْ المعزِّي ما وقع للبحريّة فَرِحا فرحاً زائداً، وزُيِّنت مصر أيّاماً لذلك؛ وصفا الوقت للأمير قُطز. وبينما هو في ذلك ورد الخبرُ عليه بنزول هُولاكو على مدينة آمِدَ من ديار بكر، وأنّه في قَصْد البلادِ الشاميّة، وأنّ هولاكو بعث رسلَه إلى الملك السعيد نجم الدين إيلغاري صاحب ماردِين يستدعيه إلى طاعته وحضرته، فسيّر إليه الملك السعيدُ ولدَه الملكَ المظفّر قرا أَرْسلان وقاضي القُضَاة مهذب الدين محمد [بن مجلّي] والأمير سابقَ الدين بَلَبان وعلى أيديهم هديّة، وحمّلهم رسالةً تتضمّن الاعتذار عن الحضور بمرض مَنَعه الحركةَ. ووافق وصولُهم إلى هولاكو أخذَه لقلعة اليمانيّة[٢] وإنزاله مَنْ بها من حريم صاحب[٣] مَيَّافارِقين وأولاده وأقاربه، وهم: ولده الملك الناصر

(١) الدار: لفظ مؤنث بمعنى الموضع والمثوى والبيت والديوان. وقد استعمل على سبيل الكناية كلقب فخري. وكان في البداية يطلق على الخليفة مع إضافة صفة «العزيزة»، فكان يقال: الدار العزيزة. ثم استعمل للإشارة إلى الجليلات من النساء، فأطلقه العلاء بن موصلايا صاحب ديوان الإنشاء في عصر القائم العباسي على نساء الملوك وغيرهن من السيدات، واستمر هذا الاستعمال حتى أواخر العصر المملوكي، فكان يعبّر عن السيدة بدارها تنزيهاً لها عن التصريح باسمها كما هي الحال في لقب «الجهة» و «الستارة». (الألقاب الإسلامية: ٢٨٢).

(٢) قلعة اليمانية: قلعة أسلم أهلها وسميت باليمانية لأنها فتحت على يد حذيفة بن اليمان. (فتوح البلدان) وهي من جملة قلاع ديار بكر. (انظر الأعلاق الخطيرة: ٢٤٦/٣).

(٣) هو الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر شهاب الدين غازي. وكان الملك الكامل، لما =

صلاح الدين يوسف جغتاي[١]، [وولده] الملك السعيد عمر وآبن أخيه الملك الأشرف أحمد [وولده الملك المشهِّر ابن تاج الملوك علي ابن الملك العادل، وكان ينعت بالملك الصالح نجم الدين أيوب][٢]، فأدّوا الرسالة؛ فقال هُولاكو: ليس مرضه بصحيح، وإنّما هو يتمارض مخافة الملك الناصر صاحب الشام، فإن آنتصرتُ عليه آعتذر لي بزيادة المرض، وإن آنتصر عليّ كانت له اليد البيضاءُ عنده، ثم قال: ولو كان للملك الناصر قوّةٌ يدفعني لم يمكني من دخول هذه البلاد؛ وقد بلغني أنّه بعث حريمَه إلى مصر؛ ثم أمر بردّ القاضِي وحدَه فُردّ القاضي وأخبر الملكَ السعيد بالجواب.

وأمّا هُولاكو فإنّه لا زال يأخذ بلداً بعد أخرى إلى أن آستولى على حلب والشام[٣]، واضمحلّ أمر الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام بعد أمور

= تواترت عليه الأخبار بقصد التتر بلاده، قد نقل حريمه إلى قلعة اليمانية وخرج من ميافارقين إلى آمد. (الأعلاق الخطيرة: ٤٨٨/٣).

(١) في الأعلاق الخطيرة: «جقطاي». قال ابن شداد: والسبب في تسميته بهذا الاسم أن الملك الكامل لما توجّه إلى منكوقاآن سنة ٦٥٢هـ ولد له هذا الولد بقراقرم، فبلغ منكوقاآن ذلك فأمره أن يسميه جقطاي على اسم والده، تكرمة له.

(٢) في الأصل: «وتاج الدين علي ابن الملك العادل» وما أثبتناه عن الأعلاق الخطيرة.

(٣) كانت الشام في ذلك الوقت تتقاسمها سلطات ثلاث: هي سلطة الفرنج وسلطة الأرمن المسيحيين وسلطة الحكام المسلمين الذين كانوا يتمثلون في الأمراء الأيوبيين. وكان هؤلاء الأمراء المسلمون على خلاف فيما بينهم لا يستطيعون الاجتماع على أمر، وإن كان خطيراً مثل مواجهة الغزو المغولي. ومما شجع المغول على التوجه لفتح الشام ومصر هو ذلك التحالف الذي قام في ذلك الوقت بين الحكام المسيحيين في غرب آسيا من جهة وبين المغول من جهة أخرى؛ فقد رأى هيتوم، ملك أرمينية (أرمينية الصغرى أو بلاد قيليقية) أن الفرصة سانحة للانضمام إلى المغول لاستخلاص الشام بوجه عام وبيت المقدس بوجه خاص. ولما كان بوهيمند السادس ملك أنطاكية حليفاً وفياً لجاره هيتوم، وكان قد تزوج من ابنته، دخل هو الآخر في الحلف المغولي. ومما هو جدير بالذكر أنه كان لزوجة هولاكو المسيحية «دوقوز خاتون» أكبر الأثر في توطيد أواصر الصداقة بين الزعماء المسيحيين وبين هولاكو. وهكذا اتخذت حملة هولاكو صفة الحرب الصليبية الأرمينية المغولية، ذلك لأن ملك الأرمن هيتوم كان في علاقته بالمغول لا يتحدث عن نفسه فقط، وإنما كان يتحدث عن صهره الفرنجي بوهيمند. وقد اشتركت مع المغول فرقة أرمينية مسيحية، إذ كان مسيحيو الشرق حين يتحدون مع المغول لمحاربة المسلمين يحسون أنهم إنما يشاركون في حرب صليبية. (انظر مؤرخ المغول الهمذاني: ص ٤٦ ـ ٤٨، والسلوك: ٥١٠/٢/١، حاشية).

ووقائع وقعت له، وآنفلّ عنه أصحابُه. فلمّا وقـع ذلك فارقه الأمير بِيبرس البُنْدُقْدَارِيّ وقدِم إلى مصر ومعه جماعةٌ من البَحْريّة طائعاً للملك المنصور هذا فأكرمه قُطُز وأكرم رفقتَه وصاروا الجميـع من عساكر مصر على العادة أوّلاً. يأتي تفصيل ذلك في ترجمة الملك المظفَّر قُطُز. إن شاء الله تعالى.

ولمّا آستفحل أمر قُطُز بديارِ مصر وصار هو المشار إليه فيها لصغر السلطان الملك المنصور عليّ، ولكثرة حواشي قُطُز المذكور، ثم تحقّق قُطُز مجيء التَّتَار إلى البلاد الشاميّة، وعلِم أنّه لا بدّ من خروجه من الديار المصريّة بالعساكر للذَّبّ عن المسلمين، فرأى أنّه لا يقـع له ذلك، فإنّ الآراء مغلولةٌ لِصغَر السلطان ولاختلاف الكلمة، فجمـع قُطُز كمالَ الدِّين بن العَدِيم الحنفيّ وغيَره من الأعيان والأمراء بالديار المصريّة، وعرّفهم أنّ الملك المنصور هذا صبـي لا يُحسِن التدبير في مثل هذا الوقت الصَّعْب، ولا بدّ أن يقوم بأمر المُلْك رجلٌ شَهْمٌ يطيعه كلّ أحد، وينتصب للجهاد في التّتار، فأجابه الجميـع: ليس لها غيرك! وكان قُطُز قبل ذلك قد قَبَض على الملك المنصور عليّ هذا وعوّقه بالدور السلطانيّـة، فخُلِـعَ الملك المنصور في الحال من الملك وبُويِـعَ الأميرُ قُطُز ولُقّبَ بالملك المظفّر سيف الدين قُطُز، وآعتقل الملكَ المنصور ووالدته بالدور السلطانيّة من قلعة الجبل، وحلّف قُطُز الناس لنفسه وتمّ أمره، وذلك في يوم السبت سابـع عشر ذي القعدة سنة سبـع وخمسين وستمائة. وكانت مدّةُ الملك المنصور في السلطنة بالديار المصريّة سنتين وسبعة[١] أشهر وآثنين وعشرين يوماً، وبقي معتَقَلاً سنين[٢] كثيرةً إلى أن تولّى الملك الظاهر ركن الدين بِيبرس البُنْدُقْدَارِيّ، فنفاه هو ووالدته وأخاه ناصر الدين قاقان[٣] إلى بلاد الأشكري[٤] في ذي القعدة سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة.

---

(١) في الجوهر الثمين والسلوك: «فكانت مدة مملكة المنصور سنتين وثمانية شهور وثلاثة أيام». وفي عقد الجمان: «سنتين وستة أشهر».

(٢) صوابه: «شهوراً كثيرة» لأن قطز استمر في الملك مدة سنة واحدة.

(٣) في الأصل: «قان». وما أثبتناه عن السلوك وعقد الجمان.

(٤) أي الدولة البيزنطية. وأمبراطورها في هذه السنة هو تيودور لاسكاريس الثاني الذي حكم في الفترة ما بين ١٢٥٤ ـ ١٢٥٨م. وكان مقر حكمه مدينة نيقية. (عقد الجمان: ٢٢١، حاشية) والأشكري لقب أطلق على ملوك القسطنطينية. (صبح الأعشى: ٤٥/٨).

قلت: والملك المظفر قُطُز هذا هو أوّل مملوك خَلَع آبنَ أستاذه من الملك وتسلطن عِوضَه، ولم يقع ذلك قبلَه من أحد من الملوك. وتمت هذه السُّنَّة السّيئة في حاصد إلى يوم القيامة. وبهذه الواقعة فسَدَت أحوالُ مصر.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك المنصور عليّ آبن الملك المعزّ أَيْبَك التُّرْكُمَانيّ على مصر

وهي سنة خمس وخمسين وسِتّمائة، على أنّ والده الملك المعزّ حَكَم فيها نحواً من ثلاثة أشهر.

فيها أرسل الملك الناصر يوسف صاحب الشام ولَدَه الملك العزيز بهديّة إلى هُولاكو ملك التّتار وطاغيتهم.

وفيها قَتلت الملكةُ شجرة الدرّ الملكَ المعزّ أَيْبَك، ثم قُتِلت هي أيضاً. وقد تقدّم ذكرُ ذلك كلٍّ واحد على حِدَته في ترجمته من هذا الكتاب، فلا حاجة إلى الإعادة.

وفيها تُوفي الأمير عزّ الدين أَيْبَك بن عبد الله الحلبيّ الكبير، كان من أعيان المماليك الصالحيّة النجميّة، وممّن يُضاهِي الملك المعزّ أيبك التُّـرْكُمانِيّ في مَوْكِبه، وكانت له المكانة العُظْمَى في الدولة، كان الأمراء يعترفون له بالتقدّم عليهم، وكان له عدّة مماليك نجباء صاروا من بعده أمراء، منهم: ركن الدين إياجي الحاجب، وبدر الدين بِيليك الجاشْنَكِير، وصارم الدين أُزْبك الحلبيّ وغيرهم. ولما قُتِل الملك المعزّ أيبك التركمانِيّ حدّثته نفسه بالسلطنة، فلمّا قَبضَ قُطُزْ على الأمير سَنْجَر الحلبي، ركب أَيْبَك هذا ومعه الأمراء الصالحيّة فتقنطر به فرسُه فهلك خارج القاهرة وأُدخل إليها ميتاً؛ وكذلك وقع للامير خاصّ تُرْك. وقد تقدّم ذكر ذلك في ترجمة الملك المنصور.

وفيها تُوُفّي الشيخ الإمام العلّامة نجم الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن الحسن بن عبد الله البغداديّ البادَرَائِيّ؛ وُلِد في سنة أربع وتسعين وخمسمائة،

وسمع الكثير وتفقّه وبَرَع وأفتى ودَرّس، وترسّل عن الخليفة إلى ملوك الشام ومصر غيرَ مرّة إلى هذه السنة، ولي قضاء القضاة ببغداد. ومات في سَلْخ ذي القعدة.

وفيها تُوُفّي الشيخ الأديب أبو الحسن عليّ بن محمد بن الرضا المُوسويّ الحُسَينيّ الشريف المعروف بآبن دفتر خُوَان. وُلِد سنة تسع وثمانين بحَمَاة، وكان فاضلاً وله تصانيف وشعر جيّد، من ذلك قوله: [الطويل]

إذا لُمتُ قلبي قال عيناك أبصرتْ وإن لمتُ عيني قالت الذنبُ للقلبِ
فعيني وقلبي قد تشارَكْنَ في دمي فيا ربّ كن عوني على العين والقلبِ

وفيها تُوُفّيت الصاحبيّة غازيّة خاتون بنت الملك الكامل محمد ابن العادل أبي بكر بن أيّوب، والدة الملك المنصور صاحب حَمَاة. كانت صالحةً ديّنة دَبَّرت مُلْك ولدها المنصور بعد وفاة زوجها الملك المظفّر أحسنَ تدبير، وهي والدة الملك الأفضل نور الدين أبي الحسن عليّ أيضاً. وكانت وفاتها في أواخر ذي القعدة أو في ذي الحجّة من السنة.

وفيها تُوُفّي الشيخ الإمام العالم العلاّمة المقرىء أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن فِيُّره بن خَلَف الرُّعَيْنِيّ الشاطِبيّ الأصل المصريّ المولد والدار الضّرير راوي القصيدة المشهورة في القراءات التي لم يُسْبَق إلى مثلها التي سمّاها «حِرْز الأماني ووجه التهاني». ومولده في حادي عشر ذي الحجّة سنة ست أو سبع وسبعين وخمسمائة بمصر، وتُوُفّي بها في حادي عشر شوّال ودُفن من يومِه بسَفْح المقطّم، ولم يخلف بعدَه مثلُه. وكان الشيخ كثيراً ما يُنْشِدُ هذا اللُّغْزَ وهو «نعش الموتى» واللُّغز المذكور للخطيب أبي زكريّا يحيى بن سلامة الحَصْكَفِيّ، وهو: [الطويل]

أتعرِف شيئاً في السماء نظيره إذا سار صاح الناس حين يسير
فتَلْقَاه مركوباً وتلقاه راكباً وكلُّ أميرٍ يعتليه أسيرُ
يَحضُّ على التَّقْوَى وتكره قُرْبَه وتَنْفِر منه النفسُ وهو نذير

وفيها تُوُفّي الوزير الصاحب شرف الدين هِبَة الله بن صاعد الفائزيّ؛ كان أوّلاً

نَصْرانيًّا يّلقب بالأسعد، وهو منسوب بالفائزيّ إلى الملك الفائز إبراهيم آبن الملك العادل أبـي بكر بن أيّوب، ثم أسلم وتنقّل في الخِدم حتّى ولي الوزارةَ. وكان عنده رياسةٌ ومكارم وعقل وحسن تدبير، وخَدم عدّةَ ملوك وكان محظوظاً عندهم، وهو الذي هجاه الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح، وقيل بهاء الدين زُهَيْر بقوله: [مجزوء الخفيف]

لـعـن الله صـاعـدًا وأبـاه فـصـاعـدًا
وبـنـيـه فـنـازلا واحـداً ثـم واحـدًا

وفيها تُوُفّي أبو الحسن المغربِيّ الميورقي الشيخ نور الدين. كان من أقارب الميورقي الملك المشهور ببلاد الغرب، مات بِدمَشق ودُفِن بقاسِيون، وكان فاضلاً أديباً شاعراً. ومن شعره من أبيات: [البسيط]

القُضْبُ راقصةٌ والطيرُ صادحةٌ والستـر مُـرْتَفِـعٌ والمـاء منحـدِرُ
وقـد تجلّت من اللذات أوجُهُهَـا لكنّهـا بـظلال الـدَّوْح تستتـرُ
فكـلُّ وادٍ بـه مـوسى يُفَجِّـرُهُ وكلُّ رَوْضٍ على حافاته الخضرُ

قلت: وهذا يُشبِه قول من قال في مَلِيح حَلِيق: [الرمل]

مـرّت المُوسَى على عـارضـه فـكـأنّ الـمـاءَ بـالآس غُـمِـرْ
مجمعُ البحـرين أضحى خَـدُّهُ إذ تـلاقى فيـه مـوسـى والخَضِـرْ

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُـوُفّي المحدّث أبو محمد عبد الرحمن بن أبـي الفهم اليَلْدَانِيّ في شهر ربيـع الأوّل، وله سبعٌ وثمانون سنة. والإمام شرف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن أبـي الفضل السُّلَمِيّ المُرْسِيّ في نصف شهر ربيـع الأوّل، وله ست وثمانون سنة. والإمام نجم الدين أبو محمد عبد الله بن أبـي الوفاء البَادَرَائيّ الشافِعيّ في ذي القعدة ببغداد.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وخمس وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وسبع عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك المنصور علي ابن الملك المعِزّ أَيْبَك على مصر

وهي سنة ست وخمسين وستمائة.

فيها آستولى الطاغية هولاكو على بَغْداد، وقتل الخليفةَ المستعصم بالله ومعظمَ أهل بغداد؛ وقد تقدّم ذلك.

وفيها كان الوباء العظيم بِدمشق وغيرِها.

وفيها تُوفِّي الأديب البارع شرف الدين أبو الطيب أحمد بن محمد بن أبي الوَفَا الربعيّ الموصليّ المعروف بابن الحُلاوِي الشاعر المشهور؛ كان من أحسن الناس صورةً وألطفِهم أخلاقاً مع الفضيلة التامة؛ ورحَل البلادَ ومدح الخلفاءَ والملوكَ وخدَم الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤاً صاحب الموصل ولبِسَ زِيَّ الجند. وشعره في نهاية الرِّقة والجَزالة، وهو صاحب القصيدة التي أوّلها: [الطويل]

حكاه من الغُصْن الرَّطيب وَرِيقُهُ ... وما الخمرُ إلّا وجنتاه وريقُهُ
هلالٌ ولكنْ أفْقُ قلبي مَحَلُّهُ ... غَزالٌ ولكنْ سَفْحُ عيني عَقِيقُهُ
وأَسْمرَ يَحْكِي الأسمرَ اللَّدْنَ قَدُّه ... غَدَا راشقاً قلبَ المُحِبِّ رَشيقُهُ
على خَدّه جَمْرٌ من الحُسنِ مُضْرَمٌ ... يُشَبُّ ولكن في فؤادي حريقُهُ
أقَرَّ له من كلّ حُسْنٍ جَلِيلُهُ ... ووافقه من كلّ معنًى دَقِيقُهُ
بديعُ التَّثَنّي راح قلبي أَسِيرَهُ ... على أنّ دمعي في الغرام طَلِيقُهُ
على سَالِفيه للعِذَار جَرِيرَةٌ ... وفي شفتيه للسُّلافِ عتيقُهُ
يُهَدِّد منه الطَّرْفُ مَنْ ليس خَصْمَهُ ... ويُسْكِر منه الريقُ مَنْ لا يَذُوقُهُ

على مثلهِ يَسْتَحْسِنُ الصَّبُّ هَتْكَهُ وفي حُبِّه يجفو الصديقَ صديقُهُ
من التُّرْكِ لا يُصْبيهِ وَجْدٌ إلى الحِمَى ولا ذكر بانات الغُوَيْرِ تَشُوقُهُ
ولا حَلَّ في حَيٍّ تلوحُ قِبَابُهُ ولا سار في رَكْبٍ يُساق وُسُوقُهُ
ولا بات صَباً بِٱلفُرَيْقِ وأهلهِ ولكن إلى خاقانَ يُعْزَى فريقُهُ
له مَبْسِمٌ يُنْسِي المدَامَ بريقِه ويُخْجِلُ نُوَّارَ الأَقَاحِي بَرِيقُهُ
تداويْتُ من حَرِّ الغَرَام ببَرْدِه فأَضْرَم من ذاك الحريق رَحِيقُهُ
إذا خَفَق البَرْقُ اليمانِيُّ موهناً تَذَكَّرته فٱعتاد قلبي خُفُوقُهُ
حَكَى وجهُهُ بدرَ السماء فلو بَدَا مع البدر قال الناس هذا شقِيقُهُ
رآني خيالاً حين وافَى خيالُه فأطرق من فَرْطِ الحَياء طَروقُه
فأشبهتُ منه الخَصْرَ سُقْماً فقد غدَا يُحَمِّلُني كٱلْخَصْرِ ما لا أطِيقُهُ
فما بألِ قلبي كُلُّ حبّ يَهيجُهُ وحتّامَ طَرْفي كلُّ حُسْنٍ يَروقُهُ
فهذا ليومِ البَيْنِ لم تطْفَ ناره وهذا لبُعْد الدارِ ما جَفَّ مُوقُهُ
وللهِ قلبي ما أشَدَّ عفَافَهُ وإن كان طَرْفِي مستمِراً فُسوقُهُ
فما فاز إلّا من يَبيتُ صَبُوحُهُ شرابُ ثَنَاياه ومنها غَبُوقُهُ

وفيها تُوفّي الأمير بَكْتُوت بن عبد الله سيف الدين العَزِيزيّ أستادار[١] الملك

(١) الأستادار: هو الذي يشرف على الواردات الخاصة بالسلطان المملوكي، ويشرف على كل من في القصر من خدم وغلمان؛ وهو الذي يسلمهم رواتبهم وكل ما يحتاجون إليه لعملهم أو لأنفسهم. (صبح الأعشى: ٤٥٧/٥، ومسالك الأبصار: ١١٨). وهذه الكلمة مؤلفة من لفظين فارسيين: هما «إستذ» ومعناه الأخذ، و«دار» ومعناه الممسك. فأدغمت الذال الأولى وهي المعجمة في الثانية وهي المهملة فصار «استدار» والمعنى: المتولي للأخذ؛ سمي بذلك لأنه يتولى قبض المال. (القلقشندي) ويقول الدكتور أحمد السعيد سليمان في تأصيل هذه الكلمة أن لفظ «إستذ» الذي ذكره (القلقشندي) هو «سِتَد» الفارسي، ومعناه الأخذ. (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ١٣ ـ ١٤) ويرى الدكتور حسن الباشا في الألقاب الإسلامية (ص ٢٨٤) أن لفظ «دار» في «استادار» أصله عربي بمعنى القصر أو المحلة، وهو رأي حديث يخالف ما ذهب إليه القلقشندي من أن لفظ «دار» أصله فارسي: «داشتن» ومعناه الممسك أو المتولي، وهو اللفظ الذي دخل في تركيب عدد من الألقاب مثل: جوكندار ودوادار أو جاندار. ويرى الدكتور حسن الباشا أن العرض التاريخي للنقوش التي يظهر فيها اللقب يؤيد الرأي الحديث. وبالتالي فإن اللقب في أصله هو «أستاذ الدار» وليس «إستَذْ دار» أو «سِتَذْ دار». وينقل الدكتور محمد مصطفى

الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام؛ كان من أكابر الأمراء في الدولة الناصريّة، وكان حسن السِّيرة مليحَ الشكل مُتَجَمِّلاً؛ كان موكبُه يُضاهِي مواكبَ الملوك.

وفيها تُوُفّي الملكُ الناصر أبو المظفَّر وقيل أبو المفاخِر داود صاحب الكَرَك آبن الملك المعظَّم عيسى صاحب الشام آبن الملك العادل أبـي بكر صاحب مصر آبن الأمير نجم الدين أيّوب. مولده في جُمادَى الآخرة سنة ثلاث وستمائة؛ ووقع له أمور وحوادثُ ومِحَنٌ تكرّر ذكرها في عِدّة تراجم من هذا الكتاب. وكان تغلّب على الشام بعد موت عمّه الملك الكامل محمد، وقَدِم مصرَ بعد ذلك غيرَ مرّة وتوجّه إلى الشَّرْق، ووقع له أمورٌ يطول شرحها إلى أن مات في جمادَى الأولى. وكان مَلِكاً شجاعاً مِقْداماً فاضلاً أديباً شاعراً؛ وقد تقدّم من شعره عِدّةُ أبيات يستعطف بها الملك الصالح نجم الدين أيّوب في ترجمة الملك الصالح المذكور. ومن شعره أيضاً: [الطويل]

لئِن عاينتْ عيناي أعلامَ جِلَّقٍ ... وبان من القَصْر المَشيد قِبَابُه
تيقّنْتُ أنّ البَيْن قد بان والنّوَى ... نأى شَخْطُها والعيش عاد شبابه

وفيها تُوُفّي العلّامة المُفْتَنّ أبو الفضل، وقيل أبو العَلاء، بهاء الدين زُهَيْر بن محمد بن علي بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن المنصور بن عاصم الأَزْدِيّ المَكّيِّ القُوصِيّ المنشأ المصريّ الدار، الكاتب الشاعر المشهور المعروف بالبهاء زهير صاحب الديوان المشهور. مولده بوادي نَخْلة بقرب مكّة في خامس ذي

زيادة عن إحدى نسخ كتاب السلوك رأياً آخر طريفاً ـ وكان مكتوباً بخط مخالف قبالة لفظ الأستادار وقد جاء فيه: «استادار: كلمة فارسية أصلها «اصطاسرا» بمعنى «اصطا كبير»، ثم عربوه فقالوا: استاذ. ومعنى «سرا» دار الكبير كالسلطان ونحوه، فلما تلاعبوا بهذه الكلمة قالوا: استادار» انتهى. وهذا الرأي له قيمته في تفسير أصل كلمة «أستاذ» إذ يشير إلى أنها تعريب لكلمة «اصطى» الفارسية، وهو عكس الرأي القائل بأن لفظ «أصطى» العامي المعروف في العصر الحاضر تحريف لكلمة «أستاذ».

الحجّة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة؛ وَرُبِّـيَ بصعيد مصر بقُوص، وقرأ الأدبَ وسمـع الحديثَ وبَرَع في النَّظْم والنثْر والترسُّل، وله الشعر الرائق الفائق؛ وكان رئيساً فاضلاً حسن الأخلاق؛ اِتّصل بخدمه الملك الصالـح نجم الدين أيّوب في حياة أبيه الملك الكامل، ودام في خدمته إلى أن تُوُفّي. وقد تقدّم من ذكره في ترجمة الملك الصالـح نبذةٌ جيّدة. وكانت وفاة البهاء زُهَيْر هذا في يوم الأحد قبل المغرب رابـع ذي القعدة وقيل خامسه. ومن شعره ــ رحمه الله ــ : [الطويل]

ولمّـا جفـانِي مَنْ أُحِبّ وخـانني حفِظت له الودَّ الذي كـان ضيّعا
ولـو شئتُ قابلتُ الصـدودَ بمثله ولكنني أبقيتُ للصلـح مـوضعـا
وقد كان مـا قد كـان بيني وبينه أكيـداً ولكنّي رعيتُ ومـا رَعَـى
سعى بيننـا الـواشي ففـرّق بيننـا لك الذنب يا مَن خانني لا لمن سعى

ومن شعره أيضاً قصيدتُه التي أوّلها: [الطويل]

رُوَيْدَك قد أفنيتَ يـا بينُ أَدْمُعِي وحسبُك قد أحرقتَ يا شوقُ أضلُعِي
إلى كم أقاسِي لَوْعـة بعد لَـوْعَةٍ وحتّى متى يا بينُ أنت معي معي
وقالوا علمنا ما جرى منك بعدنا فلا تظلموني ما جرى غير أدمُعي

وفيها تُوُفّي الإمـام الحافظ الحجّـة أبو محمـد زكيّ الدين عبـد العظيم بن عبد القَوِيّ بـن عبد الله بن سلامة بن سعد بن سعيـد المُنْذِرِيّ الـدِّمَشْقِيّ الأصل المصريّ المولِد والدار والوفاة. ولِد سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وسمِـع الكثير ورَحَل وكتب وصنّف وخرّج وأملى وحدّث بالكثير، وتخرّج به جماعةٌ؛ وهو أحد الحُفّاظ المشهورين.

وفيهـا تُوفّي الخليفـة أمير المؤمنين المستعصم بـالله أبـو أحمـد عبـد الله آبن الخليفة المستنصِر بالله منصور آبن الخليفة الظاهر بأمر الله محمد آبن الخليفة

الناصر لدين الله أبي العباس أحمد آبن الخليفة المستضيء بالله أبي الحسن آبن الخليفة المستنجِد بالله أبي المظفَّر يوسف آبن الخليفة المقتفي بالله أبي عبد الله محمد آبن الخليفة المستظهِر بالله أبي العبّاس أحمد آبن الخليفة المقتدي بالله أبي القاسم عبد الله آبن الأمير محمد الذَّخِيرة، وهو غير خليفة، آبن الخليفة القائم بأمر الله عبد الله آبن الخليفة القادر بالله أبي العباس أحمد آبن الأمير إسحاق، وإسحاق غير خليفة، آبن الخليفة المقتدر بالله أبي الفضل جعفر آبن الخليفة المعتضد بالله أبي العباس أحمد آبن الأمير طَلْحة الموَفّق، وطلحة غير خليفة أيضاً، آبن الخليفة المتوَكِّل على الله أبي الفضل جعفر آبن الخليفة المعتصم بالله محمد آبن الخليفة الرشيد بالله هارون آبن الخليفة المهديّ بالله محمد آبن الخليفة أبي جعفر عبد الله المنصور بن محمد بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطلب الهاشميّ البغداديّ، آخر خلفاء بني العباس ببغداد؛ وبموته آنقرضت الخلافة من بغداد. ولي الخلافَة بعد وفاة والده المستنصِر بالله في العشرين من جمادى الأولى سنة أربعين وستمائة، ومات قتيلاً بيد هولاكو طاغية التّتار في هذه السنة. وقد تقدّم كيفية قتله في ترجمة الملك المنصور عليّ هذا، وكانت مدّة خلافته خمس عشرة سنة وثمانيةَ أشهر وأيّاماً. وتقديرُ عمره سبعُ وأربعون سنة. وكان قليلَ المعرفة بتدبير الملك نازل الهمة مُهْمِلاً للأمور المهمّة مُحِباً لجمع الأموال[1] يُقْدم على فعل ما يُستقبَح، أهمل أمرَ هولاكو حتّى كان في ذلك هلاكُه. وشَغَرت الخلافةُ بعده سنينَ، وبقِيت الدُّنْيا بلا خليفة حتّى أقام الملك الظاهر بِيبرس البُنْدُقْدَارِيّ بعضَ بني العبّاس في الخلافة. على ما يأتي ذكر ذلك في ترجمة الظاهر بيبرس البندقداريّ إن شاء الله تعالى.

(١) تذكر المصادر أن هولاكو، بعدما قبض على الخليفة المستعصم، أمر بحرمانه من الطعام؛ فلما أحسّ بالجوع طلب طعاماً فقدم له هولاكو طبقاً مملوءاً بالذهب وأمره أن يأكل. فقال الخليفة: «كيف يمكن أكل الذهب؟» فرد عليه هولاكو: «إذا كنت تعرف أن الذهب لا يؤكل فلم احتفظت به ولم توزعه على جنودك حتى يصونوا لك ملكك الموروث من هجمات هذا الجيش المغير؟ ولم لم تحول تلك الأبواب الحديدية إلى سهام وتسرع إلى شاطىء نهر جيحون لتحول دون عبوري؟» فقال الخليفة: «هكذا كان تقدير الله» فرد هولاكو: «وما سوف يجري عليك إنما هو كذلك تقدير الله».

وفيها تُوُفّي الأمير الأديب الشاعر سيف الدين أبو الحسن عليّ بن عمر بن قزل المعروف بالمُشِدّ الشاعر المشهور. مولده بمصر في شوّال سنة آثنتين وستمائة، وتولّى شَدّ(١) الدواوين بمصر مدّةَ سنين، وكان من أكابر الأمراء الفضلاء وهو قريب الأمير جمال الدين بن يَغْمُور، وله ديوان شعر مشهور بأيدي الناس، وتُوُفّي بدِمِشْق في يوم عاشوراء. ورثاه بعض الفضلاء، فقال: [الكامل]

عاشورُ يومٌ قد تعاظم ذنبُهُ … إذ حَلَّ فيه كلُّ خَطْبٍ مُشْكِل
لم يكْفِهِ قتلُ الحسين وما جَرى … حتّى تعدَّى بالمصاب عَلَى علي

ومن شعره ـ رحمه الله ـ بيتٌ مفرد كلّ كلمة منه قلبُ نفسها وهو: [مجزوء الكامل]

ليلٌ أضاء هلالُهُ … أنّى يضيء بكوكب

ومن شعره أيضاً، قوله: [السريع]

وشادِنٍ أوردني حبُّهُ … لهيبَ حَرِّ الشوق والفُرْقَهْ
أصبحتُ حَرَّاناً إلى ريقِهِ … فليتَ لي من قلبه الرِّقَّهْ

وله أيضاً مضمّناً مُقْتَبِساً: [البسيط]

وافى إليَّ وكأسُ الراح في يدِهِ … فخِلتُ من لطفه أنّ النسيم سَرَى
لا تدرك الراحُ معنًى من شمائِلِهِ … والشمس لا ينبغي أن تُدرك القَمَرَا

وله في خَوْد عمياءَ: [السريع]

(١) الشدّ: ترادف كلمة تفتيش. ويسمى متولي هذه الوظيفة «الشادّ» مضافاً إليها جهة الاختصاص، مثل: شاد الجوالي، وشاد الأوقاف، وشاد الزكاة، وشاد الدواوين وغيرذلك. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٩٣). وشاد الدواوين كانت مهمته مرافقة الوزير والتفتيش على مالية الدواوين وعلى موظفيها. (صبح الأعشى: ٤/٢٢).

عِلقتُها نَجْلاء مثلَ المها فخان فيها الزمنُ الغادرُ
أذهب عَيْنَيْها فإنسانُها في ظلمةٍ لا يهتدي حائرُ
تَجْرَح قلبي وهي مكفوفةٌ وهكذا قد يفعل الباترُ
ونرجس اللحظ غدا ذابلاً واحسرتا لو أنّه ناظرُ

وله في لاعب شِطْرَنج: [السريع]

لعِبتُ بالشِّطْرنج مع شادنٍ رشاقة الأغصان من قَدّه
أحُلُّ عقدَ البَنْد من خصْره وألثم الشاماتِ من خَدّهِ

وفيها تُوُفّي الشيخ الإمام الأديب الرّبانِيّ جمال الدين أبو زكريّا يحيى بن يوسف بن يحيى بن منصور بن المُعَمَّر بن عبد السلام الصَّرْصَرِيّ الضَّرير الشاعر المشهور. كان من العلماء الفضلاء الزُّهّاد العُبّاد، وكان له اليد الطُّولَى في النظم؛ وشعره في غاية الجَوْدة؛ ومدَح النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بقصائد لا تدخل تحت الحصر كثرةً؛ قيل: إنّ مدائِحه في النبيّ صلّى الله عليه وسلّم تقارب عشرين مجلّداً. ومن شعره من المدائح النبويّة قوله: [الخفيف]

زار وَهْناً ونحن بالزَّوْراءِ في مقامٍ خلا من الرُّقَباءِ
من حبيبِ القلوب طيفُ خيالٍ فجلا نُورُه دُجَى الظَّلْماء
يا لها زَوْرةً على غير وَعْدٍ بِتُّ منها في ليلة سَرّاءِ
نَعِمتْ عيشتي وطابت حياتي في دُجاها يا طلعةَ الغَرّاءِ

ومنها:

يا هلالَ السرور يا قمرَ الأنْـ ـسِ ونَجْمَ الهُدَى وشمسَ البَهاءِ
يا ربيع القلوب يا قُرّةَ العيـ ـنِ وباب الإحسان والنَّعْماءِ

ومنها:

سيِّدٌ حُبُّه فخار وتشريـ ـفٌ وعِزٌّ باقٍ لأهل الصَّفاءِ

أحمدُ المصطفى السِّراجُ المنيرُ الـ ـخيـر خـاتَمُ الأنـبِـيـاءِ(١)

ومن شعره في عدد الخلفاء بني العبّاس إلى المستعصِم آخرِ خلفاء بني العبّاس ببغداد، قال: [الطويل]

لِكَرْبِ بني العَبَّاس سَفَّاحهم جلا وجـرّ لمنصـورٍ ومهـدي الـولا
وهـادٍ وهـارون الـرشيـد تـلاهمـا أمينٌ ومـأمـونٌ ومعتصمُ المـلا
وواثـقهـم من بـعـده متـوكّـل ومنتصـر والمستعين بنـو العُـلا
وطـاب بمعتز جَنَى مهتـدٍ كمـا بمعتضـد عيشٌ لمعتـمـد حـلا

قلت: لعله ما قال إلا:

.... كما بمعتمـد عيشٌ لمعتـضـد حـلا

لأن المعتمد عمّ المعتضد وتولى المعتضد الخلافة بعده. اِنتهى.

ومكتفيـاً فـاْعُـدد ومقتدراً وقـد تـلا قـاهـراً راضٍ لمُتَّقِي تـلا
ومستكفيـاً ثم المطيعَ وطـائعـاً وقـادرَهم والقـائم اُعْـدُد محصلا
وبـالمقتدي مستـظهرٌ سـاد مثلمـا بمسترشدٍ والـراشد المقتفي عـلا
بمستنجدٍ والمستضيء ونـاصـرٍ وظـاهرَ والمستنصر آجل مقفّـلا
ومستعصم لا زال بـالنصر قـاهراً لأعدائه ما حنّت العِيسُ في الفلا

قال الذهبيّ: «حكى لنا شيخنا آبن الدَّبَاهيّ(٢) ـ وكان خالَ أمّه (يعني الصَّرْصَرِيّ) ـ قال: بلغَنا أنّه دخل عليه التّتارُ وكان ضريراً، فطَعنَ بعُكّازه بطنَ واحد فقتله، ثم قُتِل شهيداً بيد التّتار». اِنتهى.

قلت: كلّ ذلك في واقعة هولاكو المقدّم ذكرها.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي الأمير سيف الدين

---

(١) الشطر الأخير غير مستقيم الوزن. ويستقيم بأن يقول مثلاً:

أحمد المصطفى السراج المنير الـ ـنـاشر الخير خـاتم الأنـبـيـاء

(٢) هو محمد بن أحمد بن أبي نصر الدباهي البغدادي الزاهد. توفي سنة ٧١١هـ. (شذرات الذهب).

المُشِدّ الشاعر صاحب الديوان، وآسمه عليّ بن عمر بن قزل، في المحرّم. والشيخ يحيى بن يوسف بن يحيى الصَّرْصَرِيّ الزاهد صاحب «الديوان»؛ أُستُشْهِد ببغداد في صَفَر في أمم لا يُحْصَوْن: منهم المستعصم بالله أبو أحمد عبدالله ابن المستنصر، وله سبع وأربعون سنة، وكانت خلافته ستّ عشرة سنة. ومنهم أستاداره محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجَوْزِيّ. ومدرّس المستنصريّة الإمام أبو المناقب محمود بن أحمد بن محمود الزَّنْجَانِي الشافعيّ، وله ثلاث وثمانون سنة. والمحدّث شمس الدين عليّ بن المظفّر بن القاسم النُّشَبِيّ في شهر ربيع الأول. وأبو عَمْرو عثمان بن عليّ القُرَشِيّ ابن خطيب القرافة في شهر ربيع الآخر، وله أربع وثمانون سنة. وأبو العِزّ عبد العزيز بن محمد بن أحمد بن محمد بن صديق المؤدّب الحَرَّانِيّ بدِمَشْق. والملك الناصر أبو المظفّر داود ابن الملك المعظّم ابن العادل في جُمادى الأولى، وله ثلاث وخمسون سنة. والمحدّث نجيب الدين نصر الله بن أبي العِزّ الشَّيْبَانِيّ بن شُقَيْشقَة في جُمادَى الآخرة، وقد جاوز السبعين. وأبو الفضل عبد العزيز بن عبد الوهاب بن بنان الكَفَرْطابِيّ في شوّال، وله تسع وسبعون سنة. والأديب شرف الدين الحسين بن إبراهيم الإِرْبِلِيّ اللغويّ في ذي القعدة، وله ثمانٍ وثمانون سنة. والحافظ زَكيّ الدين عبد العظيم بن عبد القَوِيّ المُنْذِريّ في ذي القعدة، وله ستٌّ وسبعون سنة. والبَهاء زُهَيْر بن محمد بن عليّ المُهَلَّبيّ الكاتب الشاعر. والعارف أبو الحسن عليّ بن عبد الله بن عبد الجبار الشَّاذِلِيّ الضَّرير [بصحراء]عَيْذاب[1] في ذي القعدة. وأبو العبّاس القُرْطُبي أحمد بن عمر بن إبراهيم العَدْل بالإسكندريّة، وله ثمانٍ وسبعون سنة. وخطيب مَرْدَا[2] أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن أحمد الحَنْبلِيّ في ذي الحجّة. والحافظ صدر الدين أبو علي الحسن بن محمد بن محمد بن محمد البَكْرِيّ بالقاهرة في ذي الحجّة، وله آثنتان وثمانون سنة. والشيخ أبو عبد الله الفَاسِيّ محمد بن حسن شيخ الإقراء بحلب في شهر ربيع الآخر.

---

(١) عيذاب: كانت فرضة على بحر القلزم الذي يعرف اليوم بالبحر الأحمر.

(٢) مردا: قرية قرب نابلس. (معجم البلدان).

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربـع أذرع وتسـع عشرة إصبعاً. مبلـغ الزيادة سبـع عشرة ذراعاً وخمس أصابـع.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة الملك المنصور عليّ آبن الملك المعِزّ أَيْبَك على مصر

وهي سنة سبـع وخمسين وستمائة.

فيها خُلِـع الملك المنصور عليّ المذكور بمملوك ابيه الملك المظفّر قُطُز المُعِزّيّ. وقد تقدّم ذلك.

وفيها دخل هولاكو ديار بكر قاصداً حلب. يأتي ذكر ذلك كلّه في ترجمة الملك المظفّر قُطُز إن شاء الله تعالى.

وفيها توفي الملك الرحيم أبو الفضائل بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله الأَتَابَكِيّ صاحب الموصل؛ كان من أجلّ الملوك؛ وطالت أيّامُه بالمَـوْصِل لأنّه أقام بتدبير أستاذه نور الدين أَرْسلان شاه بن عزّ الدين مسعود بن مودود بن زَنْكِي بن آق سُنْقُر التُّرْكِيّ. فلمّا تُوُفّي نور الدين قام بتدبير ولده الملك القاهر عزّ الدين مسعود. فلما تُوُفّي الملك القاهر سنة أربـع عشرة وستمائة أقام صَبِيَّيْن من ولده هما آبنا بنت مظفَّر الدين صاحب إِرْبِل [ثم إنّه أخنى على أولاد أستاذه فقتلهم غِيلَةً][1] واحداً بعد واحد، ثم بعد ذلك آستبدّ بمملكة المَوْصِل وأعمالها سبعاً وأربعين سنةً. وكان كثيرَ التجمُّل بالرُّسُل والوافدين عليه، وكان له هِمّة عالية ومعرفة تامّة، وكان شديدَ البحث عن أخبار رعاياه ما يَخْفَى عنه من أحوالهم إلاّ ما قلّ، وكان يَغْرَم على القُصّاد والجواسيس في كلّ سنة مالاً عظيماً، وكان إذا عدِم من بلاده ما قيمته مائة درهم هان عليه أن يبذُل عشرة آلاف دينار ليبلُـغَ غرضَه في عَوْده، ولا يذهب مالُ رعيته.

(١) زيادة عن عقد الجمان.

قلت: لله درّ هذا الملك! ما أحوج الناسَ إلى مَلِك مثل هذا يَمْلِك الدنيا بأسرها. وكانت وفاته بالمَوْصِل وهو في عشر التسعين سنة.

وفيها تُوفّي الأديب الفاضل أبو عبد الله بهاء الدين محمد بن مَكّي بن محمد بن الحسن القرشيّ الدمشقيّ العدل المعروف بابن الدَّجَاجِيّة؛ كان فاضلاً شاعراً مطبوعاً. ومن شعره قوله: [مخلّع البسيط]

كم تَكْتُم الوجدَ يا مُعَنًّى ... منّا وما يختفي اللَّهِيبُ
سَلْ عَرَبَ الوادِيَيْنِ عمّن ... بانوا فما بيننا غريبُ

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي أبو الحسين أحمد بن محمد بن أحمد الأنصاريّ الإشبيليّ بن السَّرّاج مسند الغَرْب ببِجَاية(١) في صفر، وله سبع وتسعون سنة، وكانت الرِّحْلة إليه من الأقطار. وصدر الدين أسعد بن عثمان بن المُنَجّى(٢)، ودُفِن بمدرسته الصَّدْرِيّة(٣) في شهر رمضان. والمقرِىء شمس الدين أبو الفتح محمد بن موسى الأنصاريّ بدِمَشْق في المحرّم. والملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في شعبان.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وست وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وإصبع واحدة.

---

(١) بجاية: مدينة على ساحل البحر المتوسط في الجزائر. تتبع اليوم ولاية قسنطينة.

(٢) في الدارس: ٢/١٨ نقلاً عن الذهبي «أسعد بن عثمان بن وجيه الدين أسعد بن المنجا» وعن تلميذه ابن كثير: «أسعد بن المنجا بن بركات بن مؤمل».

(٣) المدرسة الصدرية: مدرسة للحنابلة بدمشق، في رأس درب الريحان من ناحية الجامع المبرور (الدارس: ٢/٦٧).

ذكر سلطنة الملك المظفَّر قُطُزْ[1] على مصر

السلطان الملك المظفَّر سيف الدين قُطُزْ بن عبد الله المُعِزّيّ، الثالث من ملوك الترك بالديار المصريّة. وقُطُزْ[2] (بضم القاف والطاء المهملة وسكون الزاي)، وهو لفظ مُغْلِيّ. تسلطن بعد خلع آبن أستاذه الملك المنصور عليّ آبن الملك المُعِزّ أَيْبَك في يوم السبت سابع عشر ذي القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة، وذلك بعد أن عظُمت الأراجيفُ بتحرّك التَّتار نحوَ البلاد الشاميّة وقطعِهم الفُرات وهجمهم بالغارات على البلاد الحَلبِيّة؛ وكان وصل إليه بسبب ذلك الصاحبُ كمال الدين عمر بن العَدِيم رسولاً من الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب والشام يطلب منه النَّجْدَة على قتال التَّتار، فأنزله قُطُزْ بالكَبْش[3] وجمع القضاة والفقهاءَ والأعيان لمشاورتهم فيما يعتمد عليه في أمر التّتار وأن يُؤخذ من الناس ما يُستعان به على جهادهم، فحضروا في دار السَّلْطنة بقلعة الجبل، وحضر الشيخ عِزّ الدين بن عبد السلام والقاضي بدر الدين السِّنْجارِيّ قاضي الديار المصرية وغيرهُما من العلماء. وجلس الملك المنصور عليّ في دَسْت السلطنة، وأفاضوا في

(١) ترجمته وأخباره في السلوك: ٤١٧/٢/١، والخطط المقريزية: ٢٣٨/٢، وخطط علي مبارك: ٨١/١، والجوهر الثمين: ٥٩/٢، وبدائع الزهور: ٣٠٣/١/١، وعقد الجمان: ٢٢٠، ومعجم زامباور: ١٦٢، وشذرات الذهب: ٢٩٣/٥.

(٢) ويقال إن اسمه محمود بن ممدود، وان أمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، وان أباه ابن عم السلطان جلال الدين، وإنما سبي عند غلبة التتار، فبيع بدمشق ثم انتقل إلى القاهرة. (الأعلام: ٢٠١/٥).

(٣) الكبش: اسم يطلق على الجزء الشمالي الغربي من جبل يشكر حيث المنطقة الواقعة غربي جامع ابن طولون. ولا تزال هذه المنطقة إلى اليوم تعرف باسم قلعة الكبش بشارع مراسينا بقسم السيدة زينب بالقاهرة. (محمد رمزي).

الحديث، فكان الاعتماد على ما يقوله ٱبنُ عبد السلام، وخُلاصة ما قال: إنّه إذا طرق العدوُّ بلاد الإسلام وجب على العالم قتالُهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعيّة ما تستعينون به على جِهادكم، بشرط ألّا يبقى في بيت المال شيء، وتبيعوا مالكم من الحوائص[1] المذهبة والآلات النفيسة، ويَقْتَصِر كلُّ الجند على مركوبه وسلاحه ويتساوَوْا هم والعامّة. وأما أخذ الأموال من العامة مع بقايا في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا. وٱنفضّ المجلس على ذلك، ولم يتكلّم السلطان بكلمة في المجلس لعدم معرفته بالأمور ولصغر سِنّه؛ فلهِج الناس بخلْع المنصور وسلطنة قُطُزْ حتّى يقوم بهذا الأمر المهمّ. وٱتّفق ذلك بعد أيّام، وقبضَ قُطُزْ هذا على الملك المنصور عليّ، وٱحتّج لكمال الدين ابن العَدِيم وغيره بأنّه صبيّ لا يُحسن تدبير الملك، وفي مثل هذا الوقت الصّعْب لا بدّ أن يقوم بأمر الملك رجل شَهْم يُطِيعه الناس وينتصب للجِهاد. وكان الأميران: علم الدين سَنْجَر [الغَتْمِي المعظَّمِيّ][2] وسيف الدين بَهَادُر حين جرى هذا الأمر غائبين في الصيد، فاغتنم قُطُزْ لغيبتهما الفرصة، فلمّا حضرا قبض عليهما وٱعتقلهما، وتسلطن. ورَكِب بِشعار الملك، وجلس على كرسيّ السلطنة وتمّ أمره. ولمّا وقع ذلك تقدّم قُطُزْ إلى برهان الدين الخَضِر[3] أن يتوجّه في جواب رسالة الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام صحبةَ الصاحب كمال الدين ابن العَدِيم، ويَعِد الملك الناصر بالنَّجدة وإنفاذ العساكر إليه؛ فتوجّهَا ووصلا إلى دِمَشْق وأدَّيَا الرسالَةَ[4]. ولم يزل البُرْهانُ بدمشق إلى أن رحل الملك الناصر من دمشق إلى جهة الديار المصريّة جافلاً من التّتار.

---

(١) الحوائص: جمع حياصة؛ وهي الحزام أو المنطقة. وهي في الأصل السّير الذي يشدّ به حزام سرج الحصان. وقد ذكرها القلقشندي في الكلام على «الآلات الملوكية» وقال إن ملوك الزمان لم تجر لهم عادة بشدّ منطقة، وإنما يلبسها الملك للأمراء عند إلباسهم الخلع والتشاريف؛ وهي تختلف بحسب اختلاف الرتب، فمنها ما يكون من ذهب مرصع بفصوص ومنها ما ليس كذلك. (التعريف بمصطلحات الصبح: ١١٢).

(٢) زيادة عن السلوك وعقد الجمان.

(٣) هو برهان الدين السنجاري، أبو محمد، الخضر بن الحسن بن علي، قاضي القضاة. (انظر وفيات سنة ٦٨٦هـ).

(٤) ذكر المقريزي في السلوك أنه في تلك السنة كانت الأخبار قد وصلت بقدوم نجدة من عند هولاكو إلى

وكان الناصر لمّا تحقّق بحركة التّتار رحَل إلى بَرْزَةَ شمالي دِمَشق، ونزل بها بعساكره وآجتمـع إليه أممٌ عظيمة من العرب والعجم والتُّرْكُمَان والأتراك والمطوِّعة؛ فلم يعجب الناصر حالُه لِمَا رأى من تخاذل عسكره، وعلم أنّه إذا لاقى التّتار لم يَثْبت عسكره لهم لكثرتهم ولقوّتهم، فإنّ هولاكو في خَلْق لا يُحْصِيهم إلاّ الله تعالى من المُغْل والكُرْج والعجم وغيرهم، ولم يكن من حين قدومهم على بلاد المسلمين من سنة ستّ عشرة وستمائة إلى هذه السنة يلقاهم عسكرٌ إلاّ فَلُّوه سوى وقائـع كانت بينهم وبين جلال الدين بن خُوَارَزْم شاه، انتصف جلالُ الدين في بعضها، ثمّ كبسوه على باب آمِد وبدَّدوا جَمْعَه، وأعقب ذلك موتُ جلال الدين بالقُرْب من ميَّافَارِقين.

وأمّا أمر هولاكو فإنّه في جُمادَى الأولى من هذه السنة نَزَل حَرَّان وآستولى عليها ومَلَك بلاد الجزيرة، ثمّ سيّر ولده أشموط بن هولاكو إلى الشام وأمره بقطع الفُرات وأخذ البلاد الشاميّة، وسيّره في جمـع كثيف من التّتار فوصل أشموط إلى نهر الجَوْز وتلِّ باشِـر، ووصل الخبـرُ إلى حلب من البِيرة بـذلك. وكـان نائب السلطان صلاح الدين يوسف بحلب آبنُه الملك المُعظّم تُورَان شاه، فجفَل الناس بين يدي التّتار إلى جهة دِمْشَق وعظُم الخَطب، وآجتمـع الناس من كلّ فَـجٍّ عند الملك الناصر بدمشق، وآحترز الملك المعظَّم تُورَان شاه آبن الملك الناصر بحلب غاية الاحتراز، وكذلك جميـع نوّاب البلاد الحلبيّة؛ وصارت حلب في غاية الحَصَانة بأسوارها المُحْكَمة البناء وكثرة الآلات. فلمّا كان العَشْر الأخيرُ من ذي الحجّة [سنة سبـع وخمسين وستمائة] قصد التَّتار حلب ونزلوا على قرية يقال لها سَلَمْيَة وآمتدوا إلى حَيْلان[1] والحادي[2]، وسيّروا جماعة من عسكرهم أشرفوا على المدينة.

= الملك الناصر بدمشق، فكتب إليه الملك المظفر، وقد خافه، كتاباً يترفق فيه، ويقسم بالأيمان أنه لا ينازعه في الملك ولا يقاومه، وأنه نائب عنه بديار مصر، ومتى حلَّ بها أقعده على الكرسي، وقال فيه أيضاً: وإن اخترتني خدمتك، وإن اخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيّرت إليك العساكر صحبة من تختاره. فلما قدم على الملك الناصر كتاب قطز اطمأن.

(١) حيلان: قرية شمالي حلب. (الدّر المنتخب: ١٤٠).

(٢) كذا؟ ولعلها: الحاير. ذكرها ابن الشحنة في الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب: ص ٩٩.

فخرج عسكر حلب ومعهم خَلْق عظيم من العوام والسُّوقة، وأشرفوا على التّتار وهم نازلون على هذه الأماكن، وقد ركبوا جميعُهم لانتظار المسلمين، فلمّا تحقّق المسلمون كثرتهم كَرُّوا راجعين إلى المدينة؛ فَرَسم الملك المعظّم بعد ذلك ألاّ يخرج أحد من المدينة.

ولمّا كان غدُ هذا اليوم رحلت التّتار من منازلهم طالبين مدينة حلب، وآجتمع عسكر المسلمين بالنَّواشِير ومَيْدان الحصا وأخذوا في المَشُورة فيما يعتمدونه، فأشار عليهم الملك المعظَّم أنّهم لا يخرجون أصلاً لكثرة التّتار ولقوّتهم وضعف المسلمين على لقائهم، فلم يُوافقه جماعة من العسكر وأَبَوْا إلاّ الخروجَ إلى ظاهر البلد لئلاّ يَطْمَع العدوُّ فيهم؛ فخرج العسكر إلى ظاهر حلب وخرج معهم العوامُّ والسُّوقة وآجتمعوا الجميع بجبل بَانْقُوسَا؛ ووصل جمعُ التّتار إلى أسفل الجبل فنزل إليهم جماعةٌ من العسكر ليقاتلوهم؛ فلما رآهم التّتار آندفعوا بين أيديهم مَكْراً منهم وخديعةً، فتَبِعهم عسكر حلب ساعةً من النهار؛ ثم كرّ التّتار عليهم فولَّوْا منهزمين إلى جهة البلد والتّتار في أَثَرِهم. فلما حاذُوا جبل بَانْقُوسَا وعليه بقيّةُ عسكر المسلمين والعوامّ آندفعوا كلُّهم نحو البلد والتّتار في أعقابهم، فقتلوا من المسلمين جمعاً كثيراً من الجند والعوامّ. وممّن آسْتُشْهِد في ذلك اليوم الأمير علم الدين زُرَيْق العَزِيزِيّ ــ رحمه الله ــ وكان من أعيان الأمراء. ونازل التّتارُ المدينةَ في ذلك اليوم إلى آخره، ثم رحلوا طالبين أَعْزاز فتسلّموها بالأمان.

ثم عادوا إلى حلب في ثاني صفر من سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة وحاصروها حتّى آستَوْلَوْا عليها في تاسع صفر بالأَمَان. فلمّا ملكوها غَدَرُوا بأهل حلب وقتلوا ونهبوا وسَبَوا وفعلوا تلك الأفعال القبيحة على عادة فعلهم. وبلغ الملكَ الناصرَ يوسُفَ أخذُ حلب في منتصف صفر، فخرج الناصر من الشام بأمرائه نحو القبلة. وكان رُسُل التّتار بقرية حَرَسْتَا فأدخِلوا دِمَشْق ليلة الاثنين سابع عشر صفر. وقرِىء بعد صلاة الظهر فَرَمَان (أعني مرسوماً) جاء من عند ملك التّتار يتضمَّن الأمان لأهل دمشق وما حولها، وشَرَع الأكابرُ في تدبير أمرهم. ثم وصلت التّتار إلى دمشق في سابع عشر شهر ربيع الأوّل، فلقِيهم أعيان البلد أحسن مُلْتَقىً وقرِىء ما معهم من

الفَرَمان المتضمِّن الأمان، ووصلت عساكرُهم من جهة الغُوطَة مارِّين من وراء الضِّيَاع إلى جهة الكُسْوة وأهلكوا في مَمَرِّهم جماعة كانوا قد تجمّعوا وتحزّبوا. وفي السادس والعشرين منه جاء منشورٌ من هولاكو للقاضي كمال الدين عمر بن بُنْدار التِّفليسيّ بتفويض قضاء القضاة إليه بمدائن الشام إلى الموصِل وميّافارِقين وغير ذلك، وكان القاضي قبله صدر الدين أحمد بن سَنِيّ الدولة. وتوجّه الملِك الناصر نحوَ الديار المصريّة ونزل العريش ثم قَطْيَا[١] بعد أن تفرّق عسكرُه عنه وتوجّه معظَمُ عسكره إلى مصر قبله مع الأثقال. فلمّا وصل الناصر إلى قَطْيَا عاد منها إلى جهة الشام لشيء بلغه عن الملك المظفّر صاحب مصر، ونزل بوادِي[٢] موسى ثم نزل بِرْكة زَيْزَاء[٣]، فكَبَسه التّتار بها وهو في خواصّه وقليلٍ من مماليكه، فآستأمن الناصرُ من التّتار وتوجّه إليهم. فلمّا وصل إليهم آحتفظوا به وبَقِي معهم في ذُلّ وهَوَانٍ إلى أن قُتِل على ما يأتي ذكره في محله إن شاء الله تعالى.

وأمّا التّتار فإنّه بلغت غارتهم إلى غَزَّة وبلد الخليل ـ عليه السلام ـ فقتلوا الرجال وسَبَوُا النساء والصِّبيانَ وآستاقوا من الأَسْرى والأبقار والأغنام والمواشي شيئاً كثيراً. كلُّ ذلك والسلطان الملك المظفّر قُطُزْ سلطان مصر يتهيّأ للقاء التّتار. فلمّا آجتمعت العساكر الإسلامية بالديار المصريّة ألقى الله تعالى في قلب الملك المظفّر قُطُزْ الخروج لقتالهم بعد أن كانت القلوب قد أيِستْ من النُّصْرة على التّتار، وأجمعوا على حفظ مصر لا غير لكثرة عَدَدهم وآستيلائهم على معظم بلاد المسلمين، وأنّهم ما قصدوا إقليماً إلّا فتحوه ولا عسكراً إلّا هزموه، ولم يبق خارج عن حكمهم في الجانب الشرقيّ إلّا الديار المصريّة والحجاز واليمن، وهَرَب جماعة من المغاربة الذين كانوا بمصر إلى الغَرْب، وهرَب جماعة من الناس إلى اليمن والحجاز، والباقون بَقُوا في وَجَل عظيم وخَوْفٍ شديد يتوقّعون دخول العدوّ

(١) قطيا: كانت قرية من نواحي الجفار في الطريق بين مصر والشام في وسط الرمل قرب الفرما. وقد اندثرت هذه القرية، ولم يبق إلا أطلالها في الطريق بين القنطرة والعريش. (محمد رمزي).

(٢) وادي موسى: واد في قبلي بيت المقدس، بينه وبين أرض الحجاز (معجم البلدان).

(٣) راجع ص ٤٩، حاشية (٣).

وأخَذ البلاد؛ وصمّم الملك المظفَّر ــ رحمه الله ــ على لقاء التَّتار، وخرج من مصر في الجَحَافل الشاميّة والمصريّة في شهر رمضان، وصحبته الملك المنصور صاحب حَمَاة؛ وكان الأَتَابَك فارس الدين أَقْطاي المستعرِب، الأمور كلّها مفوّضة إليه؛ وسيّر الملك المظفّر قُطُزْ إلى صاحب حَمَاة، وهو بالصالحيّة، يقول له: لا تحتفل في مَدّ سِمَاطٍ، بل كلّ واحد من أصحابك يُفْطِر على قطعة لحم في صَوْلَقِه[1]. وسافر الملك المظفّر بالعساكر من الصالحيّة ووصل غَزّة والقلوب وَجِلةٌ[2].

وأما كَتْبُغَانُوين[3] مقدّم التَّتار على عسكر هولاكو لمّا بلغه خروج الملك

---

(١) الصولق: عبارة عن حقيبة كبيرة يعلقها المملوك في الجانب الأيمن من حياصته التي يشدها على وسطه. (نظم دولة سلاطين المماليك: ١٦٢).

(٢) في ذلك الوقت اضطر هولاكو إلى ترك ميدان المعركة والعودة إلى إيران لسببين: أولهما أنه علم بوفاة أخيه الأكبر منكوقاآن في الصين، وكان عليه أن يحضر القوريلتاي (بمثابة المجلس النيابي عند المغول) ليزكي ترشيح أخيه الأوسط قوبيلاي حتى يختار خاناً أعظم. وثانيهما أنه كان مهدداً من جهة الحدود القوقازية من قبل ابن عمه «بركة خان» الذي كان يحكم في القبجاق، خصوصاً وأنه كان قد اعتنق الإسلام فحنق على هولاكو بسبب المذابح الرهيبة التي راح فيها ألوف من الضحايا المسلمين ولتجرئه على مقام الخلافة وقتل الخليفة. وعاد هولاكو إلى إيران، وكان في نيته أن يكتفي بما تمَّ من فتح، غير أن إلحاح المسيحيين الذين كانوا يريدون استرداد بيت المقدس من المسلمين جعل هولاكو يوافق على أن يترك قائده كيتوبوقا (كتبغا) في عشرة آلاف مقاتل لإتمام هذا المشروع. كما عهد إلى هذا القائد بإدارة شؤون الحكم في سورية. وقد عرف عن القائد كيتوبوقا أنه كان يكن أحسن النوايا للمسيحيين، لا لأنه كان مسيحياً فقط، بل لأنه فيما يبدو قد فهم المصلحة من قيام حلف فرنجي مغولي. وبالرغم من أن بوهيمند السادس أمير أنطاكيا كان يشارك كيتوبوقا هذا الشعور، فإن بارونات عكا ظلوا ينظرون إلى المغول كبرابرة لا يمكن أن يفضلوا بنظرهم المسلمين. وحدث أن هاجم أحد هؤلاء البارونات المسمى الكونت جوليان الصيداوي Julien Sidon دورية مغولية وقتل ابن أخي كيتوبوقا، فسخط المغول، وتوجهوا لتخريب صيدا، فكان هذا إيذاناً بانتهاء الحلف الصريح أو الضمني بين الفرنج وبين المغول. وسوف يكون لهذا الوضع أثره الواضح في تسهيل حركة الجيش المصري وإمداداته على الساحل الفلسطيني، خاصة عكا التي كانت بيد الفرنج. وهكذا استطاعت الجيوش الإسلامية هذه المرة بقيادة السلطان قطز أن تدخل المعركة ضد التتار ضمن شروط مناسبة أدت إلى الانتصار الكبير في عين جالوت.

(٣) كتبغا أو كيتوبوقا. و«نوين» لفظ فارسي يقرن بأسماء قواد التتار، ومن ألقاب كفال الممالك القانية كنائب السلطنة وأمراء الألوس ونحوهم؛ وهو يعني أمير عشرة آلاف. ويقال له أيضاً: أمير تومان. (صبح الأعشى: ٤٢١/٤، وعقد الجمان: ٢٨٢).

المظفَّر قُطُزْ كان بالبقاع؛ فآستدعى الملك الأشرفَ [موسى آبن المنصور صاحب حِمْص][١] وقاضيَ القضاة مُحْيِي الدين وآستشارهم في ذلك، فمنهم من أشار بعدم المُلْتَقى والاندفاع بين يدي الملك المظفَّر إلى حيث يجيئه مَدَدٌ من هولاكو لِيَقْوَى على ملتقى العسكر المصريّ، ومنهم من أشار بغير ذلك وتفرّقت الآراء، فآقتضى رأي كَتْبُغَانُوين الملتقى، وتوجّه من فَوْره لِمَا أراد الله تعالى من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشِّرْك وحزبه، بعد أن جمع كَتْبُغَانُوين مَنْ في الشام من التَّتار وغيرهم، وقصد محاربة المسلمين، وصحبته الملك السعيد [حسن][١] آبن الملك العزيز عثمان.

ثم رحل الملك المظفَّر قُطُزْ بعساكره من غَزّة ونزل الغَوْرَ بعَيْن جَالُوت[٣]، وفيه جموعُ التّتار في يوم الجمعة خامس عشرين شهر رمضان، ووقع المصافُّ بينهم في اليوم المذكور، وتقاتلا قتالاً شديداً لم يُرَ مثلُه حتّى قُتِل من الطائفتين جماعة كثيرة وآنكسرت مَيْسرة المسلمين كسرةً شنيعةً، فحَمَل الملك المظفّر ـ رحمه الله ـ بنفسه في طائفة من عسكره وأردف الميسرة حتّى تَحَايَوْا وتراجعوا، وآقتحم الملك المظفّر القتال وباشر ذلك بنفسه وأبلي في ذلك اليوم بلاءً حسناً، وعظُم الحرب وثبت كلٌّ من الفريقين مع كثرة التتار. والمظفَّر مع ذلك يُشَجِّع أصحابه ويُحسِّن إليهم الموت، وهو يَكُرُّ بهم كَرَّةً بعد كَرَّة حتى نصر الله الإسلام وأعزّه، وآنكسرت التّتار ووَلَّوا الادبار على أقبح وجهٍ بعد أن قُتِل معظمُ أعيانهم وأُصيب مُقَدّم العساكر التَّتاريّة كَتْبُغَانُوين، فإنّه أيضاً لَمّا عظُم الخَطْب باشر القتالَ بنفسه فأخزاه الله تعالى

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) زيادة عن السلوك وعقد الجمان. والملك السعيد هذا كان صاحب الصبيبة وبانياس بعد أبيه، ثم أخذتا منه وحبس بقلعة البيرة. ثم إنه انضم إلى التتار وردوا عليه بلاده. وقد جاء معهم إلى وقعة عين جالوت. وفي هذه الوقعة أسر، واقتيد إلى المظفر قطز الذي أمر بضرب عنقه. (عقد الجمان: ٢٧٧).

(٣) عين جالوت: بلدة تقع إلى الشمال الغربي من مدينة بيسان، على مسافة عشرة كيلومترات، على نهر الجالود، بجوار عين ماء يطلق عليها الاسم نفسه، ويذكرها السكان المحليون باسم: عين جالود. (الموسوعة الفلسطينية: ٣٦٨/٣).

وقُتِل شَرَّ قِتْلَة(١). وكان الذي حَمل عليه وقتله(٢) الأمير جمال الدين آقوش الشَّمْسِي ـ رحمه الله تعالى ـ.

وولّوا التّتار الأدبار لا يَلْوُون على شيء، وآعتصم منهم طائفةٌ بالتّل المجاور لمكان الوقعة، فأحدقتْ بهم العساكرُ وصابروهم على القتال حتّى أَفْنَوْهم قتلاً، ونجا مَنْ نجا. وتَبِعهم الأمير ركن الدين بِيبرْس البُنْدُقْدَارِيّ في جماعة من الشُّجْعان إلى أطراف البلاد؛ وآستوفى أهلُ البلاد والضِّياع من التّتار آثارَهم، وقَتلوا منهم مَقْتَلةً عظيمة حتّى إنّه لم يسلَم منهم إلاّ القليل جِداً.

وفي حال الفراغ من المصافّ حضر الملك السعيد [حسن] آبن الملك العزيز عثمان آبن الملك العادل بين يدي السلطان الملك المظفّر قُطُز؛ وكان التّتار لمّا ملكوا قلعة البِيرَة وجدوه فيها مُعْتَقَلاً فأطلقوه وأعطوهَ بانياس وقَلْعة الصُّبَيْبَة فآنضمّ على التّتار وبَقِي منهم، وقاتل يوم المَصَافّ المسلمين قتالاً شديداً، فلما أيّد الله المسلمين بنَصْره وحضر الملوكُ عند الملك المظفّر فحضر الملك السعيد هذا من جملتهم على رَغْم أنفه، فلم يقبل المظفّر عُذْرَه، وأمر بضرب عُنُقِه فضُرِبتْ في الحال.

ثم كتب الملك المظفّر كتاباً إلى أهل دِمَشْق يُخبُرهم فيه بالفتح وكَسْر العدّو المخذول ويَعِدُهم بوصوله إليهم ونَشْر العدل فيهم، فسُرّ عوامُّ دِمَشق وأهلُها بذلك

---

(١) أبدى كتبغا في تلك المعركة ضروباً من الشجاعة منقطعة النظير. ولما أسر أحضر أمام السلطان قطز الذي قال له بتشفّ: « بعد أن سفكت الدم بغير حق، وقلبت الأبطال العظماء بالوعود الكاذبة، وأسقطت الأسر القديمة بالقول الزائف المزور، ها أنت أيضاً قد وقعت أخيراً في الشباك». فرد عليه القائد المغولي رداً في غاية القوة والجرأة: « إني إن هلكت على يديك؛ فإني أعلم أن الله لا أنت هو الذي أراد قتلي. فلا تنخدع بهذا النصر المؤقت، لأنه لا يكاد يصل إلى هولاكو خان خبر موتي حتى يغلي غضبه كالبحر المضطرب فتطأ أرجل الجيوش المغولية أرض البلاد ابتداء من أذربيجان إلى أبواب مصر». وكانت آخر صيحة له أن سبّ هؤلاء السلاطين المماليك الذين ترفعهم الصدف والذين يتخذون قتل ساداتهم وسيلة للوصول إلى الملك، ثم أشاد بالوفاء المغولي فقال: « أنا منذ ولدت كنت عبداً للخان، وليس لي أن أكون كما كنت أنت قاتلاً لسيدي» ثم طلب إلى قطز أن يقضي عليه سريعاً، فأصدر أمره على الفور، فاحتّز رأسه وطيف به في البلاد. (مؤرخ المغول الهمذاني: ٥٥ ــ ٥٦).

(٢) قارن بما جاء في الحاشية السابقة.

سروراً زائداً، وقتلوا فخر الدين محمد بن يوسف بن محمد الكَنْجِيّ[١] في جامع دمشق. وكان المذكور من أهل العلم، لكنّه كان فيه شَرٌّ، وكان رافضياً خبيثاً وآنضم على التّتار. وقتلوا أيضاً بدِمَشق من أعوان التّتار آبن الماسكيني، وآبن النُّفَيْل وغيرهما. وكان النّصارَى بدِمَشْق قد شَمَخُواوتجرؤوا على المسلمين وآستطالوا بتردُّد التّتار إلى كنائسهم. وذهب بعضهم إلى هولاكو وجاؤوا من عنده بفَرَمان يتضمّن الوصيّة بهم والاعتناء بأمرهم، ودخلوا بالفَرَمان من باب تُوما وصُلبانُهم مرتفعةٌ، وهم ينادون بآرتفاع دينهم وآتّضاع دين المسلمين، ويَرُشّون الخمر على الناس وفي أبواب المساجد، فحصل عند المسلمين من ذلك همٌّ عظيمٌ. فلمّا هَرَب نُوّابُ التّتار حين بلغتْهم الكَسْرة أصبح الناس وتوجّهوا إلى دُور النّصارَى ينهبونها ويأخذون ما آستطاعوا منها، وأخربوا كنيسة اليعاقبة وأحرقوا كنيسة مريم[٢] حتّى بقِيت كُوَماً، وقتلوا منهم جماعة وآختفى الباقون. وكانت النصارى في تلك الأيام ألزموا المسلمين بالقيام في دكاكينهم للصَّلِيب، ومَنْ لم يقم أَخْرقُوا [٣] به وأهانوه، وشَقّوا السُّوقَ على هذا الوجه إلى عند القنطرة آخر سُوَيْقة كنيسة مريم؛ فقام بعضهم على الدُّكّان الوُسْطَى من الصف الغربيّ بين القناطر وخطَب وفضّل دينَ النّصارَى ووضَع من دين الإسلام، وكان ذلك في ثاني عشرين شهر رمضان. ثم من الغد طلع المسلمون مع قُضاتهم وشهودهم إلى قلعة دِمَشْق وبها التَّتار فأهانوهم التتار، ورفعوا قِسِّيسَ النَّصارَى عليهم؛ ثم أخرجوهم بالضرب؛ فصار ذلك كلّه في قلوب المسلمين. اِنتهى.

ثمّ إنّ أهل دِمَشْق هموا أيضاً بنهب اليهود فنهبوا منهم يسيراً، ثم كَفُّوا عنهم. ثمّ وصل الملك المظفّر قُطُزْ إلى دِمَشق مؤيداً منصوراً فآنجبرتْ بذلك قلوبُ الرّعايا وتضاعف شكرهم لله تعالى. وآلتقاه أهلُ دِمَشّق بعد أن عَفُّوا آثار النصارَى وخرّبوا

---

(١) أبو عبد الله، محمد بن يوسف بن محمد الكنجي. محدّث من الشافعية نسبته إلى «كنجة» بين أصبهان وخوزستان. نزل بدمشق. ومال إلى التشيّع، وصنّف كتباً في ذلك. (الأعلام: ٧/١٥٠).

(٢) كانت تلك الكنيسة تابعة للطوائف اليونانية المسيحية، ولا يعدلها عندهم سوى كنيسة القيامة ببيت المقدس. (السلوك: ١/٢/٤٢٥، حاشية).

(٣) كذا. وعبارة السلوك: «وأهانوا من امتنع من القيام للصليب».

كنائسَهم جزاءً لما كانوا سَلَفوه من ضرب النواقيس على رؤوس المسلمين، ودخولهم بالخمر إلى الجامع. وفي هذا المعنى يقول بعض شعراء دِمَشْق: [الخفيف]

هَلَكَ الكفـرُ في الشـام جميعـاً وآستجـدّ الإسـلام بعد دُحُـوضِـهْ
بـالمليك المـظفَّـر الملكِ[1] الأرْ وَعِ سيف الإسلامِ عند نهـوضِهْ
مَلِكٌ [جـاءنـا][2] بعَـزْمٍ وحَـزْمٍ فـاعـتـززنـا بسُـمْـرِه وبيضِـهْ
أوجـب الله شكـر ذاك علينـا دائمـاً مثلَ واجبـاتِ فُـروضِـهْ

وفي نُصْرة الملك المظّفر هذا يقول الشيخ شهاب الدين أبو شامَة: [الكامل]

غَلَبَ التّتـارُ على البلاد فجـاءهم من مصـرَ تـركي يجـود بنفسِـهِ
بـالشـام أهلكهم وبَـدّد شَمْلَهُمْ ولكـلّ شيءٍ آفـةٌ من جنسِـهِ

ثم قَدِم الخبر على السلطان بدِمَشق في شوّال بأنّ المنهزمين من رجال التَّتار ونسائهم لحقهم الطُّلْبُ من الأمير ركن الدين بِيبَرْس البُنْدُقْدَارِيّ، فإنّ بِيبَرس كان تقدّم قبل السلطان إلى دِمَشق يتبّع آثار التّتار إلى قرب حلب، فلمّا قَرُب منهم بيبرس سَيَّبُوا ما كان في أيديهم من أُسَارى المسلمين، ورَمَوْا أولادَهم فتخطَّفهم النّاس، وقاسَوْا من البلاء ما يستحقّونه.

وكان الملك المظفر قُطُز قد وَعَد الأميرَ بِيبرس بحلب وأعمالها، فلمّا آنتصر على التّتار آنثنى عزمُه عن إعطائه حلب، وولّاها لعَلاء الدِّين [عليّ بن بدر الدين لؤلؤ][3] صاحب الموصل، فكان ذلك سببَ الوحشة بين بِيبَرْس وبين الملك المظفّر قُطُز. على ما يأتي ذكره.

ولـمّـا قدِم الملك المـظفَّر إلى دِمَشق أحسن إلى النـاس وأجراهم على عوائدهم وقواعدهم إلى آخر أيّام الملك الناصر صلاح الدين يوسف. وسيّر الملكُ

---

(١) في عقد الجمان: «البطل».
(٢) زيادة عن عقد الجمان.
(٣) زيادة عن السلوك.

الأشرفُ صاحبُ حِمْص يطلب منه أماناً على نفسه وبلاده، وكان الأشرف أيضاً ممّن آنضاف إلى التّتار فأمّنه وأعطاه بلادَه وأقرّه عليها؛ فحضر الأشرفُ إلى خدمة الملك المظفّر ثم عاد إلى بلده. ثم توجّه الملك المظفَّر صاحب حماة إلى حَمَاة على ما كان عليه، وكان حضر مع الملك المظفّر قُطُزْ من مصر.

قلت: والملك المظفّر قُطُز هو أوّل مَن ملك البلاد الشاميّة وآستناب بها من ملوك الترك.

ثمّ إنّ الملك المظفّر قُطُز رتّبَ أمورَ الشام وآستناب بدِمَشق الأمير علم الدين سَنْجَر الحَلبِيّ الكبير. ثم خرج المظفّر من دِمَشق عائداً إلى مصر إلى أن وصل إلى القُصَيْر[1]، وبَقِي بينه وبين الصالحيّة مَرْحَلةٌ واحدةٌ، ورحلت العساكر إلى جهة الصالحيّة وضُرِب الدهلِيز السلطانيّ بها وبَقِي المظفَّر مع بعض خواصّه وأمرائه؛ وكان جماعة قد آتّفقوا مع الأمير بِيبرس البُنْدُقْدَارِيّ على قتل الملك المظفّر: منهم الأمير سيف الدين أنص[2] من مماليك [نجم الدين][3] الرومي الصالحي، وعلم الدين صنغلي، و[سيف الدين بَلَبَان][4] الهارونيّ وغيرهم؛ كلّ ذلك لِكَمين كان في نفس بِيبَرس، لأجل نيابة حلب. وآتّفق عند القُصَيْر بعد توجّه العساكر إلى الصالحيّة أن ثارتْ أرنبٌ فساق الملك المظفّر قُطُز عليها، وساق هؤلاء المّتفقون على قتله معه، فلمّا أَبْعَدُوا ولم يبق معه غيرهم، تقدّم إليه الأمير بِيبَرس البُنْدُقْدارِيّ وشَفَع عنده شفاعةً في إنسان فأجابه، فأهوى بِيبَرْس لِيُقَبِّلَ يده فقبض عليها، وحمَلَ

---

(١) القصير: بينها وبين عيذاب ثمانية أيام، وبينها وبين قوص خمسة أيام. وكان فيها مرفأ سفن اليمن. (معجم البلدان: ٣٦٧/٤). والقصير مدينة وميناء على البحر الأحمر، ازدهرت في عصر البطالة باسم «برينيس»، ويربطها بالأقصر طريق معبد (الموسوعة العربية الميسّرة: ١٣٨٥). وقال الأستاذ محمد رمزي في تحديد مكانها اليوم: «وبالبحث تبين لي أن هذه المنزلة هي القرية التي تعرف اليوم باسم الجعافرة إحدى قرى مركز فاقوس بمديرية الشرقية».

(٢) في السلوك: «أنس». وفي الجوهر الثمين: « آنص».

(٣) زيادة عن طبعة دار الكتب المصرية.

(٤) زيادة عن السلوك. وفيه وفي الجوهر الثمين: « بلبان الرشيدي».

أنص عليه، وقد أشغل بِيبَرْس يده، وضربه بالسيف[١]، ثمّ حَمَل الباقون عليه ورمَوْه عن فرسه، ورشَقُوه بالنُّشَّاب فقتلوه؛ ثم حَمَلوا على العسكر وهم شاهرون سيوفهم حتّى وصلوا إلى الدِّهليز السلطانيّ بالصالحيّة؛ فنزلوا ودخلوا والأَتَابك[٢] على باب الدِّهليز فأخبروه بما فعلوا؛ فقال: مَنْ قتله منكم؟ فقال بيبرس: أنا، فقال: يا خَوَنْد، اِجلس على مرتبة السلطان! يأتي بقية ذلك في أوّل ترجمة الملك الظاهر بِيبَرس البُنْدُقْدَارِيّ المذكور. إن شاء الله تعالى.

ولمّا وقـع ذلك وبلـغ الأميرَ علَمِ الدين سَنْجَر الحَلبِـيّ الكبير نائب دِمَشق عَزّ عليه قتل الملك المظفّر، ثم دعا الناسَ لنفسه وآستحلفهم وتلقّب بالملك المجاهد. على ما يأتي ذكره أيضاً. أمّا الملك المظفّر قُطُز فإنّه دُفِن موضـعَ قتله ــ رحمه الله تعالى ــ وكثُر أسفُ الناس وحزنُهم عليه. قال الحافظ أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبـيّ في تاريخه ــ رحمه الله تعالى ــ بعد ما سمّاه ونعته قال:

وكان المظفّر أكبرَ مماليك الملك المُعِزّ أَيْبَك التُّرْكُمَانِيّ، وكان بطلاً شجاعاً مِقْداماً حازماً حسن التدبير، يَرْجـع إلى دينٍ وإسلامٍ وخَيرٍ، وله اليد البيضاءُ في جِهاد التَّتار، فعوّض الله شَبَابه بالجَنّة ورضِي عنه. وحَكَى الشيـخ شمس الدين الجَزَرِيّ[٣] في تاريخه عن أبيه، قال: كان قُطُز في رِقّ ابن الزعيم[٤] بدِمَشْق في القَصّاعين[٥]، فضربه أستاذه فبكى ولم يأكل شيئاً يومَه، ثم رَكِب أستاذُه للخدمة

---

(١) قارن بروايات السلوك وعقد الجمان والجوهر الثمين وبدائع الزهور، ببعض اختلاف عما ورد هنا. ولعل ابن عبد الظاهر في كتابه «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر» ينفرد برواية أن تدبير وتنفيذ مقتل قطز كان على يد بيبرس وحده. قال: «وفعل السلطان الملك الظاهر ما فعله بنفسه، وبلـغ غرضه بمفرده، وذلك بين العساكر العظيمة، والاحتراز الشديد، وما قدر أحد أن يتكلم، ولا جسر أن يمدّ يده إليه».

(٢) المراد به فارس الدين أقطـاي بن عبد الله النجمي الصالحي المستعرب. وسيأتي ذكر وفاته سنة ٦٧٢هـ.

(٣) هو محمد بن إبراهيم بن أبـي بكر الجزري الدمشقي المتوفى سنة ٧٣٩هـ. ــ راجـع الجزء السادس ص ٢٣٦، حاشية (٣).

(٤) عبارة عقد الجمان: ٢٥٥ «وحكى ابن أبـي الفوارس قال: كان هذا قطز مملوكاً لأبن العديم، أو قال لابن الزعيم، رجل من دمشق، فضربه ــ إلخ».

(٥) القصاعين: درب بدمشق حذاء سوق الفسقار، واسمه اليوم سوق مدحت باشا. (تهذيب تاريخ ابن عساكر).

وأمر الفرّاش أن يترضّاه ويُطْعِمَه، قال: فحدّثني الحاجّ عليّ الفراش قال: فجئته وقلت: ما هذا البكاء من لَطْشة[١]؟ فقال: إنّما بكائي من لعنة أبـي وجَدّي وهم خيرٌ منه، فقلت: مَنْ أبوك؟ واحد كافر! فقال: والله ما أنا إلّا مسلم آبن مسلم، أنا محمود بن ممدود[٢] آبن أخت خوارزم شاه من أولاد الملوك، فسكّتُه وترضّيتُه. وتنقّلَتْ به الأحوال إلى أن تملكّ مصرَ. ولمّا تملك أحسن إلى الحاج عليّ الفراش المذكور، وأعطاه خمسمَائة دينار وعَمِل له راتباً. قال الذهبـيّ أيضاً: ولمّا تسلطن لم يَبْلَـع ريقه ولا تَهَنّى بالسلطنة حتى آمتلأت الشامات المباركة بالتّتار؛ ثم ساق الذهبـيّ أمره مـع التّتار بنحو ما حكيناه.

وقال الشيـخ قُطْب الدين: حُكِي عن الملك المظفّر قُطُز أنّه قُتِل جَوَادُه يوم القتال مـع التّتار، ولم يصادف المظفَّرَ أحدٌ من الأوشاقِية[٣] فبقي راجلًا، فرآه بعض الأمراء الشجْعَان فترجّل له وقدّم له حِصانَه، فآمتنـع المظفر من ركوبه وقال: ما كنتُ لأمنـع المسلمين الانتفاع بك في هذا الوقت! ثم تلاحقت الأوشاقيّة إليه. وقال آبن الجَزَرِيّ في تاريخه: حدّثني أبـي قال حدّثني أبو بكر بن الدُّرَيْهم الإسْعِرْدِيّ والزكيّ إبراهيم أستاذ الفارس أقطاي قالا: كنّا عند سيف الدين قُطُز لمّا تسلطن أستاذه الملك المُعِزّ أيْبَك التركمانيّ، فأمرَنا قُطُز بالقعود، ثم أمر المنجم فضَرَب الرّمل، ثم قال له قُطُز: اضرب لمن يَمْلِك بعد أستاذي الملك المعزّ أيبك، ومَنْ يَكسِر التّتار، فضرب وبقِي زماناً يحسب، فقال: يطلـع معي خمسُ حروف بلا نَقْط. فقال له قُطُز: لِمَ لا تقول محمود بن ممدود، فقال: يا خَوَنْد لا ينفـع غير هذا الاسم، فقال: أنا هو، أنا محمود بن ممدود، وأنا أَكْسِر التَّتار وآخُذ بثأر خالي خُوَارَزْم شاه، فتعجّبنا من كلامه، وقلنا: إن شاء الله يكون هذا يا خَوَنْد، فقال: آكْتموا ذلك، وأعطى المنجِّم ثلاثمائة درهم.

قلتُ: ونقل الشيـخ قطب الدين اليُونِينِيّ في تاريخه الذي ذيّله على مرآة

(١) في عقد الجمان: «من ضربة أو ضربتين؟».

(٢) في عقد الجمان: «محمود بن مودود».

(٣) الأوشاقية والأوجاقية: الذين يتولون ركوب الخيل للتسيير والرياضة. (صبح الأعشى: ٥/٤٥٤).

الزمان، فقال في أمر المنجّم غيَر هذه الصورة، وسنذكرها في سياق كلام قطب الدين المذكور. قال (أعني قطب الدين): كان المظفَّر أخصَّ مماليك الملك المُعِزّ وأقرَبهم إليه وأوثقَهم عنده. وهو الذي قَتَل الأمير فارس الدين أقطاي الجَمَدار. قال: وكان الملك المظفَّر بطَلاً شجاعاً مِقْداماً حازماً حسن التدبير لم يكن يوصف بكَرَمٍ ولا شُحٍّ بل كان متوسّطاً في ذلك، وذكر حكايته لمّا أن قُتِل جوادُه يوم الوقعة بنحوٍ ممّا حكيناه، لكنّه زاد بأن قال: فلام المظفَّرَ بعضُ خواصّه على عدم ركوبه، وقال: يا خَوَنْد ــ لو صادفك، والعياذ بالله تعالى ــ بعضُ المُغْل وأنت راجل كنتَ رحتَ وراح الإسلام فقال: أما أنا فكنت رُحْتُ إلى الجنة ــ إن شاء الله تعالى ــ وأما الإسلام فما كان الله لِيُضِيعَه؛ فقد مات الملك الصالح نجم الدين أيّوب، وقُتِل بعده آبنه الملك المعظّم تُوران شاه، وقُتِل الأمير فخر الدين آبن الشيخ مقدّم العساكر يوم ذاك، ونصر الله الإسلام بعد اليأس من نَصْره! (يعني عن نوبة أخذ الفرنج دِمْياط). ثم قال قطب الدين، بعد ما ساق توجّهه إلى دِمَشق وإصلاح أمرها إلى أن قال: وقُتِل الملك المظفّر قُطُز مظلوماً بالقُرْب من القُصَيْر وهي المنزلة التي بقرب الصالحية، وبقِي مُلْقًى بالعَرَاء فدفنه بعضُ مَن كان في خدمته بالقُصَيْر، وكان قبرُه يُقصد للزيارة دائماً. قال: وآجتزْتُ به في شهر رمضان سنة تسعٍ وخمسين وستمائة، وترحّمتُ عليه وزُرْتُه. وكان كثيرَ الترحُّم عليه والدعاء على مَنْ قتله. فلمّا بلغ بِيبَرْس ذلك أمر بنَبْشِه ونقله إلى غير ذلك المكان[1] وعُفِّي أثرُه، ولم يُعفَّ خبُره ــ رحمه الله تعالى وجزاه عن الإسلام خيراً ــ قال: ولم يُخلِّف ولداً ذكراً، وكان قتلُه يومَ السبت سادس عشر ذي القعدة سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة.

قلت: فعلى هذا تكون مدّةُ سلطنة الملك المظفَّر قُطُز سنةً إلّا يوماً واحداً، فإنّه تسلطن في يوم السبت سابع عشر ذي القعدة من سنة سبع وخمسين وستمائة، وقُتِل فيما نقله الشيخ قطب الدين في يوم السبت سادس عشر ذي القعدة من سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة اِنتهى. قال: حَكَى لي المَوْلَى عَلَاء الدين بن غانم في غُرّة

(١) في السلوك للمقريزي: «وحمل قطز بعد ذلك إلى القاهرة فدفن بالقرب من زاوية الشيخ تقي الدين قبل أن تعمر؛ ثم نقله الحاج قطز الظاهري إلى القرافة، ودفن قريباً من زاوية ابن عبود».

شوّال سنة إحدى وتسعين وستّمائة ببْعَلَبَكّ، قال: حدثني المَوْلَى تاج الدين أحمد ابن الأَثِير ــ تغمده الله برحمته ــ ما معناه: أنّ الملك الناصر صلاح الدين يوسف ــ رحمه الله ــ لمّا كان على بَرْزَة في أواخر سنة سبع وخمسين وصله قُصَّادٌ من الديار المصريّة بكتب يُخبرونه فيها أنّ قُطُز تسلطن وملك الديار المصريّة وقَبض على آبن أستاذه. قال المَوْلى تاج الدين ــ رحمه الله ــ: فطلبني السلطان الملك الناصر قرأت عليه الكتب، وقال لي: خذ هذه الكتبَ ورُح إلى الأمير ناصر الدين القَيْمُرِيّ، والأمير جمال الدين بن يَغْمور أَوْقِفْ كلًّا منهما عليها، قال: فأخذتُها وخرجت فلما بعُدتُ عن الدَّهلِيز لقيني حُسام الدين البركتخاني[1] وسلّم عليّ، وقال: جاءكم بَرِيدِيّ أو قُصَّادٌ من الديار المصريّة؟ فورّيتُ وقلت: ما عندي علمٌ بشيء من هذا، قال: قُطُز تسلطن وتملَّك الديار المصريّة ويَكْسِر التّتار؛ قال تاج الدين: فبقِيت متعجِّباً من حديثه، وقلت له: ايش هذا القول، ومن أين لك هذا؟ قال: والله هذا قُطُز خُشْدَاشِي، كنت أنا وإيّاه عند الهَيْجَاوِي من أمراء مصر ونحن صِبْيان، وكان عليه قَمْلٌ كثير، فكنت أُسَرِّح رأسه، على أنّني كلّما أخذت منه قَمْلةً أخذت منه فَلْساً أو صفعتُه، ثم قلت في غضون ذلك: والله ما أشتهي إلا أنّ الله يرزقني إمْرَة خمسين فارساً، فقال لي: طيِّب قلبك، أنا أُعطيك إمْرَة خمسين فارساً، فصفَعته وقلت: أنت تعطيني إمرة خمسين! قال: نعم فصفَعته، فقال لي: وألك عِلَّة! ايش يلزم لك إلاّ إمرةُ خمسين فارساً؟ أنا والله أُعطيك، قلت: ويلك! كيف تُعطيني؟ قال: أنا أَملِك الديار المصريّة، وأَكْسِر التّتار وأُعطيك الذي طلبت، قلت: ويلك أنت مجنون! أنت بقَمْلك تَمْلِك الديار المصرية؟ قال: نعم، رأيت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في المنام وقال لي: أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم حقٌّ لا شكَّ فيه، قال: فسكت وكنت أعرف منه الصدق في حديثه وعدَمَ الكذب. قال تاج الدين: فلمّا قال لي هذا، قلت له: قد وردت الأخبار بأنّه تسلطن، قال لي: واللهِ وهو يَكْسِر التّتار. قال تاج الدين: فرأيت حسام الدين البركتخاني ــ الحاكي ذلك ــ بالديار المصريَّة بعد كَسْر التّتار فسلّم

(١) في الأصل: «البركزخاني» وما أثبتناه عن عقد الجمان.

عليّ، وقال: يا مولاي تاج الدين، تَذْكُرُ ما قلتُ لك في الوقت الفلانيّ؟ قلت: نعم، قال: واللهِ حالما عاد الملك الناصر من قَطْيا دخلْت الديار المصريّة أعطاني إمرة خمسين فارساً كما قال، لا زائدَ على ذلك. قال: وحكى لي عِزّ الدين محمد بن أبي الهَيْجاء ما معناه: أنّ سيف الدين بُلُغاق حدّثه أنّ الأمير بدر الدين بَكْتُوت الأتابكيّ، حَكَى لي قال: كنتُ أنا والملك المظفّر قُطُز والملك الظاهر بِيبَرْس ـ رحمهما الله تعالى ـ في حال الصِّبا كثيراً ما نكون مجتمعين في ركوبنا وغير ذلك، فاتّفق أنْ رأينا منجِّماً في بعض الطريق بالديار المصريّة، فقال له الملك المظفّر قُطُز: أَبْصِر نجْمِي، فضَرَب بالرّمل وحسب وقال: أنت تَمْلِك هذه البلادَ وتَكْسِر التّتار، فشرَعْنا نهزأ به. ثم قال له الملك الظاهر بِيبَرْس: أَبْصِر نَجْمِي، فقال: وأنت أيضاً تَمْلِك الديار المصريّة وغيرها، فتزايد آستهزاؤنا به. ثم قالا لي: لا بدّ أن تبصر نجمك، فقلت له: أَبصِرْ لي نجمي، فحسب وقال: أنت تخلص لك إمرة مائة فارس، يعطيك هذا، وأشار إلى الملك الظاهر، فاتّفق أن وقع الأمْر كما قال، ولم يُخْرَم منه شيء. وهذا من عجيب الاتّفاق. اِنتهت ترجمة الملك المظفر قُطُز. ويأتي ذكر حوادثه على عادة هذا الكاتب إن شاء الله تعالى.

* * *

السنة التي حكم فيها الملك المظفّر قُطُز على الديار المصريّة

وهي سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة على أنّه حَكَم من سنة سبع شهرين وقُتِل قبل آنقضاء السنة أيضاً بشهرين.

فيها كانت كائنة التّتار مع الملك المظفّر قُطُز وغيره، حسب ما تقدّم ذكره من أنّهم ملكوا حلب والشام ثم رحلوا عنها.

وفيها غلت الأسعار بالبلاد الشاميّة.

وفيها تُوُفّي الملك السعيد نَجْم الدين إِيلْغَازي آبن الملك المنصور ناصر الدين أبي المظفّر أَرْتُق بن أَرسلان بن نجم الدين إِيلْغازي بن أَلْبِي بن تِمِرْتَاش بن إيلغازي بن أرْتُق، السلطان أبو الفتح صاحب مَارِدين. كان ملكاً جليلاً كبير القَدْر

شجاعاً جَوَاداً حازماً مُمَدّحاً. مات في ذي الحجّة، وملك ماردين بعده آبنه الملك المظفَّر رحمه الله.

وفيها تُوُفِّي الملك المعظَّم فخر الدين أبو المفاخر تُورَان شاه آبن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب؛ كان قد كَبِرت سِنُّه وصار كبير البيت الأيّوبيّ، وكانت نفسه لا تُحدِّثه بالوثوب على الأمر، فلذلك عاش عيشاً رَغَداً وطال عمره. وكان الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام يُعظِّمه ويحترمه ويَثِق به. وهو غير الملك المعظم تُورَان شاه آبن الملك الصالح نجم الدين أيوب. وقد تقدّم قتلُ هذاك في كائنة دِمْياط، وعُدّ أيضاً من ملوك مصر. وتوران شاه هذا هو ابن عمّ الملك الكامل محمد جدّ توران شاه هذاك. وهو أيضاً غير توران شاه ابن الملك الكامل محمد المعروف بأَقْسِيس(١). اِنتهى. ومولد تُورَان شاه هذا بالقاهرة في سنة سبع وسبعين وخمسمائة ومات في شهر ربيع الأوّل من هذه السنة بحلب.

وفيها قُتِل الأمير كَتْبُغَانُوين مقدّم عساكر التّتار الذي قُتِل في الوقعة التي كانت بينه وبين المظفّر قُطز بعَيْن جالوت المقدّم ذكرها. كان كَتْبُغَانُوين عظيماً عند التَّتَار يعتمدون على رأيه وشجاعته وتدبيره، وكان بَطَلاً شجاعاً مِقْداماً خبيراً بالحروب وآفتتاح الحصون والاستيلاء على الممالك، وهو الذي فَتَح معظَم بلاد العجم والعراق. وكان هولاكو مَلِك التتار يَثِق به ولا يُخالفه فيما يُشير إليه ويتبرّك برأيه. يُحْكَى عنه عجائب في حروبه، وكانت مَقْتلته في يوم الجمعة خامس عشرين شهر رمضان في المصافّ على عَيْن جالوت.

قلت: إلى سَقَر وبئس المصير، ولقد آستراح الإسلام منه، فإنّه شرّ عِصَابة على الإسلام وأهله. ولله الحمد على هلاكه.

---

(١) تقدم في الجزء السادس في غير موضع أن ابن الملك الكامل المسمى بأقسيس هو الملك المسعود صلاح الدين أبو المظفر يوسف ابن الملك الكامل صاحب اليمن؛ ولم يسمَّ بتوران شاه كما يذكر المؤلف هنا.

وفيها تُوُفّي الملك المظفَّر أبو المعالي ناصر الدين محمد آبن الملك المظفّر غازي بن أبـي بكر محمد العادل بن أيّوب صاحب مَيَّافَارِقِين وتلك البلاد. مَلَكها في سنة خمس وأربعين وستمائة عقيب وفاة والده، [و] دام في الملك سنين إلى أن جَفَل من التّتار بعد أن كان يُدارِيهم سنين، وقَدِم على الملك الناصر صلاح الدين يوسف بدِمَشْق وآستنجده على التّتار فوعده الناصر بالنَّجْدة، وآخر الأمر أنّه رجع إلى بلاده، وحصره التّتار بها نحو سنتين حتّى آسْتُشْهِد بأيديهم ـ رحمه الله تعالى وعفا عنه ـ.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي وآسْتُشْهِد بحلب خلائق لا يُحْصَوْن؛ منهم، إبراهيم بن خليل الأَدَمِيّ. والرئيس أبو طالب عبد الرحمن آبن عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن العَجَمِيّ، تحت عذاب التّتار. وبدِمَشْق عبد الله آبن بركات بن إبراهيم [المعروف بابن][1] الخُشُوعِيّ في صفر. والعِمَاد عبد الحميد بن عبد الهادي المَقْدِسِيّ في شهر ربيع الأوّل عن خمس وثمانين سنة. والملك المعظّم تُورَان شاه ابن السلطان صلاح الدين في شهر ربيع الأوّل، وله إحدى وثمانون سنة. والشمس محمد بن عبد الهادي أخو العماد بقرية ساوية [من عمل نابلس] شهيداً. وقاضي القضاة صدر الدين أحمد آبن شمس الدين أبـي البركات يحيى بن هبة الله ابن سَنِيّ الدولة ببعْلَبَكّ، وقد قارب السبعين في جُمَادى الآخرة. وأبو الكرم لاحق بن عبد المنعم الأَرْتَاحِيّ بالقاهرة، وله خمس وثمانون سنة. والحافظ المفيد مُحِبّ الدين عبد الله بن أحمد المَقْدِسِيّ. والفقيه الكبير أبو عبد الله محمد بن أبـي الحسين [أحمد][2] بن عبد الله اليُونِينِيّ في رمضان، وله سبع وثمانون سنة في المحرّم. والحافظ البليغ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبـي بكر القُضَاعِيّ البَلَنْسِيّ الكاتب المعروف بـ[ابن] الأَبَّار بتُونس مقتولاً. والملك الكامل الشهيد ناصر الدين محمد آبن المظفّر شهاب الدين

---

(١) زيادة عن الشذرات.

(٢) زيادة عن الشذرات والسلوك.

غازي ابن العادل. والملك المظفّر الشهيد سيف الدين قُطُز في ذي القعدة، فتكُوا به في الرمل. وصاحب الصُّبَيْبَة الملك السعيد حسن ابن العزيز عثمان ابن العادل، قُتِل صَبْراً يوم عَيْن جالوت بأمر الملك المظفّر. وفي آخرها صاحب مارِدين الملك السعيد نجم الدين إيْلغازي بن أُرْتُق. والملك كَتْبُغانُـوِين رأس التّتار يـوم عَيْن جـالوت، قتله آقوش الشَّمْسِيّ. وحُسام الدين محمد بن أبـي عليّ الهَذَبانِيّ نائب السلطنة بمصر. والأمير مُجِير الدين إبراهيم [بن أبـي بكر][1] بن أبـي زكري بنابُلُس شهيداً بعد أن قَتَل جماعة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وست عشرة إصبعاً. مبلـغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وإحدى عشرة إصبعاً.

(١) زيادة عن المنهل الصافي.

ذكر سلطنة الملك الظاهر بِيبرس[١] البُنْدُقْدَاريّ على مصر

السلطان الملك القاهر ثم الظاهر ركن الدين أبو الفتوح[٢] بيبرس بن عبد الله البُنْدُقْدَاريّ[٣] الصالِحيّ النَّجْميّ الأَيُّوبِيّ التُّرْكِيّ، سلطان الديار المصريّة والبلاد الشاميّة والأقطار الحجازية، وهو الرابع من ملوك الترك. مولده في حدود العشرين وستمائة بصحراء القِبْجَاق تخميناً؛ والقِبْجَاق قبيلة عظيمة في التّرك، وهو (بكسر القاف[٤] وسكون الباء ثانية الحروف وسكون الياء المثناة من تحتها ثم فتح الباء الموحدة وسكون الراء والسين المهملتين) ومعناه باللغة التركيّة: أمير فَهْد. اِنتهى.

قلت: أُخِذ بِيبرس المذكور من بلاده وأُبِيع بدمشق للعماد الصائغ. ثم آشتراه الأمير علاء الدين أَيْدِكِين الصالحي البُنْدُقْدَارِيّ وبه سُمِّي البُنْدُقْدَارِيّ.

قلت: والعجيب أن علاء الدين أَيْدِكِين البُنْدُقْدُارِيّ المذكور عاش حتّى صار من جملة أمراء الظاهر بِيبَرس هذا. على ما سيأتي ذكره مفصّلاً ــ إن شاء الله

(١) ترجمته وأخباره في: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر لمحيي الدين بن عبد الظاهر، والسلوك: ٤٣٦/٢/١، والخطط المقريزية: ٢٣٨/٢، وخطط علي مبارك: ٨١/١، والجوهر الثمين: ٦٦/٢، وبدائع الزهور: ٣٠٨/١/١، وعقد الجمان: ٢٦١، ومعجم زامباور: ١٦٢، وشذرات الذهب: ٣٥٠/٥.

(٢) في بعض المصادر: «أبو الفتح».

(٣) البندقداري: نسبة إلى البندقدار، وهو الذي يحمل قوس البندق خلف السلطان أو الأمير. وقد سمي بيبرس بهذا الاسم لأنه كان في أول أمره مملوكاً للأمير أيدكين البندقدار، ثم انتقل إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب وصار من مماليكه البحرية. (صبح الأعشى: ١٣٧/٢ و٤٥٨/٥، والسلوك: ٣٥٠/٢/١ ٨٨ حاشية).

(٤) ضبطه القلقشندي في صبح الأعشى بفتح القاف.

تعالى ــ حَكَى شيخ الشيوخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاريّ الحَمَوِيّ قال:

كان الأمير علاء الدين البُنْدَقَدارِيّ الصالحيّ لمّا قُبِض عليه وأُحْضِر إلى حَمَاةَ وآعْتُقل بجامع قلعتها آتّفق حضور ركن الدين بِيبَرْس مع تاجر، وكان الملك المنصور (يعني صاحب حماة) إذ ذاك صبياً وكان إذا أراد شراء رقيق تُبْصِرُه الصاحبة[١] والدته، فأحْضِر بِيبَرْس هذا مع آخَر فرأتْهما من وراء السِّتْر فأمرتْ بشراء خُشْدَاشِه، وقالت: هذا الأسمر لا يكون بينك وبينه معاملة فإنّ في عينيْه شَراً لائحاً فردّتهما جميعاً؛ فطلب البُنْدُقْدَارِيّ الغلامين يعني بِيبَرْس ورفيقَه فآشتراهما وهو مُعْتَقَل ثم أُفْرِج عنه فسار إلى مصر؛ وآل أمر ركن الدين إلى ما آل.

وقال الذهبيّ: إشتراه الأمير علاء الدين البُنْدُقْدَارِيّ الصالحيّ فطلَع بطلاً شجاعاً نجيباً لا ينبغي [أن] يكون إلّا عند مَلِك، فأخذه الملك الصالح منه. وقيل: بَقِي بيبرس المذكور في مِلْك البُنْدُقداريّ حتى صادره أستاذه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأخذَ بِيبَرْس هذا فيما أخذه منه في المصادرة في شهر شوّال سنة أربع وأربعين وستمائة.

قلت: وهذا القول هو المشهور.

ولمّا آشتراه الملك الصالح أعتقه وجعله من جملة مماليكه، وقدّمه على طائفة الجَمَداريّة لِمَا رأى من فِطْنته وذكائه؛ وحضر مع أستاذه الملك الصالح واقعةَ دِمْياط.

وقال الشيخ عزّ الدين عمر بن عليّ بن إبراهيم بن شدّاد: أخبرني الأمير بدر الدين بَيْسَري[٢] الشَّمْسِيّ أنّ مولد الملك الظاهر بأرض القبجاق سنة خمس وعشرين وستمائة تقريباً. وسبب آنتقاله من وطنه إلى البلاد أنّ التّتار لمّا أَزْمَعوا على

(١) الصاحبة: لقب مؤنث يعبّر به عن المرأة. وقد ورد ذكره في كثير من المؤلفات في تلقيب أميرات البيت الأيوبي. (الألقاب الإسلامية: ٣٧٦).

(٢) هو الأمير بيسري بن عبد الله الشمسي الصالحي. كان من أعيان الأمراء بالديار المصرية. توفي سنة ٦٩٨هـ.

قصد بلادهم سنة تسع وثلاثين وستمائة، وبلغهم ذلك، كاتبوا أنس خان ملك أولاق[١] أن يعبُروا بحر سُوداق[٢] إليه ليجيرهم من التّتار، فأجابهم إلى ذلك وأنزلهم وادياً بين جَبَلَيْن، وكان عبورُهم إليه في سنة أربعين وستمائة؛ فلما آطمأنّ بهم المقام غَدَر بهم وشنّ الغارة عليهم، فقتل منهم وسَبَى. قال بَيْسَري: وكنتُ أنا والملك الظاهر فيمن أُسِر؛ قال: وكان عمره إذ ذاك أربع عشرة سنة تقديراً، فبيع فيمن بِيع وحُمِل إلى سِيَواس[٣] ثمّ آفترقنا وآجتمعنا في حلب في خان آبن قلِيج ثم آفترقنا؛ فآتّفق أن حُمِل إلى القاهرة فبِيع على الأمير علاء الدين أيْدِكِين البُنْدُقْدَارِيّ وبقي في يده إلى أن آنتقل عنه بالقبض عليه في جملة ما آسترجعه الملك الصالح نجم الدين أيُّوب منه، وذلك في شوّال سنة أربع وأربعين وستمائة.

قلت: وهذا القول مطابق لقولنا[٤] الذي ذكرناه. قال: ثم قدّمه الملك الصالح على طائفة الجَمَدَارِيّة. انتهى.

وقال غيره: ولمّا مات الملك الصالح نجم الدين أيّوب ومَلَك بعده آبنه الملك المعظّم تُوران شاه وقُتِل وأجمعوا على الأمير عِزّ الدين أَيْبك التُّركمانِي وولَّوْه الأتَابكيّة، ثم آستقلّ بالمُلك وقَتَل الأمير فارس الدين أَقْطاي الجَمَدار، ركِب الملك الظاهر بِيبرس هذا والبحريّة وقصدوا قلعة الجبل؛ فلمّا لم ينالوا مقصودهم خرجوا من القاهرة مجاهِرين بالعداوة للملك المعزّ أَيْبَك التُّرْكُماني ومهاجرين إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام. وهم: الملك الظاهر بِيبَرْس هذا، وسيف الدين بَلَبان الرَّشِيديّ، وعِزّ الدين أَزْدَمُر السَّيْفيّ، وشمس الدين سُنْقُر الرُّومِي، وشمس الدين سُنْقُر الأشقر، وبدر الدين بَيْسَرِيّ الشَّمْسِيّ، وسيف الدين قلاوون الألفي، وسيف الدين بَلَبَان المستعرِب وغيرهم؛ فلمّا شارفوا دِمَشق سيّر

---

(١) أي ملك البلغار. (صبح الأعشى: ٥/٣٩٤).

(٢) سوداق وصوداق: تقع في ذيل جبل على شط بحر القرم، وهي فرضة للتجار. والعامة يقولون: سرداق. (صبح الأعشى: ٤/٤٥٨).

(٣) سيواس: هي مركز ولاية سيواس في تركية، تبعد حوالى ٢٢٥ ميلاً إلى الشرق من أنقرة.

(٤) روى المؤلف أنه بيع بحماة، ثم روى أنه بيع بدمشق. وكلاهما مختلف عما ورد هنا.

إليهم الملك الناصر طيّب قلوبهم، فبعثوا فخر الدين إياز[١] المقرىء يستحلفه لهم فحلف الناصرُ لهم ودخلوا دِمَشْق في العشر الأخير من شهر رمضان سنة آثنتين وخمسين وستمائة، فأكرمهم الملك الناصر صلاح الدين وأطلق للملك الظاهر بِيبَرْس ثلاثين ألفَ درهم، وثلاثة قُطُر بِغال وثلاثةَ قطر جِمال وملبوساً، وفرّق في بقيّة الجماعة الأموال والخِلَـع على قدر مراتبهم. وكتب الملك المُعزّ أَيْبَك إلى الملك الناصر يُحَذِّره منهم ويُغْرِيه بهم، فلم يُصْـغ إليه الناصر، ودام على إحسانه إليهم. وكان عَيَّن الناصرُ لبِيبَرْس إقطاعاً بحلب، فطلب الملك الظاهر بِيبَرْس من الملك الناصر أن يُعَوِّضه عمّا كان له بحَلَب من الإقطاع بجِينِين وزِرْعين[٢] فأجابه الملك الناصر إلى ذلك؛ فتوجّه بِيبَرْس إليها وعاد، فاستشعر بِيبَرْس من الملك الناصر بالغدر فتوجّه بمَنْ معه ومَنْ تَبِعه من خُشْداشيته إلى الكَرَك، وآجتمعوا بصاحب الكَرَك الملك المُغيث عمر[٣] بن العادل أبي بكر بن الكامل محمد، فجهَّز الملكُ المُغِيثُ عسكره مـع بِيبرس المذكور، وعِدَّةُ مَن كان جهزّه معه ستُّمائة فارس، وخرج من عسكر مصر جماعةٌ لملتقاه؛ فأراد بِيبَرْس كبسَهم فوجدهم على أُهْبة، ثم واقـع المصريّين فآنكسر ولم يَنْـجُ منهم إلّا القليل، فالذي نجا من الأعيان: بِيبَرْس وبِيلِيك الخازِنْدار، وأسِر بَلَبَان الرَّشِيدي. وقد تقدّم ذكر ذلك كلِّه في ترجمة المُعِزّ مجملاً، ولكن نذكره هنا مفصَّلاً. وعاد بِيبَرْس هذا إلى الكَرَك وأقام بها، فتواترت عليه كتبُ المصريّين يحرِّضونه على قصد الديار المصريّة، وجاءه جماعةٌ كثيرة من عسكر الملك الناصر. فأخذ بِيبَرْس يُطْمِـع الملك المغيثَ صاحبَ الكرك في مُلْك مصر، ولا زال به حتّى رِكِب معه بعسكره ونزل غَزّة. ونَدَب الملك المعزُّ أيبك عسكراً

---

(١) هو إياز بن عبد الله الصالحي النجمي المعروف بالمقرىء أحد أكابر الأمراء بالديار المصرية. توفي سنة ٦٨٧هـ. (المنهل الصافي).

(٢) جينين: هي مدينة جنين في فلسطين؛ تقـع عند النهاية الشمالية لمرتفعات نابلس فوق أقدام الجبال المطلة على سهل مرج ابن عامر. أما زرعين: فهي قرية تقـع على مسافة ١١ كلم شمالي شرقي جنين. وقد طردت سلطات الاحتلال الصهيوني سكان زرعين العرب من ديارهم عام ١٩٤٨ ودمرت قريتهم وأقامت عام ١٩٤٩ على أراضيها مستعمرة «يزرعيل» على بعد ٤ كلم من العفولة. (الموسوعة الفلسطينية: ٢/٨٣ و٥١٢).

(٣) في الأصل: «علي» وهو خطأ.

لقتالهم، وقدم على العسكر المصريّ مملوكه الأمير قُطُزْ والأمير أَقْطَاي المستعرِب، وساروا وهرب من عسكر مصر إلى بِيبَرْس والمغيث الأميرُ عِز الدين أَيْبَك الروميّ، والأمير بَلَبَان الكافوريّ والأمير سُنْقُر[١] شاه العَزيزيّ، والأمير أَيْبَك الخَوَاشِي[٢]، والأمير بدر الدين برخان[٣]، والأمير بُغْدِيّ، وأَيْبَك الحَمَويّ، وجمال الدين هارون القَيْمُرِيّ والجميع أمراء، وآجتمعوا الجميع مع بِيبَرْس والملك المغيث بغَزّة، فقَوِيت شوكتُهما بهؤلاء. وساروا الجميع إلى الصالحيّة، ولَقُوا عسكَر مصر يوم الثلاثاء رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ست وخمسين، فاستظهر عسكر بيبرس والمُغِيث أوّلاً، ثم عادت الكَسْرة عليهم لثبات قُطُز المُعِزّيّ، وهرب الملك المغيث ولَحِقَهُ بيبرس، وأُسِر من عسكر بِيبَرْس عِزّ الدين أَيْبَك الروميّ، وركن الدين مَنْكُورس الصَّيْرَفِيّ، وبَلَبَان الكافُوريّ وعِزّ الدين أَيْبَك الحَمَويّ، وبدر الدين بلغان[٤] الأشرفي، وجمال الدين هارون القَيْمُرِيّ[٥]، وسُنْقُر شاه العَزيزيّ، وبهاء الدين أَيْدُغْدِيّ الإسكندرانيّ، وبدر الدين برخان، وبُغْدِي، وبِيلِيك الخازِنْدار[٦] الظاهريّ فضُربت [أعناق][٧] الجميع صَبْراً، ما خلا الخازندار [فإنّ جمال الدين][٨] الجُوكَنْدَارِيّ[٩] شفَع فيه، وخيّروه بين المُقام والذَّهاب فآختار الذَّهابَ إلى أستاذه، فأُطْلِق وتوجّه إلى أستاذه؛ ولمّا أن وصل الملك المغيث إلى

---

(١) في الروض الزاهر: «سنقر جاه الغرسي».
(٢) في عقد الجمان: «الهوامش» وفي الروض الزاهر: «عز الدين الحواشي».
(٣) في الروض الزاهر: «بدر الدين بلغاق الأشرفي» أو لعله: «عز الدين بن خان بردي».
(٤) في الروض الزاهر: «بلغاق».
(٥) في الروض الزاهر: «التيمري».
(٦) الخازندار: هو الذي يتولى أعمال خزانة السلطان أو الأمير. وفي عهدته ما بها من أموال وغلال. (صبح الأعشى: ٤٦٣/٥).
(٧) زيادة يقتضيها السياق.
(٨) زيادة عن المنهل الصافي.
(٩) الجوكنداري: نسبة إلى الجوكاندار، وهو لقب الذي يحمل الجوكان مع السلطان في لعب الكرة. وهو مركب من لفظين فارسيين، أحدهما: جوكان، وهو المحجن الذي تضرب به الكرة، ويعبر عنه بالصولجان أيضاً، والثاني: دار، ومعناه الممسك. فيكون المعنى: ممسك الجوكان. (صبح الأعشى: ٤٥٨/٥).

الكَرَك حصل بينه وبين ركن الدين بِيبَرْس هذا وحشة؛ وأراد المُغِيث القبضَ عليه بعد أمور صدرت، فأحسَّ بِيبرس بذلك وهرَب وعاد إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام، بعد أن آستحلفه على أن يُعطيه خُبْزَ مائة فارس من جملتها قَصَبة نابُلُس، وجِينِين وزَرْعِين فأجاب إلى نابُلُس لا غيرُ. وكان قدومه على الناصر في شهر رجب سنة سبع وخمسين وستِّمائة، ومعه الجماعة الذين حلَف لهم الملك الناصر أيضاً وهم: بَيْسَرى الشَّمْسِيّ وأَيْتَمُش السَّعْديّ وطَيْبَرْس الوَزِيريّ وآقوش الروميّ الدَّوَادَار، وكُشْتُغْدِيّ الشَّمْسِيّ ولاجين الدَّرفِيل، وأَيْدُغْمُش الحَلَبيّ وكُشْتُغْدِيّ الشرفي وأَيْبَك الشيخي وبِيبَرْس خاص تُرْك الصغير، وبَلَبَان المِهْرَانِيّ، وسَنْجَر الباشْقِرْدِيّ وسَنْجَر الهماميّ، وأَرْسلان الناصِريّ ويُكْنَى الخُوَارَزْمِيّ، وسيف الدين طُمَان [الشُّقَيْرِيّ][1]، وأَيْبَك العلائيّ، ولاجين الشَّقَيْرِيّ، وبَلَبَان الأَقْسِيسِيّ، وعلَم الدين سلطان الإِلْدِكْزِيّ، فأكرمهم الملك الناصر، ووفَّى لهم بما حلَف. وداموا على ذلك حتّى قبضَ الأمير قُطُزْ على آبن أستاذه الملك المنصور عليّ، وتسلطن وتلقَّب بالملك المظفّر قُطُزْ، شرَع بِيبرس يُحَرِّض الملك الناصر على التوجّه إلى الديار المصريّة ليملكها، فلم يُجِبْه، فكَلّمه بِيبَرْس في أن يُقدّمه على أربعة آلاف فارس، أو يُقدّم عليهم غيرَه، ويتوجّه بها إلى شَطّ الفرات يمنع التَّتار من العُبُور إلى الشام، فلم يُمَكِّنه آبن عمّه الملك الصالح إسماعيل لباطن كان له مع التَّتار قاتله الله! فآستمرّ بِيبَرْس عند الناصر إلى سنة ثمانٍ وخمسين فارقه بمن معه وقصَد الشَّهْرُزُورِيّة[2] وتزوّج منهم؛ ثم أرسل إلى الملك المظفَّر قُطُزْ مَن استحلفه له، فحلَف قُطُز. ودخل بِيبَرْس إلى القاهرة في يوم السبت الثاني والعشرين من شهر ربيع الأوّل سنة ثمانٍ وخمسين، فركِب الملك المظفَّر قُطُز للقائه وأنزله في دار الوزارة وأقطعه قَصَبَة قليوب. فلم تَطُل مدّته بالقاهرة وتهيّأ الملك المظفَّر قُطُز

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) الشهرزورية: نسبة إلى شهرزور، إحدى جهات كردستان حيث توجد مدينة بهذا الاسم أيضاً. وكان بتلك الجهات جماعة الأكراد الكوسية؛ وقد ظلوا بها حتى استولى هولاكو على بغداد، وتقدمت جيوشه شمالاً نحو شهرزور وغيرها، ففر الشهرزورية من وجه التتر إلى الشام ومصر. (السلوك: ٤١١/٢/١، حاشية: ٣).

لقتال التَّتار، وسيّر بِيبَرْس هذا في عسكرٍ أمامه كالجاليش[١] ليتجسَّس أخبار التّتار؛ فكان أوّل ما وقعت عَيْنُه عليهم ناوشهم بالقتال. فلما آنقضت الوقعة بعَيْن جالوت تَبِعهم بِيبَرْس هذا، يَقْتُل من وجده منهم، إلى حِمْص؛ ثم عاد فوافى الملك المظفّر قُطُز بدِمَشْق، وكان وعَده بنيابة حَلَب، فأعطاها قُطُز لصاحب المَوْصِل، فحَقد عليه بِيبَرْس في الباطن، وآتَّفق على قتله مع جماعة لمّا عاد الملك المظفّر إلى نحو الديار المصريّة. والذين آتّفقوا معه: بَلَبَان الرَّشِيديّ، وبَهَادُر المُعِزّيّ، وبَكْتُوت الجُوكَنْدَار المُعِزّيّ، وبَيْدَغان الرُّكْنِيّ، وبَلَبَان الهارونيّ، وأنص الأصبهانيّ، وآتفقوا الجميع مع بِيبَرْس على قتل الملك المظفّر قُطُز؛ وساروا معه نحو الديار المصريّة إلى أن وصل الملك المظفّر قُطُز إلى القُصَيْر، وبقِي بينه وبين الصالحيّة مرحلة، ورحَل العسكر طالباً الصالحيّة، وضُرِب دِهْلِيز السلطان بها. وآتّفق عند القُصَيْر أن ثارت أرنبٌ فساق المظفَّر قُطُز، وساق هؤلاء المتّفقون على قتله معه، فلمّا أَبْعَدُوا ولم يبق مع المظفَّر غيرُهم، تقدّم إليه ركن الدين بيبرس وشفَع عنده في إنسان فأجابه المظفّر، فأَهْوَى بِيبَرْس ليقبِّل يده فقبضَ عليها، وحَمَل أنص عليه وقد أشغل بِيبَرْس يده وضربه أنص بالسيف، وحَمَل الباقون عليه ورمَوْه عن فرسه ورشَقُوه بالنُّشاب إلى أن مات، ثم حَمَلوا على العسكر وهم شاهرون سيوفَهم حتّى وصلوا إلى الدِّهْلِيز السلطانيّ، فنزلوا ودخلوه والأَتابَك على باب الدهليز فأخبروه بما فعلوا، فقال فارس الدين الأَتَابَك: من قتله منكم؟ فقال بِيبرس: أنا؛ فقال: يا خَوَنْد، آجلس في مرتبة السلطنة فجلس[٢]؛ وآستُدْعِيت العساكر للحلف، وكان القاضي

---

(١) الجاليش: الراية العظيمة في رأسها خصلة من الشعر. (صبح الأعشى: ٨/٤). وهنا بمعنى الطليعة.

(٢) الروايات تجمع على اشتراك جماعة من المماليك مع بيبرس في قتل السلطان قطز. وينفرد محيي الدين بن عبد الظاهر في « الروض الزاهر» في تأييد ادعاء بيبرس بأنه نفذ القتل وحده. (راجع ص ٧٨، حاشية: ١). ويرجع حرص بيبرس على الانفراد بسمعة إزاحة قطز من السلطة إلى معرفته بقانون الترك القائل: « من قتل الملك كان هو الملك». ويرى شافع بن علي (وهو مختصر سيرة الظاهر بيبرس في كتاب سماه: حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية) أن الذي ضرب الضربة الأولى هو سلاح دار قطز، ولأنه كان وجلاً فإن ضربته لم تكن قاتلة، ثم أجهز عليه بيبرس. ويرى شافع إيضاً ان ابن عبد الظاهر ــ في عدم ذكره الحقيقة مع ضرورة معرفته بها ــ إنما كان يؤرخ بمقتضى =

بُرْهان الدين قد وصل إلى العسكر متلقيّاً للملك المظفّر قُطُز، فاستُدْعِي وحلّف العسكر للملك الظاهر بِيبَرْس، وتمّ أمرُه في السلطنة وأطاعته العساكر؛ ثم ركِب وساق في جماعة من أصحابه حتّى وصل إلى قلعة الجبل فدخلها من غير مُمانـع، وآستقرّ مُلْكُه. وكانت البلد قد زُيّنت للملك المظفّر فاستمرّت الزينة. وكان الذي رَكِب معه من الصالحيّة إلى القلعة وهم خواصّه من خُشداشيته، وهم: فارس الدين الأَتَابَك، وبَيْسَرى، وقلاوون الألْفِيّ، وبِيليك الخازندار، وبَلَبَان الرشيديّ؛ ثم في يوم الأحد سابـع عشر ذي القعدة وهو صبيحة قتل المظفَّر قُطُز، وهو أوّل يوم من سلطنة الظاهر بيبرس، جلس بالإيوان من قلعة الجبل.

قلت: ولم يذكر أحد من المؤرّخين لُبْسَه خِلْعة السلطنة الخليفتي(١)، ولعلّه آكتفىَ بالمبايعة والحلف. اِنتهى.

ولمّا جلس الظاهر بالإيوان رسَم أن يكتب إلى الأقطار بسلطنته؛ فأوّل من بدأ به الملك الأشرف صاحب حِمْص، ثم الملك المنصور صاحب حَمَاة؛ ثم الأمير مظفّر الدين صاحب صِهْيون ثم إلى الإسماعيليّة، ثم إلى [الملك السعيد المظفّر علاء الدين عليّ بن لؤلؤ] صاحب الـمَوْصِل الذي صار نائبَ السلطنة بحلب، ثم إلى مَنْ في بلاد الشام يُعَرِّفهم بما جرى. ثم أَفْرَجَ عمّن بالحبوس من أصحاب الجرائم، وأقرّ الصاحب زَيْن الدين يعقوب(٢) بن الـزُّبَيْر على الوزارة، وتقدّم بالإفراج عن الأجناد المحبوسين والإنعام عليهم، وزيادة مَن رأى آستحقاقَه من الأمراء وخلَـع عليهم، وسيّر الأمير جمال الدين آقوش المحمدّي بتواقيـع للأمير سَنْجَر الحلبـي نـائب دِمَشْق، فتوجّه إليه فوجده قد تسلطن بدمشق ودعا لنفسه، وحلّف الأمراء، وتلقّب

= غرض السلطان بيبرس وحرصاً منه على عدم إغضابه، خاصة وأنه جمـع تلك السيرة في أيام سيّده. (انظر الروض الزاهر: مقدمة التحقيق).

(١) لم يكن في هذا الوقت خليفة، إذ إن مركز الخلافة خلا باجتياح المغول لبغداد سنة ٦٥٦هـ. وسيعيد الظاهر بيبرس الخلافة العباسية إلى مصر سنة ٦٥٩هـ، كما سيأتي.

(٢) هو يعقوب بن عبد الرفيـع القرشي الزبيري، أبو يوسف. استوزره الملك المظفر قطز، ثم الملك الظاهر بيبرس في أوائل دولته. وعزل، فلزم بيته إلى أن مات بالقاهرة سنة ٦٦٨هـ. (الأعلام: ٨/ ٢٠٠).

بالملك المجاهد؛ فعظُم ذلك على الملك الظاهر بِيبَرْس وأخذ في إصلاح أمره معه والإحسان إلى خُشْداشيتِه البَحْريّة الصالحيّة؛ وأمَّرَ أعيانهم. ثم إنه أخرج الملك المنصور نور الدين عليّاً آبن الملك المُعِزّ أيبك التُّرْكُمانِيّ وأمَّه وأخاه ناصر الدين قاقان من مصر إلى بلاد الأشكري[1]، وكانوا معتقلين بقلعة الجبل.

وكان بِيبَرْس لمّا تسلطن لَقَّب نفسه الملك القاهر، فقال الوزير زَيْن الدين يعقوب بن الزُّبَيْر، وكان فاضلاً في الأدب والترسُّل وعلم التاريخ، فأشار بتغيير هذا اللَّقب، وقال: ما لُقِّبَ به أحد فأفلح: لُقِّب به القاهر ابن المعتضد، فلم تَطُل مدّته وخُلِع من الخلافة وسُمِل، ولُقِّبَ به القاهرُ آبن صاحب المَوْصِل فسُمَّ، فأبطل بِيبَرْس اللّقب الأوّل، وتلقّب بالملك الظاهر.

وأمّا أمرُ دِمَشْق ففي العَشْر الأخير من ذي القعدة أمرَ الأمير علم الدين سَنْجَر الحلبِي الذي تسلطن بدِمَشق بتجديد عمارة [قلعة][2] دمشق، وزُفّت بالمغاني والطبول والبُوقات، وفَرِحت أهل دِمشْق بذلك، وحضر كبراء الدولة وخلَع على الصُّنّاع والنقباء، وعمِل الناس في البناء حتّى النساء؛ وكان يوم الشروع في تجديدها يوماً مشهوداً. ثم في اليوم الأوّل من العَشْر الأوّل من ذي الحجّة دعا الأميرُ علَم الدين سَنْجَر الحلبيّ الناس بدِمَشق إلى الحِلف له بالسلطنة فأجابوه، وحضَر الجندُ والأكابر وحَلَفوا له ولُقِّب بالملك المجاهد، وخُطِب له على المنابر، وضُرِبت السِّكّة باسمه؛ وكاتب الملكَ المنصورَ صاحب حَمَاة ليَحلِف له فآمتنع، وقال: أنا مع من يَملِك الديار المصريّة كائناً من كان.

ولمّا صحّ عند التّتار قتلُ الملك المظفَّر قُطُزْ ــ رحمه الله تعالى ــ وكان النائب ابن صاحب المَوْصِل أساء السيرةَ في الجند والرعية، فآجتمع رأي الأمراء والجند بحَلَب على قَبْضه وإخراجه من حلب، وتحالفوا على ذلك، وعيّنوا للقيام بالأمر الأمير حسام الدين الجُوكَنْدارِيّ العَزِيزِيّ. فبينا هم على ذلك وردت عليهم بِطاقةُ نائب البِيرة

(١) راجع ص٥٢، حاشية (٤).

(٢) زيادة عن السلوك.

يخبر أن التّتار قاربوا البيرة لمحاصرتها، وآستصرخ بهم ليُنْجدوه بعسكر. وكان التّتار قد هدموا أبراج البِيرَة وأسوارها، وهي مكشوفةٌ من جميع جهاتها، فجرّد الملك السعيد آبن صاحب المَوْصِل الذي هو نائب حلب عسكره إليها، وقدّم عليهم الأمير سابق الدين أمير مجلس الناصريّ، فحضر الأمراء عنده، وقالوا له: هذا العسكر الذي جرّدتَه لا يمكنه ردّ العدوّ، ونخاف أن يحصُل النُّشوب بيننا وبين العدوّ، وعسكرنا قليلٌ فيصل العدوّ إلى حلب، ويكون ذلك سبباً لخروجنا منها فلم يقبل منهم، فخرجوا من عنده وهم غضبانون، وسار العسكر المذكور إلى البِيرَة في قِلّة. فلمّا وصلوا إلى عُمْق البِيرَة صادفوا التتار بجموعهم، فآقتتلوا قتالاً شديداً، وقصد سابق الدين البِيرَة، فَتبِعه التَّتارُ وقتلوا من أصحابه جماعة كثيرة، وما سَلِم منهم إلاّ القليل؛ وورد هذا الخبر لحلب فجفَلَ أهل حلب إلى جهة القِبْلة ولم يبقَ بها إلاّ القليل. وندِم الملك السعيد نائبُ حلب على مخالفة الأمراء، وقَوِي بذلك غضبُهم عليه وقاطعوه. ووَقَعت بِطاقةُ نائب البِيرَة، فيها أنّ التّتار توجّهوا إلى ناحية مَنْبِج، فخرج نائب حلب وضرَب دِهلِيزَه بباب إله[1] شرقيّ حلب. وبعد يومين وصل الأميرُ عزّ الدين أَزْدَمُر الدوادار العَزيزيّ، وكان قُطُزْ قد جعله نائباً باللاّذِقيّة وجَبَلة، فقصده خُشْدَاشِيَتُه بحلب؛ فلما قَرُب رَكِبت العَزِيزيّة والناصريّة وآلتقوا به، فأخبرهم بأنّ الملك المظفّر قُطُزْ قُتِل، وأنّ ركن الدين بيبَرْس مَلَك الديار المصريّة، وأنّ سَنْجَر الحلبِـيّ خَطَب لنفسه بدِمَشق، ونحن أيضاً نعمل بعمل أولئك، ونُقيم واحداً من الجَماعة ونقبض على هذا (يعني على نائب حلب) ونقتصر على حلب وبلادِها مملكة استاذنا وابن أستاذنا فأجابوه إلى ذلك وتقرّر بينهم أنّه حال دخولهم إلى المخيَّم يَمْضِي إليه الأمراء: حسام الدين الجُوكَنْدَاريّ، وبَكْتَمُر الساقِي وأَزْدَمُر الدّوَادَار؛ وكان الملك السعيد نائب حلب نازلاً بباب «لا» في بيت القاضي، وهو فوق سطحه والعساكرُ حوله، فعندما طلعوا إليه وحضروا عنده على السطح شرَعت أعوانهم في نهب وِطَاقِه[2] فسمِع الضّجة

(١) كذا في الأصل. وفي عقد الجمان ص ٢١١: «باب إلّي المعروف بباب الله» وفي ص ٢٦٧: «باب اللالا المعروف بباب الله». وسيأتي للمؤلف ذكره باسم «باب لا».

(٢) الوطاق: الخيمة أو المعسكر المكوّن من خيام. وأصل الكلمة في التركية: أوتاق وأوتاغ وأوطاق، من كلمة «أوت» بمعنى النار، أو من المصدر «أوتورمق» بمعنى أن يجلس. وقد دخلت في اللغة الفارسية في صيغ: =

فاعتقد أنّ التّتَار قد كَبَست العسكرَ، ثم شاهد نَهْب العَزِيزيّة والناصريّة لـوطاقه، ووثَب الأمراء الذين عنده ليقبِضوا عليه، فطلَب منهم الأمان على نفسه فأمّنوه وشَرَطوا عليه أن يُسَلِّم إليهم جميـع ما حصَّله من الأموال. ثم نزلوا به إلى الدار وقصدوا الخِزَانة، فما وجدوا فيها طائلاً فهدّدوه، وقالوا له: أين الأموال التي حَصَّلْتَها؟ وطلبوا قتله، فقام إلى ساحة بُستانٍ في الدار المذكورة وحَفَر وأخرج الأموال، وهي تزيد على أربعين ألفَ دينار، فَفُرّقت على الأمراء على قَدر منازلهم. ثمّ رَسَمُوا عليه جماعة من الجند وسيّروه إلى قلعة[1] حبسوه بها. ثمّ بعد أيّام قلائل دَهَم العدوُّ حلب، فاندفـع الأمير حسام الدين الجُوكَنْدَارِيّ المقدّم على عسكر حلب بمَنْ معه إلى جهة دِمَشق، ودخلت التّتَار حلب وأخرجوا من كان فيها إلى ظاهر حلب، ووضعوا السيف فيهم، فقُتِل بعضُهم وفرّ بعضهم. ونزل العسكر الحَلَبِـيّ بظاهر حَمَاة، فقام الملك المنصور بضيافتهم، ثمّ تقدّم التّتَار إلى حَمَاة، فلمّا قاربوا منها رَحَل صاحبها الملك المنصور ومعه الجُوكَنْدَارِيّ بعساكر حلب إلى حمص، ونزل التّتَار على حَمَاة فامتنعت عليهم، فاندفعوا من حَمَاة طالبين العسكر، وجَفَل الناس بين أيديهم، وخاف أهلُ دِمَشق خوفاً شديداً، وأقاموا الجميـع على حِمْص حتّى قَدِم إليهم التّتَار في أوائل المحرّم من سنة تسـع وخمسين وستمائة، وكانوا في ستة آلاف فارس، فخرج إليهم الملك المنصور صاحب حَمَاة والأشرف صـاحب حِمْص والجُوكَنْدَارِيّ العزِيزيّ بعساكر حلب، وحَمَلوا عليهم حَمْلة رجل واحد فهزموهم وقتلوا منهم مَقْتلة عظيمةً، وهرب الأمير بَيْـدَرَا مقدّم التّتار في نَفَريَسِير، وكانت الوقعة عند قبر[2] خالد بن الوليد ــ رضي الله عنه ــ ثم عاد التتار إلى حلب وفعلوا بأهلها تلك الأفعال القبيحَة على عادتهم.

= أطاق وأتاق وأتاغ بمعنى الغرفة. ويرجح أن تكون هذه الكلمة هي أصل الكلمة التركية المصرية « أوده» بمعنى الحجرة. (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل). والكلمة المصرية التركية « أوده» تلفظ في بعض بلاد الشام « أوضه» للدلالة على الحجرة.

(١) هي قلعة الشغر وبكاس، كما جاء في السلوك: ٤٣٩/٢/١، حاشية (٣) وعقد الجمان. والشغر وبكاس: قلعتان قريبتان من بعضهما البعض يعبر من إحداهما إلى الأخرى بجسر، ولذلك يذكران مع بعضهما. وهما من الأعمال الحلبية. (الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب: ١٧٥).

(٢) في السلوك للمقريزي: « وواقعوا التتار يوم الجمعة خامس المحرم على الرستن فأفنوهم قتلاً وأسراً». =

وأمّا الملك الظاهر بِيبَرْس صاحب الترجمة فإنّه كاتب أمراء دِمَشق يستميلهم إليه ويَحُضُّهم على منابذة الأمير علم الدين سَنْجَر الحَلَبِيّ والقَبْض عليه، فأجابوه إلى ذلك وخرجوا من دِمَشق مُنابذين لسَنْجَر، وفيهم: الأمير علاء الدين أَيْدكِين البُنْدُقْدَارِيّ (أعني أستاذ الملك الظاهر بيبرس المذكور) الذي قدّمنا من ذكره أنّ الملك الصالح نجم الدين أَيُّوب اِشتراه منه. اِنتهى. والأمير بهاء الدين بُغْدِيّ فتَبِعهم الحَلَبيّ بمن بَقِي معه من أصحابه، فحاربوه فهزموه وألجؤوه إلى قلعة دمشق فأغلقها دونهم، وذلك في يوم السبت حادي عشر صفر من السنة. ثم خرج الأمير علم الدين سَنْجَر الحَلَبِيّ تلك الليلةَ من القلعة وقصد بَعْلَبَكّ، فدخل قلعتَها ومعه قريب عشرين نفراً من مماليكه؛ فدخل الأمير علاء الدين أَيْدِكِين البُنْدُقْدَارِيّ دَمشق، وآستولى عليها وحَكم فيها نيابةً عن الملك الظاهر بِيَبْرس؛ ثم جهّز عسكراً إلى بَعْلَبَكّ لحصار الحَلَبِيّ وعليهم الأمير بدر الدين محمد بن رحال وكان من الشُّجْعان، وأمير آخر، فحال وصولهما إلى بَعْلَبَكّ دخلا المدينة ونزلا بالمدرسة النُّوريّة. وكان الحَلَبِيّ لمّا وصلها جعل عنده طائفةً كبيرة من أهل محلّه مقدّمهم عليّ بن عبور، فَسُيِّر إليهم الأمير بدر الدين بن رحال وأفسدهم، فتدلَّوْا من القلعة ليلاً ونزلوا إليه، فعند ذلك تّرددت المراسلات بين الحَلَبِيّ وعلاء الدين البُنْدُقْدَارِيّ حتّى آستقرّ الحال على نزول الحَلَبِيّ وتوجُّهه إلى الملك الظاهر بِيبَرْس بمصر، فخرج الحَلَبِيّ من قلعة بَعْلَبك راكباً في وسطه عُدَّتُه وفي قِرابه قَوْسَان وهو كالأسد، فجاء حتّى بَعُد عن القلعة، قُدِّم له بغلةٌ فتحوّل إليها وقَلَع العُدَّة ورَكِبها، وسار حتّى وصل إلى دمشق وسار منها إلى مصر، فأُدْخِل على الملك ليلاً بقلعة الجبل، فقام إليه وآعتنقه وأدنى مجلسه منه وعاتبه عتاباً لطيفاً؛ ثم خَلَع عليه ورَسَم له بخيل وبغال وجمال وقماش وغير ذلك.

ثم آلتفت الملك الظاهر إلى إصلاح مملكته فَخَلع على الصاحب بهاء الدين

= والرستن: بلدة في منتصف الطريق بين حلب وحماة (معجم البلدان).

وكانت عدة جيش المسلمين ١٤٠٠ فارس. وكان معظم الجيش التتري مكوناً من فلول الكتائب التي بقيت بعد وقعة عين جالوت، وقد جمعها القائد بيدرا من أطراف الشام والعراق، وذلك بعد ذيوع خبر وفاة السلطان قطز. (السلوك ـــ حاشية).

عليّ بن حِنّا[١] وزير شجرة الدّرّ بالوزارة، وذلك في شهر ربيع الأوّل من سنة تسع وخمسين، وهي أوّل ولايته للوَزَر. ثمّ حضر عند الظاهر شخص وأنهى إليه أنّ الأمير عِزّ الدين الصّقلّيّ [٢] يريد الوثوب على السلطان، وٱتّفق معه الأمير علم الدين سَنْجَر الغَتْمِيّ وبَهادُر [المُعِزّيّ][٣] والشجاع بَكْتُوت فقبض الملك الظاهر عليهم. ثم تَسَلَّم الملكُ الظاهرُ الكَرَكَ من نوّاب الملك المغيث في هذه السنة. ثم قَبَض على الأمير بهاء الدين بُغْدِيّ الأشرفيّ وحُمِل إلى القاهرة وحُبِس بقلعة الجبل إلى أن مات.

ثم جهّز الملك الظاهر عسكراً لخروج التّتار من حلب فساروا إليها وأخرجوهم منها على أقبح وجه، كلّ ذلك والدنيا بلا خليفة من سنة ستّ وخمسين وستمائة. ففي هذه السنة[٤] كان وصول المستنصر بالله الخليفة إلى مصر وبايعه الملك الظاهر بِيبرس؛ وهو أبو القاسم أحمد؛ كان محبوساً ببغداد مع جماعة من بني العبّاس في حبس الخليفة المستعصم، فلمّا ملكت التّتار بغداد أطلقوهم، فخرج المستنصر هذا إلى عرب العِراق، وٱختلط بهم إلى أن سَمِع بسلطنة الملك الظاهر بِيبَرْس، وفَدَ عليه مع جماعة من بني مُهارِش[٥]، وهم عشرة أمراء مقدّمهم ٱبن قسا وشرف الدين ابن مُهَنّا[٥]، وكان وصول المستنصر إلى القاهرة في ثامن[٦] شهر رجب من سنة

---

(١) هو بهاء الدين علي بن محمد بن سليم بن عبد الله بن حنا. توفي سنة ٦٧٧هـ.

(٢) في السلوك: «الصقيلي».

(٣) زيادة عن السلوك.

(٤) أي سنة ٦٥٩هـ. وقد وصل إلى القاهرة يوم الخميس تاسع رجب من السنة المذكورة. (الروض الزاهر: ٩٩).

(٥) لعل الصواب: «من بني مهنا». وكان مقدمهم شرف الدين بن مهنا (الآتي ذكره) على علاقة سابقة جيدة مع الظاهر بيبرس، فهو الذي آواه وساعده لما خرج من الشام مشرداً في البرية، فنزل بين آل مهنا. وشرف الدين هذا هو عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة. ولما تسلطن الظاهر بيبرس كتب له بالإمرة على العربان. وكانت ديارهم من حمص إلى قلعة جعبر إلى الرحبة آخذين على شقي الفرات وأطراف العراق حتى ينتهي حدهم قبلة بشرق إلى الوشم، وآخذين يساراً إلى البصرة. (انظر مسالك الأبصار: قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين، ص ١١٦ ـ ١١٨، والروض الزاهر: ٩٨). وفي السلوك: ٤٤٨/٢/١ أن المستنصر وصل إلى دمشق أولاً مع جماعة من العرب من بني مهنا». وفي الروض الزاهر: «ومعه جماعة من عرب خفاجة في قريب الخمسين فارساً».

(٦) راجع الحاشية (٥) أعلاه.

تسع وخمسين وستمائة؛ فرَكِب السلطان للقائه ومعه الوزير بهاء الدين بن حِنّا وقاضي القضاة تاج الدين آبن بنت الأعزّ والشهود والرؤساء والقرّاء والمؤذّنون واليهود بالتوراة والنصارَى بالإنجيل في يوم الخميس؛ فدخل من باب النَّصْر وشقّ القاهرة، وكان لدخوله يوم مشهود.

فلمّا كان يوم الاثنين ثالث عشر الشهر جلس السلطان الملك الظاهر والخليفة بالإيوان وأعيانُ الدولة بأجمعهم وقُرِىء نسبُ الخليفة، وشُهِد عند القاضي بصحته فأسجل عليه بذلك وحكم به وبُويِع بالخلافة. ورَكِب من يومه وشَقّ القاهرةَ في وجوه الدولة وأعيانها. وكان أوّل مَن بايعه قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب آبن بنت الأَعَزّ عندما ثَبتَ نسبُه عنده، ثم السلطان، ثم الشيخ عِزّ الدين بن عبد السلام، ثم الأمراء والوزراء على مراتبهم. والمستنصر هذا هو الثامن والثلاثون من خلفاء بني العباس ــ رضي الله عنهم ــ وهو المستنصر بالله أبو القاسم أحمد الأَسْمَر(١) بن الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء الحسن آبن الخليفة المستنجد بالله يوسف آبن الخليفة المقتفي لأمر الله محمد آبن الخليفة المستظهِر بالله أحمد آبن الخليفة المقتدِي بأمر الله عبد الله آبن الأمير محمد الذخيرة آبن الخليفة القائم بأمر الله عبد الله آبن الخليفة القادر بالله أحمد آبن الأمير إسحاق آبن الخليفة المقتدر بالله جعفر آبن الخليفة المعتضد بالله أحمد آبن الأمير طَلْحة الموفَّق آبن الخليفة المتوكِّل على الله جعفر آبن الخليفة المعتصِم بالله محمد آبن الخليفة الرشيد هارون آبن الخليفة المهدي محمد آبن الخليفة أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس الهاشميّ العباسي البَغْداديّ. وقد تقدم أنّ الناس كانوا بغير خليفة منذ قتل التَّتار آبنَ أخيه الخليفة المستعصِم بالله في أوائل سنة ست وخمسين وسِتِّمائة إلى يومنا هذا، فكانت مدة شُغُور الخلافة ثلاثَ سنين ونصفاً والناس بلا خليفة. وكان المستنصر هذا جسيماً وَسِيماً شديدَ السُّمْرة

(١) قال القلقشندي في مآثر الإنافة: ١١١/٢: « والعامة تسميه: الزرابيني» وكذلك ورد في تاريخ أبي الفداء. وفي السلوك: « الزراتيتي» ولعله تصحيف. ويبدو أن سبب تسميته بالزرابيني لأنه كان شديد السمرة مائلاً إلى السواد.

عاليّ الهمَّة شديدَ القوّة وعنده شجاعة وإقدام، وهو أخو الخليفة المستنصر ولُقِّب بلقبه، وهذا لم تَجْرِ به العادةُ من أنّ خليفة يُلَقَّب بلَقَب خليفة تقدّمه من أهل بيته[١].

وفي يوم الجمعة سابع عشر الشهر خرج الخليفة المستنصر بالله وعليه ثِيابٌ سُودٌ إلى الجامع بالقلعة وخطَب خطبة بليغةً ذَكَر فيها شَرَفَ بني العبّاس، ثم صلّى على النبيّ صلّى الله عليه وسلَّم. ثم في مستهلّ شعبان من سنة تسع وخمسين المذكورة تقدّم الخليفةُ بتفصيل خِلْعة سوداء وبعمل طَوْق ذهب وقَيْد ذهب[٢] وبكتابة تقليد بالسلطنة للملك الظاهر بِيبَرِس ونصَب خَيْمَةً ظاهر القاهرة. فلمّا كان يوم الاثنين رابعه ركب الخليفة والسلطان والوزير والقضاة والأمراء ووجوه الدولة إلى الخَيْمة ظاهر القاهرة بقُبّة النصر، فألْبَس الخليفةُ السلطانَ الملك الظاهر بِيبَرْس خِلْعَةَ السلطنة[٣] بيده وطوّقه وقيّده، وصَعِد فخر الدين إبراهيم بن لقُمْان رئيس الكُتّاب[٤] مِنْبراً نُصِب له فقرأ التقليدَ وهو من إنشائه وبخطِّه. ثم ركب السلطانُ بالخلْعَة والطَّوْق والقَيْد ودخل من باب النّصر وقد زُيِّنت القاهرة له، وحَمَل الصاحب بهاء الدين [بن حنّا] التقليدَ على رأسه راكباً والأمراء يمشون بين يديه؛ فكان يوماً يَقْصُر اللسانُ عن وصفه. ونسخة التقليد[٥]:

---

(١) بعد هذا درج الخلفاء العباسيون بمصر على اتخاذ ألقاب الخلفاء السابقين ببغداد. (انظر مآثر الإنافة: ٢٣/١).

(٢) في السلوك: ٤٥٢/٢/١ والروض الزاهر: ١٠١: «.. وخرج وعليه عمامة سوداء مذهبة مزركشة، ودراعة بنفسجية اللون، وطوق ذهب، وقيد من ذهب عمل في رجليه، وعدة سيوف تقلد منها واحداً، وحملت البقية خلفه، ولواءان منشوران على رأسه، وسهمان كبيران، وترس فقدم له فرس أشهب في عنقه مشدة سوداء وعليه كنبوش أسود».

(٣) وكانت الخلعة عبارة عن « فرجية سوداء بتركيبة زركش، وعمامة سوداء، وطوق ذهب، وقيد ذهب، وسيف بداوي» (الجوهر الثمين: ٢٢٦/١). وورد في مآثر الإنافة: ٢٤١/٢ أن العمامة كانت بنفسجي.

(٤) كان صاحب ديوان الإنشاء.

(٥) نسخة التقليد وردت في الروض الزاهر: ١٠٢، والسلوك: ٤٥٣/٢/١، وصبح الأعشى: ١١٢/١٠، ومآثر الإنافة: ١٢١/٣، وعقد الجمان: ٢٩٨. وهذه النصوص تختلف فيما بينها ببعض الكلمات أو العبارات، فلتقارن. وقد اعتمدنا على المصادر أعلاه في تصويب بعض الأخطاء الواردة في الأصل.

«الحمدُ لله الذي أضفى على الإسلام ملابس الشَّرَف، وأظهر بَهْجَةَ دُرَرِه وكانت خافيةً بما آستحكم عليها من الصَّدَف، وشيَّد ما وَهَي من علائه حتّى أَنْسَى ذكر من سَلَف، وقيَّض لنصره ملوكاً آتّفق عليهم مَن اختلف.

أحمده على نعمته التي رَتَعَت الأعينُ منها في الرَّوْض الأُنُف، وألطافِه التي وقَف الشكر عليها فليس له عنها مُنْصَرَف؛ وأشهد أن لا إله إلّا الله وحدَه لا شريك له شهادةً تُوجِب من المخاوف أَمْنا، وتُسَهِّل من الأمور ما كان حَزْنا، وأشهد أَنّ محمداً عبدُه الذي جَبَر من الدِّين وَهْنا، ورسولُه الذي أظهر من المكارم فُنوناً لا فَنّا، صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله الذين أصبحت مناقبُهم باقيةً لا تَفْنَى، وأصحابه الذين أحسنوا في الدِّين فآستحقُّوا الزيادة بالحُسْنَى.

وبعد: فإنّ أَوْلى الأولياء بتقديم ذِكرِه، وأحقّهم أن يُصْبِح القَلَمُ راكعاً وساجداً في تسطير مناقبه وبِرِّه؛ مَنْ سعى فأضحى سعِيدَ الجَدّ متقدِّماً، ودعا إلى طاعته فأجاب من كان مُنْجِداً ومُتْهِماً، وما بَدَتْ يدٌ في المَكْرُمَات إلّا كان لها زَنْداً ومعصماً، ولا آستباح بسَيْفه حِمَى وَغىً إلا أَضْرَم منه ناراً وأجراه دَماً.

ولمّا كانت هذه المناقب الشريفةُ مختصَّة بالمَقَام[١] العالي المَوْلَوِيّ السلطانيّ الملكيّ الظاهريّ الرُّكْنيّ ــ شرفه الله وأعلاه ــ ذكرَها الديوان[٢] العزيز النَّبوِيّ الإماميّ المستنصريّ ــ أعزّ الله سلطانه ــ تنويهاً بشريف قَدْره، وآعترافاً بصُنْعه الذي تَنفدُ العبارة المُسْهِبَة ولا تقوم بشكره؛ وكيف لا وقد أقام الدولةَ العَبّاسيّة بعد أن أقعدتها زمانة الزمان، وأذهبتْ ما كان لها من محاسن وإحسان؛ وعتَبَ دهرُها المُسِيء

(١) المقام: استعمل هذا اللقب في المكاتبات للإشارة إلى صاحب المكان تعظيماً له عن التفوّه باسمه. وقد صار هذا اللقب أرفع الألقاب الأصول في عصر المماليك. وعن أقسام هذا اللقب ودرجاته وفروعه انظر: صبح الأعشى: ٩٨/٦، والتعريف بالمصطلح الشريف: ١٧، ٣٢، ومعالم الكتابة: ٦٠، والألقاب الإسلامية: ٤٨٢.

(٢) الديوان العزيز: لقب يرد في خطاب الخليفة. وعن هذا اللقب انظر صبح الأعشى: ١٢٦/٦، والتعريف بالمصطلح الشريف: ١٧، والألقاب الإسلامية: ٢٩١.

لها فأعتب وأرضى عنها زمنها وقدْ كان صال عليها صوله مغضب فأعاده لها سلماً بعد أن كان [عليها](١) حَرْباً، وصرف إليها آهتمامَه فرَجع كلُّ متضايقٍ من أمورِها واسعاً رَحْباً؛ وَمَنَح أميرَ المؤمنين عند القدوم عليه حُنُواً وعَطْفاً، وأظهر من الولاء رغبةً في [ثواب](١) الله ما لا يَخْفَى؛ وأبدى من الاهتمام بأمر البَيْعة أمراً لو رامه غيره لامتنع عليه، ولو تمسَّك بَحْبله متمسِّكٌ لانقطع به قبل الوصول إليه؛ ولكن الله آدَّخَر هذه الحسنةَ ليثقِل بها [في](١) الميزان ثَوَابه، ويُخَفِّف بها يوم القيامة حسابَه، والسعيد من خُفِّف حسابُه! فهذه منَقَبةٌ أَبَى الله إلّا أن يخلِّدها في صحيفة صُنْعِه، ومَكْرُمةٌ قَضَتْ لهذا البيت الشريف بجمعه، بعد أن حصل الإياس من جمعه. وأميرُ المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع، ويعترف أنّه لولا آهتمامك لاتّسع الخَرْقُ على الراقِع؛ وقد قلّدك الديارَ المصريَّة والبلاد الشاميّة، والديارَ البَكْرِيّة، والحِجازيّة واليَمنَيِة والفُرَاتِيّة؛ وما يتجدّد من الفتوحات غَوْراً ونَجْداً؛ وفَوَّض أمرَ جندها ورعاياها إليك حين أصبحتَ بالمكارم فَرْدا»(٢). ثم أخذ في آخر التقليد يذكر فضل الجهاد والرفق بالرعيّة وطوَّل في الكلام إلى الغاية. وهذا الذي ذكرناه من نسخة التقليد هو المراد.

ثم إنّ الملك الظاهر ولّى الأمير علم الدين سَنْجَر الحَلَبِيّ نيابةَ حلب لمَّا بلغه أن البرنلي(٣) تغلّب على حلب، وسيَّر معه عسكراً فسار إليها الأمير علم الدين سَنْجَر الحلبيّ، ودخل إليها وملَكَها وخرج منها البرنلي وتوجّه إلى الرَّقَّة؛ ثم حَشَد وجمع العساكر وأخذ البِيرة، ثمّ عاد إلى حلب وأخرج منها الحَلَبِيّ بعد أمور ووقائع جرت بينهم. فلمّا بلغ الملك الظاهر ذلك عزَم على التوجّه إلى البلاد الشاميّة، وبرز من القاهرة ومعه الخليفة المستنصر وأولادُ صاحب المَوْصِل، وكان خروجهم الجميع من القاهرة في تاسع عشر شهر رمضان بعد أن رتَّبَ السلطان الأميرَ عِزّ الدين أَيْدَمُر الحَلَبِي نائب السلطنة بقلعة الجبل، والصاحب بهاء الدين بن حِنَّا مدبر الأمور،

---

(١) زيادة عن المصادر المذكورة في ص ١٠٠، حاشية (٥).

(٢) انظر بقية نص التقليد في المصادر السابقة.

(٣) هو الأمير آقوش بن عبد الله العزيزي، شمس الدين المعروف بالبرنلي والبرنلو (المنهل الصافي). وفي السلوك والروض الزاهر: «البرلي».

وخرج مع السلطان العساكر المصريّة وأقام بِبركة الجُبّ إلى عيد الفِطْر؛ ثم سافر في ثالث شوّال بعد ما عزَل قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب آبن بنت الأَعَزّ عن القضاء بُبرْهان الدين خَضِر السِّنْجارِيّ. وسار السلطان حتّى دخل دِمَشْق في يوم الاثنين سابع ذي القعدة. وقَدِم عليه الملك الأَشْرَف صاحب حِمْص فخَلَع عليه وأعطاه ثمانين ألف دينار وحِمْلَيْن ثياباً، وزاده على ما بيده من البلاد تَلّ باشر؛ ثم قَدِم عليه الملك المنصور صاحب حَمَاة فخَلع عليه وأعطاه ثمانين ألف درهم وحِملين ثياباً، وكتب له توقيعاً ببلاده التي بيده.

ثم جهّز السلطان الخليفة، وأولادَ صاحب الموصل صحبته، بتجمُّل زائد وبَرْكٍ[1] يُضاهي بَرْك السلطان من الأَطْلاب[2] والخيول والجِمال وأرباب الوظائف من الكبير إلى الصغير؛ قيل: إنّ الذي غَرِمه السلطان الملك الظاهر على تجهيز الخليفة وأولاد صاحِب المَوْصِل فوق الألف ألف دينار عَيْناً[3]..

ثم جهّز السلطان الأمير علاء الدين أَيْدكِين البُنْدُقْدَارِيّ لنيابة السلطنة بحلب؛ وأَيْدكِين هذا هو أستاذ الملك الظاهر بِيبَرْس صاحب الترجمة المقدّم ذكره، فسبحان من يُعِزّ ويُذِلّ! وبعث السلطان مع البُنْدُقْدَارِيّ عسكراً لمحاربة البرنلي وصحبته أيضاً الأمير بَلَبَان الرَّشِيدِيّ فخرجا من دِمَشْق في منتصف ذي القعدة؛ فلمّا وصلا حَمَاةَ خرج البرنلي وقصد حَرّان فتَبِعه الرشِيدِيّ بالعساكر، ودخل علاءُ الدِّين البُنْدُقْدَارِيّ إلى حلب؛ ثم عاد الرَّشِيدِيّ إلى أَنْطاكِية ثم رحل عنها بعد ما حاصرها مدّة لمّا بلغه عَوْد الملك الظاهر إلى مصر.

---

(١) البرك: لفظ فارسي معناه الثوب المصنوع من وبر الجمال. ثم أصبح في كتب المؤرخين لفظاً اصطلاحياً يطلق على أمتعة المسافرين ومتاع البيت من أثاث ورياش؛ ويطلق أيضاً على طقم الحصان وعدة لجامه. ومثله اللفظ الفارسي: « الرخت». (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٦٢، وتأصيل الدخيل: ٩٢، ١١٣).

(٢) الأطلاب: مجموعات من الفرسان ترافق السلطان في أثناء انتقاله. ويستعمل اللفظ بشكل عام للدلالة على المجموعات العسكرية. ومفردها: طُلب. وقال ابن إياس إن هذا اللفظ استعمل ابتداءً من العصر الأيوبي للدلالة على المعنى المشار إليه.

(٣) قال ابن عبد الظاهر: « قال لي السلطان: الذي أنفقته على الخليفة والملوك المواصلة ألف ألف دينار وستون ألف دينار عيناً» ـ (الروض الزاهر: ١١٢).

وأمّا الخليفة فإنّه لمّا توجّه نحو العراق ومعه أولاد صاحب المَوْصل، وهم: الملك الصالـح وولده علاء الدين والملك المجاهد سيف الدين صاحب الجزيرة، والملك المظفّر علاء الدِّين صاحب سِنْجار، والملك الكامل ناصر الدين محمد، فلمّا وصلوا صحبةَ الخليفة إلى الرَّحْبة وافَوْا عليها الأمير يزيد[١] بن عليّ بن حديثة أمير آل فضل وأخاه الأخرس في أربعمائة فارس من العرب. وفارق الخليفة أولاد صاحب الموصل من الرَّحْبة؛ وكان الخليفة طلب منهم المسير معه فأَبوا، وقالوا: ما معنا مرسومٌ بذلك[٢]، وأرسلوا معه من مماليك والدهم نحو ستين نفراً فآنضافوا إليه، ولحِقَهم الأمير عز الدين أَيْدكِين من حَمَاةَ ومعه ثلاثون فارساً. ورَحل الخليفةُ بَمنْ معه من الرَّحْبة بعدمـا أقـام بها ثلاثةَ أيَّام، ونزل مشهد عليّ ــ رضي الله عنه ــ ثم رحَل إلى قائم عنقة[٣]، ثم إلى عَانَةَ فوَافَوُا الإمامَ الحاكم[٤] بأمر الله العبّاسيّ على عانة من ناحية الشرق ومعه نحو سبعمائة فارس من التُّرْكُمَان. وكان البرنلي قد جهّزه من حلب، فبعث الخليفة المستنصر بالله إليهم وآستمالهم؛ فلمّا جاوزوا الفُرات فارقوا الحاكمَ فبعث إليه المستنصر بالله يطلبه إليه ويُؤَمِّنه على نفسه ويُرغِّب

(١) في السلوك: «علي بن حذيفة». وفي الجوهر الثمين: «علي بن حديثة».

(٢) ذكر المقريزي في السلوك أن السلطان كان قد عزم أن يبعث مع الخليفة عشرة آلاف فارس حتى يستقر ببغداد، ويكون أولاد صاحب الموصل في خدمته. فخلا أحدهم بالسلطان وأشار عليه ألا يفعل: «فإن الخليفة إذا استقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر» فرجع إليه الوسواس، ولم يبعث مع الخليفة سوى ٣٠٠ فارس.

(٣) كذا. وفي تقويم البلدان: «قائم عنقا» وهي بلدة بجانب الفرات تدخل في واد إلى عانة.

(٤) هو أبو العباس أحمد الذي أتى مصر فيما بعد وصار خليفة بها وتلقب بالحاكم بأمر الله. وذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء أن هذا الأمير العباسي كان قد نجا من مذبحة التتار ببغداد وخرج منها بصحبة جماعة. ثم توصل إلى دمشق وأقام عند الأمير عيسى بن مهنا. ولما جاء قطز إلى دمشق سير في طلبه وبايعه بالخلافة، وتوجه في خدمته جماعة من العرب فافتتح بهم عانة والحديثة وهيت والأنبار. ثم إنه أراد أن يتوجه إلى مصر بناء على دعوة السلطان، فوجد أن المستنصر قد سبقه بثلاثة أيام إلى القاهرة فما رأى أن يدخل إليها خوفاً من أن يمسك فرجع إلى حلب فبايعه صاحبها ورؤساؤها.

ولما رجع المستنصر وافاه بعانة، فانقاد الحاكم له ودخل في طاعته.

وفي ذلك إشارة إلى أن سلاطين المماليك قبل بيبرس فكروا في اجتذاب الخلافة العباسية إلى مصر، وأن أبناء البيت العباسي كانوا يعتبرون القاهرة ملجأ أميناً لهم.

إليه في آجتماع الكلمة، فأجاب ورحَل إليه، فوفّى إليه المستنصر وأنزله معه في الدِّهليز. وكان الحاكم لمّا نزل على عَانَة آمتنـع أهلها منه، وقالوا: قد بايـع الملكُ الظاهر خليفةً وهو واصل فما نسلمها إلاّ إليه؛ فلمّا وصل المستنصر بالله إليها نزل إليه نائبها وكريم الدين ناظرها وسلّماها إليه وحَملا له إقامةً، فأقطعها الخليفةُ للأمير ناصر الدين أغلمش أخي الأمير علم الدين سَنْجَر الحَلَبِيّ. ثم رحَل الخليفةُ عنها إلى الحَديثة ففتحها أهلها له، فجعلها خاصاً له؛ ثم رحَل عنها ونزل على شطّ قرية الناووسة[١]؛ ثم رحل عنها قاصداً هِيت[٢]. ولمّا آتّصل مجيء الخليفة المستنصر بالله بقَـرابُغَا[٣] مقدّم عسكر التّتار بالعراق، وبَهادُر عليّ الخُوَارَزْمِيّ شِحْنَة بغداد وخرج قَرَابُغَا بخمسة آلاف فارس من التَّتَار على الشّط العراقي وقصد الأنبار، فدخلها إغارةً؛ وقتَل جميـع مَن فيها، ثم ردَفه الأمير بَهادُر عليّ الخُوَارَزْمِيّ بمَن بَقِي ببغداد من عساكر التّتار، وكان قد بعث ولَده إلى هِيت متشوّقاً لِمَا يرد من أخبار المستنصر، وقرّر معه أنّه إذا آتّصل به خبره بعث بالمراكب إلى الشّط الآخر وأحرقها؛ فلمّا وصل الخليفة هِيت أغلق أهلُها الباب دونه، فنزل عليها وحاصرها حتّى فتحها، ودخلها في التاسع والعشرين من ذي الحجّة، ونَهَب من فيها من اليهود والنّصارى؛ ثم رحَل عنها ونزل الدور[٤] وبعث طليعةً من عسكره مقدّمها الأمير أسد الدين محمود آبن الملك المفضّل موسى، فبات تُجاه الأنبار تلك اللّيلة، وهي ليلة الأحد ثالث المحرّم من سنة ستين وستمائة؛ فلمّا رأى قَرَابُغَا الطليعة أَمَر مَن معه من العساكر بالعُبور إليها في المخائض والمراكب ليلاً، فلمّا أسفر الصبـح أفرد قَرَابُغَا من معه من عسكر بغداد ناحيةً.

وأمّا الخليفة فإنّه رتّب آثني عشر طُلْباً، وجعل التُّركمانَ والعُرْبان ميمنةً ومَيْسرةً

(١) الناووسة: قرية من قرى هيت. (معجم البلدان).

(٢) هيت: بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار (معجم البلدان).

(٣) ويقال قرابوقا (الحوادث الجامعة) وقرابوغا (مختصر الدول). وكان قرابغا قائداً عاماً على الجيوش التترية بسائر العراق العربي. أما القائد الذي استخلفه هولاكو على بغداد (شحنة بغداد) فاسمه بهـادر علي، كما سيأتي.

(٤) الدور: أكثر من موضـع من نواحي بغداد. وذكر منها ياقوت في المشترك عشرة مواضـع.

وباقي العساكر قَلْباً؛ ثم حَمَل بنفسه مبادراً وحَمل من كان معه في القلب فانكسر بَهادُر، ووقع معظمُ عسكره في الفُرات؛ ثم خرج كَمَينٌ من التّتار، فلمّا رآه التُّرْكُمانُ والعرب هربوا، وأحاط الكمينُ بعسكر الخليفة فصدَقَ المسلمون الحملةَ، فأفرَجَ لهم التّتار، فنجا الحاكم وشرف الدين ابن مُهَنّا وناصر الدين ابن صَيْرَم وبُوزَنا[1] وسيف الدين بَلَبَان الشّمسي وأسد الدين محمود وجماعة من الجند نحو الخمسين نَفَراً، وقُتِل الشريف نَجْم الدين [جعفر][2] أستادار الخليفة، وفتح الدين ابن الشهاب أحمد، وفارس الدين [أحمد][2] بن أَزْدَمُر اليَغْمُورِيّ، ولم يُوقَع للخليفة المستنصر على خبر، فقيل إنّه قُتِل في الوقعة وعُفِّي أثُره، وقيل. إنّه نجا مجروحاً في طائفة من العرب فمات عندهم؛ وقيل سلم وأضمرتْه البلاد[3].

وأمّا السلطان الملك الظاهر بِيبرس فإنّه لمّا عاد إلى مصر عاد بعده بَلَبَان الرشيديّ في أثره وعاد البرنلي إلى حلب ودخلها وملَكها، فجرَّد إليه الملك الظاهر عسكراً ثانياً، عليهم الأمير شمس الدين سُنْقُر الروميّ، وأمَره بالمسير إلى حلب ثمّ إلى الموصل، وكتب إلى الأمير علاء الدين طَيْبَرْس نائب السلطنة بدِمَشْق وإلى الأمير علاء الدين أَيْدكِين البُنْدُقْدَارِيّ يأمرهما أن يكونا معه بعسكرهما حيث توجّه يتوجّه الجميع، فسار الجميع إلى جهة حلب، فخرج البرنلي من حلب وتسلّم نوّاب أَيْدكِين البُنْدُقْدَارِيّ حلب. ثم جاء مرسوم السلطان بتوجّه البُنْدُقْدَارِيّ إلى حلب، ويعود طَيْبَرس إلى دِمَشق ويعود سُنْقُر الروميّ إلى مصر، فعاد الروميّ إلى القاهرة. فلمّا آجتمع بالسلطان أوغر خاطره على طَيْبَرس، فكان ذلك سبباً للقبض على طَيْبَرس المذكور وحبسه بالقاهرة مدّة سنين.

ثم وصل إلى الديار المصريّة في السابع والعشرين من شهر ربيع الآخر

---

(١) في عقد الجمان والسلوك: سابق الدين بوزبا الصيرفي.

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) ورد في تالي وفيات الأعيان للصقاعي أن الإمام المستنصر قتل في تلك المعركة، وأخذ رأسه، وطيف به ببغداد والعراق. وكذلك يفهم من رواية ابن كثير في البداية والنهاية.

الإمام الحاكم بأمر الله أبو العبّاس أحمد آبن الأمير أبي عليّ الحسن[١] آبن الأمير أبي بكر بن الحسن بن عليّ القُبّي آبن الخليفة المسترشد بالله أبي منصور الفضل آبن الخليفة المستظهر بالله أحمد العبّاسيّ.

قلت: ومن المستظهر يُعرف نسبه من ترجمة المستنصر وغيره من أقاربه إلى العبّاس. ووصل صحبته شمس الدين صالح بن محمد بن أبي الرشيد الأسديّ الحاكمي المعروف ابن البنّاء وأخوه محمد ونجم الدين محمد، وآحتفَل[٢] الملك الظاهر بيبرس بلقائه وأنزله بالبُرْج الكبير داخل قلعة الجبل، ورتّب له ما يحتاج إليه، ووصل معه ولده. وبايعه بالخلافة في يوم الخميس تاسع المحرّم من سنة إحدى وستين بقلعة الجبل. وكانت المسلمون بلا خليفة منذ آستُشْهِد الخليفة المستنصر بالله في أوائل السنة الحالية. وجلس السلطان بالإيوان لبَيْعته وحضر القضاة والأعيان وأرباب الدولة، وقرىء نسبه على قاضي القضاة وشَهِد عنده جماعةٌ بذلك، فأثبته ومدّ يدَه وبايعه بالخلافة، ثم بايعه السلطان ثم الوزير ثم الأعيان على طبقاتهم، وخُطِب له على المنابر، وكتَب السلطان إلى الأقطار بذلك وأن يخطبوا باسمه، وأُنْزِل إلى مناظر الكَبْش[٣] فسكن بها إلى أن مات في ليلة الجمعة ثامن عشر جُمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة ودُفِن بجوار السيّدة نفيسة، وهو أوّل خليفة مات بالقاهرة من بني العبّاس حسب ما يأتي ذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ في محلّه بأوسعَ من هذا.

وأمّا الملك الظاهر فإنّه تجهّز للسفر إلى البلاد الشاميّة، وخرج من الديار

---

(١) اختلفت الروايات في نسبه. انظر تاريخ الخلفاء: ٤٩٠، والسلوك: ١/١/٤٧٧، والجوهر الثمين: ١/٢٢٩، والمختصر في أخبار البشر: ٣/٢١٥، ومآثر الإنافة: ٢/١١٧ وغيرها من كتب التاريخ والتراجم.

(٢) انظر مراسم ذاك الاحتفال في الروض الزاهر: ١٤١ ـ ١٤٢.

(٣) مناظر الكبش: هي عبارة عن مجموعة قصور أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب على جبل يشكر بجوار الجامع الطولوني. وكانت تشرف على بركة قارون وبركة الفيل وجزيرة الروضة وقلعة الروضة. وقد تأنق الملك الصالح في بنائها وسماها الكبش. وما زالت بعد الملك الصالح من المنازل الملكية إلى أن هدمها الأشرف شعبان بن حسين سنة ٧٦٨هـ. (الخطط المقريزية: ٢/١٣٣).

المصريّة في يوم السبت سابع شهر ربيع الآخر من سنة إحدى وستين وستمائة. وفي هذه السَّفْرة قَبض على الملك المغِيث صاحب الكَرَك الذي كان معه تلك الأيّام على قتال المصريين وغيرهم، ولما قبَض عليه الظاهر بعث به إلى قلعة الجبل صحبة الأمير آق سُنْقُر الفَارِقاني، فوصل به إلى القاهرة في يوم الأحد خامس عشر جُمَادى الآخرة، فكان ذلك آخر العهد به. ثمّ عاد الملك الظاهر إلى الديار المصريّة في يوم السبت سادس عشر شهر رجب. ولمّا دخل إلى القاهرة قبَض على الأمير بَلَبَان الرشيدي وأَيْبَك الدِّمْياطي وآقوش البرنلي.

ثم في هذه السنة شرع الملك الظاهر في عِمارة المدرسة[1] الظاهريّة ببين القَصْرين، وتمت في أوائل سنة آثنتين وستين وستمائة. ورتب في تدريس الإيوان القبليّ القاضي تَقِيّ الدين محمد بن الحسين بن رَزِين الشافعي، وفي تدريس الإيوان الذي يُواجهه القاضي مجد الدين عبد الرحمن بن العَدِيم، والحافظ شرف الدين الدِّمْياطي لتدريس الحديث في الإيوان الشرقي، والشيخ كمال الدين المَحَلّي في الإيوان [الذي] يُقابله لإقراء القرآن بالروايات والطرق؛ ثم رتّب جماعة يقرؤون السبع بهذا الإيوان أيضاً بعد صلاة الصبح، ووقف بها خزانة كتب، وبنى إلى جانبها مكتباً لتعليم الأيتام وأجرى عليهم الخُبْزَ في كلّ يوم، وكُسوة الفَصْلين وسِقايةً تُعِين على الطّهَارة؛ وجُلِس للتدريس بهذه المدرسة يوم الأحد ثالث عشر صفر من سنة آثنين وستين، وحضر الصاحب بهاء الدين بن حِنّا، والأمير جمال الدين بن يَغْمور، والأمير جمال الدين أَيْدُغْدِي العَزِيزِيّ وغيرهم من الأعيان.

---

(١) المدرسة الظاهرية: وضع أساسها الظاهر بيبرس سنة ٦٦٠هـ، وتمّ بناؤها سنة ٦٦٢هـ. وقد أقامها على أنقاض قاعة الخيم، إحدى قاعات القصر الفاطمي الكبير. (انظر خطط المقريزي: ٣٧٨/٢، والسلوك: ٥٠٤/٢/١، وحسن المحاضرة: ١٦٠/٢، والحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام: ٤٥) وقد اندثرت هذه المدرسة واعتدى الناس على أرضها وأدخلوها في أملاكهم، كما دخل جزء منها في شارع بيت القاضي، ولم يبق منها اليوم إلا الإيوان الشرقي، ويعرف الآن باسم جامع طاهر. وبقي منها أيضاً الكتف الأيمن لبابها الأصلي وعليه اسم منشئها وتاريخ إنشائها. وكان لها باب جميل من النحاس، وهو مركب الآن على باب دار المفوضية الفرنسية بشارع الجيزة تجاه حديقة الحيوانات. (عن تعليقات الأستاذ محمد رمزي على النجوم: ١٢٠/٧).

وفي سنة إحدى وستين أيضاً تسلَّم الأمير بِيلِيك العَلائِيّ حِمص بعد وفاة صاحبها الملك الأشرف الأيُّوبي. ثم أمر الملك الظاهر أيضاً بإنشاء خان في القُدْس الشريف للسبيل، وفوّض بناءه ونَظَره إلى الأمير جمال الدين محمد بن بهادر[1] ولمّا تمّ الخان المذكور أوقف عليه قيراطاً ونصفاً بالمطر، وثلث وربع قرية المشيرفة من بلد بُصْرَى، ونصف قرية لبنى، يُصرف رِيع ذلك في خبز وفلوس وإصلاح نِعال من يَرِد عليه من المسافرين المُشاة. وبنى له طاحوناً وفرناً، وآستمر ذلك كلّه.

ثم وَلّى الملك الظاهر في سنة ثلاث وستين وستمائة في كلّ مذهبٍ قاضياً مستقلاً بذاته، فصارت قُضاة القضاة[2] أربعة، وسبب ذلك كثرة توقّف قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأَعَزّ في تنفيذ الأحكام [التي لا توافق مذهبه][3]، وكثرة الشكاوى منه بسبب ذلك. فلمّا كان يوم الاثنين ثاني عشر ذي الحجّة شكا القاضي المذكور الأمير جمال الدين أَيْدُغْدِي العَزِيزيّ في المجلس، وكان يكره القاضي تاج الدين المذكور؛ فقال أَيْدُغْدِي بحضرة السلطان: يا تاج الدين، نترك مذهب الشافعي لك، ونُولِّي معك من كلّ مذهب قاضياً، فمال الملك الظاهر إلى

---

(١) في السلوك: «محمد بن نهار».

(٢) وجدت وظيفة قاضي القضاة في أيام الحكم الفاطمي في عهد العزيز ثاني الخلفاء الفاطميين بمصر، وكان مقره في القاهرة. وكان قاضي القضاة في أيام الفاطميين من الإسماعيلية. وفي عهد الوزير أحمد بن الأفضل عين لكل مذهب قاضي قضاة، فكان قاضي قضاة شافعي وآخر مالكي وثالث إسماعيلي ورابع من الإمامية. ولما تولى صلاح الدين الوزارة للعاضد آخر خلفاء الفاطميين اكتفى بقاضي قضاة واحد من الشافعية، وظل ذلك إلى عصر المماليك. وفي عهد السلطان بيبرس ــ صاحب الترجمة هنا ــ عيّن لكل مذهب من المذاهب الأربعة (الشافعي والمالكي والحنبلي والحنفي) قاضي قضاة مستقل عن الآخر. وكان قاضي القضاة قبل الفاطميين تابعاً لبغداد يعينه الخليفة، وفي العهد الفاطمي أصبح تعيينه من قبل الخليفة الفاطمي، وفي أواخر أيامهم كان يعينه وزير التفويض. وفي عصر الأيوبيين والمماليك كان تعيينه من قبل السلطان. وكان قاضي القضاة ينظر في قضايا متنوعة بدون تفرقة ــ أي كان هناك نظام توحيد القضاء ــ فينظر القضايا الجنائية والقضايا المدنية والقضايا الشرعية. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٢٦٦).

(٣) زيادة عن السلوك. وانظر تفصيل ذلك في حسن المحاضرة: ١٣٢/٢ ــ ١٣٤ والسلوك: ٥٣٨/٢/١ ــ ٥٣٩.

كلامه، وكان لأَيْدُغْدِي منه محلٌّ عظيم؛ فولّى السلطان الشيخ صدر الدين سليمان[١] الحنفي قاضي قضاة الحنفيّة بالديار المصريّة، وكان للقضاة الحنفيّة أزيد من ثلاثمائة سنة من أوّل الدولة الفاطميّة قد بَطَل حكمهم من ديار مصر آستقلالاً عندما أبطل الفاطميّون القضاة من سائر المذاهب، وأقاموا قضاة الشِّيعة بمصر. اِنتهى. ووَلّى القاضي شرف الدين عمر[٢] السُّبْكيّ المالكيّ قاضي قضاة المالكيّة. وولّى الشيخ شمس الدين محمد[٣] آبن الشيخ العماد الحنبلي قاضي القضاة الحنابلة، وفوّض لكّل واحد منهم أن يستنيب بالأعمال وغيرها؛ وأبقى على تاج الدين النظَر في مال الأيتام [والمحاكمات المختصّة ببيت المال][٤]، وكتب لهم التقاليد وخَلَع عليهم؛ ثم فعل ذلك ببلاد الشام كلّه.

قلت: وقد جمعتُ أسماء من ولي القضاء من المذاهب الأربعة من يوم رَتّب الملك الظاهر بِيبرس القضاة (أعني من سنة ثلاث وستين وستمائة) إلى يومنا هذا على الترتيب على سبيل الاختصار لتكثر الفائدة في هذا الكتاب، وإن كان يأتي ذِكْرُ غالبهم في الوفيات في حوادث الملوك على عادة هذا الكتاب، فذِكْرُهم هنا جملةً أرشق وأهون على من أراد ذلك، والله المستعان. فنقول:

---

(١) سليمان بن أبي العز بن وهيب الأذرعي الحنفي مدرّس المدرسة الصالحية. (السلوك).

(٢) شرف الدين عمر بن عبد الله بن صالح بن عيسى بن عبد الملك بن موسى بن خالد بن علي بن عمر بن عبد الله بن إدريس بن إدريس بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب السبكي المالكي. (السلوك).

(٣) شمس الدين محمد بن إبراهيم الحنبلي. (السلوك).

(٤) زيادة عن السلوك.

ذكر قُضاة الشافعيّة

كان قاضي قضاة الشافعيّة يوم ذاك القاضي تاج الدين عبد الوهاب، وهي ولايته الثانية، وتُوفّي سنة خمس وستين وستمائة. ثم القاضي تقّي الدين محمد بن رَزِين العامريّ سنة خمس وستين وستمائة، ومولده في شعبان سنة ثلاث وستمائة، وتُوفّي ثالث رجب سنة ثمانين وستمائة. ثم القاضي صدر الدين عمر بن عبدالوهاب ابن ابنت الأَعَزّ سنة ثمانٍ وسبعين وستمائة. ثم أعيد القاضي تقيّ الدين محمد بن رَزِين سنة تسع وسبعين وستمائة. ثمّ القاضي وجيه الدين عبد الوهّاب البَهْنَسِي سنة ثمانين وستمائة. ثم القاضي تقِيّ الدين عبد الرحمن آبن القاضي تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعزّ سنة خمس وثمانين وستمائة. ثم القاضي بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جَمَاعة الحَمَويّ الكِنَانِيّ سنة تسعين وستمائة. ثم أُعِيد القاضي تَقِيّ الدين عبدالرحمن ابن بنت الأَعزّ في صفر سنة ثلاث وتسعين وستمائة. ثم ولي القاضي تَقِيّ الدين محمد بن عليّ بن دقيق العِيد سنة خمس وتسعين وستمائة، ومولده في شعبان سنة خمس وعشرين وستمائة، وتُوفّي سنة آثنتين وسبعمائة. ثم أُعِيد القاضي بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جَمَاعة الحَمَوِيّ في سنة أربع وسبعمائة. ثمّ ولي القاضي جمال الدين سليمان بن عمر الزُّرْعِيّ سنة عشر وسبعمائة. ثم أُعِيد القاضي بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جَمَاعة سنة إحدى عشرة وسبعمائة. ثم ولي القاضي جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القَزْوِينِيّ سنة سبع وعشرين وسبعمائة، وتُوفّي سنة تسع وثلاثين وسبعمائة. ثم ولي القاضي عِزّ الدين عبد العزيز

آبن القاضي بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جَمَاعة الحَمَوِيّ سنة ثمانٍ وثلاثين وسبعمائة. ثم ولي القاضي بهاء الدين عبد الله بن عقِيل سنة تسع وخمسين وسبعمائة. ثم أعِيد القاضي عزّ الدين عبد العزيز بن جَمَاعة سنة تسع وخمسين وسبعمائة. ثم ولي القاضي بهاء الدين محمد أبو البقاء بن عبد البر السُّبْكِيّ في سنة ست وستين وسبعمائة. ثم ولي القاضي بُرْهان الدين إبراهيم بن عبد الرحيم بن جماعة سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة. ثم ولي القاضي بدر الدين محمد بن بهاء الدين محمد بن عبد البَرّ السُّبْكِيّ في صفر سنة تسع وسبعين وسبعمائة. ثم أعِيد القاضي بُرْهان الدين إبراهيم بن جَمَاعة سنة إحدى وثمانين وسبعمائة. ثم أُعِيد القاضي بدر الدين محمد بن أبي البقاء السُّبكيّ في صفر سنة أربع وثمانين وسبعمائة. ثم ولي القاضي ناصر الدين محمد [بن عبد الدائم بن محمد بن سلامة[١]] آبن بنت المَيْلَق في شعبان سنة تسع وثمانين وسبعمائة، وامتُحِن وعُزِل. ثم ولي القاضي صدر الدين محمد بن إبراهيم السلميّ المُنَاوِيّ[٢] في ذي القعدة سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. ثم أُعِيد القاضي بدر الدين محمد بن أبي البقاء السُّبْكِيّ سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. ثم ولي القاضي عِمَاد الدين أحمد الكَرَكِيّ في رجب [سنة آثنتين وتسعين، ثم عُزِل في ذي الحجّة][٣] سنة أربع وتسعين وسبعمائة. ثم أُعِيد القاضي صدر الدين محمد بن إبراهيم المُنَاوِيّ في شعبان سنة أربع[٤] وتسعين وسبعمائة. ثم أُعيد القاضي بدر الدين محمد بن أبي البقاء السُّبْكِيّ في شهر ربيع الآخر سنة ست وتسعين وسبعمائة. ثم أُعِيد القاضي صدر الدين محمد بن إبراهيم المُنَاوِيّ في شعبان سنة سبع وتسعين وسبعمائة. ثم ولي القاضي تقيّ الدين[٥] الزُّبَيْرِيّ في جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وسبعمائة.

(١) زيادة عن الشذرات.

(٢) نسبة إلى «منية القائد» إحدى قرى مركز العياط بمديرية الجيزة. ويقال لها اليوم «ميت القائد». (عن تعليقات محمد رمزي).

(٣) زيادة عن حسن المحاضرة للسيوطي.

(٤) في حسن المحاضرة: «سنة خمس وتسعين وسبعمائة».

(٥) هو تقي الدين عبد الرحمن ابن تاج الرياسة محمد بن عبد الناصر المحلي الدميري الزبيري.

ثم أُعِيد القاضي صدر الدين المُنَاوِيّ في شهر رجب سنة إحدى وثمانمائة. ثم ولي القاضي ناصر الدين[١] الصّالِحيّ في سَلْخ شعبان سنة ثلاث وثمانمائة. ثم ولي القاضي جلال الدين عبد الرحمن بن عمر بن رسلان بن نصير البُلْقِينِيّ في جُمادى الأولى سنة أربع وثمانمائة في حياة والده. ثم أُعِيد القاضي ناصر الدين الصالحي في شوّال سنة خمس وثمانمائة، ومات في المحرّم سنة ست وثمانمائة. ثم ولي القاضي شمس الدين محمد الإِخْنَائِيّ[٢] في شهر الله المحرّم سنة ستّ وثمانمائة. ثم أُعِيد القاضي جلال الدين عبد الرحمن البُلْقينِيّ في شهر ربيع الأوّل سنة ستّ وثمانمائة، ومولده سنة إحدى وستين وسبعمائة؛ وهكذا حكى لي من لفظه، ـ رحمه الله ـ وتُوفّي بالقاهرة في شوّال سنة أربع وعشرين وثمانمائة. ثم أُعِيد القاضي شمس الدين محمد الإِخْنَائِيّ في شهر شعبان سنة ستّ وثمانمائة. ثم أُعِيد القاضي جلال الدين عبد الرحمن البُلْقِينِيّ في ذي الحجّة من سنة ست وثمانمائة. ثم أُعِيد القاضي شمس الدين الإِخْنَائي في ثاني عشرين جمادى الأولى سنة سبع وثمانمائة. ثم أُعِيد القاضي جلال الدين البُلْقِينِيّ في ثالث عشر ذي القعدة سنة سبع وثمانمائة. ثم أُعِيد القاضي شمس الدين محمد الإِخْنَائِي في حادي عشر صفر سنة ثمانٍ وثمانمائة. ثم أُعِيد القاضي جلال الدين البُلْقِينِيّ في خامس شهر ربيع الأوّل سنة ثمانٍ وثمانمائة، وهي ولايته الخامسة، ولم يزل في هذه المرة قاضياً إلى أن توجّه صحبة الملك الناصر فَرَج إلى الشام سنة أربع عشرة وثمانمائة. ثم عُزِل بالقاضي شهاب الدين أحمد البَاعُونِيّ بدِمشق في المحرّم سنة خمس عشرة وثمانمائة. ثم أُعِيد القاضي جلال الدين البُلْقِينِيّ المذكور في أوّل صفر من سنة خمس عشرة وثمانمائة، فآستمرّ في القضاء إلى آخر جمادى الأولى سنة إحدى وعشرين وثمانمائة. ثم عزل بالقاضي شمس الدين محمد الهَرَوِيّ في سَلْخ جمادى الأولى سنة إحدى وعشرين وثمانمائة. ثم أُعِيد القاضي جلال الدين البُلْقِينِيّ في شهر ربيع الأوّل سنة آثنتين وعشرين وثمانمائة، وآستمرّ إلى أن مات في شوّال كما تقدّم ذكره.

---

(١) هو ناصر الدين محمد بن محمد بن عبد الرحمن الصالحي.

(٢) شمس الدين محمد بن محمد بن عثمان الدمشقي المعروف بابن الإخنائي.

قلت: وقاضي القضاة جلال الدين المذكور هو صِهْري وزَوْج كريمتي(١)، ومات عنها. رحمهما الله تعالى وعفا عنهما.

ثم ولي القاضي وَلِيّ الدين أحمد آبن الحافظ عبد الرحيم بن الحسين العِرَاقِيّ في شوّال سنة أربع وعشرين وثمانمائة. ثم ولي القاضي علم الدين صالح بن عمر البُلْقِينِيّ في يوم السبت سادس ذي الحجّة سنة خمس وعشرين وثمانمائة. ثم ولي القاضي شهاب الدين أحمد بن عليّ بن حَجَر [العسقلاني](٢) في سابع عشرين المحرّم سنة سبع وعشرين وثمانمائة. ثم أعِيد القاضي شمس الدين الهَرَوِيّ في سابع ذي القعدة سنة سبع وعشرين وثمانمائة. ثم أعِيد القاضي شهاب الدين أحمد بن حَجَر في ثاني رجب سنة ثمانٍ وعشرين وثمانمائة. ثم أعِيد القاضي علم الدين صالح البُلْقِينِيّ في خامس عشرين صفر سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة. ثم أعِيد القاضي شهاب الدين أحمد بن حَجَر في رابع عشرين جمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وثمانمائة. ثم أُعِيد القاضي علم الدين صالح البُلْقِينِيّ في خامس شوّال سنة أربعين وثمانمائة. ثم أُعِيد القاضي شهاب الدين أحمد بن حَجَر في يوم الثلاثاء سادس شوّال سنة إحدى وأربعين وثمانمائة. ثم ولي القاضي شمس الدين محمد القَايَاتِيّ في يوم الخميس رابع عشر المحرّم سنة تسع وأربعين وثمانمائة، ومات في ثامن عشرين المحرّم سنة خمسين وثمانمائة ـ رحمه الله تعالى ـ ثم أعِيد القاضي شهاب الدين أحمد بن حَجَر في خامس صفر سنة خمسين وثمانمائة. ثم أُعِيد القاضي علم الدين صالح البُلْقِينِيّ في يوم السبت مستهل سنة إحدى وخمسين وثمانمائة. ثم ولي القاضي وَلي الدين محمد السَّفْطِيّ في يوم

(١) الكريمة، في الأصل، شقيقة الرجل. وشاع هذا اللفظ لدى المتأخرين بمعنى ابنته. واستعماله في المعنيين على سبيل المجاز. وشقيقة المؤلف المشار إليها هي بيرم (ت ٨٢٦هـ) وكانت قد تزوجت، قبل القاضي البلقيني، القاضي ابن العديم الحنفي الذي مات عنها سنة ٨١٩هـ. وتجدر الإشارة هنا إلى أن أبا المحاسن كان قد نبأ نشأته الأولى في حجر شقيقته بيرم هذه وفي كنف القاضي البلقيني الذي رعاه وأنشأه تنشئة صالحة.

(٢) الشهير بابن حجر العسقلاني، صاحب المصنفات الجليلة في التاريخ والتراجم والحديث والتفسير وغيرها. وكان حافظ الإسلام في عصره.

الخميس خامس عشر شهر ربيع الأوّل سنة إحدى وخمسين وثمانمائة. ثم أعِيد القاضي شهاب الدين أحمد بن حَجَر في ثامن شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة، ثم عَزَل نفسه ومات معزولاً ـ رحمه الله تعالى ـ. ثم أعِيد القاضي علم الدين صالح البُلْقِينِيّ في سادس عشر جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة. ثم ولي القاضي شرف الدين يحيى المُنَاوِيّ في يوم الاثنين ثالث عشر رجب سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة. ثم أُعِيد القاضي علم الدين صالح البُلْقِينِيّ في يوم السبت ثامن عشرين صفر سنة سبع وخمسين وثمانمائة[1].

* * *

(١) تابع السيوطي في حسن المحاضرة ذكر قضاة القضاة بمصر إلى ولاية القاضي الشيخ زكريا بن محمد الأنصاري السنيكي المتوفى سنة ٩٢٦هـ.

ذكر القضاة الحنفيّة

فالذي ولي أوّلاً قاضي القضاة صدر الدين سليمان(١). ثمّ من بعده قاضي القضاة معِزّ الدين النُّعْمان بن الحسن إلى أن تُوفّي في سابع عشر شعبان سنة اثنتين وتسعين وستمائة. ثم ولِيَ قاضي القضاة شمس الدين أحمد(٢) السَّرُوجِيّ فآستمرّ إلى أن تسلطن الملك المنصور لاجين عَزَله. ثم ولي قاضي القضاة حُسام(٣) الدين الرازيّ فآستمرّ إلى أن قُتِل لاجين، نُقِل إلى قضاء دِمَشق سنة ثمانٍ وتسعين. ثم أُعِيد شمس الدين السَّرُوجِيّ، ثم عُزِل أول شهر ربيع الآخر سنة عشر وسبعمائة. ثم ولي بعده قاضي القضاة شمس الدين محمد [بن عثمان] الحَرِيرِيّ إلى أن مات يوم السبت رابع جمادى الآخرة ــ رحمه الله ــ سنة ثمانٍ وعشرين وسبعمائة. ثم ولي بعده قاضي القضاة بُرْهان الدين إبراهيم(٤) بن عبد الحقّ إلى أن عُزِل يوم الأحد ثامن عشر جمادى الآخرة سنة ثمانٍ وثلاثين وسبعمائة. ثم ولي بعده قاضي القضاة حُسام(٥) الدين الغُوريّ إلى أن كانت واقعةُ الأمير قَوْصُون نهبوا الرسل والعامّة بيته وطلبوه ليقتلوه فهَرَب. ثم ولي بعده قاضي القضاة زَيْن الدين عمر [بن عبد الرحمن] البِسْطَامِيّ في سنة آثنتين وأربعين وسبعمائة إلى أن عُزِل في سنة ثمانٍ وأربعين وسبعمائة. ثم تولّاها من بعده قاضي القضاة علاء(٦) الدين التُّرْكُمانِيّ في جُمادى

(١) راجع ص ١١٠، حاشية (١).

(٢) هو أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني السروجي المتوفى سنة ٧١٠هـ. وفي الأصل وحسن المحاضرة: «محمد السروجي» وهو خطأ.

(٣) هو الحسن بن أحمد الرازي. توفي سنة ٦٩٩هـ. انظر حوادث سنة ٦٩٩هـ من هذا الكتاب.

(٤) توفي سنة ٧٤٤هـ.

(٥) هو الحسن بن محمد بن محمد الغوري.

(٦) هو علي بن عثمان بن إبراهيم التركماني.

منها إلى أن تُوفّي عاشر المحرّم سنة خمسين. فولي بعده ولدُه قاضي القضاة جمال الدين عبد الله بن التُّرْكُمانِيّ إلى أن مات في شعبان سنة تسع وستين وسبعمائة. فولي بعده قاضي القضاة سِرَاج الدين عمر [بن إسحاق] الهِنْديّ إلى أن مات في شهر رجب سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة، ثم ولي بعده قاضي القضاة صدر[1] الدين ابن جمال الدين التُّرْكُمَانِيّ إلى أن مات في ذي القعدة سنة ست وسبعين. فوليها بعده قاضي القضاة نجم[2] الدين بن الكشك، طُلِب من دِمَشْق في المحرّم سنة سبع وسبعين وسبعمائة، ثم عُزِل عنها. وتولى من بعده قاضي القضاة صدر الدين عليّ[3] بن أبي العز الأَذْرَعِيّ، ثم آعتفى عنها. فتولّاها قاضي القضاة شرف الدين أبو العبّاس أحمد [بن عليّ] بن منصور في سنة سبع وسبعين، فآستمرّ إلى سادس عشرين رجب عُزِل. ثم تولّاها بعده قاضي القضاة جلال الدين جار[4] الله، فآستمر قاضياً إلى أن مات في يوم الاثنين رابع عشر شهر رجب سنة آثنتين وثمانين وسبعمائة. فتولى بعده قاضي القضاة صدر الدين محمد بن عليّ بن منصور في شهر رمضان سنة آثنتين وثمانين وسبعمائة، فآستمر إلى أن مات في شهر ربيع الأول سنة ستّ وثمانين وسبعمائة. فتولّاها بعده قاضي القضاة شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر الطَّرَابُلُسِيّ، فآستمر إلى بعد فتنة الأَتَابك يَلْبُغَا[5] الناصريّ ومنطاش[6] مع الظاهر بَرْقُوق سنة آثنتين وتسعين وسبعمائة عُزِل عنها. ثم تولّاها قاضي القضاة مجد الدين إسماعيل بن إبراهيم الكِنَانِيّ، أقام فيها قليلاً ثمّ عُزِل. ثم تولّاها من بعده قاضي القضاة جمال الدين محمود [بن محمد بن علي بن عبد الله] القَيْصَرِيّ العَجَمِيّ مضافاً لنظر الجيش، فآستمر إلى أن مات في ليلة الأحد

---

(١) هو صدر الدين محمد بن ابن جمال الدين عبد الله ابن علاء الدين علي.

(٢) هو نجم الدين أحمد بن إسماعيل بن محمد، المعروف بابن أبي العز وبابن الكشك. توفي سنة ٧٩٩هـ.

(٣) هو أبو الحسن علي بن علي بن محمد المتوفى سنة ٧٩٢هـ.

(٤) هو جلال الدين محمد بن محمد بن محمود، المعروف بجار الله.

(٥) انظر حوادث سنة ٧٩٣هـ في الجزء الثاني عشر من هذا الكتاب.

(٦) انظر خبر فتنة منطاش في حوادث سنة ٧٩٢هـ (سلطنة الظاهر برقوق الثانية على مصر ــ أول الجزء الثاني عشر).

سابع شهر ربيع الأوّل سنة تسع وتسعين وسبعمائة. ثم تولّاها من بعده قاضي القضاة شمس الدين الطَّرَابُلُسِيّ ثانياً في الشهر والسنة، فآستمرّ إلى أن مات في آخر السنة المذكورة. وتولّى بعده قاضي القضاة جمال الدين يوسف بن موسى المَلْطِيّ الحَلَبِيّ في يوم الخميس العشرين من شهر ربيـع الآخر [سنة ثمانمائة]؛ طُلِب من حلب وآستمرّ إلى أن مات في ليلة الاثنين تاسـع عشر شهر ربيـع الآخر سنة ثلاثٍ وثمانمائة. وتولّاها من بعده قاضي القضاة أمين الدين عبد الوهّاب آبن القاضي شمس الدين الطرابُلُسِيّ في يوم الخميس ثاني عشر جمادي الآخرة من السنة، فآستمرّ إلى سادس عشرين شهر رجب سنة خمس وثمانمائة، عُزِل. فتولّاها من بعده قاضي القضاة كمال الدين عمر [بن إبراهيم بن محمد] بـن العَدِيم الحلبـيّ، وآستمرّ إلى أن مات في ليلة السبت ثاني عشر جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة وثمانمائة، ومولده بحلب سنة إحدى وسبعين[١] وسبعمائة. فتولّاها من بعده آبنه القاضي ناصر الدين محمد في يوم الاثنين رابـع عشر الشهر المذكـور مضافـاً لمشيخة الشَّيْخُونِيّة[٢]، وآستمرّ إلى أن صُرِف. وأُعِيد القاضي أمين الدين الطرابُلُسِيّ ثانياً في

(١) في الشذرات وحسن المحاضرة أن مولده سنة ٧٦٠ أو ٧٦١هـ.

(٢) أي خانقاة شيخو، أو الخانقاة الشيخونية، نسبة إلى الأمير سيف الدين شيخو العمري الذي أنشأها سنة ٧٥٦هـ. وكان موقعها في خط الصليبة خارج القاهرة تجاه جامـع شيخو. وقد رتّب فيها دروساً لفقهاء المذاهب الأربعة ودرساً للحديث ودرساً لإقراء القرآن بالروايات السبع. واشترط على الطلبة حضور الدرس وحضور وظيفة التصوّف. وكان الطلبة يتعلمون ويأكلون ويبيتون في الخانقاه بغير أجر. (انظر خطط المقريزي: ٤٢١/٢) والخانقاه: كلمة فارسية معناها بيت. وأصلها: خونقاه، أي الموضـع الذي يأكل فيه الملك. ثم أطلقت على المكان الذي يتخلى فيه الصوفية للعبادة، ثم على الملجأ أو مطعم الفقراء. (خطط المقريزي: ٢١٤/٢). وكان يطلق على من يتولى الإشراف على رجال الطرق الصوفية لقب شيخ الشيوخ؛ وهو يشير إلى وظيفة، فقد ذكر أبو شامة في الروضتين أنه بعد وفاة شيخ الشيوخ إسماعيل بن أبي سعد في أيام المستنجد سنة ٥٤١هـ صار بعده ابنه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ. وفي عصر الأيوبيين والمماليك كان لقب شيخ الشيوخ لقباً فخرياً يطلق على شيخ الخانقاه الصلاحية (خانقاه سعيد السعداء) التي بناها صلاح الدين، وكذلك الخانقاه الناصرية التي أنشأها الناصر محمـد بن قلاوون بسـرياقـوس من ضواحي القـاهرة. (الـروضتين: ١٩١/١، وصبـح الأعشى: ٣٧٠/١١) ولا تزال الخانقاه الشيخونية موجودة إلى اليوم إلا أنها مخصصة للصلاة فقط باسم جامـع شيخون القبلي تجاه جامعه البحري، وهما واقعتان بشارع شيخون بقسم الخليفة بالقاهرة. (عن تعليقات محمد رمزي).

رابع عشرين شهر رجب من سنة إحدى عشرة وثمانمائة، فآستمرّ القاضي أمين الدين إلى سابع المحرّم من سنة آثنتي عشرة وثمانمائة صُرِف. وأُعِيد قاضي القضاة ناصر الدين ابن العدِيم ثانياً؛ وآستقرّ القاضي أمين الدين الطرابُلُسِيّ في مشيخة الشَّيْخُونِيّة عِوَضاً عن ناصر الدين ابن العَدِيم المذكور.

قلت: وناصر الدين المذكور هو صِهْرِيّ زَوْج كريمتي(١). اِنتهى.

وآستمرّ ناصر الدين ابن العَدِيم إلى أن عُزِل، فتولّاها قاضي القضاة صدر الدين عليّ [بن محمد بن محمد المعروف بآ] بن الأُدَمِيّ الدِّمَشْقِيّ في سنة خمس عشرة وثمانمائة، وآستمرّ إلى أن مات في يوم السبت ثامن شهر رمضان من سنة ست عشرة وثمانمائة. ثم أُعِيد ناصر الدين بن العَدِيم ثالثاً، فآستمرّ إلى أن مات في ليلة السبت تاسع شهر ربيع الآخر سنة تسع عشرة وثمانمائة، وشَغَرت الوظيفة إلى أن طلب الملكُ المؤيّدُ شيخ شمسَ الدين محمد [بن عبد الله بن سعد] الدَّيْرِيّ من القُدْس، وقَدِم القاهرة في ثالث عشر جُمادى الأولى من سنة تسع عشرة المذكورة، ونزل بقاعة الحنفيّة بالمدرسة الصالحيّة(٢) إلى أن آستقرّ في القضاء يوم الاثنين سابع عشره، وآستمرّ إلى أن عُزِل برغبة منه. وتولّاها من بعده قاضي القضاة زَيْن الدين عبد الرحمن [بن علي بن عبد الرحمن] التَّفَهْنِيّ في يوم الجمعة سادس ذي القعدة سنة آثنتين وعشرين وثمانمائة، وآستمرّ إلى أن عُزِل. ثم تولّاها من بعده قاضي القضاة بدر الدين محمود [بن أحمد بن موسى] العَيْنِي في يوم الخميس سابع عشرين شهر ربيع الآخر سنة تسع وعشرين وثمانمائة، واستقرّ التَّفَهْنِي المذكور في مشيخة خانقاه شَيْخون، بعد موت شيخ الإسلام سِرَاج الدين عمر(٣) قارىء «الهداية»، وآستمرّ العَيْنِيّ إلى أن عُزِل. ثم أُعِيد التَّفَهْنِيّ(٤) في يوم الخميس سادس

(١) أي شقيقته بيرم. راجع ص ١١٤ من هذا الجزء حاشية (١).

(٢) راجع الجزء السادس، ص ٢٨٠، حاشية (٤).

(٣) هو عمر بن علي بن فارس الكناني القاهري الحسيني، أبو حفص المعروف بقارىء الهداية. توفي سنة ٨٢٩هـ. كان يستحضر «الهداية» في فروع الحنفية. وله «تعليق» عليها انفرد صاحب كشف الظنون بذكره. (الأعلام: ٥/٥٧).

(٤) التفهني: بفتح المثناة والفاء وسكون الهاء، نسبة إلى تفهنا، قرية بالقرب من دمياط. (الضوء اللامع: ٤/٩٨).

عشرين صفر سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة، فدام إلى أن صُرِف لطول مرضه. ثم أُعِيد قاضي القضاة العَيْنِيّ ثانياً في سابع عشرين جُمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين وثمانمائة، فآستمرّ العَيْنِيّ إلى أن صُرِف في دولة الملك العزيز يوسف آبن الملك الأشرف بَرْسْبَايْ بقاضي القضاة سعد الدين سعد آبن القاضي شمس الدين محمد بن الدَّيْرِيّ في أول سنة آثنتين وأربعين وثمانمائة[١]...

قلت: وهؤلاء القضاة الذين آستجدّهم الملك الظاهر بِيبَرْس البُنْدُقْدَارِيّ حسب ما ذكرناه في أوّل الترجمة. وذلك بعد آنقضاء الدولة الأيّوبيّة. وأمّا قبل خراب الديار المصرية في الدّولة العُبَيْدِيّة فكانت قضاة الحنفيّة هم حكّام مصر بل حكّام المشرق والمغرب إلى حدود نيّف وأربعمائة، لمّا حَمَل المُعِزّ بنُ بادِيس الناس ببلاد المغرب على آتّباع مذهب الإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ ثم ملكت العُبَيديّة مصر فمحَوْا آثار السُّنّة وولَّوْا قضاة الشِّيعة وبَطَل الأربعة مذاهب[٢] من مصر إلى أن زالت دولتهم وتولّى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيُّوب ـ رحمه الله ـ فولّى قاضياً شافعياً فقط كونه كان شافعياً، وأذهب الرافضة، وآستمرّ ذلك نحو تسعين سنة حتّى ولي الملك الظاهر بِيبَرْس فجدّد المذاهب الثلاثة كما سُقْناه. اِنتهى.

* * *

(١) انظر بقية القضاة الحنفية بعد هذا التاريخ في حسن المحاضرة: ٢/١٤٣.

(٢) في أيام الوزير الفاطمي أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي عين لكل مذهب قاضي قضاة، فكان قاضي قضاة شافعي وآخر مالكي وثالث إسماعيلي ورابع من الإمامية. ـ راجع ص ١٠٩، حاشية (٢).

ذكر القضاة المالكيّة

فالذي كان أوّلهم ولايةً في دولة الظاهر بِيبَرْس هو القاضي شرف الدين عمر السُّبكِيّ المالكيّ تغمّده الله برحمته وجميع المسلمين(١). . .

* * *

ذكر قضاة الحنابلة

فالذي ولّاه الملك الظاهر بِيبَرْس هو قاضي القضاة شمس الدين أبو بكر محمد [ابن العماد إبراهيم] الجَمّاعِيلِيّ الحنبليّ إلى أن آمْتُحِن وصُرِف في ثاني شعبان سنة سبعين وستمائة، ولم يَلِ بعد عزله بالقاهرة أحدٌ من الحنابلة حتى تُوفّي شمس الدين المذكور في يوم الخميس في العشر الأوّل من المحرّم سنة ست وسبعين. ثم ولي قاضي القضاة عِزّ الدين عمر بن عبد الله بن عوض في النصف من جُمادى الأولى(٢) سنة ثمانٍ وسبعين؛ فاستمرّ حتى مات سنة ستّ وتسعين وستمائة. ثم تولّى بعده قاضي القضاة شرف الدين أبو محمد عبد الغني [بن يحيى] الحَرّانِيّ إلى أن مات في رابع عشرين شهر ربيع الأوّل سنة تسع وسبعمائة. ثم تولّى بعده قاضي القضاة سعد الدين مسعود بن أحمد الحارِثيّ في ثالث شهر ربيع الآخر من السنة، وعزل بعد سنتين ونصف بقاضي القضاة تَقِيّ الدين(٣) آبن قاضي القضاة

---

(١) لم يذكر المؤلف من قضاة المالكية غير شرف الدين السبكي. انظر بقية قضاة المالكية في حسن المحاضرة للسيوطي: ٢/١٤٥.

(٢) في حسن المحاضرة: «جمادى الآخرة».

(٣) هو تقي الدين أحمد بن عمر بن عبد الله المتوفى سنة ٧٧٦هـ.

عِزّ الدين عمر في حادي عشر شهر ربيع الأوّل سنة آثنتي عشرة وسبعمائة، بعدما شَغر مَنْصِب القضاة ثلاثة أشهر، فلم تطل أيّامه[١] وعُزِل بقاضي القضاة موفَّق الدين عبد الله بن محمد بن عبد الملك المقدسيّ في نصف جمادى الآخرة سنة ثمانٍ وثلاثين وسبعمائة، فدام في المَنْصِب إلى أن مات في المحرّم سنة تسع وستين وسبعمائة. ثم تولّى عوضَه قاضي القضاة ناصر الدين نصر الله بن أحمد بن محمد العَسْقَلانِيّ حتّى مات في ليلة الحادي والعشرين من شهر شعبان سنة خمس وتسعين وسبعمائة. ثم تولّى بعده آبنه قاضي القضاة بُرْهان الدين إبراهيم ابن نصر الله حتّى مات في ثامن شهر ربيع الأول سنةآثنتين وثمانمائة. ثم تولّى عوضه أخوه قاضي القضاة موفّق الدين أحمد بن نصر الله، فدام حتّى صُرف بقاضي القضاة نور الدين عليّ [بن خليل بن عليّ بن أحمد بن عبد الله][٢] الحِكْرِيّ، فلم تَطُل مدّة الحِكْرِيّ وصُرِف. ثم أعِيد مُوفَّق الدين فاستمرّ إلى أن مات في سنة ثلاث وثمانمائة. ثم تولّى بعده قاضي القضاة مجد الدين سالم [بن أحمد] في ثالث عشرين شهر رمضان من سنة ثلاث فاستمرّ في القضاء إلى أن صُرِف بقاضي القضاة علاء الدين عليّ [بن محمود بن أبي بكر] بن مُغْلِي في حدود سنة ست عشرة وثمانمائة، فاستمرّ علاء الدين بن مُغلي في القضاء إلى أن تُوفّي بالقاهرة في العشرين من صفر سنة ثمانٍ وعشرين وثمانمائة. ثم تولّى بعده قاضي القضاة مُحِبّ الدين أحمد بن نصر الله البَغْدَاديّ من التاريخ المذكور إلى أن صَرَفه الملك الأشرف بقاضي القضاة عِزّ الدين عبد العزيز [بن عليّ] البغداديّ في ثالث عشر جُمادى الآخرة سنة تسع وعشرين، فدام القاضي عِزّ الدين إلى أن صُرِف في يوم الثلاثاء ثاني عشر صفر سنة ثلاثين وثمانمائة. ثم أُعِيد قاضي القضاة مُحِبّ الدين، وآستمرّ إلى أن مات في يوم الأربعاء

---

(١) كذا. ولعل الصواب: «وطالت أيامه» لأنه تولى القضاء ستاً وعشرين سنة.

(٢) زيادة عن الشذرات. وفي حسن المحاضرة: «نور الدين علي الكري» وهو تحريف. والحكري: نسبة إلى الحكر، خارج القاهرة.

خامس عشر جُمادى الأولى سنة أربع وأربعين وثمانمائة. ثم تولى بعده قاضي القضاة بدر الدين محمد [بن محمد] بن عبد المنعم البغداديّ إلى أن مات في ليلة الخميس سابع جُمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثمانمائة. ثم تولّى بعده قاضي القضاة عز الدين أحمد [بن إبراهيم بن نصر الله العسقلاني] في يوم السبت تاسع جمادى الأولى المذكور.

قلت: وقد خرجنا عن المقصود في ترجمة الملك الظاهر بِيبَرْس بالإطالة فيما ذكرناه، غير أنّ ذلك كلّه هو أيضاً ممّا يُضاف إلى ترجمته، ولا بأس بالإطالة مع تحصيل الفائدة، ولنعُد إلى ذكر السلطان الملك الظاهر بِيبَرْس.

ثم أمر الملك الظاهر بأن يعمل بدِمَشْق أيضاً كذلك في سنة أربع وستين فوقع ذلك، ووَلّى بها قضاة أربعة[1]. ولمّا وقّع ولايته القضاء من كلّ مذهب بدِمَشق اتّفق أنّه كان لَقَبُ ثلاثة قضاة منهم شمس الدين، وهم: قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن محمد بن خلّكان الشافعيّ، وقاضي القضاة شمس الدين عبد الله بن محمد بن عطا الأَذْرَعِيّ الحنفي، وقاضي القضاة شمس الدين عبد الرحمن آبن الشيخ أبي عمر الحنبليّ؛ فقال بعض الشعراء رحمه الله في هذا المعنى: [المجتث]

أهلُ الشآم آستربوا ... من كثرة الحُكّامِ
إذْ هُمْ جميعاً شموسٌ ... وحالُهم في ظلامِ

وقال غيره: [مجزوء الرمل]

بدِمَشْقٍ آيةٌ قد ... ظهرت للناس عامَا
كلمّا وُلِّيَ شمسٌ ... قاضياً زادت ظلامَا

---

(١) قال القلقشندي في صبح الأعشى: ١٩٩/٤: «وكان استقرار القضاة الأربعة بها بعد حدوث ذلك بالديار المصرية، لكن لم تستقرّ الأربعة دفعة واحدة كما وقع في الديار المصرية، بل على التدريج. وأقدمهم فيها الشافعي. وكان أعلاهم الشافعي، ثم يليه في الرتبة الحنفي، ثم المالكي، ثم الحنبلي».

فتوحاته رحمه الله

ثم سافر الملك الظاهر من مصر إلى البلاد الشامية في هذه السنة (أعني سنة أربع وستين) فخرج منها في يوم السبت مستهلّ شعبان، وجعل نائبه بديار مصر ولدَه الملك السعيد(١)، وجعل الجيش في خدمته والوزير بهاء الدين بن حِنّا؛ وسار الملك الظاهر حتّى نزل عَيْن جَالوت وبعث عسكراً مقدَّمُه الأمير جمال الدين أَيْدُغْدِيّ العَزيزيّ، ثم عسكراً آخر مقدَّمُه الأمير سيف الدين قلاوون الألفي للإغارة على بلاد الساحل، فأغاروا على عكّا وصُور وطرابُلُس وحصن الأكراد وسبَوْا وغَنِموا ما لا يُحْصَى.

ثم نزل الملك الظاهر بنفسه على صَفَد في ثامن شهر رمضان، ونصَب عليها المجانيقَ، ودام الاهتمامُ بعمل الآلات الحربيّة إلى مستهلّ شوّال [إذ] شرع في الزَّحف والحِصار وأخذ النُّقُوب من جميع الجهات إلى أن ملكها بُكْرة يوم الثلاثاء خامس عشر شوّال؛ وآستمرّ الزَّحْفُ والقتالُ ونصبُ السلالم على القلعة وتسلطت عليها النقوب، والسلطان يُباشر ذلك بنفسه، حتّى طلب أهلُ القلعة الأمان على أنفسهم وطلبوا اليمين على ذلك، فأجلس السلطانُ الملك الظاهرُ الأميرَ كرمون [أغا](٢) التَّتَارِيّ في دَسْت السلطنة، وحضرت رُسُلُهم فاستحلفوه فحلف [لهم كرمون التَّتارِيّ] وهم يظنونه الملك الظاهر، فإنه كان يُشبِه الملك الظاهر. وكان في قلب الملك الظاهر منهم حَزَازة، ثم شَرَط عليهم ألّا يأخذوا معهم من أموالهم شيئاً. فلمّا كان يوم الجمعة ثامن عشر شوّال طلعت السناجق على قلعة صَفَد، ووقف الملك الظاهر بنفسه على بابها وأخرج من كان فيها من الخيّالة والرجّالة والفلاحين؛ ودخل الأمير بدر الدين بِيليك الخَازِنْدَار وتسلّمها، وآطّلع على أنّهم أخذوا شيئاً

(١) هو الملك السعيد، محمد بركة، أبو المعالي ناصرالدين ابن الملك الظاهر بيبرس. ولي بعد وفاة أبيه سنة ٦٧٦هـ وتوفي سنة ٦٧٨هـ.

(٢) زيادة عن السلوك: ٥٤٨/٢/١ والروض الزاهر: ١٨٠. وكرمون أغا هذا كان من جملة الأمراء التتار الذين قصدوا الديار المصرية مستأمنين، فأمنهم السلطان بيبرس وأكرمهم، ودخلوا في دين الإسلام. قال ابن عبد الظاهر: وكرمون أغا هو الذي فتح بلاد الترك جميعها.

كثيراً من التُّحَف له قيمةٌ، فأمر الملك الظاهر بضَرْب[١] رِقابهم فضُرِبت على تلٍّ هناك. وكُتِبت البشائر بهذا النصر إلى مصر والأقطار، وزُيِّنت الديار المصريّة لذلك. ثم أمَرَ الملك الظاهر بعمارة قلعة صَفَد وتحصينها ونَقْل الذخائر إليها والأسلحة، وأزال دولة الكفر منها، ولله الحمد، وأقطع بلَدَها لمن رَتّبه لحفظها من الأجناد، وجعل مقدّمهم الأمير علاء الدين البكي[٢]، وجعل في نيابة السلطنة بالمدينة الأمير عِزّ الدين العَلائيّ، وولاية القلعة للأمير مجد الدين الطُّورِيّ.

ثم رَحَل الملك الظاهر إلى دِمَشق في تاسع[٣] عشر شوّال.

ولمّا كان الملك الظاهر نازلاً بصَفَد وصل إليه رسول صاحب صِهْيَوْن بهديّة جليلة ورسالة مضمونُها الاعتذار من تأخيره عن الحضور، فقَبِل الملك الظاهر الهديّة والعُذْرَ. ثمّ وصلت رُسُلُ صاحب سِيس[٤] أيضاً بهديّة فلم يَقْبَلها ولا سمِع رسالتهم.

ثم وصلت البَريديّة[٥] من متولّي قُوص ببلاد الصَّعِيد بخبر أنّه آستولى على جزيرة سواكن[٦] وأنّ صاحبها هَرَب، وأرسل يطلب من الملك الظاهر الدخول في

---

(١) الظاهر أن السلطان بيبرس كان ينوي خداعهم بإعطائهم أماناً عن طريق أحد قادته (كرمون أغا) الذي تنكر بزي السلطان، مما يسهّل على السلطان التحلّل من أمانه. ويشير ابن عبد الظاهر إلى ذلك بقوله: «.. فوجد معهم ما ذكرناه مما ينقض الأمان، لو كان حقيقة، فكيف وما أعطاهم السلطان أماناً معتبراً» (الروض الزاهر: ٢٦١). قارن أيضاً بالسلوك: ٥٤٨/٢/١، حاشية (١).

(٢) كذا. وفي الروض الزاهر: «الأمير علاء الدين أيدغدي السلاح دار».

(٣) في الروض الزاهر والسلوك: «٢٧ شوال».

(٤) سيس: وصوابه «سيسية» كما في معجم البلدان. وعامة أهلها يقولون سيس. وهي من مدن الثغور الشامية بين أنطاكية وطرسوس على عين زربة. (معجم البلدان). وهي اليوم مدينة في تركية في إيالة أطنة. وهي بلدة كبيرة ذات قلعة بأسوار ثلاثة على جبل مستطيل.

(٥) البريدية: الذين يحملون رسائل الأخبار من بلد إلى بلد. وكان يقال لهم أيضاً: النجّابة. وعن ترتيب البريد وتاريخه ومراكزه انظر صبح الأعشى: ٤١١/١٤، والتعريف بالمصطلح الشريف: ٢٣٩.

(٦) سواكن: ميناء صغير على البحر الأحمر في شرقي السودان. كانت ميناء السودان الأول حتى أوائل القرن العشرين، ثم تدهورت بعد إنشاء بور سودان سنة ١٩٠٦م. (الموسوعة العربية الميسرة).

الطاعة وإبقاء سواكن عليه، فرسَم له الملك الظاهر بذلك[١].

ثم رحل الملك الظاهر من دمَشق يوم السبت ثالث ذي القعدة وأمر العساكر بالتقدّم إلى بلاد سِيس للإغارة عليها، وقَدّم عليهم الملك المنصور صاحب حَمَاة وتدبير الأمور راجعٌ إلى الأمير آق سنقر الفَارِقانِيّ، فساروا حتّى وصلوا إلى الدَّرب[٢] الذي يدخلون منه إليها، وكان صاحبها قد بَنَى عليها أَبْرِجةً فيها المُقاتِلة؛ فلمّا رَأَوْا العسكر تركوها ومضَوْا فأخذها المسلمون وهدَمُوها، ودخلوا بلاد سِيس فنهبُوا وأسرُوا وقتلُوا؛ وكان فيمن أسِر آبن صاحب سِيس[٣] وآبن أخته وجماعةٌ من أكابرهم. ودخلوا المدينة يوم السبت ثاني عشر ذي القعدة وأخذوا منها ما لا يُحْصَى كَثْرَةً، وعادوا نحو دِمَشْق. فلمّا قاربوها خرج الملك الظاهر لتلقّيهم في ثاني ذي الحجّة، وآجتاز بقَارَةَ[٤] في سادسه، فأمر بنهبها وقَتْلِ مَن فيها من الفرنج، فإنّهم كانوا يُخِيفون السبيل ويستأسِرون المسلمين، فأراح الله منهم وجُعِلت كنيستها جامعاً، ورتّب بقَارَةَ خطيباً وقاضياً، ونقَل إليها الرعية من المسلمين؛ ثم آلتقى العساكر وخَلَع عليهم وعاد معهم، فدخل دِمَشْق، والغنائم والأَسْرَى بين يديه، في يوم الاثنين خامس عشر شهر ذي الحجّة فأقام بها مدّة.

ثم خرج منها طالباً الكَرَك في مستهل المحرّم سنة خمس وستين وستمائة، وأمر الملك الظاهر بعد خروجه من دِمَشْق بعمارة جِسر بآلغَوْر على [نهر]

---

(١) ذكر ابن عبد الظاهر أن صاحب سواكن علم الدين أسبعاني هرب منها. ولما غادرها والي قوص حاول صاحب سواكن استعادتها، فقاتله من بها أشد قتال، وعاد خاسراً. (الروض الزاهر: ٢٤٨).

(٢) الدرب: وفي بعض الروايات «الدربند». ويجمع على دربندات. ويقال أيضاً: بلاد الدروب. والدرب والدربند: لفظ فارسي، من معانيه المضايق والطرقات والمعابر الضيقة.

(٣) صاحب سيس هذا كان يدعى هيتوم بن قسطنطين بن باساك. وقد ظل ملكاً على أرمينية الصغرى حتى سنة ٦٦٩هـ. وقد صالح السلطان بيبرس سنة ٦٦٦هـ على شروط منها أن يسلم إلى السلطان بلاد بهسنا ودربساك ومرزبان ورعبان وشيح الحديد. وفي مقابلها يطلق السلطان ابنه ليفون الذي أسر في المعركة المشار إليها هنا. وليفون المذكور هوليون الثالث الذي حكم بعد والده من سنة ٦٦٩هـ إلى سنة ٦٨٨هـ. (السلوك: ١/٢/٥٥٢، حاشية (١)).

(٤) قارة: قرية كبيرة تقع على الطريق بين دمشق وحمص. وغالب أهلها نصارى. (معجم البلدان).

الشَّرِيعَة[١]؛ وكان المتولِّي لعمارته جمال الدين محمد بن نَهَار وبدر الدين محمد بن رحال وهما من أعيان الأمراء؛ ولمّا تكامل عمارته آضطرب بعض أركانه، فَقلِق الملك الظاهر لذلك وأعاد الناسَ لإصلاحه فتعذّر ذلك لزيادة الماء، فآتّفق وقوف الماء عن جَرَيَانه حتّى أمكن إصلاحُه؛ فلمّا تمّ إصلاحُه عاد الماء إلى حاله؛ قيل إنّه كان وقـع في النهر قطعةُ كبيرة مما يُجاوره من الأماكن العالية فسدته من غير قصد. وهذا من عجيب الاتّفاق.

ثمّ عاد الملك الظاهر إلى ديار مصر، وعند عوده إليها وصل إليه رسل صاحب اليمن الملك المظفر [شمس الدين] يوسف بن عمر ومعهم فيل وحمار وحش أبيض وأسود وخيول وصِينيّ وتُحَف، وطلب معاضدة الملك الظاهر له وشرط له أن يخطب له ببلاده.

ثمّ خرج السلطان في يوم السبت في ثاني جمادى الآخرة إلى بركة الجب[٢] عازماً على قصد الشام على حين غفلة، وجعل نائب السلطنة على مصر الأمير بِيلِيك الخازندار. ورحل في سابع الشهر، فوردت عليه رسل صاحب يافا في الطريق فآعتقلهم، وأمر العسكر بلُبْس آلة الحرب ليلاً وسار فأصبح يافا، وأحاط بها من كل جانب، فهَرَب من كان فيها من الفرنـج إلى قلعتها، فملَك السلطان المدينة وطلب أهلُ القلعة الأمان، فأمّنهم وعوّضهم عما نُهِب لهم أربعين ألف درهم، فركبوا في المراكب إلى عَكّا؛ وكان أخذُ قلعة يافا في الثاني والعشرين من الشهر المذكور وأمر بهدمها.

فلمّا فرَغ السلطان من هدمها رَحَل عنها يوم الأربعاء ثاني عشر شهر رجب

---

(١) يطلق العرب اسم نهر الشريعة على المجرى الأدنى من نهر الأردن، وهو المجرى الممتد من بحيرة طبرية إلى البحر الميت. (الموسوعة الفلسطينية: ١/١٦٣).

(٢) في الأصل: «بركة الحبش». وما أثبتناه عن طبعة دار الكتب المصرية. راجع أيضاً الجزء الخامس، ص ١٨، حاشية (١).

طالباً للشَّقِيف[(١)]، فنزل عليه يوم الثلاثاء وحاصرها حتّى تسلّمها يوم الأحد تاسع عشرين رجب؛ وكان الملك الظاهر أيضاً ملَك الباشورة[(٢)] بالسيف في السادس والعشرين منه.

ثم رحل الملك الظاهر عنها بعد أن رَتَّب بها عسكراً في عاشر شعبان، وبعث أكثر أثقاله إلى دِمَشق وسار إلى طرابُلُس فشَنّ عليها الغارة وأخرب قُراها وقطع أشجارها وغوّر أنهارها.

ثم رَحَل إلى حصن[(٣)] الأكراد ونزل بالمَرْج الذي تحته، فحضر إليه رسولُ مَنْ فيه بإقامة وضيافة، فردّها عليه وطلب منهم دِيَةَ رجل من أجناده، كانوا قتلوه، مائة ألف دينار فأرضَوْه.

فرحل إلى حِمْص ثم إلى حَمَاة ثم إلى أَفَامِيَة[(٤)] ثم سار ونزل منزلةً أخرى.

ثم رحل ليلاً وأمر العسكر بلُبْس آلة الحرب، ونزل أنطاكِيَة في غُرّة شهر رمضان، فخرج إليه جماعة من أهلها يطلبون الأمان وشرطوا شروطاً لم يُجِب إليها، وزَحف عليها فملكها يوم السبت رابع الشهر؛ ورتّب على أبوابها جماعةً من الأمراء

---

(١) الشقيف: وهو شقيف أرنون. قلعة حصينة قائمة على مسافة نحو خمسة كيلو مترات إلى الشرق الجنوبي من بلدة النبطية في جنوب لبنان. وتطل هذه القلعة من جهة الشرق على وادٍ يجري فيه نهر الليطاني أو نهر ليطا.

(٢) الباشورة: هي أن يكون أمام باب القلعة أو خلفه بناء ذو عطفة حتى لا تهجم عليه العساكر وقت الحصار ويتعذر سوق الخيل ودخولها جملة. (خطط المقريزي: ٣٨٠/١). ولعل في قوله: «ملك الباشورة بالسيف» إشارة إلى أن الجنود اقتحموا باب القلعة راجلين بدون خيولهم. وقد أخذ الظاهر بيبرس قلعة الشقيف بحيلة ذكية. انظر في ذلك السلوك: ٥٦٥/٢/١، حاشية (٣)، والروض الزاهر: ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

(٣) حصن الأكراد: من أعمال حمص. وهو قلعة حصينة مقابل حمص من غربيها، على الجبل المتصل بجبل لبنان. (تقويم البلدان).

(٤) أفامية أو فامية: مدينة في سورية، موقعها في أسفل جبل الزاوية، قريباً من وادي نهر العاصي الأوسط. قامت بالقرب منها قلعة المضيق. وقد دمرت الزلازل سنة ٥٥٢هـ هذه المدينة وقضت عليها. (الأعلاق الخطيرة: ٧٥٦/٣، حاشية).

لئلّا يخرج أحدٌ من الحرافشة[1] بشيء من النهب، ومَن يوجد معه شيء يُؤخذ منه، فجمع من ذلك ما أمكن جمعه وفرّقه على الأمراء والأجناد بحسب مراتبهم. وحُصِر مَنْ قُتِل بأنطاكية فكانوا فوق الأربعين ألفاً، وأُطْلق جماعةً من المسلمين كانوا فيها أسراء من الحلبيّين، وكتب البشائر بذلك إلى مصر وإلى سائر الأقطار. وأنطاكِيَة: مدينة عظِيمة مشهورة، مسافة سورها آثنا عشر ميَلًا، وعدد أبراجها مائة وستة وثلاثون بُرْجاً، وعَدَدُ شُرُفاتها أربع وعشرون ألفاً. ولم يفتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيُّوب ـ رحمه الله ـ فيما فتح[2].

قلت: كم ترك الأوّل للآخر!

ولمّا مَلَك الملك الظاهر أنطاكِيَةَ وصل إليه قُصّاد من أهل القُصَيْر[3] يطلبون تسليمها إليه، فسيّر السلطان الأمير شمس الدين آق سنقر الفَارِقَانِيّ بالعساكر إليها فوصَلها ووجد أكثر أهلها قد بَرِح منها، فتسلّمها[4] في ثالث عشر شهر رمضان؛ وكان قد تسلّم دَركُوش[5] بواسطة فخر الدين الجَنَاحِيّ في تاسع شهر رمضان وعاد إلى دمشق، فدخلها في سابع عشرين شهر رمضان، وعيّد السلطان بقلعة دِمَشْق.

---

(١) الحرافشة: كان يطلق هذا اللفظ على جماعة اللصوص وقطاع الطرق. كما أطلق عليهم أيضاً تسميات أخرى مثل: الشطّار والعيّارين والدعّار والزعّار والفتوة وغير ذلك.

(٢) كان صاحب أنطاكية وطرابلس يومئذ البرنس بيمند بن بيمند (بوهيمند السادس Bohemond). وكان مقيماً بطرابلس حين سقطت أنطاكية بيد المسلمين، ولم يعلم بذلك إلا من خلال الرسالة التي بعث بها إليه السلطان الظاهر بيبرس؛ وهي رسالة طويلة حافلة بالتهكم، وهي من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، كاتب الإنشاء والمؤرخ الرسمي للسلطان بيبرس. ـ انظر نص الرسالة في الروض الزاهر: ٣٠٩ ـ ٣١٣، والسلوك: ٩٦٦/٣/١ ملحق رقم ٢، ونصه مقارن على النهج السديد وعقد الجمان وكاترمير. وفي الروض الزاهر فذلكة تاريخية مطولة عن أنطاكية، فلتنظر بعد نص الرسالة المشار إليها.

(٣) أي حصن القصير، من قلاع حلب.

(٤) أشار ابن عبد الظاهر إلى أن أهل القصير بذلوا نصف البلاد للسلطان، فكتب لهم هدنة بذلك، وانضافت إلى البلاد الإسلامية نصف بلاد القصير. قال: وكانت القصير للبطرك الكبير خالصة له، وزعموا أن بأيديهم خطاً من عمر بن الخطاب.

(٥) دركوش: حصن قرب أنطاكية من أعمال العواصم. (معجم البلدان).

ثم عاد إلى القاهرة فدخلها آخر نهار الأربعاء حادي عشر ذي الحجّة. وبعد وصوله بمدة جلس في الإيوان بقلعة الجبل يوم الخميس تاسع صفر، وأحضر القضاة والشهود والأعيان وأمر بتحليف الأمراء ومقدّمي الحَلْقَة لولده الملك السعيد بركة خان فحلفوا ثم ركب الملك السعيد يوم الاثنين العشرين من الشهر بأُبَّهة السلطنة في القلعة ومشَى والده أمامه، وكُتِب تقليدُ[1] [له] وقُرِىء على الناس بحضور الملك الظاهر وسائر أرباب الدولة.

ثم في يوم السبت ثاني عشر جُمَادى الآخرة خرج الملك الظاهر من القاهرة متوجِّهاً إلى الشام ومعه الأمراء بأَسْرِهم جرائد، وآستناب بالديار المصريّة في خدمة ولده الأمير بدر الدين بِيلِيك الخَازِنْدَار. ومن هذا التاريخ عَلّم الملك السعيد على التواقيع وغيرها.

ولمّا صار الملك الظاهر بدمشق وصلت إليه كتب التّتار ورسلُهم، والرسل: مُحِبّ الدين دَوْلة خان، وسيف الدين سعيد تَرْجُمان وآخرُ، ومعهم جماعة من أصحاب سِيس، فأنزلهم السلطان بالقلعة وأحضرهم من الغد وأدّوا الرسالة ومضمونها[2]: أنّ الملك أَبْغَا[3] بن هولاكو لمّا خرج من الشرق ملَك جميع البلاد ومن خالفه قُتِل وأنت (يعني للملك الظاهر) لو صَعِدْت إلى السماء أو هَبَطْتَ إلى الأرض ما تخلُص منّا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صُلْحاً، وأنت مملوكٌ أُبِعْتَ في سِيواس فكيف تشاقق ملوك الأرض وأولاد ملوكها! فأجابه في وقته بأنّه في طلب جميع ما آستوْلَوْا عليه من العراق والجزيرة والروم والشام وسفّرهم إليه بسرعة.

---

(١) انظر نص التقليد في السلوك: ٩٦٩/٣/١، ملحق (٣) وهو من إنشاء فخر الدين بن لقمان.

(٢) انظر نص الرسالتين المتبادلتين بين أبغا بن هولاكو والظاهر بيبرس في الروض الزاهر: ٣٣٩ ــ ٣٤٢.

(٣) هو آباقا خان بن هولاكو. تولى العرش بعد وفاة أبيه واتخذ تبريز عاصمة له. ومن الأحداث الهامة في حياة هذا السلطان محاربته للمصريين في الشام، إذ حاول أن يغسل الإهانة التي لحقت بالجيوش المغولية في موقعة عين جالوت، فأعد جيشاً كبيراً التحم به في عدة معارك مع جيوش السلطان الظاهر بيبرس ولكنها أسفرت جميعها عن اندحار جيوش المغول. وكان من أبرز تلك المواقع وقعة أبلستين (شرقي قيسارية بين جبل طوروس والقسم العلوي من نهر جيحان) سنة ٦٧٥هـ إذ فقد من المغول في تلك المعركة ما يقرب عن سبعة آلاف نفس حتى أن آباقا عندما زار ميدان القتال وشاهد أشلاء القتلى من المغول تأثر تأثراً شديداً ولم يكن في وسعه إلا أن يذرف الدمع. وقد عمر آباقا نحو خمسين سنة، وحكم ما بين ٦٦٣ و ٦٨٠هـ. (مؤرخ المغول الهمذاني: ٥٨).

ثم في آخر شهر رجب خرج الملك الظاهر من دِمَشْق ونزل خَرِبَةَ اللّصوص فأقام بها أيّاماً؛ ثم ركب ليلة الاثنين ثامن عشر شعبان ولم يشعُر به أحد وتوجّه إلى القاهرة على البريد بعد أن عرّف الفارِقَانِيّ أنّه يغيب أيّاماً معلومة، وقرّر معه أنه يُحْضِر الأطِبّاء كلّ يوم ويستوصف منهم ما يُعَالَج به متوعِّكٌ يشكو تغيير مِزَاجِه، ليُوهم الناس أنّ الملك الظاهر هو المتوعِّك؛ فكان يُدْخِلُ ما يصفونه إلى الخَيْمة ليُوهم العسكر صحَّةَ ذلك؛ وسار الملك الظاهر حتّى وصل قلعة الجبل ليلة الخميس حادي عشرين شعبان، فأقام بالقاهرة أربعة أيّام؛ ثم توجّه ليلة الاثنين خامس عشرين الشهر على البريد[١]، فوصل إلى المعسكر[٢] يوم تاسع عشرين الشهر. وكان غرضه بهذا السَّفَر كشفَ أحوال ولده الملك السعيد وغير ذلك.

ثم في يوم الأحد سادس عشر شهر رمضان تسلّم نوّاب الملك الظاهر قلعة بِلاطُنُس[٣] وقلعةَ كرابيل (؟) من عِزّ الدين أحمد بن مظفّر الدين عثمان[٤] بن مَنْكُورس صاحب صِهْيَوْن، وعوّضه غيرهما قريةً تعرف بالخميلة[٥] من أعمال شَيْزَر.

ثم في يوم الخميس العشرين من شهر رمضان توجّه الملك الظاهر إلى صَفَد فأقام بها يومين ثم شنّ الغارة على بلد صُور، وأخذ منها شيئاً كثيراً.

ثم عاد الملك الظاهر إلى دِمَشْق وعيّد بها. ثم خرج منها في خامس عشرين شوّال يريد الكَرَك فوصله في أوائل ذي القعدة.

ثم توجّه في سادسه إلى الحجاز، وصحبته بِيلِيك الخَازِنْدَار والقاضي صدر الدين سليمان الحنفي وفخر الدين إبراهيم بن لقمان وتاج الدين ابن الأثير ونحو ثلاثمائة مملوك وجماعة من أعيان الحَلْقة، فوصل المدينة الشريفة في العَشْر الأخير

---

(١) أي على خيل البريد.

(٢) أي عاد إلى معسكره في خربة اللصوص، كما في السلوك.

(٣) بلاطنس: حصن بساحل الشام مقابل اللاذقية (معجم البلدان).

(٤) في الأصل: «حماد». وما أثبتناه عن الروض الزاهر.

(٥) كذا. ولم نعثر عليها في المصادر التي بأيدينا. وفي الروض الزاهر: «فعين له السلطان قرية الجلمة من بلد شيزر». وشيزر: من جند حمص غربـي حلب.

من الشهر فأقام بها ثلاثةَ أيام. وكان جَمَّاز[١] قد طرق المدينة وملَكها، فلمّا قَدِم الظاهر هرب، فقال الملك الظاهر: لوكان جَمّاز يستحقّ القتل ما قتلته! لأنه في حَرَم النبـيّ صلّى الله عليه وسلم؛ ثم تصدّق في المدينة بصدَقَات كثيرة، وخرج منها متوجِّهاً إلى مكّة فوصلها في ثامن ذي الحجّة، فخرج إليه أبو نُمَيّ[٢] وعمُّه إدريس صاحبا مكّة، وبذَلا له الطاعة فخلَع عليهما وسارا بين يديه إلى عَرَفات، فوقف بها يوم الجمعة ثم عاد إلى مِنًى، ثم إلى مكّة وطاف بها طوافَ الإفاضة، وصَعِد الكعبة وغسلها بماء الوَرْد وطيّبها بيده، وأقام يوم الاثنين ثم ركب وتوجّه إلى المدينة الشريفة، فزار بها قبر النبـيّ صلى الله عليه وسلم ثانياً.

ثم توجّه إلى الكَرَك فوصله في يوم الخميس تاسع عشرين ذي الحجة فصلّى به الجمعةَ.

ثم توجّه إلى دِمَشْق فوصل يومَ الأحد ثاني المحرّم سنة ثمانٍ وستين وستمائة في السَّحَر، فخرج الأمير جمال الدين آقوش فصادفه في سوق الخيل واجتمع به.

ثم سار إلى حلب فوصلها في سادس المحرّم.

ثم خرج منها في عاشره وسار إلى حَمَاة ثم إلى دِمَشْق ثم إلى مصر، وصحبته الأمير عِزّ الدين الأَفْرَم فدخلها يوم الأربعاء رابع صفر، وآتّفق ذلك اليوم دخول رَكْب الحاجّ، وكانت العادة يوم ذاك بدخول الحاج إلى القاهرة بعد عاشر صفر، فأقام الملك الظاهر بالقاهرة أيّاماً، وخرج منها في صفر المذكور إلى الإسكندرية ومعه ولده الملك السعيد وسائر الأمراء فتصيّد أيّاماً وعاد إلى نحو القاهرة في يوم

---

(١) هو جمّاز بن فلان بن أبـي فليتة، من بني مهنا الحسينيين. (معجم زامباور) وفي المنهل الصافي: جماز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن الحسين الأصغر. توفي سنة ٧٠٤هـ. ورواية المنهل الصافي توافق ما جاء في الروض الزاهر.

(٢) أبو نمي، محمد بن الحسن بن علي بن قتادة: شريف حسني من أمراء مكة. شارك أباه في الإمارة سنة ٦٤٧هـ، ووثب على عم أبيه إدريس بن قتادة سنة ٦٧٠هـ فقتله واستقل بالإمرة. توفي سنة ٧٠١هـ (الأعلام: ٨٦/٦) وفي معجم زامباور والروض الزاهر أن إدريس هو عمه؛ وهو ما يوافق رواية أبـي المحاسن هنا.

الثلاثاء ثامن شهر ربيع الأوّل؛ وخَلَع في هذه السَّفْرة على الأمراء وفرّق فيهم الخيلَ والحوائص الذهب والسيوفَ المحلاّة والذهب والدراهم والقماش وغير ذلك.

فلم يُقِم بالقاهرة إلا مدّة يسيرة، وخرج منها متوجِّهاً إلى الشام في يوم الاثنين حادي عشرين شهر ربيع الأوّل في طائفة يسيرة من أمرائه وخواصّه، فوصل إلى دِمَشْق في يوم الثلاثاء سابع شهر ربيع الآخر؛ ولَقِي أصحابُه في الطريق مَشَقَّةً شديدةً من البَرْد.

ثم خرج عقيب ذلك إلى الساحل وأَسَر مَلِك عَكّا؛ وقَتَل وأَسَر وسَبَى.

ثم قصد الغارة على المَرْقَب فوجد من الأمطار والثلوج ما منعه، فرجع إلى حِمْص فأقام بها نحو عشرين يوماً.

ثم خرج إلى جهة حصن الأكراد ونزل تحتها، وأقام يركب كل يوم ويعود من غير قتال إلى الثامن والعشرين من شهر رجب، فبلغه أنّ مراكب الفرنج دخلت ميناء الإسكندرية وأخذت مركبين للمسلمين، فرحَل من فوره إلى نحو الديار المصريّة فوصلها ثاني عشر شعبان. فحين دخوله إلى مصر أمر بعمارة القناطر التي على بحر أبي المُنَجَّا[١]، وهي من المباني العجيبة في الحسن والإتقان؛ وبينما هو في ذلك ورد عليه البَريد من الشام أنّ الفرنج قاصدون الساحل، والمقدّم عليهم شارل[٢] أخو رِيدا فَرَنْس، وربّما كان محطّهم عكّا؛ فتقدّم الملك الظاهر إلى العسكر بالتوجّه إلى الشام. ثم وَرَد الخبر أيضاً بأنّ آثني عشر مَرْكَباً للفرنج عَبَرُوا على الإسكندرية

(١) بحر أبي المنجا: هذا البحر أنشأه أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه أيام وزارته للخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله سنة ٥٠٦هـ، تحت إشراف أبي المنجا يشعيا اليهودي الذي كان مشرفاً على أعمال الريّ، ولذلك عرف البحر باسم أبي المنجا (انظر الانتصار: ٤٦/٥، وخطط المقريزي: ١٥١/٢) ويعرف اليوم بترعة الشرقاوية من فمها القديم إلى شبين القناطر، ثم يسير باسم بحر أبي الأخضر إلى نهايته بترعة الوادي. (من تعليقات محمد رمزي).

(٢) في الأصل: «شرون». وما أثبتناه عن السلوك: ٥٠٢/٢/١. وهو شارل أوف أنجو (Charles of Anjou) ملك صقلية؛ وقد تولى قيادة الجيوش الفرنجية بعد موت أخيه لويس التاسع ملك فرنسا الذي قاد هذه الحملة إلى تونس، وهي المعروفة بالحملة الصليبية الثامنة. وهذه الحملة لم تستطع أن تحقق شيئاً من أهدافها.

ودخلوا ميناءها وأخذوا مركباً للتجّار وآستأصلوا ما فيه وأحرقوه، ولم يَجْسُر والي الإسكندرية أن يُخْرِج الشواني[١] من الصناعة[٢] لغَيْبة رئيسها في مُهِمّ آستدعاه الملك الظاهر بسببه. ولمّا بلغ الملكَ الظاهرَ ذلك بعثَ أمرَ بقَتْل الكلاب في الإسكندرية وألّا يَفْتَح أحد حانوتاً بعد المَغْرِب ولا يُوقِد ناراً في البلد ليلاً، ثم تجهّز بسرعة وخرج نحو دِمْياط يوم الخميس خامس ذي القعدة في البحر.

وفي ذي الحجّة أمر السلطان بعمل جِسْرَين: أحدهما من مصر إلى الجزيرة (أعني الروضة)، والآخر من الجزيرة إلى الجيزة على مراكب لتجوز العساكر عليهما. ثم عاد الملك الظاهر من دِمْياط بسرعة ولم يَلْقَ حَرْباً.

وخرج من مصر إلى عَسْقلان في يوم السبت عاشر صفر سنة تسع وستين وستمائة في جماعة يسيرة من الأمراء والأجناد، فوصَل إلى عَسْقَلانَ وهدَم من سُورها ما كان أهْمِل هدمُه في أيّام الملك الصالح، ووُجِد فيما هُدِم كُوزانِ مملوءان ذهباً مقدار ألفي دينار ففرّقها على مَنْ صَحِبَه؛ ووَرَد عليه الخبر وهو بعَسْقَلان بأنّ عسكر آبن أخي بركة[٣] خان المُغْلِيّ كَسَرَ عسكر أبْغَا بن هولاكو، فسُرّ الملك الظاهر

(١) الشواني: هي السفن الحربية. وقد تقدم ذكرها في غير مكان من هذا الكتاب.

(٢) أي من دار الصناعة حيث كانت تصنع هذه السفن وغيرها.

(٣) كان إسلام بركة خان ملك المغول الذين يعيشون حول نهر الفولغا والذين عرفوا باسم مغول العراق أو القبيلة الذهبية، ووقوع العداوة بين بركة وبين هولاكو، كان ذلك فرصة مناسبة للظاهر بيبرس رأى استغلالها لأجل مصلحة بلاده، ومن ثم دارت مكاتبات بينه وبين بركة خان منذ سنة ٦٦٠هـ حول إقامة تحالف فيما بينهما. أما عن أسباب الخلاف بين بركة خان وابن عمه هولاكو فكثيرة منها اعتناق بركة خان للإسلام منذ حداثته، في حين بقي هولاكو على دين التتار. يضاف إلى ذلك مطالبة بركة خان بنصيبه مما فتحه هولاكو من البلاد وأخذه من الأموال وذلك على ما جرت عليه عادة ملوك التتار إلا أن هولاكو قتل رسل بركة خان فاشتد غضبه وكاتب الظاهر بيبرس ليتفقا على هولاكو. وكان هولاكو يكن في قلبه حقداً وكراهية شديدة لبركة خان، وقد قال معبراً عن ذلك: «ولو أنه ــ أي بركة ــ كبير الأسرة وسيّدها إلا أنه لا يرعى الحياء والخجل ويخاطبني بتهديد وعنف، وإني لن أحابيه بعد هذا». ولما علم بركة خان بما قاله هولاكو قال هو الآخر: «إنه ــ هولاكو ــ قد دمّر جميع مدن المسلمين وقضى على أسر ملوك الإسلام ولم يميز بين الصديق والعدو، وأعدم الخليفة دون مشورة كبار الأسرة، فلو أمدني الله تعالى لطالبته بدماء الأبرياء». (انظر العلاقات السياسية بين المماليك والمغول للدكتور فايد حماد عاشور: ص ٧٥ وما بعدها).

بذلك سروراً زائداً. وعاد إلى مصر يوم السبت ثامن شهر ربيع الأوّل.

وفي هذه السنة آنتهى الجِسر والقناطر الذي عمل على بحر أبي المنجا، ووقف عليه الملك الظاهر وقْفاً يعمر منه ما دَثَر منه على طول السنين.

وفي هذه السنة أيضاً بَنَى الملك الظاهر جامع المنشيّة(1)، وأقيمت فيه الخطبة يوم الجمعة ثامن عشرين شهر ربيع الآخر من سنة تسع وستين وستمائة المذكورة.

ثم في السنة المذكورة(2) أيضاً خرج الملك الظاهر من الديار المصريّة متوجّهاً إلى نحو حِصن الأكراد في ثاني عشر جُمادَى الآخرة، ودخل دِمَشْقَ يوم الخميس ثامن شهر رجب، وكان معه في هذه السَّفْرة ولده الملك السعيد والصاحب بهاء الدين بن حِنّا، وآستخلف بمصر الأمير شمس الدين آق سنقر الفَارِقانِيّ، وفي الوزارة الصاحبَ تاج الدين بن حِنّا. ثم خرج الملك الظاهر من دِمَشْق في يوم السبت عاشره وتوجّه بطائفة من العسكر إلى جهة، وولدُه وبيلِيك الخازِنْدَار بطائفة أخرى إلى جهة، وتواعدوا الاجتماع في يوم واحد بمكان مُعَيَّن لِيَشُنُّوا الغارة على جَبَلة واللاّذِقِيّة والمَرْقَب وعرْقَة ومَرَقِيّة والقُلَيْعَات وصافِيثا والمَجْدَل وأَنْطَرْطُوس(3)، فلمّا آجتمعوا [على] أن يشنّوا الغارة فتحوا صافيثا والمجدل، ثم ساروا ونزلوا حِصْن الأكراد يومَ الثلاثاء تاسع عشر شهر رجب من سنة تسع وستين وستمائة؛ وأخذوا في نَصْب المجانيق وعَمَل الستائر(4)، ولهذا الحِصْن ثلاثة أسوار؛ فاشتدّ عليه

---

(1) كان هذا الجامع واقعاً في الأرض الواقعة على شارع قصر العيني تجاه معهد ومستشفى الكلب من الجهة الشرقية. وقد اندثر وليس له أثر اليوم. (محمد رمزي).

(2) هذه السنة هي سنة ٦٦٩هـ، كما في السلوك والروض الزاهر. وذكر ابن دقماق أن تاريخ بناء جامع المنشية كان سنة ٦٦١هـ، كما أن صاحب مختصر سيرة الظاهر بيبرس ذكر أن توجه بيبرس نحو حصن الأكراد كان سنة ٦٦١هـ.

(3) الأماكن المذكورة تقع على الساحل السوري اللبناني الفلسطيني. انظر الخارطة المرفقة بآخر هذا الجزء.

(4) الستائر: جمع ستارة؛ وهي حائط خارجي مبني من الخشب أو غيره يحتمي وراءه المدافعون عن حصن أو سور. ويستخدم المهاجمون الستائر أيضاً للوقاية من قذائف العدو. وكانت الستائر تعمل أحياناً من اللبود بطول المكان الذي يراد رميه بالمقذوفات كستر للرماة. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٧٨).

الزحف والقتال وفُتحت الباشورة[١] الأولى يوم الخميس حادي عشرين الشهر، وفُتحت الثانية يوم السبت سابع شعبان، وفُتِحت الثالثة الملاصقة للقلعة في يوم الأحد خامس عشره، وكان المحاصر لها إلملك السعيد آبن الملك الظاهر ومعه بِيلِيك الخَازِنْدار وبَيْسَرِي؛ ودخلت العساكر البلد بالسيف وأَسَرُوا مَنْ فيه من الجبليّة والفلاّحين ثم أطلقوهم. فلمّا رأى أهل القلعة ذلك أذعنوا بالتسليم وطلَبوا الأمان، فأمّنهم الملك الظاهر وتَسَلّم القلعة يوم الاثنين ثالث عشرين شعبان، وكُتِبت البشائر بهذا الفتح إلى الأقطار، وأطلق الملك الظاهر مَنْ كان فيها من الفرنج فتوجّهوا إلى طرابُلُس. ثم رحَل الملك الظاهر بعد أن رتّب الأميرَ عِزّ الدين أَيْبَك الأفرم لعمارته، وأُقيمت فيه الجمعة، ورتّب نائباً[٢] وقاضياً[٣].

ولمّا وقع ذلك بعث صاحبُ أَنْطَرْطُوس إلى الملك الظاهر يطلب المهادنة، وبعث إليه بمفاتيح أَنْطَرْطُوسُ فصالحه على نصف ما يتحصّل من غلال بلده، وجعل عندهم نائباً من قِبَله. ثم صالح صاحبَ المَرْقَب على المناصفة أيضاً، وذلك في يوم الاثنين مستهلّ شهر رمضان من سنة تسع وستين، وقُرِّرت الهُدْنَة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيّام[٤].

ثم سار الملك الظاهر في يوم الأحد رابع عشر شهر رمضان فأشرف على

---

(١) راجع ص ١٢٨ من هذا الجزء، حاشية (٢).

(٢) كان نائبه على حصن الأكراد الأمير صارم الدين الكافري. (السلوك والروض الزاهر).

(٣) وكتب السلطان بيبرس بعد تسلم الحصن إلى رئيس فرسان الإسبتار، وهو صاحب حصن الأكراد خطاباً أورده ابن عبد الظاهر في الروض الزاهر ٣٧٦، وهذا نصّه:

«هذه المكاتبة إلى أفريرأوك (Frère Hugh) ـ جعله الله ممن لا يعترض على القدر، ولا يعاند من سخرٌ لجيشه النصر والظفر، ولا يعتقد أنه ينجي من أمر الله الحذر، ولا يحمي منه محجور البناء ولا مبنيّ الحجر ـ تعلمه بما سهل الله من فتح حصن الأكراد الذي حصنته وبنيته وخلّيته، وكنت الموفق لو أخليته؛ واتكلت في حفظه على إخوتك فما نفعوك؛ وضيعتهم بالإقامة فيه فضيعوه وضيعوك؛ وما كانت هذه العساكر تنزل على حصن ويبقى، أو تخدم سعيداً ويشقى».

(٤) أورد القلقشندي في صبح الأعشى: ٣٤/١٤ دار الكتب العلمية، نسخة هدنة بين الظاهر بيبرس ومقدمي بيت الاسبتار والداوية في عكا والبلاد الساحلية وحصن الأكراد وحصن المرقب، ومدتها كما ورد أعلاه؛ وتاريخها سنة ٦٦٥هـ. كما أشار كل من المقريزي وابن عبد الظاهر إلى الهدنة سنة ٦٦٥هـ. ـ انظر السلوك: ٥٩٢/٢/١، والروض الزاهر: ٢٦٦.

حِصْن ابن عَكَّار[١]، وعاد إلى المَرْج[٢] فأقام به إلى أن سار ونزل على الحصن المذكور ثانياً في يوم الاثنين ثاني عشرين شهر رمضان، ونَصَب المجانيق عليه في يوم الثلاثاء. وفي يوم الأحد ثامن عشرينه رمى المنجنيق الذي قُبالة الباب الشرقيّ رَمْياً كثيراً فخَسف خَسْفاً كبيراً إلى جانب البَدَنة، ودام ذلك إلى اللّيل فطلبوا الأمان على أنفسهم من القتل وأن يمكِّنهم من التوجّه إلى طرابُلُس فأجابهم[٣]، فخرجوا يوم الثلاثاء سَلْخ الشهر؛ وكُتِبت البشائر بالفتح والنصر إلى سائر الأقطار.

ثم في يوم السبت رابع شوّال خيَّم السلطان الملك الظاهر بعساكره على طرابُلُس فسيّر صاحبها إليه يستعطفه فبعث إليه الملك الظاهر الأَتَابَك وسيف الدين [الدوادار][٤] الروميّ على أن يكون له من أعمال طرابُلُس نصفٌ بالسويّة، وأن يكون له دارٌ وكالة فيها، وأن يُعْطَى جَبلة واللّاذِقِيّة بخراجهما من يوم خروجهما عن الملك الناصر إلى يوم تاريخه، وأن يُعْطَى نفقاتِ العساكر من يوم خروجه؛ فلمّا علم الرسالة عَزَم على القتال وحَصَّن طرابُلُس، فنصَب الملك الظاهر المجانيق؛ ثم تردَّدت الرُّسُل ثانياً وتقرر الصلح أن تكون عِرْقَةُ وجَبَلة وأعمالها للبرنس صاحب طرابلس، وأن يكون ساحل أَنْطَرْطُوس والمَرْقَب وبَانْيَاس وبلاد هذه النواحي بينه وبين الدّاوِيّة[٥]، والتي كانت خاصاً لهم، وهي بارين[٦] وحِمْص القديمة تعود خاصاً للملك الظاهر، وشَرَط أن تكون عِرْقَةُ وأعمالها، وهي ست وخمسون قرية، صدقةً من الملك الظاهر عليه، فتوقّف صاحب طرابُلُس وأَنِف؛ فلمّا بلغ الملك

(١) حصن ابن عكار أو حصن عكار: شمالي طرابلس الشام.

(٢) أي مرج صافيثا.

(٣) وبعث الظاهر بيبرس كتاباً إلى بوهيمند السادس صاحب طرابلس، بعد فتح حصن عكار، يحذره وينذره. انظر نص الكتاب في السلوك: ٩٧٢/٣/١ ملحق (٤) والروض الزاهر: ٣٨٠.

(٤) زيادة عن الروض الزاهر.

(٥) الداوية أو فرسان المعبد Les templiers مثل الاسبتار Les Hospitaliers جماعة من الرهبان المقاتلين. ــ راجع الجزء السادس، ص ٣٣، حاشية (٣).

(٦) بارين: ويقول العامة «بعرين». بين حمص والساحل. (معجم البلدان) وهي من أعمال حماة (الدرّ المنتخب: ٢٧٠).

الظاهر آمتناعه صمّم على ما شَرَط عليه حتى أجابه، وعُقِد الصلح بينهما مدّة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام.

وفي يوم السبت حادي عشر شوّال رَحَل الملك الظاهر عن مَرْج صافيثا، وأذِن إلى صاحب حَمَاة وصاحب حِمْص بالعَوْد إلى بلادهم، وسار الظاهر حتى دخل دِمَشْق يوم الأربعاء خامس عشر شوّال، وعَزَل القاضي شَمسَ الدين أحمد بن خلّكان عن قضاء دِمَشْق، وكانت مدّة ولايته عشر سنين، وولّى عِوضَه القاضيَ عِزّ الدين محمد بن عبد القادر بن عبد الخالق المعروف بآبن الصائغ.

ثم في يوم الجمعة رابع عشرين شوّال خرج الملك الظاهر من دِمَشْق قاصداً القُرَيْن(١)، فنزل عليه يوم الاثنين سابع عشرين الشهر، ونصَب عليه المجانيق، ولم يكن به نساء ولا أطفال بل مُقاتِلة، فقاتلوا قتالاً شديداً، وأخذت النُّقُوب للحِصْن من كلّ جانب، فطلب مَنْ فيه الأمان، فأُمِّنوا يوم الاثنين ثالث عشر ذي القعدة، وتَسَلَّم السلطانُ الحِصْن بما فيه من السلاح ثمّ هدمه؛ وكان بناؤه من الحجر الصَّلْد وبين كلّ حجرين عُود حديد ملزوم بالرصاص، فأقاموا في هدمه آثني عشر يوماً وفي حِصارِه خمسة عشر يوماً.

وفي يوم الاثنين سادس عشرين الشهر نزل الملك الظاهر على كردانة ــ قرية قريبة من عكّا ــ ولَبِس العسكرُ وسار إلى عَكّا وأشرف عليها، ثم عاد إلى منزله. ثمّ رحل منها يوم الثلاثاء قاصداً مصر، فدخلها يومَ الخميس ثالث عشر ذي الحجّة، وكان جملة ما صرَفه الملك الظاهر في هذه السَّفْرة من حين خروجه من مصر إلى حين عَوْده إليها ما يُنِيف على مائة ألف دينار وثمانين ألف دينار عَيْناً.

وفي اليوم الثاني من وصوله إلى قلعة الجبل قَبَض على جماعة من الأمراء منهم: الأمير علم الدين سَنْجَر الحلبيّ الكبير، الذي كان تسلطن بدِمَشْق في أوّل

(١) القرين: حصن في أرض معليا قرب صفد. اسمه في الحوليات الصليبية (Montfort) أو (Starkenburg) وكان المركز الرئيسي لهيئة الفرسان التيوتون (Teutonic Knights) في الشرق. (السلوك: ٥٩٣/٢/١، حاشية) وقال ابن عبد الظاهر: وكان حصن القرين لإسبتار الأرمن، ولم يكن لهم بالساحل غيره، وكان من أمنع الحصون وأضرها بصفد (الروض الزاهر: ٣٨٥).

سلطنة الملك الظاهر بِيبَرْس، والأمير جمال الدين آقوش المحمَّديّ، والأمير جمال الدين أَيدُغْدي الحاجبيّ الناصريّ، والأمير شمس الدين سُنْقُر المسّاح والأمير سيف الدين بيدغان الرُّكْني والأمير علم الدين سَنْجَر طرطح وغيرهم، وحُبِسوا الجميع بقلعة الجبل؛ وسبب ذلك أنّه بلغه أنّهم تآمروا على قبضه لمّا كان بالشَّقِيف، فأسرَّها في نفسه إلى وقتها.

وكان بلغ الملكَ الظاهرَ وهو على حِصْن الأكراد أنّ صاحب قُبْرُص خرج منها في مراكبه إلى عكا، فأراد السلطان آغتنام خلوّها، فجهّز سبعة عشر شِينِيّاً، فيها الرئيس ناصر الدين عمر بن منصور رئيس مصر وشهاب الدين محمد بن إبراهيم بن عبد السلام رئيس الإسكندرية، وشرف [الدين] علوي بن أبي المجد بن علوي العَسْقلاني رئيس دِمْياط، وجمال الدين مَكِّي بن حَسّون مقدّماً على الجميع؛ فوصلوا الجزيرة ليلاً، فهاجت عليهم ريحٌ طردتْهم عن المَرْسَى، وألقتْ بعض الشَّوَاني على بعض، فتحطّم منها أكثر من أحد عشر شِينِيّاً وأخِذ مَنْ فيها من الرجال والصنّاع أسَراء، وكانوا زُهَاءَ ألف وثمانمائة نفس، وسلِم الرئيس ناصر الدين وآبن حَسّون في الشَّوَاني السالمة، وعادت إلى مراكزها؛ فعظُم ذلك على الملك الظاهر بِيبَرْس إلى الغاية[1].

وفي يوم الاثنين سابع عشر ذي الحجّة أمر الملك الظاهر بإراقة الخمور في سائر بلاده، وأوعد مَنْ يَعْصِرُها بالقتل، فأُرِيق على الأجناد والعوامّ منها ما لا تُحْصَى قيمتُه، وكان ضمانُ ذلك في ديار مصر خاصّة ألفَ دينار في كلّ يوم، وكُتِب بذلك توقيعٌ قُرِيء على مِنْبر مصر والقاهرة.

وفي العَشْر الأخير من ذي الحجّة آهتمّ الملك الظاهر بإنشاء شَوَانٍ[2] عِوَضاً عمّا ذهب على قُبْرُص، وآنتهى العمل من الشواني في يوم الأحد رابع عشر

---

(١) انظر رواية غزوة قبرص مفصّلة في السلوك: ٥٩٥/٢/١ (حاشية عن عقد الجمان) والروض الزاهر: ٣٨٦ ــ وقد تحطمت تلك الشواني في مرسى ليماسول (ويسميه العيني وابن عبد الظاهر: مرسى النمسون). وكان صاحب قبرص آنذاك يدعى أوك دلزنيال Hugh de Lusignan.

(٢) أمر بإنشاء عشرين شينياً، وإحضار خمس شواني كانت بقوص. (السلوك والروض الزاهر).

المحرّم سنة سبعين، وركِب السلطان إلى الصِّناعة[1] لإلقاء الشَّواني في بحر النيل، وركِب السلطان في شِينِيٍّ منها ومعه الأمير بدر الدين بِيلِيك الخَازِنْدار، فلمّا صار الشِّينِي في الماء مال بمَنْ فيه فوقع الخازِندار منه إلى البحر، فنَهض بعض رجال الشِّينِي ورَمَى بنفسه خَلْفه فأدركه وأخذ بشَعْره وخلّصه، وقد كاد يَهْلِك، فخلَع عليه الملك الظاهر وأحسن إليه.

وفي ليلة السبت السابع والعشرين منه خرج الملك الظاهر من الديار المصريّة إلى الشام في نَفَرٍ يَسيرٍ من خواصّه وأمرائه ودَخَل حِصْن الكَرَك، وخرج منه وصَحِب معه نائبه الأميرَ عِزّ الدين أَيْدَمُر وسار إلى دِمَشْق، فوصل إليه يوم الجمعة ثاني عشر صفر، فعَزَل عنها الأمير جمال الدين آقوش النَّجِيبِيّ، ووَلّى مكانه الأمير عِزّ الدين أَيْدَمُر المعزول عن نيابة الكَرَك. ثم خرج منها إلى حَمَاة في سادس عشره ثم عاد منها في السادس والعشرين.

وفيها أَمَر مَلِكُ التَّتار أَبْغَا بن هُولاَكُو عساكرَه بقصد البلاد الشاميّة، فخرج عسكره في عِدّة عشرة آلاف فارس وعليهم الأمير صَمغرا[2] والبَرْوَاناه[3]، فلمّا بلغهم أنّ الملك الظاهر بالشام أرسلوا ألفاً وخمسمَائة من المُغْل ليتجسَّسوا الأخبار ويُغِيروا على أطراف بلاد حلب، وكان مقدَّمهم أمال بن بَيْجُونُوين ووصلت غارتهم إلى عَيْنتَاب ثم إلى قَسْطُون[4] ووَقَعُوا على تُرْكُمَان نازلين بين حَارِم وأَنْطاكِيَة فاستأصلوهم؛ فتقدّم الملك الظاهر بتجفيل البلاد ليَحْمِلَ التَّتارَ الطمعُ فيدخلوا فيتمكّن منهم. وبعث إلى مصر بخروج العساكر فخرجت ومقدّمها الأمير بَيْسَري،

---

(١) الصناعة: مكان صنع السفن. وكانت في زمن الظاهر بيبرس على النيل بساحل مصر القديمة بخط دير النحاس. (انظر الخطط المقريزية: ٢/١٨٩ ــ ١٩٧).

(٢) في السلوك والروض الزاهر: «صمغار».

(٣) البرواناه: لفظ فارسي معناه في الأصل: الحاجب. وقد أطلق في دولة السلاجقة الروم بآسيا الصغرى على الوزير الأكبر، وهو سليمان بن علي بن محمد بن حسن، الصاحب معين الدين البرواناه. (السلوك: ١/٢/٥٧٢، حاشية).

(٤) في الأصل: «مسطوق». والتصحيح عن السلوك. وقسطون قلعة من قرية الروج من قرى حلب. ويسمى في المصادر الأوروبية Gastrum Rugium. (السلوك: ١/٣/٨٣٩ والدر المنتخب: ٢١٧).

فوصلوا إلى السلطان في خامس شهر [ربيع الآخر] وخرج بهم في السابع منه، فسبَقَ إلى التّتار خبرُه، فَوَلَّوْا على أعقابهم. وكان الظاهر لمّا مرّ بحَمَاة آستصحب معه الملك المنصور صاحب حَمَاة، ونَزَل الظاهر حَلَب يوم الاثنين ثاني عشر شهر ربيع الآخر من سنة سبعين وستمائة وخيّم بالمَيْدان الأخضر، ثم جهّز الأمير شمس الدين آق سنقر الفارِقانِيّ في عسكر وأمرَه أن يَمْضي إلى بلاده حلب الشماليّة ولا يتعرّض لبلاد صاحب سِيس؛ وجهّز الأمير علاء الدين طَيْبَرْس الوَزِيرِيّ في عسكر وأمره بالتوجّه إلى حرّان. فأمّا الفارِقَانِيّ فإنه سار خَلْف التّتار إلى مَرْعَش فلم يجد منهم أحداً، ثم عاد إلى حلب فوجد الملك الظاهر مقيماً بها، وقد أمر بإنشاء دار شماليّ القَلْعة كانت تعرف بدار الأمير بَكْتُوت، أستادار الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب وأضاف إليها داراً أخرى، ووَكّل بعمارتها الأمير عِز الدين آقوش الأفرم.

ولمّا عاد الفَارِقَانِيّ إلى حلب رَحَل الملك الظاهر منها نحو الديار المصريّة في ثامن عشرين شهر ربيع الآخر، ودخل مصر في الثالث والعشرين من جُمادى الأولى.

ولمّا وصل الظاهر إلى مصر قَبَض على الأمراء الذين كانوا مجرَّدين على قاقون[1] بسبب الفرنج لمّا أغاروا على الساحل ما عدا آقوش الشَّمْسِيّ ثم شُفِع فيهم فأطلقهم.

وفي يوم الأربعاء ثالث جُمَادى الآخرة عَدَّى الملك الظاهر إلى برّ الجِيزة فأُخْبر أن ببُوصِير السِّدْر[2] مَغارةً فيها مَطْلَب[3]، فجمع لها خَلْقاً فحَفَرُوا مَدًى بعيداً، فوجدوا قِطاطاً ميتة وكلابَ صيد وطيوراً وغير ذلك من الحيوانات ملفوفاً في عصائب وخِرَق، فإذا حُلّت اللفائفُ ولاقَى الهواءَ ما كان فيها صار هباءً منثوراً؛ وأقام الناس

(١) قاقون: من عمل قيسارية من ساحل الشام. (معجم البلدان).

(٢) أبو صير السِّدر: من القرى المصرية القديمة. وما زالت قائمة إلى اليوم باسم «أبو صير» ضمن قرى مركز الجيزة بمديرية الجيزة. (محمد رمزي).

(٣) أي كنز.

ينقُلون من ذلك مُدّة ولم يَنْفَد ما فيها، فأمَر الملك الظاهر بتركها وعاد من الجيزة.

وفي يوم السبت سابع عشرين جُمادى الآخرة رَكِب السلطان الملك الظاهر إلى الصِّناعة ليرى الشواني التي عُمِلت وهي أربعون شِينِيّاً فسُرّ بها. وعند عَوْده إلى القلعة وَلَدتْ زَرافةٌ بقلعة الجبل وأرضِع ولدها لبن بقرة[١].

ثم سافر الملك الظاهر إلى الشام في شعبان وسار حتى وصل الساحل وخيّم بين قَيْسَارِيّة وأرْسُوف، وكان مركّزاً بها الفَارِقَانِيّ فرحل الفارقانيّ عنها إلى مصر. ثم إنّ الملك الظاهر شنّ الغارة على عكا، فطلب منه أهلها الصلح وتردّدوا في ذلك حتى تقرّرت الهُدْنَة بينهم مدّة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيّام وعشر ساعات، أوّلها ثاني عشرين شهر رمضان سنة سبعين وستمائة.

ثم رحل الملك الظاهر إلى خَربة اللّصوص، ثم سار منها إلى دِمَشْق فدخلها في الثامن من شوّال؛ وبينما هو في دمشق تردّدت الرسل بينه وبين التّتار وآنفصل الأمر من غير آتّفاق. وفي ذي الحجّة توجّه الملك الظاهر منْ دِمشق إلى حصن الأكراد لينقُل حجارة المجانيق إليها ورؤية ما عُمّر فيها ففُعِل ذلك. ثم سار إلى حِصْن عَكّار فأشرف عليها. ثم عاد إلى دِمَشْق في خامس المحرّم من سنة إحدى وسبعين وستمائة. وفي ثاني عشر المحرّم المذكور أفرج الملك الظاهر عن الأمير أَيْبَك النَّجِيبِي الصغير، وأَيْدَمُر الحِلِّيّ العَزِيزِيّ وكانا محبوسين بالقاهرة.

ثم خرج الملك الظاهر من دِمَشق في المحرم أيضاً عائداً إلى الديار المصريّة وصحبته الأمير بدر الدين بَيْسَرِيّ والأمير آقوش الروميّ وجرمك الناصريّ، فوصل إليها في يوم السبت ثالث عشرين المحرّم، فأقام بالقاهرة إلى ليلة الجمعة تاسع عشرينه، خرج من مصر وتوجّه إلى دِمَشق فدخل قلعتها ليلة الثلاثاء رابع صفر، فأقام بدِمشق إلى خامس جُمادَى الأولى. وآتّصل به أنّ فرقة من التَّتار قصدت الرَّحْبَة، فبرز إلى القُصَيْر فبلغه أنّهم عادوا من الرَّحْبَة ونزلوا على الْبيرة، فسار إلى

(١) رواية بدائع الزهور عن أبي شامة: «في سنة ٦٧٠هـ ولدت زرافة، بالاصطبل السلطاني، عجيبة الخلقة، فأرضعت على بقرة، وهذا لم يعهد قط بمصر، فعدّ من العجائب».

حِمْص وأخذ مراكب الصيّادين على الجمال ليجوز عليها؛ ثم سار حتّى وصل إلى الباب من أعمال حلب، وبعث جماعة من الأجناد والعُرْبان لكشف أخبارهم، وسار إلى مَنْبِج، فعادوا وأخبروا أنّ طائفة من التّتار مقدار ثلاثة آلاف فارس على شطّ الفُرات ممّا يلي الجزيرة فرحَل عن مَنْبِج يوم الأحد ثامن عشر جُمادَى الأولى ووصل شطّ الفُرات، وتقدّم إلى العسكر بخَوْضها، فخاض الأمير سيف الدين قلاوون الألفيّ والأمير بدر الدين بَيْسَرِيّ في أوّل الناس، ثم تَبِعهما هو بنفسه وتبعتْه العساكر، فوقعوا على التّتار فقتَلوا منهم مَقْتلةً عظيمة وأسَرُوا تقدير مائتي نفس ولم ينجُ منهم إلّا القليل، وتَبِعهم بَيْسَرِيّ إلى قريب سَرُوج ثم عاد. وكان على الْبِيرة جماعة كثيرة من عسكر التّتار، وكانوا قد أشرفوا على أخذها، فلمّا بلغهم الخبرُ رحلوا عن الْبِيرة؛ ودخلها السلطان في ثاني عشرين الشهر وخلَع على نائبها وفرّق في أهلها مائة ألف درهم، وأنعم عليهم ببعض ما تركه التّتار عندهم لمّا هربوا. ثم رحل الملك الظاهر عنها بعساكره وعاد إلى دِمَشْق. وفي هذه النُّصْرة قال العلّامة شهاب الدين أبو الثناء محمود[1] كاتب الإنشاء ــ رحمه الله ــ قصيدة طنانة؛ أوّلها: [الكامل]

سِرْ حيث شئتَ لك المهيمِن جارُ ... وآحكُم فَطَوْع مرادك الأقدارُ
لم يبقَ للدين الذي أظهرتَه ... يا ركنَه عند الأعادي ثارُ[2]
لمّا تراقصت الرؤوس وحرّكت ... من مطرِبات قِسِيِّك الأوتارُ
خُضتَ الفُرات بسابح أقصى منىً ... هُوج الصَّبَا من نعله آثارُ
حملتْك أمواجُ الفُراتِ ومَنْ رأى ... بحراً سواك تَقِلُّه الأنهار
وتقطّعت فِرَقاً ولم يك طودَها ... إذ ذاك إلا جيشُكَ الجرّارُ
رشّت دماؤهم الصعيدَ فلم يَطِرْ ... منهم على الجيش السعيد غُبارُ

---

(١) هو أبو الثناء شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد الحلبي الدمشقي الحنبلي المتوفى سنة ٧٢٥هـ. عمل رئيساً لديوان الإنشاء بعد موت محيي الدين بن عبد الظاهر أكثر من عشرين سنة.

(٢) هذا الكلام ليس فيه مبالغة؛ إذ عندما توفي الملك الظاهر بيبرس في المحرم من سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م لم تكن تمثّل جميع الممتلكات الفرنجية في الساحل الشامي سوى بضعة مدن محاطة بالامبراطورية المملوكية القوية؛ فقد فككت شبكة قلاع الصليبيين بأكملها، وغدا طردهم نهائياً من بلادنا أمراً محتماً. هذا بالإضافة إلى انتصاراته الرائعة على المغول التي وضعت حداً لصلفهم وأحلامهم في التوسع.

شَكَرَتْ مساعيك المعاقلُ والوَرَى ... والـتُّـرْب والآسـادُ والأطـيـارُ
هـذي مَنَعتَ وهؤلاء حـميتهـم ... وسَقَيت تلك وعـمّ ذا الإيسـارُ
فـلأَمْلأنَّ الـدهـرَ فيك مـدائحاً ... تبقَى بَقيتَ وتـذهـب الأعصـارُ

وهي أطول من ذلك. وقال الشيخ ناصر الدين[١] حسن ابن النَّقيب الكنانيّ الشاعر ـ رحمه الله تعالى ـ قصيدة وكان حاضراً الوقعة منها: [الطويل]

ولمّـا تـرامَيْنـا الفُـرات بخيلنـا ... سكنّـاه منا بـالقُـوَى والقـوائمِ
فـأوقفتِ التيّـارَ عن جَـرَيـانـه ... إلى حيث عُدْنا بالغِنى والغنائمِ

وقال الموفّق[٢] عبد الله بن عمر الأنصاري ـ رحمه الله ـ وأجاد: [السريـع]

الملك الـظاهـر سلطاننـا ... نَفْديه بـالأمـوال والأهـلِ
اِقتحم المـاءَ لِيُـطْفِي بـه ... حـرارةَ القلب من المُغْـلِ

ثم توجّه الملك الظاهر إلى نحو الديار المصريّة، فخرج ولده الملك السعيد لتلقّيه في يوم الثلاثاء تاسع عشر جُمادى الآخرة، فٱجتمع به بين القُصَيْر والصالحيّة في يوم الجمعة ثاني عشرينه، فترجلا وٱعتنقا طويلاً؛ ثم ركبا وسارا جميعاً إلى القلعة وبين يديهم أَسَارى التّتار رُكّاباً على الخيل.

ثم في سابع شهر رجب أفرج الملك الظاهر عن الأمير عِز الدين أَيْبَك الدِّمْياطي من الاعتقال، وكانت مدّة ٱعتقاله تسع سنين وعشرة أيام؛ ثم خَلَع الملك الظاهر على أمراء الدولة ومقدّمي الحَلْقة[٣] وأعطى كلّ واحد منهم ما يليق به من الخيل والذهب والحوائص والثّياب والسيوف، وكان قيمة ما صرفه فيهم فوق ثلاثمائة ألف دينار.

---

(١) هو الحسن بن شاور بن طرخان بن الحسن بن النقيب الكناني، ناصر الدين، المعروف بالنفيسي المتوفى سنة ٦٨٧هـ. (الأعلام: ٢/١٩٢).

(٢) هو موفق الدين، أبو محمد، عبد الله بن عمر بن نصر الله الأنصاري المعروف بالورن المتوفى سنة ٦٧٧هـ. (فوات الوفيات: ٢/٢١١).

(٣) كان لكل أربعين جندي من أجناد الحلقة مقدّم عليهم منهم. وهذا المقدّم ليس له عليهم حكم إلا في حالات الخروج إلى الحرب. (مسالك الأبصار: ٢/٩٣ وصبح الأعشى: ٤/١٦).

=

وفي سادس عشرين شعبان أفرج الملك الظاهر عن الأمير علم الدين سَنْجَر الحلبي الغَنْتِمِي المُعِزّي. وفي يوم الاثنين ثاني عشر شوّال آستدعى الملك الظاهر الشيخ خَضِراً إلى القلعة وأحضره بين يديه.

قلت: والشيخ خَضِر هذا هو صاحب الزاوية[١] بالحسينية بالقرب من جامع الظاهر[٢]. انتهى. وأَحْضر معه جماعة من الفقراء حاققوه على أشياء كثيرةٍ مُنكَرة، وكثُر بينه وبينهم فيها المقالة ورمَوْه بفواحش كثيرة ونسبُوه إلى قبائح عظيمة[٣]؛ فَرَسم الملك الظاهر بآعتقاله؛ وكان للشيخ خَضِر المذكور منزلة عظيمة عند الملك

= والمصادر والمراجع المختلفة لم تجمع على تحديد دقيق لطبيعة أجناد الحلقة كقسم أساسي من الجيش المملوكي. ففي حين يعتبر «كاترمير» أن فئة أجناد الحلقة كانت تتكون من محترفي الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم، وهي أقرب الفئات إلى نظام الجيش الثابت في العصور الحديثة، ومرتباتها من ديوان الجيش (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٦) نرى المؤرخ كمال الصليبي يعتبر أن جند الحلقة في عرف دولة المماليك هم رديف من الفرسان الأحرار (أي من غير المماليك) تنتقيهم الدولة من بين العناصر المحلية في مختلف المناطق للمساعدة في الحفاظ عليها (منطلق تاريخ لبنان: ١١٩). إلى جانب هذين الرأيين نجد رايأً ثالثاً يتوسّع في تحديد مدلول جند الحلقة فيرى أنهم المماليك الذين كان ينشئهم السلاطين دون فئات مماليك الأمراء، ثم ازداد عددهم بمن انضم إلى الجيش المملوكي من التتار والوافدية، واعتبر أيضاً من أجناد الحلقة بعض أرباب الحرف والصنائع على أثر ضعف الجيش المملوكي، وأضيف أحياناً إليهم مماليك الأمراء الذين انحلت اقطاعات أساتذتهم، واعتبر أيضاً من أجناد الحلقة العربان والأكراد والتركمان بحيث تركز عملهم في حماية أطراف الدولة. (الدولة المملوكية لأنطوان ضومط: ٥٦ ــ ٥٧). وقد نظم أجناد الحلقة في الحرب والسلم، إذ جعل على كل أربعين جندي منهم مقدم. وعندما كان يدعى أجناد الحلقة إلى الحرب كان ينضوي كل ألف منهم تحت إمرة أمير مائة، وكان لكل مائة جندي منهم في أيام السلم نقيب أو «باش» يأتمرون بأمره. أما أعدادهم فلم تكن ثابتة وذلك تبعاً للظروف الاقتصادية والسياسية في الدولة. (المصدر السابق).

(١) زاوية الشيخ خضر. ــ انظر خطط المقريزي: ٢/٤٣٠. وهذه الزاوية اندثرت ودخلت في المساكن. ومكانها اليوم المربع القائم عليه المنزلان رقم ٢٩ و ٣١ الواقعان في نهاية شارع الإمبابي من الجهة الشرقية على يسار الداخل من سكة الظاهر. (من تعليقات محمد رمزي).

(٢) انظر خطط المقريزي: ٢٩٩/٢، والشرح الوافي الذي قدمه الأستاذ محمد رمزي في تعليقاته على النجوم: ١٦١/٧.

(٣) ومنها اللواط والزنا وغيرها، كما في السلوك للمقريزي. والشيخ خضر المذكور هو خضر بن أبي بكر بن موسى، شيخ السلطان بيبرس.

الظاهر بحيث إنّه كان ينزل عنده في الجمعة المرّة والمرّتين ويُباسِطه ويُمازِحه ويَقْبَل شفاعته ويستصحبه في سائر سَفَرَاته، ومتى فتَحَ مكاناً أفرض له منه أوفرَ نَصيب، فآمتدت يد الشيخ خَضِر بذلك في سائر المملكة يفعل ما يختار لا يمنعه أحدٌ من النوّاب، حتّى إنّه دخل إلى كنيسة قُمامة[(١)] ذَبَح قِسِّيسَها بيده، وآنتهب ما كان فيها تلامذتُه، وهجم كنيسة اليهود بِدمَشْق ونهبها، وكان فيها ما لا يُعَبَّر من الأموال، وعمرها مسجداً وعَمِل بها سَمَاعاً ومدّ بها سِماطاً. ودخل كنيسة[(٢)] الإسكندريّة وهي عظيمة عند النصارى فنهبها وصيَّرها مسجداً، وسمّاها المدرسة الخضراء[(٣)] وأنفق في تعميرها مالاً كثيراً من بيت المال. وبنى له الملك الظاهر زاويةً بالحسينية ظاهر القاهرة ووقف عليها وحَبَس عليها أرضاً تجاورها تحتكر للبناء. وبنى لأجله جامع الحسينية.

وفي يوم الاثنين سابع المحرّم سنة آثنتين وسبعين وستمائة جلس الملك الظاهر بدار العدل[(٤)] وحكَمَ بين الناس ونَظَر في أمور الرعيّة، فأنصف المظلومَ وخلّص الحقوق ومال على القويّ ورَفَق بالضعيف.

وفي العاشر منه هُدِمت غرفةٌ على باب قصر من قصور الخلفاء الفاطميين بالقاهرة. ويُعرف هذا الباب بباب[(٥)] البحر، وهو من بناء الخليفة الحاكم بأمر الله

---

(١) أي كنيسة القيامة ببيت المقدس.

(٢) كانت هذه الكنيسة من كراسي النصارى، وكانوا يزعمون أن بها رأس يحيى بن زكريا. (خطط المقريزي: ٢/ ٤٣٠).

(٣) المدرسة الخضراء، أو مسجد الخضر: هو بذاته المدرسة الخضراء التي تعرف اليوم بزاوية سيدي خضر الكائنة تحت رقم ١٠ بشارع رأس التين بالإسكندرية. (محمد رمزي).

(٤) دار العدل: كان مكانها بالقلعة. وهي المكان الذي كان يحضر فيه رئيس ديوان الإنشاء ومعه كتّاب الدست، يحضرون مع السلطان أو من ينوب عنه جلسات النظر في المظالم لقراءة القصص على السلطان. والقصص هي المظالم التي يحملها الدوادار إلى المجلس. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٣١) وعن تحديد مكان دار العدل قديماً وحديثاً انظر خطط المقريزي: ٢/ ٢٠٥ وتعليقات محمد رمزي على النجوم: ١٦٣/٧، حاشية (١).

(٥) راجع الجزء الرابع، ص ٣٥، حاشية (٦)

منصور المقدّم ذكره، فوُجِد في القصر الذي هُدِم آمرأة في صندوق منقوش عليها كتابة آسم الملك الظاهر بِيبرس هذا وصفته، وبَقِيَ منها ما لم يمكن قراءته[1].

وفيها قُبِض على ملك الكُرْج، وهو أنّه كان قد خرج من بلاده قاصداً زيارة القُدْس الشريف متنكّراً في زِيّ الرهبان ومعه جماعة يسيرة من خواصّه، فسلك بلاد الروم إلى سِيس فركِب البحر إلى عَكّا، ثم خرج منها إلى بيت المقدس فآطّلع الأمير بدر الدين الخازِنْدار على أمره وهو على يافا، فبعث إليه من قَبَض عليه، فلمّا حضر بين يديه بعثه مع الأمير ركن الدين مَنْكُورس إلى السلطان؛ وكان السلطان قد توجّه إلى دِمَشق فوصل إلى دمشق في رابع عشر جُمَادى الأولى، فأقبل عليه السلطان وسأله حتى آعترف، فحبسه في بُرْج من أبراج قلعة دِمَشق، وأمره أن يبحث من جهته إلى بلاده مَنْ يُعَرِّفهم بأَسْره، فبعث نَفَرَيْن.

وخرج الملك الظاهر من دِمَشق ثالث عشرين جُمادَى الآخرة، وقَدِم القاهرة يوم الخميس سابع شهر رجب من سنة آثنتين وسبعين المذكورة. ثم في يوم الخميس خامس عشرين شهر رمضان أَمَر السلطان العسكر أن يركب بالزينة الفاخرة ويلعب في المَيْدان تحت القلعة، فآستمرّ ذلك كلّ يوم إلى يوم عِيد الفِطْر خَتَنَ السلطان الملك الظاهر ولَدَه خَضِراً ومعه جماعة من أولاد الأمراء وغيرهم، وكان الملك السعيد آبن الملك الظاهر في يوم الأربعاء سابع عشر شهر رمضان خرج من القاهرة وتوجّه إلى دِمشق ومعه شمس الدين آقسنقر الفارِقانِيّ وأربعون نفراً من خواصّه على خيل البريد، وعاد إلى القاهرة في يوم الخميس الرابع والعشرين من شوّال.

وفي يوم الأحد سابع صفر من سنة ثلاث وسبعين وستمائة ركب الملك الظاهر الهُجْنِ وتوجّه إلى الكَرَك ومعه بَيْسَرِيّ وأُتَامِش السَّعْدِي؛ وسببُ توجُّهه أن وقع بالكَرك بُرْج فأحبّ أن يكون إصلاحه بحضوره. ثم عاد إلى مصر فدخلها في يوم الثلاثاء ثاني عشرين شهر ربيع الأوّل، فأقام بها مدّة يسيرة.

(١) راجع في حكاية هذا الطلسم: خطط المقريزي: ٤٣٣/١ والروض الزاهر: ٤١٨.

ثم توجّه إلى دِمَشق وأقام به إلى أن أرسل في رابع عشرين المحرّم سنة أربع وسبعين وستمائة الأمير بدر الدين بِيلِيك الخَازِنْدار على البَرِيد إلى مصر لإحضار الملك السعيد، فعاد به إلى دِمَشق في يوم الأربعاء سادس صفر من السنة.

وفي الثالث والعشرين من جُمَادَى الأولى فتح حصْن القُصَيْر وهو بين حارِم وأنطاكِيَة، وكان فيه قِسِّيس عظيم عند الفرنج يقصدونه للتبرُّك به، وكان الملك الظاهر قد أَمَر التُّرْكُمان وبعضَ العرب بمحاصرته، وبعد أخذه عاد الملك الظاهر إلى مصر فلم تطل مدّته به وعاد إلى دمشق، فدخله يومَ ثالث المحرَّم من سنة خمس وسبعين، فأقام به مدة يسيرة أيضاً، وعاد إلى الديار المصريّة في يوم الاثنين ثالث شهر ربيع الآخر؛ وأمر بعمل عُرْس[١] ولده الملك السعيد، وآهتمّ في ذلك إلى يوم الخميس خامس جُمَادى الأولى أَمَر العسكر بالركوب إلى الميدان الأسود[٢] تحت القلعة في أحسن زِيّ، وأقاموا يركبون كلّ يوم كذلك ويتراكضون في الميدان، والناس تزدحم للفُرْجة عليهم خمسة أيام، وفي اليوم السادس آفترق الجيش فرقتين، وحَمَلت كلّ فرقة على الأخرى وجرى من اللعب والزينة ما لا يوصف؛ وفي اليوم السابع خُلِع على سائر الأمراء والوزراء والقضاة والكتّاب والأطباء مقدار ألف وثلاثمائة خِلْعة، وأرْسل إلى دِمَشق الخِلَع ففرقت كذلك؛ وفي يوم الخميس مدّ السِّماط في الميدان المذكور في أربعة خِيم، وحضر السِّماط مَنْ علا ومن دنا، ورُسُلُ التتار ورُسُلُ الفرنج، وعليهم الخِلَع أيضاً، وجلس السلطان في صدر الخَيْمة على تخت من آبنُوس وعاج مصفَّح بالذهب مسمَّر بالفِضّة غَرم عليه ألف

---

(١) ذكر المقريزي ذلك في حوادث سنة ٦٧٤هـ قال: « وعُقد للملك السعيد على غازية خاتون ابنة الأمير قلاوون، الألفي، بوكالة الأمير بدر الدين بيليك الخازندار نائب السلطنة عن الملك السعيد، فقبل العقد عن الأمير قلاوون الأمير آق سنقر الفارقاني على صداق مبلغه خمسة آلاف دينار، المعجل منها ألفا دينار. وكتب الصداق بخط القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر وإنشائه. » ــ انظر السلوك: ٦٢٣/٢/١. وانظر نص نسخة الصداق في صبح الأعشى: ٣٤١/١٤ ــ ٣٤٤ طبعة دار الكتب العلمية.

(٢) ويقال له أيضاً: ميدان القبق، وميدان العيد، وميدان السباق، والميدان الأخضر. (انظر خطط المقريزي: ١١١/٢) ومكان هذا الميدان اليوم الأرض المشغولة بترب جبانة باب الوزير وقرافة المجاورين وجبانة المماليك. (محمد رمزي).

دينار؛ ولمّا آنقضى السِّماط قدّم الأمراء الهدايا من الخيل والسلاح والتُّحف وسائر الملابس، فلم يقبل السلطان من أحد منهم سوى ثوب واحد جَبْراً له؛ فلمّا كان وقت العصر ركِب إلى القلعة وأخذ في تجهيز ما يَلِيق بالزِّفاف والدخول، ولم يمكّن أحد من نساء الأمراء على الإطلاق من الدخول إلى البيوت؛ ودخل الملك السعيد إلى الحَمّام ثم دخل إلى بيته الذي هُيِّـىء له بأهله، وحُمِلت العَرُوسُ فدخل عليها. ولمّا بلـغ الملك المنصور[1] صاحب حماة ذلك قدِم القاهرة مهنِّئاً للسلطان ومعه هديّة سنيّة، فوصل القاهرة في ثامن جُمادى الآخرة، فركِب الملك السعيد لتلقّيه ونزل بالكبش[2]، وأقام بمدة يسيرة ثم عاد إلى بلده.

ثم خرج الملك الظاهر بعد ذلك من القاهرة في يوم الخميس العشرين من شهر رمضان بعد أن آستناب الأمير آق سنقر الفَارِقانِيّ الأستادار نائباً عنه في خدمة ولده الملك السعيد، وترك معه من العسكر بالديار المصريّة لحفظ البلاد خمسة آلاف فارس، ورحل من المنزلة يوم السبت ثاني عشر شوّال قاصداً بلاد الروم فدخل دِمَشق ثم خرج منها ودخل حلب يوم الأربعاء مستهلّ ذي القعدة، وخرج منها يوم الخميس إلى حَيْلان[3]، فترك بها بعض الثِّقَل، وأمر الأمير نور الدين عليّ بن مَجَلِّي نائب حلب أن يتوجّه إلى الساجور[4] ويُقيمَ على الفرات بمَنْ معه من عسكر حلب ويحفظ مَعابِر الفُرات لئلا يعبُر منها أحدٌ من التّتار قاصداً الشام، ووصل إلى الأمير نور الدين الأميرُ شرف الدين عيسى بن مُهنّا وأقام عنده، فبلـغ نوّاب التّتار ذلك فجهّزوا إليهم جماعة من عَرَب خَفَاجة[5] لكَبْسهم فحَشَدُوا وتوجّهوا نحوهم. فآتّصل

---

(١) هو الملك المنصور محمد، سليل الملك المظفر تقي الدين عمر الذي أقطعه عمه صلاح الدين الأيوبي حماة سنة ٥٧٤هـ. وقد ظلت حماة بيد أبناء هذا الفرع الأيوبي. وكان صاحبها أيام غارات التتر على الشام المنصور محمد المذكور، فخضع لهولاكو والتتر، ثم انقلب بعد هزيمتهم إلى مصادقة سلاطين المماليك والاعتراف بسيادتهم. (السلوك: ٦١٤/٢/١، حاشية).

(٢) راجع ص٦٧ من هذا الجزء، حاشية (٣).

(٣) راجع ص٦٩، حاشية (١).

(٤) الساجور: نهر بجهات منبج، وتقع عليه عين تاب وتل باشر.

(٥) عرب خفاجة: هم بنو خفاجة بن عمرو بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. وكانت فيهم إمرة عرب العراق طوال العصر المملوكي. (انظر صبح الأعشى: ٣٤٣/١).

بالأمير عليّ نائب حلب الخبرُ وكان يَقِظاً، فركِب إليهم وآلتقاهم وكسرهم أقبح كَسْرة، وأخذ منهم ألفاً ومائتي جمل.

وأمّا الملك الظاهر فإنّه ركِب من حَيْلانَ يوم الجمعة ثالث الشهر، وسار إلى عَيْنتَاب، ثم إلى دُلُوك[١]، ثم إلى منزلة أخرى ثم إلى كَيْنُوك[٢]، ثم إلى كُكْ صُو (ومعناه الماء[٣] الأزرق باللّغة التركيّة). ثم رَحَل عنه إلى أَقْجَادَرْبَنْد[٤] فقطعه في نصف نهار؛ فلمّا خرجت عساكره وملكت المَفَاوِز، قَدم الأميرُ شمس الدين سُنْقُرَ الأشقر على جماعةٍ من العسكر وأَمَره بالمَسِير بين يديه، فوقـع على كَتِيبة التَّتار وعِدَّتُهم ثلاثة آلاف فارس، ومقدَّمُهم كراي فهزمهم سُنْقُر الأشقر وَأَسَرَ منهم طائفة، وذلك في يوم الخميس تاسع ذي القعدة.

ثم ورد الخبرُ على الملك الظاهر بأنّ عسكر الروم والتَّتار مـع البَرْوَانَاه آجتمعوا على نهر جَيْحَان[٥]، فلمّا صَعد العسكرُ الجبلَ أشرف على صحـراء أَبُلُسْتَيْن[٦] فشاهد التَّتارَ قد رَتَّبوا عساكرَهم أحدَ عَشر طُلْباً في كلّ طُلْب ألف فارس، وعَزَلوا عسكر الروم عنهم خوفاً من باطنٍ يكون لهم مـع المسلمين، وجعلوا عسكر الكُرْج طُلْباً واحداً؛ فلمّا تَرَاءَى الجَمْعَانِ حَمَلت مَيْسرة التّتار حَمْلةً واحدة وصدموا سَنْجَق الملك الظاهر، ودخلت طائفة منهم بينهم، وشقُّوا المَيْسَرة وساقوا إلى

---

(١) دلوك: بلدة من نواحي حلب (معجم البلدان).

(٢) كينوك: من بلاد الروم بآسيا الصغرى. والعرب يسمونها الحدث الحمراء. (صبح الأعشى: ١٤/ ١٦١).

(٣) في صبح الأعشى والروض الزاهر: النهر الأزرق.

(٤) في تاريخ الزمان لابن العبري: « أقشا دربند».

(٥) نهر جيحان: ويطلق عليه أيضاً اسم نهر جاهان؛ وهو الاسم العربي الذي يطلق على بيراموس pyramus وهو النهر الشرقي من النهرين اللذين يخترقان سهول كيليكية. وقد اشتهر هذا النهر كثيرا في عصر المماليك إذ كانت البلاد التي على ضفتيه تمثل حدّ بلاد الروم. وقد خلـع اسمه على البلاد التي انتزعها محمد بن قلاوون من دولة كيليكية الأرمنية وسميت الفتوحات الجاهانية. (دائرة المعارف الإسلامية: ١٣/ ٩٩).

(٦) أبلستين: هي ما كان يطلق عليها اسم «أرابيسوس» Arabissus، وموقعها في الشرق من قيصرية. وتعد من مدن الثغور في أيام الروم. (بلدان الخلافة الشرقية: ١٧٨).

المَيْمَنة؛ فلمّا رأى الملك الظاهر ذلك أَرْدفهم بنفسه، ثم لاحت منه ٱلتفاتةٌ فرأى المَيْسرة قد أتت عليها ميمنةُ التّتار، فأمر الملك الظاهر جماعةً من أصحابه الشُّجْعان بإردافها، ثم حَمَل هو بنفسه ـ رحمه الله ـ فلمّا رأتْه العساكر حَمَلت نحوَه برُمتها حملةَ رجل واحد، فترجَّل التّتار عن خيولهم وقاتلوا قتالَ الموت فلم يُغنِ عنهم ذلك شيئاً، وصَبَر لهم الملك الظاهر وعسكره وهو يَكُرُّ في القوم كالأسد الضّارِي ويقتحم الأهوال بنفسه ويُشجِّع أصحابَه ويُطَيِّب لهم الموت في الجهاد إلى أن أنزل الله تعالى نصره عليه، وٱنكسر التّتارُ أقبح كَسْرة وقُتِلوا وأُسِروا وفَرّ مَنْ نجا منهم، فٱعتصموا بالجبال، فقصدتْهم العساكرُ الإسلاميّة وأحاطوا بهم، فترجّلوا عن خيولهم وقاتلوا فقُتِل منهم جماعة كثيرة، وقُتِل ممن قاتلهم من عساكر المسلمين الأميرُ ضياء الدين ابن الخَطِير، وكان من الشُّجْعان الفُرْسان، والأميرُ شرف الدين قيران العَلائيّ، والأميرُ عزّ الدين أخو المحمّديّ، وسيفُ الدين قفجاق الجَاشْنَكِير، والأميرُ أَيْبَك الشَّقِيفِيّ ـ رحمهم الله تعالى وأسكنهم الجنّة ـ. وأُسِر من كبار الروميّين مُهَذَّب الدين ابن مُعِين الدين البَرْوَانَاه، وٱبن بنت معين الدين المذكور، والأميرُ نور الدين جبريل [بن جاجا](١)، والأميرُ قُطْب الدين محمود أخو مجد الدين الأَتَابَك، والأمير سِراج الدين إسماعيل [بن جاجا](١)، والأميرُ سيف الدين سُنْقُرجاه الزُّوبَاشِيّ، والأمير نصرة الدين بَهْمَن أخو تاج الدين كيوي (يعني الصهر) صاحبُ سِيواس(٢)، والأمير كمال الدين إسماعيل عارض الجيش، والأميرُ حُسام الدين كاوك(٣)، والأميرُ سيف الدين بن الجاويش، والأميرُ شهاب الدين غازي بن علي شِير التُّرْكُماني، فوبّخهم السلطان الملك الظاهر من كونهم قاتلوه في مساعدة التتار الكَفَرة، ثم سلّمهم لمن ٱحتفظ بهم. وأسِر من مقدّمي التّتار على الألوف والمئين بركة(٤) صهر أَبْغا بن هولاكو ملك التّتار، وسَرْطَق، وخيز كدوس وسركده وتماديه.

---

(١) زيادة عن طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) سيواس: مركز ولاية سيواس في تركيا. وهي تبعد حوالى ٢٢٥ ميلاً إلى الشرق من أنقرة.

(٣) في الروض الزاهر: «نولناول».

(٤) في الروض الزاهر: «يربزك صهر أبغا». وأسماء أسرى التتار الآتية، وكذلك أسماء الروم السالفة ترد بأشكال مختلفة في المصادر. قارن بصبح الأعشى: ١٤/١٥٠، والروض الزاهر: ٤٦٢، والأعلاق الخطيرة: ٢/١١٠.

ولمّا أُسِر مَنْ أُسِر وقُتِل مَنْ قُتِل نجا البَرْوَاناه وساق حتّى دخل قَيْصَرِيّة[1] يوم الأحد ثاني عشر ذي القعدة واجتمع بالسلطان غِياث الدين، والصاحب فخر الدين، والأتابَك مجد الدين، والأمير جلال الدين المُسْتَوْفي، والأمير بدر الدين مِيكائيل النائب فأخبرهم بالكَسْرة، وقال لهم: إنّ التّتار المنهزمين متى دخلوا قَيْصَرِيّة فتكوا بمَنْ فيها حَنَقاً على المسلمين، وأشار عليهم بالخروج منها فخرج السلطان غياث الدين بأهله وماله إلى تَوْقَات وبينها وبين قَيْصَرِيّة أربعةُ أيام. وعملت شعراء الإسلام في هذه الوقعة عِدَّة قصائد ومدائح، من ذلك ما قاله العلاّمة شهاب الدين أبو الثناء محمود [الحلبي] كاتب الدَّرْج قصيدته التي أوّلها: [الطويل]

كذا فلتكن في الله تَمْضِي العزائمُ ... وإلّا فلا تجفو الجفون الصَّوَارِمُ
عزائمُ حاذَتْها الرياحُ فأصبحتْ ... مخلّفةً تبكي عليها الغمائمُ
سرَتْ من حِمى مصرٍ إلى الروم فاحتَوتْ ... عليه وسُوراه الظُّبا واللهاذِمُ
بجيشٍ تَظَلّ الأرضُ منه كأنّها ... على سعة الأرجاء في الضِّيق خَاتَمُ
كَتائبُ كالبحر الخِضَمِّ جِيادُها ... إذا ما تهادَتْ موجُه المتلاطمُ
تُحِيط بمنصور اللّواء مظفَّرٍ ... له النّصْرُ والتأييدُ عبدٌ وخادمُ
مليكٌ يلوذ الدين من عَزَماتِهِ ... بركن له الفتح المبين دعائمُ
مليكٌ لأبكارِ الأقاليم نحوَهُ ... حنينٌ كذا تَهْوَى الكِرامَ الكرائمُ
فكم وَطِئَتْ طَوْعاً وكرهاً جِيادُه ... معاقلَ قُرْطاها السُّها والنعائمُ
مليكٌ به الدين في كلِّ ساعةٍ ... بشائرُ للكُفّار منها مآتِمُ
جلا حِينَ أقذى [ناظرُ] الكفرِ للهُدَى ... ثغوراً بكى الشيطانُ وهي بواسمُ
إذا رام شيئاً لم يَعُقْه لبعدها ... وشُقّتِها عنه الإكَامُ الطَّواسمُ
فلو نازع النَّسْرَيْن أمراً لنالَهُ ... وذا واقعٌ عجزاً وذا بعدُ حائمُ
ولمّا رمى الرومَ المنيع بخيلِهِ ... ومن دونه سَدٌّ من الصخر عاصِمُ
يروم عُقابُ الجوّ قطع عِقَابِه ... إليه فلا تَقْوَى عليها القوادِمُ

(١) قيصرية وقيسارية: مدينة كبيرة في بلاد الروم، أي آسيا الصغرى. وهي عاصمة ولاية قيسارية في تركيا اليوم.

ومنهـــا:

وســالتْ عليهم أرضُهم بمـواكب لهـا النَّصْرُ طـوعٌ والزمـانُ مُسالمُ

أدارتْ بهم سُـوراً مَنِيعـاً مُشـرَّفـاً بسمر العوالي ما له الدهرَ هـادم

من التُّرْكِ أمّا في المغاني فإنّهم شموسٌ وأما في الـوَغَى فضراغمُ

غَدَا ظاهراً بالـظاهر النصـرُ فيهمُ تَبِيـد الليـالي والعِـدَا وهـو دائِمُ

فأهْوَوْا إلى لَثْم الأسِنَّة في الوَغَى كـأَنهُـمُ العُشَّـاقُ وهي المبــاسِمُ

وصافَحت البِيضَ الصِّفاح رِقابُهُمْ وعـانقت السُّمْـرَ القـدودُ النـواعمُ

فَكم حاكمٍ منهم على ألف دارعٍ غدا حاسراً والرمحُ [في] فِيهِ حاكمُ

وكم مَلِكٍ منهم رأى وهـو مُوثَقٌ خـزائنَ مـا يَحْـوِيـهِ وهي غنـائم

ومنهـــا:

فـلا زلتَ منصـورَ اللِّواء مُـؤَيَّـداً على الكُفْر ما ناحت وأبكتْ حمائمُ

ثم جرّد الملك الظاهر الأميرَ سُنْقُر الأشقر لإدراك ما فات من التُّرك[1] والتوجّه إلى قَيْصَرِيّة، وكتب معه كتاباً بتأمين أهلها وإخراج الأسواق والتعامل بالدراهم الظاهرية. ثم رحل الملك الظاهر بكْرة السبت حادي عشر ذي القعدة قاصداً قَيْصَرِيّة، فمرّ في طريقه بقرية أهل الكهف[2] ثم إلى قلعة سَمَنْدُو[3] فنزل إليه وَالِيها

(١) في السلوك: «لإدراك المنهزمين من التتار».

(٢) أهل الكهف، أو أصحاب الكهف، أو أصحاب الكهف والرقيم: قصة مشهورة ورد ذكرها في القرآن الكريم (سورة الكهف). ويعرف أهل الكهف في الأدبيات الغربية باسم «نوّام أفسوس السبعة». وتتفق الروايات على أن هؤلاء الفتية السبعة نبذوا الوثنية واعتنقوا المسيحية في أيام الامبراطور ديسيوس (داقيوس، داقينوس أو داقيانوس) حوالي سنة ٢٥٠م. وهربوا من جور ذلك الملك الوثني وأووا إلى كهف قرب مدينة أفسوس. وناموا في ذلك الكهف إلى أن استيقظوا في أيام الامبراطور تيـودوسيوس الثانـي (٤٠٨ ــ ٤٥٠م) الذي كان قد آمن بالله واعتنق المسيحية. وفي تحديد مدينة أهل الكهف روايتان: الأولى تقول إنها أفسوس أو أفسس وهي مدينة إغريقية قديمة على شاطىء آسيا الصغرى الغربـي، والثانية إنها أبسوس أو عربسوس في كبادوكيا، وتسمى اليوم بربوز. (انظر دائرة المعارف الإسلامية، والموسوعة العربية الميسرة، ومعجم البلدان، والمسالك والممالـك، المواد: أصحاب الكهف، وأهل الكهف، وأفسوس، وأفسيس، وأبسس).

(٣) سمندو: في وسط بلاد الروم، غزاه سيف الدولة الحمداني سنة ٣٣٩هـ. (معجم البلدان).

مذعِناً للطاعة، ثم سار إلى قلعة دَرَنْدَة[١] وقلعة فالو[٢] ففعل متولّيها كذلك، ثم نزل بقرية من قرى قيصرِيّة فبات بها، فلمّا أصبح رتّب عساكره وخرج أهل قَيْصَرِيّة بأجمعهم مستبشرِين بلقائه، وكانوا لنزوله نصبوا الخِيام بوطاةٍ، فلمّا قرب الظاهر منها ترجَّل وجوهُ الناس على طبقاتهم ومشَوْا بين يديه إلى أن وصلها.

فلمّا كان يوم الجمعة سابع عشر الشهر رَكِبَ السلطان للجمعة، فدخل قَيْصَرِيّة ونزل دار السلطنة وجلس على التَّخْت وحضر بين يديه القضاة والفقهاء والصوفيّة والقُرّاء وجلسوا في مراتبهم على عادة ملوك السَّلْجُوقِيّة، فأقبل عليهم السلطان ومدّ لهم سِماطاً فأكلوا وآنصرفوا، ثمّ حضر الجمعة بالجامع وخُطِب له، وحُضِّر بين يديه الدراهم التي ضُرِبت له بآسمه. وكتب إليه البَرْوَانَاه يهنِّئه بالجلوس على تَخْت المُلك بقَيْصرِيّة، فكتب الملك الظاهر إليه بعَوْده ليولِّيه مكانه، فكتب إليه يسأله أن ينتظره خمسة عشر يوماً، وكان مراد البَرْوَانَاه أن يَصِل أَبَغا ويحثُّه على المسير ليدرك الملك الظاهر بالبلاد، فآجتمع تتاوون[٣] بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر وعرّفه مكر البَرْوَانَاه في ذلك، فكان ذلك سبباً لرحيل الملك الظاهر عن قَيْصَرِيّة مع ما آنضاف إلى ذلك من قلَق العساكر؛ فرحل يوم الاثنين، وكان على الْيَزك[٤] عِزّ الدين أَيبك الشَّيْخِيّ، وكان الملك الظاهر ضربه بسبب سَبْقه الناس فغضِب وهرب إلى التّتار. وكان أولاد قرمان[٥] قد رهنوا أخاهم الصغير عليّ بك

(١) درندة: مدينة في جهة الغرب من ملطية، بينها وبين حلب عشرة أيام. وهي قريبة من قيسارية. (صبح الأعشى: ٤/١٣٢).

(٢) في الروض الزاهر وصبح الأعشى: «دالو».

(٣) تتاون: هو مقدم جيش التتار، كما في السلوك. وقد ذكر المقريزي أن تتاون هذا كان من بين القتلى في المواجهة السابقة الذكر على أرض الأبلستين.

(٤) اليزك: أي طليعة الجيش؛ ويجمع على أيزاك. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٣٦٤).

(٥) تأسست دولة بني قرمان بجهات أرمناك وقسطموني بجنوبي آسيا الصغرى في أواسط القرن السابع الهجري. وهي أهم الدول التركمانية التي نشأت على أثر تفكك دولة الروم السلاجقة. ومؤسسها قرمان بن تورا المتوفى سنة ٦٦٠هـ. وقد تولاها بعده ابنه محمد بن قرمان. وهو وعمه واخوته هم المقصودون بأولاد قرمان هنا. (السلوك: ١/٢/٦٣٠، حاشية).

بقيصرِية، فأخرجه الملك الظاهر وأنعم عليه، وسأل السلطانَ في تواقيع وسَنَاجِق له ولإخوته فأعطاه، وتوجّه نحو إخوته بجبل لارَنْدَة.

وعاد السلطان وأخذ في عَوْده أيضاً عِدّة بلاد إلى أن وصل مكان المَعْرَكة يوم السبت، فرأى القَتْلَى، فسأل عن عِدّتهم فأُخبِر أنّ المُغْل خاصّة ستة آلاف وسبعمائة وسبعون نفساً؛ ثم رَحَل حتّى وصل أَقْجَادَرْبَنْد، بعث الخزائن والدِّهليز والسناجق صحبةَ الأمير بدر الدين بِيلِيك الخازِنْدار ليعبُر بها الدّرْبَنْد، وأقام السلطان في ساقة العسكر بقيّة اليوم ويوم الأحد، ورَحل يوم الاثنين فدخل الدّرْبَنْد.

ثم سار إلى أن وصل دِمَشْق في سابع المحرّم سنة ست وسبعين وستمائة، ونَزَل بالجَوْسَق المعروف بالقصر الأبلق جِوَار المَيْدَان الأخضر وتواترت عليه الأخبار بوصول أبْغَا ملك التّتار إلى مكان الوقعة، فجمع السلطان الأمراء وضرب مَشُورة، فوقع الاتفاق على الخروج من دِمَشق بالعساكر وتلقّيه حيث كان، فأمرَ الملك الظاهر بضرب الدِّهْلِيز على القُصَيْر، وفي أثناء ذلك وصل رجلٌ من التُّرْكمان وأخبر أنّ أبْغَا عاد إلى بلاده هارباً خائفاً؛ ثمّ وصل الأمير سابق الدين بَيْسَري أمير مجلس[1] الملك الناصر صلاح الدين، وهو غير بَيْسَريّ الكبير، وأخبر بمثل ما أخبر التركمانِيّ، فعند ذلك أمر الملك الظاهر بردّ الدِّهليز إلى الشام. وكان عَوْد أبْغَا من ألطاف الله تعالى بالمسلمين، فإنّ الملك الظاهر في يوم الجمعة نصف المحرّم من سنة ست وسبعين آبتدأ به مرضُ الموت.

---

(١) أمير مجلس: هو الذي يتحدث على الأطباء والكحالين ومن شاكلهم. ولا يكون إلا واحداً. ومن عمله أيضاً أنه يتولى أمر مجلس السلطان أو الأمير في الترتيب وغيره. (صبح الأعشى: ١٨/٤ و٤٥٥/٥).

ذكرُ مرض الملك الظاهر ووفاته

لمّا كان يوم الخميس رابع عشر المحرّم سنة ستّ وسبعين وستمائة جلس الملك الظاهر بالجَوْسَق الأبلق بمَيْدان دِمَشق يَشْرَب القِمِزَّ[١] وبات على هذه الحالة، فلمّا كان يوم الجمعة[٢] خامس عشره وَجَد في نفسه فُتوراً وتوعُّكاً فشكا ذلك إلى الأمير شمس الدين سُنْقُر الألفِيّ السلحدار فأشار عليه بالقيء، فآستدعاه فآستعصى عليه القيء، فلمّا كان بعد صلاة الجمعة رَكِب من الجَوْسَق إلى المَيْدَان على عادته، والألم مع ذلك يَقْوَى عليه، وعند الغروب عاد إلى الجَوْسَق. فلمّا أصبح آشتكى حرارة في باطنه فصَنَع له بعضُ خواصّه دواءً، ولم يكن عن رأي طبيب، فلم يَنْجَع وتضاعف أَلَمهُ، فأحضر الأطِبّاء فأنكروا آستعماله الدواء، وأجمعوا على آستعمال دواءٍ مُسهِل فسقَوْه فلم ينجع، فحرّكوه بدواء آخر كان سبب الإفراط في الإسهال ودَفَعَ دماً، فتضاعفت حُمَاه وضعُفت قواه، فتخيّل خواصّه أنّ كبِده يتَقَطع وأنّ ذلك عن سمّ سُقِيه فعُولج بالجَوْهر، وأخذ أمره في آنحطاط، وجَهَده المرضُ وتزايد به إلى أن قَضَى نَحْبَه يوم الخميس بعد صلاة الظهر السابع[٣] والعشرين من المحرّم، فآتّفق رأي الأمراء على إخفائه وحَمْلِه إلى القلعة لئلاّ تَشْعُر العامّة بوفاته، ومنعوا مَن هو داخل من المماليك من الخروج ومن هو خارج منهم من الدخول. فلمّا كان آخر الليل حَمَله من كِبار الأمراء سيف الدين قلاوون الألفيّ وشمس الدين سُنْقُر الأشقر، وبدر الدين بَيْسَري؛ وبدر الدين بِيلِيك

(١) القمز: نبيذ يعمل من لبن الخيل. واللفظ تتري الأصل. وقد كان الظاهر بيبرس شغفاً بهذا النوع من الشراب. (السلوك: ١/٢/٦٠٧، حاشية).

(٢) في الروض الزاهر: «ليلة السبت خامس عشر محرم».

(٣) في الأصل: «التاسع والعشرين». وما أثبتناه عن الروض الزاهر والسلوك.

الخازِنْدار، وعِزّ الدين آقوش الأفرم، وعِزّ الدين أَيْبَك الحَمَوِي، وشمس الدين سُنْقُر الألفيّ الظاهري، وعلم الدّين سَنْجَر الحَمَوِيّ أبو خُرْص، وجماعة من أكابر خواصّه. وتولّى غُسله وتحنيطه وتصبيره وتكفِينَه مِهْتَارهُ[١] الشُّجاعُ عَنْبَر، والفقيه كمال الدين الإسكندري المعروف بآبن المَنْبِجِيّ، والأمير عِز الدين الأفرم؛ ثم جُعِل في تابوت وعُلّق في بيت من بيوت البحرِيّة بقلعة دِمَشق إلى أن حصل الاتفاق على موضع دفنه. ثم كتب الأمير بدر الدين بِيلِيك الخازِنْدار إلى ولده الملك السعيد مطالعةً بيده وسيّرها إلى مصر على يد بدر الدين بَكْتُوت الجُوكَنْدَارِيّ الحَمْوِيّ، وعلاء الدين أَيْدُغْمُش الحَكِيميّ الجَاشْنَكير، فلمّا وصلا وأوصلاه المطالعة خَلَع عليهما وأعطى كلّ واحد منهما خمسين ألف درهم، على أنّ ذلك بِشارةٌ بعَوْد السلطان إلى الديار المصريّة. ولمّا كان يوم السبت رَكب الأمراء إلى سوق الخيل بدِمَشق على عادتهم ولم يُظْهِروا شيئاً من زِيّ الحُزْن. وكان أوصى أن يُدْفَن على الطريق السالكة قريباً من دَارَيّا[٢] وأن يُبْنَى عليه هناك، فرأى ولده الملك السعيد أن يَدْفِنه داخل السور، فآبتاع دار العقيقيّ بثمانية وأربعينَ ألف درهم نقرة[٣]، وأمر أن تُغيَّر معالمها وتُبْنَى مدرسة. إنتهى.

وأمّا الملك السعيد فإنّه جهّز الأمير علم الدين سنجر الحمِوي المعروف بأبـي خُرْص، والطواشي صفيّ الدين جوهر الهنديّ إلى دِمشق لدفن والده الملك الظاهر، فلمّا وصلاها آجتمعا بالأمير عِز الدين أَيْدَمُر نائب السلطنة بدمشق، وعرّفاه المرسوم فبادر إليه، وحُمِل الملك الظاهر من القلعة إلى التّربة ليلاً على أعناق الرجال، ودُفن بها ليلة الجمعة خامس شهر رجب الفَرْد، وكان قد ظهر موتُه بدِمَشْق في يوم السبت رابع عشر صفر، وشُرع العمل في أعْزِيتِه بالبلاد الشاميّة والديار المصريّة.

---

(١) المهتار: كلمة فارسية مركبة من «مه» أي الكبير، و«تار» وهي لصيغة أفعل التفضيل وتعني الأكبر. وهو لقب يطلق على كبير كل طائفة من غلمان البيوت، مثل مهتار الشراب خاناه، ومهتار الطست خاناه، ومهتار الركاب خاناه. (صبح الأعشى: ٥/ ٤٧٠).

(٢) داريّا: قرية كبيرة من قرى دمشق بالغوطة. (معجم البلدان).

(٣) الدراهم النقرة: هي الدراهم التي كانت تغلب فيها نسبة الفضة على النحاس. (صبح الأعشى: ٣/ ٤٣٠).

قال الأمير بِيْبَرس[١] الدَّوَادَار في تاريخه ـ وهو أعرف بأحواله من غيره ـ قال: وكان القَمَر قد كَسَف كُسُوفاً كاملاً أظلم له الجوُّ وتأوّل ذلك المتأوِّلون بموت رجل جليل القَدْر؛ فقيل: إنّ الملك الظاهر لمّا بلغه ذلك حَذِر على نفسه وخاف وقَصد أن يُصرف التأويل إلى غيره لعلّه يَسْلَم من شرّه، وكان بدِمَشق شخصٌ من أولاد الملوك الأُيوبيّة، وهو الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك آبن السلطان الملك المعظّم عيسى آبن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيُّوب، فأراد الظاهر، على ما قيل، آغتياله بالسّم، فأحضره في مجلس شَرَابه فأمر الساقِيَ أن يَسْقِيه قِمِزاً ممزوجاً؛ فيما يقال، بسّم، فسقاه الساقي تلك الكأس فأحسّ به وخرج من وقته، ثم غَلِط الساقي وملأ الكأس المذكورة وفيها أثر السّم، ووقعت الكأس في يد الملك الظاهر فشِربه، فكان من أمره ما كان. اِنتهى كلام بيبرس الدَوَادَار بآختصار.

قلت: وهذا القول مشهورٌ وأظنُّه هو الأصح في عِلَّة موته، والله أعلم[٢].

وكانت مدّةُ مُلْكه تسع عشرة سنة وشهرين ونصفاً، ومَلَك بعده آبنه الملك السعيد ناصر الدين محمد المعروف ببركة خان؛ وكان تسلطن في حياته من مدّة سنين حسب ما تقدّم ذكره.

وكان الملك الظاهر رحمه الله مَلِكاً شُجاعاً مِقْداماً غازِياً مُجاهداً مُرابطاً خليقاً بالملك خفيف الوَطأة سريعَ الحركة يباشر الحروب بنفسه.

قال الحافظ أبو عبد الله الذهبيّ في تاريخه بعدما أثنى عليه: «وكان خليقاً بالملك لولا ما كان فيه من الظُّلم، والله يرَحْمه ويَغْفِر له، فإنّ له أياماً بِيضاً في الإسلام ومواقفَ مشهورة وفتوحات معدودة». انتهى كلام الذهبيّ بآختصار.

---

(١) هو الأمير بيبرس المنصوري الخطائي الدوادار، ركن الدين: مؤرخ من الأمراء بمصر. توفي سنة ٧٢٥هـ. له كتاب «التحفة الملوكية في الدولة التركية» في تاريخ السلاطين المماليك من سنة ٦٤٧ إلى ٧٢١هـ. (الأعلام: ٢/٨٠).

(٢) وهناك رأي آخر يقول إن وفاته كانت بسبب إصابته في الحرب مع المغول بنشابة، فلما حاول إخراج النصل من جسمه لم يتمكن من ذلك، وبقي أياماً يحاول ذلك. ولما أذن للجرائحي أن يخرجه وجاهد في إخراجه، مع خروج النصل فارق الدنيا. (العلاقات السياسية بين المماليك والمغول: ١١٠).

وقال الشيخ قطب الدين اليُونِيني في الذَّيْل على مرآة الزمان في مَوْت الملك الظاهر هذا نوعاً مما قاله الأمير بِيبرس الدَّوَادَار لكنّه زاد أموراً نَحْكِيها، قال: حَكى لي آبن شيخ السلامية عن الأمير أَزْدَمُر العَلاَئِيّ نائب السلطنة بقلعة صَفَد قال: كان الملك الظاهر مَوَلعاً بالنجوم وما يقوله أربابُ التقاويم، كثيرَ البحث عن ذلك، فأُخْبِر أنّه يموت في سنة ستّ وسبعين مَلِكٌ بالسمّ، فحصل عنده من ذلك أثر كبير، وكان عنده حسدٌ شديد لمن يُوصف بالشجاعة. وآتّفق أنّ الملك القاهر عبد الملك بن المعظّم عيسى الآتي ذكره لمّا دخل مع الملك الظاهر إلى الروم، وكان يوم المصافّ، فدام الملك القاهر في القتال فتأثّر الظاهر منه، ثم آنضاف إلى ذلك أنّ الملك الظاهر حصَل منه في ذلك اليوم فُتُور على خلاف العادة، وظَهر عليه الخوفُ والنَّدم على تورُّطه في بلاد الروم، فحدّثه الملك القاهر عبد الملك المذكور بما فيه نوعٌ من الإنكار عليه والتَّقبيح لأفعاله، فأثّر ذلك عنده أثراً آخر. فلمّا عاد الظاهر من غَزْوته سَمِع الناسَ يَلْهَجُون بما فعله الملك القاهر، فزاد على ما في نفسه وحَقَد عليه، فخيّل في ذهنه أنّه إذا سمّه كان هو الذي ذكره أرباب النجوم، فأحضره عنده ليشرب القِمِزّ معه، وجعل الذي أعدّه له من السمّ في ورقة في جيبه من غير أن يَطّلِع على ذلك أحد، وكان للسلطان هَنَّابات[1] ثلاثة مختصّة به مع ثلاثة سُقاة لا يَشْرَب فيها إلاّ مَنْ يُكْرِمه السلطان، فأخذ الملك الظاهر الكأس بيده وجعل فيه ما في الورقة خِفْيَةً، وأسقاه للملك القاهر، وقام الملك الظاهر إلى الخلاء وعاد، فنَسِي الساقي وأسقى الملك الظاهر فيه وفيه بقايا السّم. انتهى كلام قطب الدين.

وخلَّف الملك الظاهر من الأولاد: الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان. ومولده في صفر سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة بضواحي مصر، وأمُّه بنت الأمير حُسام الدين بركة خان بن دولة خان الخُوَارَزْميّ. والملك [المسعود نجم الدين] خَضِراً، أمّه أم ولد. والملك [العادل] بَدْر الدين سَلامُش. ووُلد له من البنات سبع.

وأما زَوْجَاتُه فأم الملك السعيد بنت بركة خان، وبنت الأمير سيف الدين

(١) الهناب: قدح الشراب.

نوكاي[١] التَّتاريّ، وبنت الأمير سيف الدين كراي التَّتاريّ، وبنت الأمير سيف نوغاي التَّتاريّ، وشَهْرُزُوريّـة تزوّجها لمّا قدِم غزّة وحالف الشَّهْرُزُوريّة قبـل سلطنته، فلما تسلطن طَلّقها.

وأمّا وزراؤه ــ لمّا تولى السلطنة آستمرّ زَيْن الدين يعقوب بن عبد الرفيـع بن الزُّبَيْر، ثم صرفَه وآستوزر الصاحب بهاء الدِّين عليّ بن محمد بن سليم بن حِنّا.

وكان للملك الظاهر أربعة الآف مملوك مُشْتَريات أمراء وخَاصَّكِيّة[٢] وأصحاب وظائف.

وأمّا سِيرتُه وأحكامه وشرفُ نفسه حُكِي: أنّ الأشرف صاحب حِمْص كتب إليه يستأذنه في الحـج، وفي ضمن الكتاب شهادةٌ عليه أنّ جميـع ما يَمْلِكه آنتقل عنه إلى الملك الظاهر، فلم يأذن له الملك الظاهر في تلك السنة غَضباً منه لكونه كتب ذلك، وآتّفق أنّ الأشرف مات بعد ذلك فتسلَّم الملك الظاهر حُصونَه التي كانت بيده ولم يتعرّض للتركة، ومكّن ورثته من الموجود والأملاك، وكان شيئاً كثيراً إلى الغاية، ودَفَـع الملكُ الظاهر إليهم الشهادةَ وقد تجنَّبوا التِّركة لعلمهم بالشهادة. ومنها أن شَعْرا بانْيَاس وهي إقليم يشتمل على أرض كثيرة عاطلة بحُكم آستيلاء الفرنـج على صَفَد، فلمّا آفتتـح صَفَد أفتاه بعضُ العلماء بآستحقاق الشعرا فلم يرجِـع إلى الفُتْيا، وتقدّم أمره أنّ مَن كان له فيها مِلْك قديم فليتسلَّمْه.

وأمّا صدقاته فكان يَتصدق في كلّ سنة بعشرة الآف إرْدَب قَمْـح في الفقراء والمساكين وأرباب الزوايا، وكان يُرَتِّب لأيتام الأجناد ما يقوم بهم على كَثْرتهم، ووقف وَقْفاً على تكفين أموات الغرباء بالقاهرة ومصر، ووَقْفاً ليُشْتَرَى به خُبْزٌ ويُفَرَّق

---

(١) في السلوك: «نوكلي».

(٢) الخاصكية: هم الذين يلازمون السلطان في خلواته، ويسوقون المحمل الشريف، ويجهزون في المهمات الشريفة، والمتعينون للإمرة، والمقربون في المملكة. وكان عدتهم في أيام الناصر محمد بن قلاوون أربعين خاصكياً، ثم ازدادوا على ذلك حتى صاروا في أيام الأشرف برسباي نحو ألف، ومنهم من هو صاحب وظيفة، ومنهم من لا وظيفة له. (زبدة كشف الممالك لابن شاهين الظاهري: ص ١١٦). ونعتقد أن استعمال لفظ «خاصكية» هنا هو بمعنى «المماليك السلطانية» أي الذين يشتريهم السلطان فيصبحون من أملاكه الخاصة. وليس من الضرورة أن يكونوا جميعاً ــ بهذا العدد الكبير ــ من المقربين إلى السلطان الملازمين له.

في فقراء المسلمين، وأصلح قبر خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ بِحمص، ووقف وَقْفاً على مَنْ هو راتب فيه من إمامٍ ومُؤَذِّن وغير ذلك، ووقف على قبر أبـي عُبَيْدة بن الجَرّاح ـ رضي الله عنه ـ وقْفاً مثل ذلك، وأجرى على أهل الحرمين والحجاز وأهل بَدْر وغيرهم ما كان آنقطـع في أيّام غيره من الملوك.

وأمّا عمائره: المدارس والجوامـع والأَسْبلة والأَرْبِطة فكثيرة، وغالبها معروفة به، وكان يُخْرِج كلّ سنة جُمْلَةً مستكثرة يَسْتَفِكُّ بها مَنْ حبَسَه القاضي من المُقِلِّين، وكان يُرتِّب في أوّل شهر رمضان بمصر والقاهرة مطابـخَ لأنواع الأَطْعِمة، وتُفرَّق على الفقراء والمساكين.

وأمّا حُرَمتُه ومهابته، منها: أنّ يهودِياً دَفَن بقلعة جَعْبَر عند قصد التَّتار لها مَصاغاً وذَهباً وهَرَب بأهله إلى الشام وآستوطن حماة، فلمّا أَمِن كَتَب إلى صاحب حَمَاة يُعرِّفه ويسأله أن يُسَيِّر معه مَنْ يحفظه ليأخذَ خبِيئَته ويدفـع لبيت المال نِصْفه، فطالـع صاحبُ حَماة الملك الظاهر بذلك، فردّ عليه الجواب أنّه يُوَجِّهُهُ مـع رجلين ليَقْضِيَ حاجته؛ فلمّا توجهوا مـع اليهوديّ ووصلوا إلى الفُرات آمتنـع مَن كان معه من العُبور فعَبَر اليهوديُّ وحْدَه، فلمّا وصل وأخذ في الحَفْر هو وآبنه وإذا بطائفةٍ من العَرَب على رأسه، فسألوه عن حاله فأخبرهم، فأرادوا قَتْله وأَخْذَ المال، فأخرج لهم كتابَ الملك الظاهر مُطْلَقاً إلى مَنْ عساه يَقِف عليه، فلماّ رَأَوُا المرسوم كَفُّوا عنه وساعدوه حتّى آستخلص ماله. ثم توجَّهوا به إلى حَمَاة وسلّموه إلى صاحب حَمَاة، وأخذوا خَطّه بذلك.

ومنها: أَنّ جماعة من التُّجّار خرجوا من بلاد العجم قاصدين مصر، فلمّا مَرُّوا بسِيس منعهم صاحبها من العُبور، وكتب إلى أبْغَا ملك التَّتار، فأمره أبْغَا بالحَوْطة عليهم وإرسالهم إليه، وبلـغ الملكَ الظاهرَ خبرهم، فكتب إلى نائب حلب بأن يكتب إلى نائب سِيس: إنْ هو تعرّض لهم بشيء يُساوِي درهماً واحداً أخذتُ عِوَضه مِراراً، فكتب إليه نائبُ حلب بذلك فأطلقهم، وصانـع أبْغَا بن هولاكو على ذلك بأموالٍ جليلة حتّى لا يُخالف مرسومَ الظاهر، وهو تحت حُكْم غيره لا تحت حكم الظاهر.

ومنها: أن تواقيعه التي كانت بأيدي التُّجَار المتردِّدين إلى بلاد القَبْجَاق [بإعفائهم من الصادر والوارد](١) كان يُعمل بها حيث حلُّوا من مملكة بركة خان ومَنْكُوتَمُر وبلاد فارس وكَرْمان.

ومنها: أنّه أَعْطَى بعض التُّجّار مالاً ليشتري به مماليك وجَوارِيَ من التُّرك فشَرِهَت نفس التاجر في المال فدخل به قراقرم(٢) من بلاد التُّرك وآستوطنها، فوقع الملك الظاهر على خَبَره، فبعث إلى مَنْكُوتَمُر في أمره فأحضروه إليه تحت الحَوْطة إلى مصر. وله أشياء كثيرة من ذلك.

وكان الملك الظاهر يُحِبُّ أن يطَّلع على أحوال أمرائه وأعيان دولته حتى لم يَخْفَ عليه من أحوالهم شيء. وكان يُقَرِّب أربابَ الكمالات من كلّ فنّ وعِلْم. وكان يَميل إلى التاريخ وأهلِهِ مَيْلاً زائداً ويقول: سماعُ التاريخ أعظمُ من التجارب. وكانت تَرِد عليه الأخبار وهو بالقاهرة بَحَركة العدُوّ، فيأمر العسكر بالخروج وهم زيادة على ثلاثين ألف فارس، فلا يَبِيت منهم فارسٌ في بيته، وإذا خرج من القاهرة لا يُمَكّن من العَوْد إليها ثانياً.

قلت: كان الملك الظاهر – رحمه الله – يَسِير على قاعدة ملوك التَّتَار وغالب أحكام جِنْكِزْخان من أمر «اليَسَق والتّورا»(٣)، واليَسَق: هو

---

(١) زيادة من طبعة دار الكتب المصرية عن الذيل على مرآة الزمان.

(٢) قراقرم (قره قرم – قراقوم): مدينة في منغوليا على نهر أرخون. كانت في القرن السابع الهجري قاعدة أمبراطورية المغول. وفي عهد قوبيلاي خان الذي حكم على بلاد التتر بعد منكوخان انتقلت العاصمة من قراقوم إلى « خان بالق» وهي بكين الحالية.

(٣) لعلّ في عبارة المؤلف هنا بعض التجاوز والمبالغة، إذ إن « الياسة» كانت تمثل الشريعة المغولية الوثنية، ويقابلها تعاليم الإسلام التي اتبعها فيما بعد القسم الأكبر من مغول آسيا وبلاد فارس. وقد أشرنا إلى الخلاف الذي قام حول هذا الأمر بين هولاكو وابن عمه بركة خان (راجع ص ١٣٤، حاشية: ٣). ونرجح أن يكون المراد هو اتباع دولة المماليك الأولى، ابتداءً من سلطنة الظاهر بيبرس، لبعض تعاليم الياسة في شعائر المملكة وترتيب الوظائف، أو في بعض أحكام الياسة التي تتفق مع الشريعة المحمدية. وإشارة ابن إياس في بدائع الزهور إلى هذا الأمر أكثر وضوحاً ودقّة، قال: « وفيها – أي سنة ٦٦٣هـ – أراد الملك الظاهر أن يسلك في مماليكه طريقة ملوك التتار في شعائر المملكة، من أرباب الوظائف؛ ففعل ما أمكنه من ذلك، ورتّب أشياء كثيرة لم تكن قبل ذلك بمصر (بدائع الزهور: ١/١/٣٢٣). ويشير =

الترتيب[1]، والتّورا: المذهب باللغة التركية؛ وأصل لفظة اليَسَق: سِي يَسَا، وهي لفظة مركبة من كلمتين صدر الكلمة: سِي بالعجمي، وعجزها يَسَا بالتركيّ لأنّ سي بالعجمي ثلاثة، وَيَا بالمُغلِيّ الترتيب، فكأنّه قال: التراتيب الثلاثة. وسبب هذه الكلمة أنّ جنكـزخـان مَلِك المُغْل كان قَسّم ممالكه في أولاده الثلاثة، وجعلها ثلاثة أقسام، وأوصاهم بوصايا لم يَخْرُجوا عنها التُّرك إلى يومنـا هذا، مـع كثْـرَتهم وآختلاف أديانهم، فصاروا يقولون: سِي يَسَا (يعني التراتيب الثلاثة التي رَتَّبها جِنْكِـزْ خان)، وقد أوضحنا هذا في غير هذا الكتاب[2] بأوسَـع من هذا. اِنتهى. فصارت التُّرك يقولون: «سِي يَسَا» فَثَقُلَ ذلك على العامّة فحرّفوها على عـادة تحاريفهم، وقالوا: سِياسَة. ثم إنّ الترك أيضاً حذفوا صَدْر الكلمة، فقالوا: يَسَا مدَّةً طويلة، ثم قالوا: يَسَق، وآستمرّ ذلك إلى يومنا هذا. اِنتهى.

= ابن فضل الله العمري إلى موقف المماليك المتسامح من «الياسة» في ذلك العصر بقوله: «وأما الياسة، وأحوالها كثيرة، فمنها ما يوافق الشريعة المحمدية. . . وليعلم أن هذا الرجل ـ أي جنكزخان ـ لم يقف على سيرة ملوك ولا طالـع كتاباً، وجميـع ما ينسب إليه من ذلك صادر عن قوة ذهنه وحسّه، واستدراك الأصلـح من قبل نفسه». (مسالك الأبصار: ٢/٣٠ المقدمة).

(١) اليسق: في المغولية «يـاسـاق» بمعنى القانون، وفي التركية بمعنى المنـع؛ ومنها اليسقي واليسقجي وهو القواس الذي يحمي القناصل والسفراء ويحرسهم. (تأصيل ما ورد في تاريـخ الجبرتي من الدخيل: ٢٠١).

وقد اقتضت حياة المغول رغم بدائيتها وبساطتها أن تكون لهم قبل جنكيزخان مجموعـة من الآداب والتقاليد، ولكنها لم تكن مدونة لأنهم كانوا يجهلون الخط، فلما جاء جنكيزخان أعاد النظر في هذه العادات، وردّ بعضها، وقبل معظمها، وأضاف إليها بعض الأحكام والقواعد، وجعل لها صيغة رسمية، وأمر أن تدوّن النظم والأحكام بالخط الأويغوري وأن يحتفظ بها في خزائن أمراء المغول. وأطلق على كل حكم من هذه الأحكام والقواعد اسم «ياسا» وهي كلمة مغولية تأتي بمعنى حكم وقاعدة وقانون، وتكتب بأشكال مختلفة في الكتب العربية والفارسية، فنجد «ياسا، وياسة، ويساق، وياساق، ويسق» وكانت تطلق هذه اللفظة على الحكم الذي يصدره الملك أو الأمير. ولما كان كتاب «الياسة» يشتمل على جزء كبير من الأحكام التي تتعلق بالجزاء أو العقاب، وغالباً ما يكون ذلك بإعدام الشخص المذنب، صار أحد معاني هذه الكلمة: القتل والموت. أما مجموع الأحكام التي كتبت بالخط الأويغوري والتي أقرها جنكيزخان فإنه يطلق عليها اسم كتاب الياسا الكبير (ياسانامه بزركَك) وكانت تبرم الأمور وفق ما تشير به الياسا في الأحوال الآتية: تتويـج الخـاقان وإنفاذ الجيوش وفي حالة انعقاد مؤتمر عام يحضره الأمراء لمناقشة السياسة العامة للدولة. (مؤرخ المغول رشيد الدين الهمذاني: ص ٢٢٨ ٨٨ ٢٢٩، حاشية).

(٢) راجـع الجزء السادس، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩.

[ذكر الوظائف المستحدثة في أيّامه]

قلت: والملك الظاهر هذا هو الذي آبتدأ في دولته بأرباب الوظائف من الأمراء والأجناد، وإن كان بعضُها قبله فلم تكن على هذه الصيغة أبداً؛ وأُمَثِّلُ لذلك مثلاً فيقاس عليه، وهو أنّ الدّوَادَار كان قديماً لا يُباشره إلا مُتَعَمِّمٌ يَحْمِل الدّواة ويحفظها. وأمير مجلس هو الذي كان يحرس مجلس قعود السلطان وفرشه. والحاجب هو البوّاب الآن، لكونه يحجُب الناس عن الدخول؛ وقِسْ على هذا. فجاء الملك الظاهر جَدّد جماعةً كثيرةً من الأمراء والجند ورتّبهم في وظائف[1]: كالدَّوَادَار والخَازِنْدار[2] وأمير آخُور[3] والسَّلاَخُور[4] والسُّقَاة والجَمَدَارِيّة[5] والحُجّاب ورؤوس النُّوَب[6] وأمير سلاح وأمير مجلس وأمير شِكَار[7].

---

(١) حول الوظائف والألقاب الآتية، قارن بما جاء في صبح الأعشى للقلقشندي (ج ٤، ص ٣ ـ ٢٣؛ وج ٥، ص ٤٢٥ ـ ٤٤٢ طبعة دار الكتب العلمية) ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري: ٢/١١٤ ـ ١٢٢. وذكر ابن إياس في بدائع الزهور بعض وظائف استحدثها الظاهر بيبرس لم يذكرها أبو المحاسن هنا، فلينظر الزهور: ١/٣٢٣.

(٢) راجع ص ٩٠، حاشية (٦).

(٣) أمير آخور: أي أمير المعلف. وهو المتولي لأمر دواب السلطان.

(٤) السلاخور والسلخور: هو كبير المتحدثين على علف دواب السلطان. ويرى القلقشندي أن الصواب «سراخور» بالراء بعد السين. وهو مركب من لفظين فارسيين: «سرا» ومعناه الكبير، والثاني «خور» أو «آخور» بمعنى المعلف. (صبح الأعشى: ٥/٤٣٢). في حين يرى الدكتور أحمد السعيد سليمان صواب استعمال «السلاخور» باللام. ويرى أن أصل اللفظ الأول هو «سالار» وهذه الكلمة هي فيما يظن كلمة «سردار» قلبت راؤها لاماً وحذفت دالها. وقد عربت بصيغتي «سالار» و«سلار». (تأصيل الدخيل: ١٣١).

(٥) راجع ص ٥، حاشية (٣).

(٦) رأس نوبة: لصاحب هذه الوظيفة الحكم على المماليك السلطانية والأخذ على أيديهم. (صبح الأعشى: ٤/١٨، ٦٠).

(٧) أمير شكار: يتحدث صاحب هذه الوظيفة على الجوارح السلطانية من الطيور وغيرها وعلى سائر أمور =

فأمّا موضوع أمير سلاح في أيّام الملك الظاهر فهو الذي كان يَتَحَدَّث على السِّلاح دَارِيّة، ويُناول السلطان آلَة الحرب والسِّلاح في يوم القتال وغيره، مثل يوم الأضحى وما أشبهَه. ولم يكن إذْ ذاك في هذه المَرْتَبة (أعني الجلوس رأس ميسرة السلطان)، وإنّما هذا الجلوس كان إذْ ذاك مختصاً بأطَابَك[1]. ثم بعده في الدولة الناصريّة محمد بن قلاوون برأس نَوْبة الأمراء كما سيأتي ذكره في محلّه. وتأييد ذلك يأتي في أوّل ترجمة الملك الظاهر بَرْقُوق، فإنّ بَرْقُوق نَقل أمير سلاح قُطْلُوبُغَا الكُوكَائِيّ إلى حجوبيّة الحجّاب. وأمير مجلس كان موضوعها في الدولة الظاهريّة بِيبَرْس التحدُّث[2] على الأطِباء والكحّالين[3] والمجبِّرين، وكانت وظيفة جليلة أكبر قدراً من أمير سلاح.

وأمّا الدَوَادَارِيّة فكانت وظيفة سافلة. كان الذي يليها أوّلاً غير جندي[4]،

= الصيد. و« شكارٌ» لفظ فارسي معناه الصيد. (صبح الأعشى: ٢٣/٤، ٤٣٣/٥ طبعة دار الكتب العلمية).

(١) أطابك أو أتابك: من الكلمتين التركيتين:
« أتا» بمعنى الأب والشيخ المحترم لسنّه، واللقب التركي « بك» بمعنى الأمير. والأتابك في الاصطلاح هو مربي الأمير، ومدبر المملكة. ويطلق على أمير أمراء الجيش لقب: أتابك العساكر. (صبح الأعشى: ١٨/٤، وتأصيل الدخيل: ١٢).

(٢) في الأصل: « يتحدث».

(٣) الكحالون: أطباء العيون.

(٤) المراد أنه لم يكن من أرباب السيوف وإنما كان من أرباب الأقلام. ولا نرى وجهاً لنعتها بالوظيفة السافلة، إلا إذا كان المؤلف يريد الإشارة إلى انحطاط مرتبة أصحاب أو أرباب الأقلام في الدولة المملوكية؛ علماً أن صاحب هذه الوظيفة ـ إلى جانب توليه أمر دواة السلطان ـ كان يتولى مهمات تبليغ الرسائل عن السلطان وتقديم القصص إليه والمشاورة على من يحضر إلى بابه وتقديم البريد. واستحدث في عصر قلاوون أن اختص أحد الدوادارية بعلامة السلطان أي توقيعه. (انظر التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٣٩). وقد عظم شأن وظيفة الدوادارية في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، فبعد أن كان يليها أمراء العشرات أو الطبلخانات ـ وليها أمراء الألوف أي أمراء الدرجة الأولى، وكان ذلك في عهد الناصر حسن (١٣٤٧م ـ ١٣٥١ و١٣٥٤ ـ ١٣٦١). وفي عهد الأشرف ناصر الدين شعبان الثاني (١٣٦٣ ـ ١٣٧٧م) ولي أقبغا الدوادارية فعظم شأنها حتى صارت كنيابة السلطنة. وفي عهد برقوق (١٣٨٢ ـ ١٣٨٩م)، وابنه فرج (١٣٩٩ ـ ١٤٠٥م) والملك المؤيد شيخ (١٤١٢ ـ ١٤٢١م) ازداد المنصب خطورة وخاصة حين وليه يشبك في أيام الناصر فرج، فقد كان الدوادارية يشرفون على البريد =

وكانت نوعاً من أنواع المباشرة، فجعلها الملك الظاهر بِيبرس على هذه الهيئة، غير أنّه كان الذي يليها أمير عشرة[(١)]. ومعنى دَوَادَار باللغة العجمية: ماسك الدَّواة، فإنّ لفظة «دار» بالعَجَمِيّ: ماسك، لا ما يفهمه عوامّ المصريّين أنّ «دار» هي الدار التي يُسْكَن فيها، كما يقولون في حقّ الزِّمام: زمام الآدُر؛ وصوابه زمام دار. وأوّل من أحدث هذه الوظيفة ملوك السَّلْجُوقِيّة. والجَمْدَار، «الجَمَى» هي البُقْجَة باللغة العجمية، ودار تقدّم الكلام عليه، فكأنّه قال: ماسك البُقْجَة التي للقماش. وقِسْ على هذا في كلّ لفظ يكون فيه «دار»[(٢)] من الوظائف.

وأمّا رأس نَوْبة فهي عظيمة عند التّتار، ويُسَمّون الذي يليها «يَسوول» بتفخيم السين. والملك الظاهر أوّل من أحدثها في مملكة مصر.

والأمير آخور أيضاً وظيفة عظيمة؛ والمُغْل تسمي الذي يليها «آق طشي»[(٣)]. وأمير آخور لفظ مركب من فارسي وعربي، فأمير معروف وآخور هو آسم المِذْوَد بالعَجَمِيّ، فكأنّه يقول: أمير المِذْوَد الذي يأكل فيه الفَرَس. وكذلك السلاخوري وغيره مما أحدثه الملك الظاهر أيضاً.

وأمّا الحجُوبِيّة فوظيفةٌ جليلة في الدولة التركيّة، وليس هي الوظيفة التي كان يليها حَجَبة الخلفاء، فأولئك كانوا حَجَبةً يحجُبون الناس عن الدخول على الخليفة،

= والمالية والعزل والنصب والقضاء. وباتساع اختصاصات الدوادار كثر عدد الدوادارية حتى بلغ في بعض الفترات عشرة، وعندئذ عرف أكبرهم باسم الدوادار الكبير (تأصيل الدخيل: ١١٠ ــ ١١١).

(١) كان الأمراء في جيش المماليك يتميزون في درجاتهم بأعداد الجند تحت إمرتهم وبأعداد المماليك الذين يملكونهم وحتى بعلامات تشريفية. وكذلك كانت أعدادهم تختلف على حسب درجاتهم ومن سلطان إلى آخر، إذ السلطان القائم له أن يعين أو يحذف منهم من يريد. وتختلف أيضاً على حسب الإقطاع والتصرف فيه إذ قيمة الإقطاع تتفق مع درجة الأمير. وكان هناك عدة أنواع من أمراء الجند مثل أمراء العشرات وأمراء العشرينات والخمسات وأمراء الألوف وأمراء المئين وأمراء الأربعينات أو الطبلخانات. إلخ. (انظر نظم دولة سلاطين المماليك للدكتور عبد المنعم ماجد: ١/١٤٥).

(٢) يستثني الدكتور حسن الباشا من ذلك لفظة «أستادار» ويرى أن «دار» هنا هي اللفظ العربي. (راجع ص ٥٧ من هذا الجزء، حاشية: ١).

(٣) وعرف صاحب هذه الوظيفة عند سلاجقة الروم باسمين: أمير آخور وكند إصطبل. (تأصيل الدخيل: ١١).

ليس من شأنهم الحكم بين الناس والأمر والنهي؛ وهي ممّا جدده الملك الظاهر بيبرس، لكنها عظُمت في دولة الملك الناصر محمد بن قلاوون حتّى عادلت النِّيابة.

وأمّا ما عدا ذلك من الوظائف فأحدثها الملك الناصر محمد بن قلاوون كما سيأتي بيانه في تراجمه الثلاث من هذا الكتاب، بعد أن جدّد والده الملك المنصور قلاوون وظائف أُخَرَ كما سيأتي ذكره أيضاً في ترجمته على ما شرطناه في هذا الكتاب من أنّ كلّ من أحدث شيئاً عَزَيْناه له.

وممّا أحدثه الملك الظاهر أيضاً البَريد في سائر ممالكه، بحيث إنّه كان يصل إليه أخبارُ أطراف بلاده على آتّساع مملكته في أقرب وقت.

[فتوحاته]

وأمّا ما آفتتحه من البلاد وصار إليه من أيدي المسلمين فعِدّة بلاد وقِلاع. والذي آفتتحه من أيدي الفرنج ـ خذَلهم الله ـ: قَيْسَاريّة، وأرْسُوف، وصَفَد، وطَبَريَّة، ويافا، والشَّقِيف، وأنطاكِيَة، وبَغْرَاس، والقُصَيْر، وحِصْنُ الأكراد وعَكّار، والقُرَيْن[1]، وصافِيثا، ومرقية. وناصفهم على المَرْقَب وبَانْيَاس وبلاد أَنْطَرْطُوس وعلى سائر ما بَقِي في أيديهم من البلاد والحصون وغيرها. وآستعاد من صاحب سيس دَرْبَسَاك، وَدَرْكُوش، ورَعْبَان، والمرزبان وبلاداً أُخَرَ. والذي صار إليه من أيدي المسلمين: دِمَشْق وبَعْلَبَكّ وعَجْلُون وبُصْرَى وصَرْخَد والصَّلْت، وكانت هذه البلاد التي تغلّب عليها الأمير علم الدين سَنْجَر الحَلبي بعد موت الملك المظفَّر قُطُزْ، لما تسلطن بدِمَشْق وتلْقب بالملك المجاهد. اِنتهى. وحِمْص، وتَدْمُر، والرَّحْبة، ودلويا[؟]، وتَلّ باشر، وهذه البلاد آنتقلت إليه عن الملك الأشرف صاحب حِمْص في سنة آثنتين وستين وستمائة. وصِهْيَوْن وبِلاطُنُس، وبُرْزَيْه، وهذه مُنْتقِلة إليه عن الأمير سابق الدين سليمان بن سيف الدين أحمد وعمّه عِزّ الدين. وحصون الإسماعيليّة[2] وهي: الكَهْف، والقَدْمُوس، والمَيْنقَة، والعُلَّيْقَة، والخَوابِي، والرُّصافة، ومِصْياف،

(١) راجع ص ١٣٨، حاشية (١).
(٢) راجع ص ١٤ من هذا الجزء، حاشية (١).

والقُلَيْعَة. وأمّا ما آنتقل إليه عن الملك المغيث آبن الملك العادل أبي بكر آبن الملك الكامل محمد آبن الملك العادل أبي بكر بن أيُّوب: الشُّوبَك، والكَرَك. وما آنتقل إليه عن التَّتار: بلاد حلب الشماليّة بأَسْرِها، وشَيْزَر، والبِيرَة. وفَتَح الله على يديه بلاد النُّوبَة[1]، وفيها من البلاد ممّا يلي أسْوان جزيرةُ بِلاق؛ ويلي هذه البلادَ بلادُ العلى وجزيرة مِيكائيل؛ وفيها بلادٌ وجزائر الجنادل وهي أيضاً بلاد؛ ولمّا فتحها أنْعَم بها على آبن عم المأخوذة منه، ثم ناصفه عليها، ووضَع عليه عَبِيداً وجوارِيَ وهُجْناً وبَقراً، وعن كلّ بالغ من رعيتّه ديناراً في كلّ سنة. وكانت حدود مملكة الملك الظاهر من أقصى بلاد النُّوبَة إلى قاطع الفرات. ووَفد عليه من التَّتار زُهَاء عن ثلاثة آلاف فارس، فمنهم من أَمَّرَه طبلخاناه[2]، ومنهم مَنْ جعله أميرَ عشرة إلى عشرين، ومنهم مَنْ جعله من السُّقَاة، ثم جعل منهم سِلَحْدَارِيّة وجَمَدَارِيّة ومنهم من أضافه إلى الأمراء.

[ذكر مبانيه]

وأمّا مبانيه فكثيرة منها ما هدمه التَّتار من المعاقل والحصون. وعَمَّر بقلعة الجبل دارَ الذهب، وبرحبة الحبارج[3] قبّة عظيمة محمولة على آثني عشر عموداً من الرخام الملوّن، وصُوَرٌ فيها سائر حاشيته وأمرائه على هيئتهم، وعَمَّر بالقلعة أيضاً طبقتين مُطِلَّتين على رحبة الجامع[4] وأنشأ برج الزاوية المجاورة لباب القلعة،

---

(١) انظر في بلاد النوبة وأسماء الأماكن الآتية الشرح الوافي الذي كتبه الاستاذ محمد رمزي في حاشية النجوم: ١٨٨/٧ ــ ١٨٩ من طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) أمراء الطبلخاناه أو الطبلخانات: كان تحت إمرتهم عدد من الجند يتراوح بين ثمانين وأربعين. ــ راجع أيضاً ص ١٦٦ حاشية (١).

(٣) كذا في فوات الوفيات. وفي الأصل: «رحبة الخارج».

(٤) هو جامع القلعة. وقد هدمه الناصر محمد بن قلاوون وأدخله في الجامع الذي أنشأه سنة ٧١٨هـ. وهذا الجامع لا يزال قائماً بجانب جامع محمد علي باشا، ويعرف بجامع الناصر.

وأخرج منه رواشن،(١) وبَنَى عليه قبّة وزخرف سقفها، وأنشأ جِواره طِباقاً(٢) للمماليك أيضاً. وأنشأ برحبة باب القلعة داراً كبيرة لولده الملك السعيد، وكان في موضعها حَفِير فعقد عليه ستة عشر عَقْداً، وأنشأ دوراً كثيرة بظاهر القاهرة [ممّا يلي القلعة وإصطبلات](٣) برسم الأمراء، فإنّه كان يكره سكنى الأمير بالقاهرة مخافةً من حواشيه على الرعيّة. وأنشأ حَمّاماً بسوق الخيل لولده الملك السعيد، وأنشأ الجِسْرَ الأعظم(٤) والقنطرة التي على الخليج، وأظُنُّها قنطرة السِّباع، وأنشأ المَيْدان بالبُورْجِي(٥) ونَقَل إليه النخيل بالثمن الزائد من الديار المصريّة، فكانت أُجْرةُ نَقْله ستة عشر ألف دينار، وأنشأ به المناظر والقاعات والبيوتات. وجدّد جامع الأنور (أعني جامع الظافر العُبَيْدِيّ) المعروف الآن بجامع الفاكهّيين والجامع الأزهر، وبَنَى جامع العافية(٦) بالحُسَيْنية وأنفق عليه فوق الألف ألف درهم، وأنشأ قريباً منه زاوية الشيخ خَضِر(٧) وحَمَّاماً وطاحوناً وفُرْناً وعَمَّر بالمِقْياس(٨) قُبةً رفيعة [مزخرفة](٩)، وأنشأ عدّة جوامع بالديار المصريّة؛ وجدّد قلعة الجزيرة، وقلعة

(١) الروشن: من الفارسية «روشن» بضم الراء وفتح الشين، بمعنى النافذة والضوء والوضّاء والبين. وتكون أيضاً بمعنى الشرفة، ولعله المعنى المراد هنا. (انظر تأصيل الدخيل: ١١٨).

(٢) الطباق أو الأطباق: هي الأماكن التي كان يسكنها المماليك الذين يشتريهم السلطان، وهي بمثابة مدارس عسكرية. وكانت هذه الطباق موجودة في أماكن متفرقة في القاهرة وخارجها لا سيما في القلعة حتى بلغ عددها اثني عشر طبقاً أو أكثر؛ وكان بعضها يشغل مساحة كبيرة كأنه حيّ بأكمله قد يحتوي على ألف مملوك. (نظم دولة سلاطين المماليك: ١٥/١) وهي بمثابة الثكنات العسكرية في أيامنا.

(٣) زيادة عن فوات الوفيات.

(٤) الجسر الأعظم: كان يفصل بين بركة قارون وبركة الفيل، ثم صار شارعاً مسلوكاً يمشي فيه من الكبش إلى قناطر السباع. (خطط المقريزي: ١٦٠/٢) والجسر المذكور لا يزال طريقاً عاماً يعرف الآن بشارع مراسينا ويوصل بين ميدان السيدة زينب حيث كانت قناطر السباع وبين جامع الجاولي الواقع تحت قلعة الكبش (محمد رمزي).

(٥) كانت المنطقة الواقعة غربي باب اللوق تعرف قديماً بالبورجي (انظر تعليقات محمد رمزي: ١٩١/٧).

(٦) هو نفسه جامع الظاهر. راجع ص ١٤٥، حاشية (٢).

(٧) راجع ص ١٤٥، حاشية (١).

(٨) المراد مقياس النيل بجزيرة الروضة.

(٩) زيادة عن فوات الوفيات.

العمودين ببَرْقَة، وقلعة السُّوَيْس[١]، وعَمّر جِسْراً بالقليوبيّة، والقناطر على بحر أبـي المُنَجّا[٢] وقنطرة بمُنْية[٣] السّيرج، وقنطرتين عند القُصَيْر على بحر إبراش[٤] بسبعة أبواب مثل قنطرة بحر أبـي المُنَجّا، وأنشأ في الجسر الذي يُسلك فيه إلى دِمْياط ستّ عشرة قنطرة، وبَنَى على خليج الإسكندرية قريباً من قنطرتها قنطرة عظيمة بعَقْد واحد، وحَفَر خليج الإسكندرية وكان قد آرتدم بالطِّين، وحَفَر بحر أُشْموم، وكان قد عَمِي، وحَفَر تـرعة الصـلاح وخورسخـا، وحَفَر المحـامدي والكافوري، وحَفَر في ترعة أبـي الفضل ألفَ قصبة، وحَفَر بَحْر الصَّمْصَام[٥] بالقليوبيّة، وحَفَر بحر سردوس[٦]. وتمّم عِمَارة حَرَمِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعَمِل مِنْبره، وجعل بالضريـح النَّبويّ درابزيناً، وذهّب سقوفه وجدّدها وبيّض حِيطانَه؛ وجدّد البِيمارِسْتان بالمدينة النبويّة، ونَقَل إليه سائر المعاجين والأكحال والأَشْرِبة، وبعث إليه طبيباً [من الديار المصريّة][٧].

وجدّد في الخليل عليه السلام قُبّته، ورَمّ شَعَثَه وأصلـح أبوابه [ومِيضأته][٧] وبيّضه وزاد في راتبه. وجدّد بالقُدْس الشريف ما كان قد تهدّم من [قُبّة][٧] الصخرة، وجدّد قُبّة السلسلة وزخرفها وأنشأ بها خاناً للسبيل، نَقَل بابه من دِهْلِيز كان للخلفاء المصريّين بالقاهرة، وبَنَى به مسجداً وطاحوناً وفُرْناً وبُستاناً. وبَنَى على قبر موسى

---

(١) قلعة السويس: هذه القلعة انـدثرت، إلا أن مكانها لا يزال معروفاً إلى اليوم باسم قلعة القلزم. وهي عبارة عن تل مرتفـع في الجهة الشمالية الشرقية من مدينة السويس. (محمد رمزي).

(٢) راجـع ص ١٣٣، حاشية (١).

(٣) هذه القنطرة كانت واقعة على ترعة قديمة تعرف اليوم بالترعة البولاقية. ومنية السيرج من ضواحي القاهرة. (محمد رمزي).

(٤) كذا. ولعلّ الصواب: « بحر إبيار» وهو منسوب إلى قرية إبيار بجـزيرة بني نصـر بين القـاهرة والإسكندرية. (انظر صبـح الأعشى: ٣١٨/٣؛ ومعجم البلدان: ٨٥/١).

(٥) بحر الصمصام: يعرف اليوم بترعة المصيصة بمركز قليوب (محمد رمزي).

(٦) بحر سردوس: نسبة إلى قرية سردوس التي كانت واقعة على النيل. وقد اندثر هذا البحر ولم يبق منه إلا ترعة صغيرة تعرف بترعة الزيتون بأراضي باسوس بمركز قليوب (محمد رمزي).

(٧) زيادة عن فوات الوفيات.

عليه السلام قبة ومسجداً، وهو عند الكَثِيب الأحمر قبلي أُرِيحَا[1]، ووقف عليه وقفاً. وجدّد بالكَرَك بُرْجَيْن كانا صغيرين فهدمهما وغَيّرهما. ووسّع عمارة مشهد جعفر[2] الطيّار ـ رضي الله عنه ـ ووقف عليه وقفاً زيادة على وقفه على الزائرين له والوافدين عليه. وعَمّر جسراً بقريّة دَامِيَة بالغَوْر على نهر الشَّرِيعَة، ووقف عليه وقفاً برسَم ما عساه يتهدّم منه. وأنشأ جسوراً كثيرةً بالغَوْر والساحل. وأنشأ قلعة قَاقُون[3] وبَنَى بها جامعاً ووقف عليه وقفاً، وبنى على طريقها حَوْضاً للسبيل. وجدّد جامع مدينة الرملة، وأصلح جامِعاً لبني أُمَيّة ووقف عليه وقفاً. وعِدّة جوامع ومساجد بالساحل.

وجدّد باشورةً لقلعة صَفَد وأنشأها بالحجر الهِرَقْلِيّ، وعَمّر لها أبراجاً وبَدَنَاتٍ، وصَنَع بَغْلاتٍ مصفّحة دائر الباشورة بالحَجَر المنحوت، وأنشأ بالقلعة صِهْرِيجاً كبيراً مدرّجاً من أربع جهاته، وبَنَى عليه بُرْجاً زائدَ [الارتفاع]، قيل إن ارتفاعه مائة ذراع، وبنى تحت البُرْج حَمّاماً، وصَنَع الكنيسة جامعاً وأنشأ رِباطاً ثانياً، وبنى حَمّاماً وداراً لنائب السلطنة.

وكانت قلعة الصُّبَيْبَة قد أخربها التّتار، ولم يُبْقُوا منها إلّا الآثار فجدّدها، وأنشأ لجامعها مَنَارةً، وبَنَى بها داراً لنائب السلطنة، وعَمِل جسراً يُمْشَى عليه إلى القلعة.

وكان التّتار قد هدموا شراريفُ قلعة دِمَشْق، ورؤوسَ أبراجها، فجدّد ذلك

(١) أريحا: مدينة في فلسطين، تقع على مسافة ٣٧ كلم شرقي الشمال الشرقي لمدينة القدس. (الموسوعة الفلسطينية).

(٢) هو جعفر بن أبي طالب (عبد مناف) بن عبد المطلب بن هاشم، الصحابي الهاشمي. وهو أخو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. حضر وقعة مؤتة بالبلقاء من أرض الشام، فنزل عن فرسه وقاتل، ثم حمل الراية وتقدم صفوف المسلمين، فقطعت يمناه، فحمل الراية باليسرى، فقطعت أيضا فاحتضن الراية إلى صدره، وصبر، حتى وقع شهيداً سنة ٨هـ؛ فقيل: إن الله عوضه عن يديه جناحين في الجنة، ولذلك قيل له: الطيّار. (انظر الإصابة: ترجمة ١١٦٢، ومقاتل الطالبيين: ٢٥) ودفن جعفر الطيار في مؤتة (انظر معجم البلدان).

(٣) قاقون: قرية في فلسطين في ظاهر مدينة طولكرم وتبعد عنها ٧ كلم. وقد أعاد الظاهر بيبرس بناء قلعتها سنة ١٢٦٧م. (الموسوعة الفلسطينية: ٣/٤٩٤).

كلّه، وبنى فوق بُرْج الزاوية المُطِلّ على الميادين وسوق الخيل طارمةً[١] كبيرةً، وجدّد منظرةً على قائمة مُسْتَجَدّة على البُرْج المجاور لباب النصر، وبيَّض البَحْرة وجدّد دِهان سقوفها: وبنى حَمّاماً خارج باب النصر بدِمَشْق، وجدّد ثلاثة إسطبلات على الشَّرَف الأعلى، وبَنَى القَصْر الأبلق بالمَيْدان بدِمَشق وما حوله من العمائر. وجدّد مَشْهد زَيْن العابدين رضي الله عنه بجامع دمشق، وأَمَر بترخيم الحائط الشمالي، وتجديد باب البريد[٢] وفرشه بالبلاط. ورَمّ شَعَث مغارة الدم[٣]. وجدّد المباني التي هدموها التَّتار من قلعة صرخد. وجدّد قبر نوح عليه السلام بالكَرَك. وجدّد أسوار حِصن الأكراد، وعمّر قلعتها. وعمّر جوامع ومساجد بالساحل يطول الشرح في ذكرها حذفتها خوف الإطالة.

وبُنِيَ في أيامه بالديار المصريّة ما لم يُبْنَ في أيام الخلفاء المصريّين، ولا ملوك بني أُيُّوب من الأبنية والرِّباع والخانات والقواسير والدُّور والمساجد والحَمّامات، من قريب مسجد التِّبْن[٤] إلى أسوار القاهرة إلى الخليج وأرض الطَّبَّالة[٥]، واتّصلت العمائر إلى باب المَقْسِم[٦] إلى اللُّوق[٧] إلى البُورْجِي[٨]؛ ومن الشارع إلى

(١) الطارمة: بيت من خشب يبنى سقفه على هيئة قبة لجلوس السلطان. وهي لفظة فارسية الأصل، وتجمع على طارمات. (السلوك: ٧٧٥/٣/١، حاشية).

(٢) باب البريد: أحد الأبواب الأربعة التي لجامع دمشق، وهي: باب البريد، وباب جيرون ويسمى أيضاً باب الساعات، وباب الزيادة ويعرف أيضاً بباب الصرماياتية، وباب العمرة وكان معروفاً قديماً بباب الفراديس وباب الفاطميين. (عن حاشية حاشية السلوك: ٤٦٠/٢/١).

(٣) مغارة الدم: مغارة في لحف جبل قاسيون بدمشق. (انظر معجم البلدان).

(٤) مسجد التبن: وهو مسجد «تبر» باسم أحد الأمراء أيام كافور الإخشيدي. وتسميه العامة «مسجد التبن» خطأ. (خطط المقريزي: ٤١٣/٢) وهذا المسجد ما يزال قائماً إلى اليوم باسم زاوية الشيخ محمد التبري في وسط أرض زراعية تابعة لسراي القبة. (محمد رمزي).

(٥) أرض الطبالة. ــ راجع الجزء الخامس، ص ١٢، حاشية (٥).

(٦) باب المقسم: هو باب المقس، ويعرف بباب البحر. وكان واقعاً بقرية المقس التي يقال لها «المقسم» في نهاية السور الشمالي لمدينة القاهرة من الجهة الغربية؛ ويعرف اليوم بباب الحديد. (محمد رمزي).

(٧) اللُّوق: هو المكان الذي يعرف بباب اللوق المجاور لجامع الطباخ. (خطط المقريزي: ١١٧/٢) ومكانه اليوم مدخل شارع الصنافيري تجاه جامع الطباخ بميدان باب اللوق بقسم عابدين. (محمد رمزي).

(٨) راجع ص ١٦٩ من هذا الجزء، حاشية (٥).

الكَبْش[١] وحدرة آبن قُميْحة[٢] إلى تحت القلعة ومشْهد السيدة نفيسة رضي الله عنها إلى السُّور القَرَاقُوشِيّ[٣]. وكلّ ذلك من كثرة عدله وإنصافه للرعيّة والنَّظَرِ في أمورهم وإنصاف الضعيف من المستضعِف والذَّبِّ عنهم من العدوّ المخذول، رحمه الله وعفا عنه.

(١) راجع ص ١٦٧ من هذا الجزء، حاشية (٣).

(٢) حدرة ابن قميحة: كانت هذه الحدرة واقعة على الحافة الغربية من جبل يشكر في الجهة الجنوبية الغربية من قلعة الكبش. (محمد رمزي) وقد صحح الأستاذ محمد رمزي ما ورد في خطط المقريزي وخطط علي مبارك عن تحديد موقع هذه الحدرة، فليراجع في طبعة دار الكتب المصرية من النجوم: ١٩٧/٧، حاشية (١).

(٣) أي السور الذي بناه بهاء الدين قراقوش أيام الناصر صلاح الدين ــ راجع الجزء السادس، ص ٣٧٨، حاشية (٢).

ذِكْرُ ما كان ينوب دولتَه من الكُلَفِ

كانت عِدّة العساكر بالديار المصرية أيّام الملك الكامل محمد وولده الملك الصالح أيُّوب عشرة آلاف فارس، فضاعفها أربعة أضعاف؛ وكان أولئك الذين كانوا قبله العشرة آلاف مقتصدين في الملبوس والنفقات والعُدَد، وهؤلاء (أعني عسكر الظاهر الأربعين ألفاً)، كانوا بالضدّ من ذلك؛ وكانت كُلَفُ ما يلوذ بهم من إقطاعهم، وهؤلاء كُلَفُهم على الملك الظاهر؛ ولذلك تضاعفت الكُلَفُ في أيّامه. فإنّه كان يُصْرَف في كُلَف مطبخ أستاذه الملك الصالح أيُّوب أَلْفُ رطل لحم بالمصريّ خاصّةَ نفسه في كلّ يوم، والمصروف في مطبخ الملك الظاهر عشرةُ آلاف رطل كلّ يوم عنها وعن تَوابلها عشرون ألف درهم نُقْرَةً[1]، ويُصْرَف في خزانة الكسوة في كل يوم عشرون ألفَ درهم، ويُصْرَف في الكُلَف الطارئة المتعلِّقة بالرُّسل والوفود في كل يوم عشرون ألفَ درهم، ويُصْرَف في ثمن قُرْط دوابّه ودوابّ مَن يلوذُ به في كلّ سنة ثمانمائة ألف درهم، ويقوم بكُلَف الخيل والبغال والجِمال والحَمِير من العلوفات خمس عشرة ألفَ عليقة في اليوم، عنها ستمائة إردب؛ وما كان[2] يقوم به لمَنْ أوجب نفقتَه وألزمها عليه تُطْحَنُ وتُحْمَل إلى المخابز المُعَدَّة لعمل الجرايات خلا ما يصرف على أرباب الرواتب في كلّ شهر عشرون ألف إدرب[2]؛ وذلك بالديار المصريّة خاصة. وهذا خلاف الطوارىء التي كانت تَفِد عليه فما يُمْكِن

(١) راجع ص ١٥٧، حاشية (٣).

(٢) عبارة الروض الزاهر: «وعشرون ألف إردب غلّة، الذي يحتاجه لخاصه ومماليكه، في كل سنة برسم المخابز وعليق خيله مائة وعشرون ألف إردب». ــ وانظر تفصيل سائر النفقات في المصدر المذكور: ص ٨٠ ــ ٨٤.

حصرُها. وكُلَفُ أسفاره وتجديد السلاح في كلّ قليل؛ وما كان عليه من الجوامك[١] والجرايات لمماليكه ولأرباب الخِدَم؛ فكان ديوانه يفِي بذلك كلّه؛ ويحُمل لحاصله جملةٌ كبيرة في السنة من الذهب. وكان سبب ذلك أنه رَفَع أيدي الأقباط من غالب تعلقاته فافتقر أكثرُهم في أيّامه؛ وباشروا الصنائع كالنجارة والبناية؛ ولا زال أمرهم على ذلك حتى تراجع في أواخر الدولة الناصريّة محمد بن قلاوون. اِنتهت ترجمة الملك الظاهر بِيبَرْس، رحمه الله تعالى.

ونذكر بعض أحواله، إن شاء الله تعالى، في حوادث سنينه كما هو عادة هذا الكتاب على سبيل الاختصار. وقد أطلت في ترجمته وهو مستِحقّ لذلك، لأنّه فرع فاق أصله، كونَه كان من جملة مماليك الملك الصالح نجم الدين أيُّوب فزادت محاسنه عليه.

وأمّا مَنْ يأتي بعده فلا سبيل إليه. ويُعجبني في هذا المعنى المقالةُ الثانية عشرة من قول الشيخ الإمام العالم العارف الرَّبّانيّ شرف الدين عبد المؤمن بن هبة الله الأصفهانيّ المعروف بشَوْرْوَة[٢] رحمه الله في كتابه الذي في اللّغة وسمّاه «أطباق الذهب»[٣] يشتمل على مائة مقالة أحسن فيها غاية الإحسان، وهي:

«ليس الشريفُ مَنْ تطاول وتكاثر، إنّما الشريف مَنْ تَطَوّل وآثر؛ وليس المحسنُ من رَوَى القرآن، إنما المحسن مَنْ أَرْوَى الظمآن؛ وليس البِرُّ إبانةَ الحروف

(١) الجوامك والجامكيات: جمع جامكية. من الفارسية «جامه» بمعنى اللباس. ومعناها اللغوي: بدل ملابس. وهي في الاصطلاح الجراية الشهرية تعطى من غلة الوقف، فهي من ناحية أجر، ومن ناحية منحة. (تأصيل الدخيل: ٥٩) والجامكيات هي الرواتب عامة. (التعريف بمصطلحات الصبح: ٨٢). وعبارة الروض الزاهر: «المقرر لأرباب الرواتب وجامكيات المستخدمين بالباب والأعمال، وما ينفق في الفقراء مائة ألف دينار وسبعون ألف وعشرون ديناراً».

(٢) كذا في طبعة دار الكتب المصرية، وقد أثبته المحقق عن إحدى نسخ النجوم الزاهرة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب، وقال إنه ضبط بالقلم. وفي الأصل: «شفروة». وفي كشف الظنون والأعلام: «شقروة».

(٣) «أطباق الذهب» في المواعظ والخطب، على نسق «أطواق الذهب» للزمخشري. (كشف الظنون والأعلام).

بالإمالة والاشباع، لكنّ البِرِّ إغاثةُ الملهوف بالإنالة والاشباع؛ ولا خيرَ في زُكَأَة[١] لا يُسْدِي معروفاً، ولا بَركَة في لَبِنة[٢] لا تُروِي خَروفاً؛ فوا[ها][٣] لك، لمن تَدَّخِر أموالك! أَنْفِقْ أَلْفَك، قبل أن يُقسم خلْفَك؛ إنّ منازل الخَلْق سَواسِيَة، إلّا من له يَدٌ مُواسِية؛ فأرفعهم أنفعُهم، وأسودُهم أجودُهم، وأفضلُهم أبذلُهم؛ وخيرُ الناس مَنْ سَقَى مِلْوَاحاً[٤]، ونَصَب للجنّة مِلْوَاحاً[٥]؛ والكرم نوعان، أحسنهما إطعام الجَوْعَان؛ والحازمُ من قدّم الزاد لعَقَبةِ العُقْبَى، وآتى المالَ على حُبِّه ذَوِي القُرْبَى». اِنتهت المقالة. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

* * *

السنة الأولى من سلطنة السلطان الملك الظاهر بيبرس البُنْدُقداري

وهي سنة تسع وخمسين وستمائة، على أنّه حَكَم في آخر السنة الماضية نحو الشهر.

قلت: ودخلت سنة تسع وخمسين المذكورة وليس للمسلمين خليفة، وكان أوّلُها يوم الاثنين لأيّام خَلَوْن من كانون أحد شهور الروم؛ وكانون بالقِبْطِيّ كَيْهَك. فدخلت السنة والسلطان بديار مصر الملك الظاهر بِيبَرْس، وصاحب مكّة نجم الدين أبو نُمَيّ بن أبي سعد الحَسَنِيّ، وصاحب المدينة جَمّاز بن شِيحة الحُسَيْنِيّ، وصاحب دِمَشق وبَعْلَبَكّ وبَانْيَاس والصُّبَيْبَة الأمير علم الدين سَنْجَر الحَلَبِيّ، تغلَّب عليها وتسلطن وتلقّب بالملك المجاهد، ونائب حلب من قِبَل الملك الظاهر بِيبَرْس الأمير حسام الدين لاجِين الجُوكَنْدَار العَزِيزيّ، وصاحب المَوْصِل الملك الصالح

(١) الزُّكَأَة: من يكثر إعطاء الزكاة. على وزن: فُعَلَة، مثل هُمَزة لُمَزة.
(٢) اللَّبِنَة من الإبل: الغزيرة اللبن.
(٣) زيادة من طبعة دار الكتب عن أطباق الذهب.
(٤) الملواح: العطشان.
(٥) الملواح: البومة تخيّط عينها وتشدّ رجلها في صوفه سوداء تتخذ في مربأة ويطيّرها ساعة بعد ساعة، فإذا رآها الصقر والبازي سقط عليها فيأخذه الصائد (معجم متن اللغة) والمراد بالملواح هنا ما يقدّمه المرء من فعل الخير حتى يصل إلى الجنّة.

إسماعيل آبن الملك الرحيم لؤلؤ، وصاحب جزيرة آبن عمر أخوه الملك المجاهد سيف الدين إسحاق بن لؤلؤ المذكور، وصاحب مَارِدِين الملك السعيد نجم الدين إيلْغَازِي الأُرْتُقِيّ، وصاحب بلاد الروم ركن الـدين قليـج أُرْسلان آبن السلطان غِياث الدين كَيْخُسْرُو بن علاء الدين كَيْقُباد السَّلْجُوقِيّ وأخوه عِزّ الدين كَيْكاوُس، والبلاد بينهما مناصَفة، وصاحبُ الكَرَك والشُّوبَك الملك المغيث [فتح الدين عمر] آبن الملك العادل آبن الملك الكامل آبن الملك العادل بن أَيُّوب، وصاحبُ حماة الملك المنصور محمد الأَيُّوبـيّ، وصاحب حِمْص وتَدْمُر والرَّحْبَة الملك الأشرف مظفَّر الدين موسى، وصاحب مَرَّاكُش من بلاد المغرب أبو حفص عمر الملقَّب بالمُرْتَضَى، وصاحب تُونِس أبو عبد الله محمـد بن أبـي زكريّـا، وصاحب اليَمَن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر التُّركُمانِيّ من بني رَسُول.

وفيها كانت كَسْرة التَّتَار على حِمْص، وقد تقدّم ذكرُ ذلك.

وفيها مَلَك السلطان الملك الظاهر دِمَشْق وأخرج منها علم الدين سَنْجَـر الحَلَبِـيّ، ووَلَّى نيابتها الأمير عـلاء الدين أَيْدكِين البُنْـدُقدَارِيّ، أستاذ الملك الظاهـر بِيبَرْس هذا، الذي أخذه الملك الصالـح نجم الدين أَيُّوب منه، حسب ما ذكرنا ذلك أوّل ترجمة الملك الظاهر.

وفيها وصل الخليفة المستنصر بالله إلى القاهرة وبُويـع بالخلافة، وسافر صُحْبَة الملك الظاهر إلى الشام، ثم فارقه وتوجّه إلى العِراق فقُتل، وقد مَـرّ ذكرُ ذلك كلّه أيضاً.

وفيهـا تُوُفّي الملك الصـالـح نور الـدين إسماعيـل آبن الملك المجاهـد أسد الدين شِيرِكُوه بن محمد ابن أسد الدين شِيرِكُوه الكبير؛ كان الملك الصالـح هذا صاحب حِمْص مَلَكها بعد موت أبيه، وكان له آختصاص كبير بابن عمّه الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب والشام، وكان الصالـح هذا يُدارِي التَّتار ولا يشـاققهم وآخـر الأمـر أنـه قتـل في وقعـة هـولاكـو بيـد التَّـتـار ـ رحمه الله تعالى ـ لمّا توجّه إليهم صحبةَ الملك الناصر صلاح الدين يوسف المذكور، وكان عنده حَزْمٌ وشجاعة.

وفيها تُوُفِّي الشيخ الأديب الفقيه مُخْلِص الدين إسماعيل بن عمر [بن يوسف][١] بن قُرْناص الحَمَويّ الشاعر المشهور؛ كان فصيحاً شاعراً من بيت علم وأدب. ومن شعره رحمه الله تعالى: [الوافر]

أَمَا واللهِ لو شُقَّتْ قلوبٌ ... لِيُعْلَم ما بها من فَرْط حُبِّي
لأرضاك الذي لك في فؤادي ... وأرضاني رضاك بشَقِّ قَلْبي

وفيها تُوفِّي الملك السعيد إيلْغَازِي نجم الدين الأرْتُقِي صاحب مارِدِين؛ مات في سادس صفر، وقيل في ذي الحجّة سنة ثمانٍ وخمسين.

وفيها تُوُفِّي الشيخ الإمام الواعظ المحدِّث أبو عمرو عثمان بن مَكِّي بن عثمان السَّعْدِيّ الشَّارِعِيّ الشَّافِعِيّ؛ سَمِع الكثير وآعتنى به والده فأسمعه من نفسه وغيره، وكان يُنْشِد لأبي العَتَاهِيَة: [مجزوء الكامل]

إصْبِرْ لدَهرٍ نالَ مِنْـ ... ـكَ، فهكذا مَضَتِ الدُّهورُ
فَرَحٌ وحُزْنٌ مَرّةً ... لا الحزنُ دام ولا السُّرُورُ

وفيها تُوُفِّي الأديب الفاضل نور الدين أبو الحسن عليّ بن يوسف بن أبي المكارم عبد الله الأنصارِيّ المِصْرِيّ المعروف بالعَطّار؛ كان شاعراً فاضلاً؛ مات قبل الأربعين سنة من عُمره. ومن شعره مُلْغِزاً في كُوز الزِّير: [الهزج]

وذي أذْنٍ بلا سَمْعٍ ... له قلبٌ بلا لُبِّ
مَدَى الأيّام في خَفْضٍ ... وفي رَفْعٍ وفي نَصْبِ
إذا آستولى على الحُبِّ ... فقل ما شئتَ في الصَّبِّ

وفيها كانت مقتلة السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف، وكُنْيتُه أبو المظفَّر، آبن السلطان الملك العزيز محمد آبن السلطان الملك الظاهر غازِي آبن السلطان صلاح الدين يوسف آبن الأمير نجم الدين أَيُّوب الأَيُّوبيّ الحَلَبِيّ، وكان صاحب حلب ثم صاحب الشام. وُلد بقلعة حلب في شهر رمضان سنة سبع

---

(١) زيادة عن السلوك.

وعشرين وستمائة، وسلطنوه عند موت أبيه سنة أربع وثلاثين، وقام بتدبير مملكته الأمير شمس الدين لؤلؤ الأمِيني، وعز الدين ابن المحلي، والوزير الأكرم جمال الدين القِفْطيّ، والطواشي جمال الدولة إقبال الخاتونيّ، والأمر كلُّه راجع لأمّ [أبيه][1] الصاحبة صفيّة خاتون بنت الملك العادل أبي بكر بن أيُّوب. وماتت سنة أربعين واستقلّ الملك الناصر هذا وأَمَرَ ونَهى. ووقَع للملك الناصر هذا أمور ووقائع ومِحَنٌ، وهو الذي كان الملك الظاهر بيبرس لمّا خرج من مصر في نَوْبة البحريّة توجّه إليه وصار في خدمته. وقد مرّ ذكرُه في مواطن كثيرة من هذا الكتاب، من قدومه نحو القاهرة في جَفْلة التَّتار، ورجوعِه من قَطْية إلى البلاد الشاميّة، وغير ذلك، ثم آلَ أمره إلى أن توجّه إلى ملك التّتار هولاكو وتوَجّه معه أخوه الملك الظاهر سيف الدين غازي، وكان رُشِّح للمُلْك، والملك الصالح نور الدين إسماعيل صاحب حِمْص المقدّم ذكره في هذه السنة؛ ولمّا وصل الملك الناصر إلى هولاكو أحسن إليه وأكرمه إلى أن بَلَغه كَسْرةُ عَيْن جالوت غَضِب عليه وأمر بقتله، فآعتذر إليه فأَمْسك عن قتله، لكن أعرض عنه، فلمّا بلغه كَسْرة بيدرا على حِمْص قَتَله وقَتَل أخاه سيف الدين غازياً المذكور، وقَتَل الملك الصالح نور الدين صاحب حِمْص وجميعَ من كان معه سوى ولده الملك العزيز. وكان الملك الناصر مَلِيحَ الشكل إلاّ أنّه كان أحول؛ وكان عنده فصاحةٌ ومعرفةٌ بالأدب، وكان كريماً عاقلاً فاضلاً جليلاً متجمِّلاً في مماليكه ومَلْبَسه ومَرْكَبه، وكان فصيحاً شاعراً لطيفاً. قال آبن العَدِيم: أنشدَنِيّ لنفسه. (يعني الملك الناصر هذا). [الكامل]

البدرُ يَجْنَحُ للغروب ومُهْجَتِي ... لفِراقِ مُشبِهِهِ أَسىً تتقطَّعُ
والشَّرْبُ قد خاط النعاسُ جفونَهُمْ ... والصبحُ من جِلْبابِه يَتَطَلَّعُ

قال: وأنشدني لنفسه رحمه الله تعالى: [مجزوء الرجز]

اليومُ يومُ الأربِعا ... فيه يطيب المُرْتَعَى
يا صاحبي أما ترى ... شمل المُنَى قد جُمِّعَا

(١) زيادة عن شذرات الذهب.

وقـد حَـوَى مجلسُـنـا جُـلَّ السـرور أجمعَـا
فـقُـمْ بـنـا نشـربـهـا ثـلاثـةً وأربـعَـا
من كـفّ سـاقٍ أهـيـفٍ شَـبِـيـهِ بـدرٍ طَـلَعَـا
فـي خـدِّه وثَـغْـرِهِ وَرْدٌ وَدُرٌّ صُـنِـعَـا
يَـسْـطُو ويَـرْنـو تـارةً والـليـثُ والـظبـيُ مـعـا

وله، لمّا مرّت به التّتار على حلب وهي خاويةٌ على عُروشها وقد تهدّمت والنِّيران بها تَعْمَل، فقال: [الطويل]

يَعزُّ علينا أن نَـرَى رَبْعَكُمْ يَبْلَى وكـانت بـه آيـاتُ حُسنِكُمْ تُتْلَى

وله يَشْتَاق إلى حلب ومنازلها: [الطويل]

سَقَى حَلَبَ الشَّهْباءَ في كل لَزْبَةٍ سحابة غيثٍ نَـوْءُهـا ليس يُقْلِـعُ
فتلك دياري لا العقيقُ ولا الغَضا وتـلك ربـوعي لا زَرُودُ ولَـعْلَـعُ

قلت: وقد ذكرنا من محاسنه وفضله نُبْذةً كبيرةً في تاريخنا «المنهل الصافي، والمُسْتَوْفَى بعد الوافي» إذ هو كتاب تراجم يحسُن التطويل فيه. اِنتهى.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي الجمال عثمان بن مَكّي ابن السَّعْدِيّ الشارِعيّ الواعظ في شهر ربيع الآخر، وله خمس وسبعون سنة. وأبو الحسن محمد بن الأنجب بن أبي عبد الله الصوفي في رجب، وله ثلاث وثمانون سنة. وحافظ المَغْرِب أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن سيِّد الناس اليَعْمُرِيّ بتُونِس في رجب، وله واحد وستون عاماً. وكمال الدين أبو حامد محمد آبن القاضي صدر الدين عبد الملك بن عيسى بن دِرْبَاس الصدر العَدْل في شوّال، وله آثنتان وثمانون سنة. وصاحب الشام الملك الناصر ويوسف ابن العزيز قُتِل صَبْراً، وله آثنتان وثلاثون سنة، وقُتِل معه شقيقُه الملك الظاهر غازي، والملك الصالح إسماعيل آبن الملك المجاهد أسد الدين شِيرِكُوه صاحب حِمْص. وتُوُفي بصِهْيَوْن صاحبها مظفَّر الدين عثمان بن مَنْكُورس في شهر ربيع الأوّل عن سِنٍّ عالية؛ تملّك بعد أبيه ثلاثاً وثلاثين سنة، وولي بعد آبنه محمد.

أمر النيل في هذه السنة:
الماء القديم خمس أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وثلاث عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك الظاهر بِيبَرْس على مصر

وهي سنة ستين وستمائة.

فيها آستولى الملك الظاهر بِيبَرْس صاحب الترجمة على دِمَشْق وبَعْلَبَكّ والصُّبَيْبَة وحلب وأعمالها خلا الْبِيرَة.

وفيها آستولى التَّتار على الموصل، وقتلوا الملك الصالح صاحبها الذي كان خرج مع الخليفة المستنصر من ديار مصر؛ على ما يأتي ذكرُهما في محلّه من هذه السنة.

وفيها تُوُفِّيَ الخليفة أمير المؤمنين المستنصر بالله أبو القاسم أحمد آبن الخليفة الظاهر بأمر الله محمد آبن الناصر لدين الله أحمد، الذي بُويِع بالقاهرة بالخلافة بعد شُغُور الخلافة نحو سنتين ونصف، وخرج الملك الظاهر بِيبَرْس معه إلى البلاد الشاميّة؛ وقد مرّ ذكر قدومه القاهرة وبَيْعَتِه وسَفَرِه وقتلِه ورَفْعِ نسبه إلى العبّاس رضي الله عنه في ترجمة الملك الظاهر هذا، ولا حاجة للإعادة؛ ومَنْ أراد ذلك فلينظره هناك.

وفيها قُتِل الملك الصالح إسماعيل آبن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل. وقد ذكرنا وُفُودَه على الملك وخروجَه مع أخيه والخليفة المستنصر بالله المقدّم ذكره، فلا حاجة لذكره هنا ثانياً؛ قُتِل بأيدي التَّتار في ذي القعدة، وكان عارفاً عادلاً حسن السِّيرة.

وفيها تُوفّي الأمير سيف الدين بَلَبَان الزردكاش؛ كان من أعيان أمراء دِمَشْق، وكان الأمير طَيْبَرْس الوزيري نائبُ الشام إذا خرج من الشام آستنابه عليها، وكان دَيِّناً خيِّراً. مات بدمشق في ذي الحجّة.

وفيها تُوُفّي الحسن بن محمد بن أحمد بن نجا الشيخ الأديب أبو محمد الغَنَوِيّ النَّصِيبِيّ الشافِعِيّ الإِرْبِلِيّ المَنْشأ الضَّرير الملقَّب بالعِزّ. قال صاحب الذَّيْل على مرآة الزمان: المشهور بعدم الدِّين والزَّنْدَقة. كان فاضلاً في العربيّة والنحو والأدب وعلوم الأوائل، منقطِعاً في منزله يتردّد إليه مَنْ يقرأ عليه تلك العلوم، وكان يتردّد إليه جماعةٌ من المسلمين واليهود والنصارى والسامرة يُقرىء الجميع؛ قال: وكان يَصْدُر عنه من الأقوال ما يُشعِر بآنحلال عقيدته. ومات في شهر ربيع الآخر بدِمَشْق. ومن شعره قوله:

تَـوَهَّـم واشينـا بليـلٍ مـزَارَهُ فهمَّ ليسعى بيننـا بـالتبـاعُـدِ
فعـانقتُـه حتّى اتحـدْنـا تعـانُقاً [فلمّا][1] أتانا ما رأى غيرَ واحدِ

قال الشهاب[2] محمود: ولمّا أنشدتُ هذين البيتين، يعني قول العِزّ:

تـوهـم واشـينـا بـليـلٍ مـزارَهُ

بين يدي الملك الناصر صلاح الدين صاحب دِمَشْق قال: لا تَلُمْـهُ فإنّه لزمه لزومَ أَعْمَى[3]؛ فلمّا بلـغ العِزَّ قولُ الملك الناصر؛ قال: والله هذا الكلام أحْلى من شِعْرِي.

وفيهـا تُوفّي الشيـخ الإمـام العلاّمـة شيـخ الإسلام عِـزّ الدين أبـو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بـن أبي القاسم بن الحسن بن محمد بـن المُهَذّب السلمي الدِّمَشْقِيّ الشافِعِيّ المعروف بآبن عبد السلام. مولده سنة سبـع أو ثمانٍ وسبعين وخمسمائة. قال الذهبيّ: وتفقّه على الإمام فخر الدين آبن عساكر، وقرأ الأصول والعربيّة، ودرّس وأفتى وصنّف وبَرع في المذهب وبلـغ رتبة الاجتهاد، وقصَده الطلبة من الآفاق وتخرّج به أئمةٌ؛ وله التصانيف المفيدة والفتاوى السديدةُ، وكان

(١) زيادة عن الشذرات وفوات الوفيات.
(٢) هو شهاب الدين محمود الحلبي المتوفى سنة ٧٢٥هـ، صاحب كتاب «حسن التوسّل إلى صناعة الترسّل».
(٣) في شذرات الذهب وفوات الوفيات: «قال قاضي القضاة كمال الدين ابن العديم، لما سمع هذين البيتين: مسكه مسكةَ أعمى» قال ابن شاكر الكتبي في الفوات: «وهذا المعنى تداوله الشعراء ولهجوا به». وروى عدة أبيات لعدد من الشعراء بهذا المعنى. (فوات: ١/٣٦٤).

إماماً ناسكاً عابداً، وتولّى قضاء مصر القديمة مدّة، ودرّس بعدّة بلاد. ومات في عاشر جُمادى الأولى.

وفيها تُوُفِّي الشيخ الإمام الواعظ عزّ الدين أبو محمد عبد العزيز آبن الشيخ الإمام العلّامة أبي المظفر شمس الدين يوسف بن قَزَأوْغلي الدمشقِيّ الحنفيّ؛ وهو آبن صاحب مرآة الزمان. كان عزّ الدين فقيهاً واعظاً فصيحاً مفْتَنّاً درّس بعد أبيه في المدرسة المُعِزِّية ووعَظ وكان لوعظه موقعٌ في القلوب؛ وكانت وفاته بدِمشَق في شوّال ودُفِن عند أبيه بسفح قاسِيون.

وفيها تُوفّي الإمام العلّامة كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زُهَيْر بن هارون بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن محمد بن أبي جَرَادةَ عامر بن ربيعة بن خُوَيْلِد بن عَوْف بن عامر بن عُقَيْل العُقَيْلِيّ الحلبي الفقيه الحنفي الكاتب المعروف بآبن العَدِيم؛ ورفَع نسبه بعضُ المؤرّخين إلى غَيْلَان. مولده بحلب في العشر الأوّل من ذي الحجّة سنة ستّ وثمانين وخمسمائة، وسمِع الحديث من أبيه وعمّه أبي غانم محمد ومن غيرهما، وحدّث بالكثير في بلاد متعدّدة، ودرّس وأفتى وصنّف؛ وكان إماماً عالماً فاضلاً مُفْتَناً في علوم كثيرة، وهو أحد الرؤساء المشهورين والعلماء المذكورين. وأمّا خَطُّه ففي غاية الحسن يُضاهي آبن البوّاب[1] الكاتب؛ وقيل: إنّه هو الذي آخترع قلم الحواشي، وعرّض بهذا في شعره القَيْسَرانِيّ رحمه الله تعالى بقوله: [الوافر]

بوجهِ معذِّبي آياتُ حسنٍ ... فقل ما شئتَ فيه ولا تُحاشِي
ونسخةُ حسنِه قُرِئت وصحّت ... وها خَطُّ الكمال على الحواشِي

وجمَع لحلب تاريخاً[2] كبيراً في غاية الحسن، ومات وبعضه مسوّدة.

قلت: وذيّل عليه القاضي علاء الدين عليّ آبن خطيب الناصريّة قاضي قضاة

---

(١) هو علي بن هلال، أبو الحسن المعروف بابن البوّاب. خطاط مشهور من أهل بغداد. توفي سنة ٤٢٣هـ. هذّب طريقة ابن مقلة وكساها رونقاً وبهجة. (الأعلام: ٥/٣١).

(٢) هو كتابه المسمى «زبدة الحلب من تاريخ حلب».

الشافعية بحلب ذيلاً[١] إلّا أنّه قصيرٌ إلى الرُّكْبة، وقفتُ عليه فلم أجده جال حول الحمى، ولا سلك فيه مَسْلك المُذَيَّل عليه من الشروط، إلّا أنّه أخذ علم التاريخ بقوّة الفقه، على أنّه كان من الفضلاء العلماء ولكنّه ليس من خيل هذا المَيْدان، وكان يقال في الأمثال: مَن مُدِح بما ليس فيه فقد تعرّض للضُّحْكة. اِنتهى.

ومحاسن ٱبن العَدِيم كثيرة وعلومه غَزيرة، وهم بيت علم ورِياسة وعَرَاقة. يأتي ذكر جماعة من ذرّيّته وأقاربه في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى. ومن شعر الصاحب كمال الدين المذكور ممّا كتبه على ديوان الشيخ أَيْدَمُر[٢] مولى وزير الجزيرة، وهو: [الطويل]

وكنتُ أظنُّ التُّـرْكَ تختصّ أعينٌ ... لهم إن رَنَتْ بالسِّحر منها وأجفانُ
إلى أن أتاني من بديع قريضِهم ... قوافٍ هي السحرُ الحلالُ وديوانُ
فأيقنتُ أنّ السحر راجعة[٣] لهم ... يُقِرُّ لهم هاروتُ فيها وسَحْبَانُ

ومن شعره أيضاً رحمه الله وأجاد فيه إلى الغاية: [الطويل]

فواعجبا من رِيقها وهو طاهرٌ ... حلالٌ وقد أمسى عليّ مُحَرَما
هو الخمر لكنْ أين للخمر طَعْمُه ... ولذّتُه مع أنني لم أذُقهما

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال. وفيها تُوُفّي العلاّمة عِزّ الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلميّ الدِّمَشْقِي بالقاهرة في جُمادى الأولى عن ثلاثٍ وثمانين سنة. والصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن العَدِيم العُقَيْليّ بعد ابن عبد السلام بأيام، وكان له ٱثنتان وسبعون سنة. ونقيب الأشراف بهاء الدين

(١) هو «المنتخب في تاريخ حلب».
(٢) هو علم الدين المحيوي، أيدمر بن عبد الله التركي. شاعر له قصائد وموشحات جيدة السبك. تركي الأصل، من الموالي، أعتقه بمصر محيي الدين محمد بن محمد بن ندى فنسب إليه. توفي سنة ٦٧٤هـ (الأعلام: ٢/٣٤).
(٣) في طبعة دار الكتب المصرية، عن عيون التواريخ وتاريخ الدول والملوك:
فأيقنت أن السحر أجمعه لهم ... يقرّ لهم هاروت فيه وسحبان

عليّ بن محمد بن إبراهيم بن أبـي الحسن[(١)] الحُسَيْنِيّ في رجب عن إحدى وثمانين سنة. وضياء الدين عِيسى بن سليمان التَّغْلَبِـيّ في رمضـان، وله تسعـون سنة. وآستُشْهِد في المصافّ المستنصرُ بالله أحمد آبن الظاهر محمد آبن الناصر في أوائل المحرّم بالعراق، وتفرّق جمعه. وقَتَلت التَّتَارُ في ذي القعـدة الملك الصالـح ركنَ الدين إسماعيل بن لؤلؤ صاحب المَوْصِل بعد الأمان. وفي شهر ربيـع الآخر العِزّ الضرير الفيلسوف حسن بـن محمد بن أحمد الإربِلي، وله أربـع وسبعون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وسبـع أصابـع. مبلـغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً سواء.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة السلطان الملك الظاهر بِيبرس على مصر

وهي سنة إحدى وستين وستمائة.

فيها بايـع السلطان الملك الظاهر بِيبْرس المذكور الخليفةَ الحاكم بأمر الله أبا العباس أحمد آبن الأمير أبـي عليّ الحسن؛ وقيل: آبن محمد بن الحسن بن عليّ القُبِّـي آبن الخليفة الراشد، وهو التاسع والثلاثون من خلفاء بني العبّاس، وهو أوّل خليفة من بني العبّاس سكن بمصر ومات بها؛ وبُويِـع يوم الخميس تاسع المحرّم من سنة إحدى وستين وستمائة، وكان وصوله إلى الديار المصريّة في السنة الحاليّة.

وفيها هلك رِيدَا فرنس، وآسمه بواش[(٢)] المعروف بالفرنْسِيس ملك الفرنـج الذي كان مَلَك دِمْياط في دولة الملك الصالـح أَيُّوب.

وفيها تُوفّي المحدّث الفاضل عِزّ الدين أبو محمد عبد الرّزاق [بن رزق الله][(٣)] ابن أبـي بكر بن خلف الرَّسْعَنِيّ؛ كان إماماً فاضلاً شاعراً محدّثاً. ومن شعره:

---

(١) في الشذرات: «ابن أبـي الجنّ».

(٢) كذا؟ والمعروف أن اسمه لويس بن لويس.

(٣) زيادة عن السلوك والشذرات.

ولـو أنّ إنسانـاً يُبَلِّـغ لَـوْعتِي وشوقِي وأشجاني إلى ذلك الرَّشا
لأسكنتُـه عيني ولم أرضَهـا لـه فلولا لَهيب القلب أسكنتُه الحَشَا

وفيها تُوُفِّي الأمير مجير الدين أبو الهَيْجاء بن عيسى الأزْكُشِيّ الكُرْدِيّ الأُمَوِيّ؛ كان من أعيان الأمراء وشُجْعَانهم، ولمّا ولِـي الملك المظفَّر قُطُزْ السلطنة، وولّى الأمير علم الدين سَنْجَر الحلبـيّ نيابَة الشام جعَله مشارِكاً له في الرأي والتدبير في نيابة الشام؛ وكان الملك الأشرف موسى ابن العادل سجنه مدّةً لأمر آقتضى ذلك. فلمّا كان في السجن كتب بعض الأدباء يقول: [دوبيت]

يـا أحمدُ مـا زِلت عمـادَ الـدين يا أشجـعَ مَن أمسك رمحاً بيمين
لا تَيْئَسَن إن حصلت في سجنهم ها يوسفُ قد أقام في السجن سنين

وكان مولده بمصر في سنة ثمانٍ وستين وخمسمائة؛ ومات في جمادى الأولى بمدينة إرْبِل.

الذين ذكر الذهبـيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي عبد الغني بن سليمان بـن بَنِين البنانيّ[1] في شهر ربيـع الأوّل، وله ستّ وثمانون سنة، وهو آخر من روَى عن عمـر[2]. والعلاّمة علم الدين القاسم بن أحمد الأَنْدَلُسي في رجب بدمشق، وله ستّ وثمانون سنة. والإمام تقيّ الدين أبو القاسم عبد الـرحمن بن مُرْهَف النَّاشِريّ المصريّ المقرىء في شعبان، وله إحدى وثمانون سنة. والإمام كمال الدين عليّ بن شجاع بـن سالم العبّاسيّ الضّرير في ذي الحجّة، وله تسعون سنة إلّا شهراً.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وسبـع أصابـع. مبلـغ الزيادة سبـع عشرة ذراعاً وثلاث عشرة إصبعاً.

* * *

(١) في الشذرات: «القباني».

(٢) في الشذرات: «وسمـع من عشير الجبل فكان آخر أصحابه».

السنة الرابعة من سلطنة السلطان الملك الظاهر بيبرس على مصر

وهي سنة اثنتين وستين وستمائة.

فيها آنتهت عمارة مدرسة السلطان الملك الظاهر بيبَرْس ببين القصرين من القاهرة. وقد تقدّم ذكرها في ترجمته.

وفيها آستَدْعَى الملك الظاهر الأمير علاء الدين أَيْدكِين البُنْدُقْدَارِيّ إلى القاهرة؛ وأَمَره أن يجعل نائبه بحلب بعد خروجه الأمير نور الدين عليّ بن مُجَلِّي ففعل ذلك، وقدِم القاهرة؛ فلمّا وصل إليها عزله وأقام نور الدين عِوَضه في نيابة حلب. وقد تقدّم أنّ علاء الدين أيدكِين هو أستاذ الملك الظاهر بِيبَرْس الذي آشتراه منه الملك الصالح نجم الدين أيّوب.

وفيها كان الغلاء بديار مصر فبلَغ الإردبُّ القمح مائة درهم وخمسة دراهم نُقْرةً، والشَّعِير سبعين دِرهماً الإردبّ، وثلاثة أرطال خبز بالمصريّ بدرهم نُقْرة، ورطل اللحم بالمصري ــ وهو مائة وأربعة وأربعون درهماً ــ بدرهم؛ وكان هذا الغلاء عظيماً بديار مصر. فلمّا وقَع ذلك فرّق الملك الظاهرُ الفقراءَ على الأغنياء والأمراء وألزمهم بإطعامهم، ثم فرّق من شُوَنه القمح على الزوايا والأربطة، ورتّب للفقراء كلّ يوم مائة إردبّ مخبوزة تُفَرّق بجامع آبن طولون. ودام على ذلك إلى أن دخلت السنة الجديدة والمُغَلّ الجديد؛ وأُبِيع القمح في الإسكندريّة في هذا الغلاء الإردبّ بثلاثمائة وعشرين درهماً[1].

وفيها أُحْضِر بين يدي السلطان طفلٌ ميّت له رأسان وأربع أعين وأربع أيد وأربع أَرْجُل، فأمر بدفنه.

وفيها تُوفّي القاضي كمال الدين أبو العبّاس[2] أحمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الأسديّ الحلبيّ الشافعيّ المعروف بآبن الأستاذ قاضي حلب، مولده

(١) قارن بما جاء في السلوك: ٥٠٧/٢/١ عن هذا الغلاء، وفيه تفاصيل وافية.

(٢) في السلوك: «أبو بكر».

سنة إحدى عشرة وستمائة؛ سَمِـع الكثير وحدّث ودرّس، وكان فاضلاً عالماً مشكور السِّيرة مات في شوّال.

وفيها تُوفّي شيخ الشيوخ الصاحب شرف الدين عبد العزيـز بن محمد بن عبد المحسن بن منصور الأنصاريّ الأوسيّ الدمشقيّ المولد الحَمَوِيّ الدار والوفاة الإمام الأديب العلّامة؛ مولده يوم الأربعاء ثاني عشرين جمادى الأولى سنة ستّ وثمانين وخمسمائة؛ وسمِـع الحديث وتفقّه وبَرَع في الفقه والحديث والأدب، وأفتى ودرّس وتقدّم عند الملوك، وترسّل عنهم غيرَ مرّة. وكانت له الوَجاهة التامّة وله اليد الطُّولَى في الترسُّل والنظم، وشعره في غاية الحسن. ومن شعره ـ رحمه الله ـ قوله: [الخفيف]

إنّ قوماً يَلْحَوْنَ في حُبّ سُعْدَى ... لا يكـادون يفقهـون حـديثـا
سَمِعـوا وصفهـا ولامـوا عليهـا ... أخـذوا طيبـاً وأعـطَوْا خبيثـا

وله رحمه الله: [السريـع]

قلتُ وقـد عَقْـرب صُـدْغـاً لـه ... عن شِقـة الحـاجب لم يُحْجَبِ
قُـدّستَ يـا رب الجمـالِ الـذي ... ألّـف بيـن النـون والـعـقـربِ

وله عفا الله عنه: [المتقارب]

مـرِضـتُ ولـي جِيـرةٌ كـلُّهـمْ ... عن الرُّشـد في صحبتي حـائـدُ
فأصبحتُ في النقص مثلَ «الذي» ... ولا صِـلَـةٌ لـي ولا عـائـدُ

وله غفر الله له: [الكامل]

ولقـد عجِبتُ لعـاذلي في حُبِّـه ... لمّـا دجَى ليـلُ العِـذار المُـظْلِم
أَوَمَـا دَرَى من سُنّتي وطـريقتي ... أنّي أميـل مـع السـواد الأعـظمِ

قلتُ: وقد آستوعبنا ترجمة شيـخ الشيوخ بأوسع من ذلك في تاريخنا «المنهل الصافي» وذكرنا من محاسنه وشعره نبذةً كبيرة؛ وكانت وفاته ليلة الجمعة ثامن شهر رمضان بحَماة رحمه الله تعالى.

وفيها تُوفّي الملك المُغِيث فتح الدين أبو الفتح عمر صاحب الكَرَك آبن السلطان الملك العادل أبي بكر محمد آبن السلطان الملك الكامل محمد آبن الملك العادل أبي بكر محمد آبن الأمير نجم الدين أيّوب الأيوبيّ المصريّ ثم الكَرَكِيّ. وقد ذكرنا من أمره نبذة كبيرة في ترجمة عمّه الملك الصالح ثم من بعده في عدّة تراجم لا سيما لمّا توجّه إليه الملك الظاهر بِيبَرْس مع جماعة البحريّة، وأقام عنده وحرّكه على مُلك مصر حسب ما تقدّم ذكر ذلك كلّه. اِنتهى.

قلتُ: ومولد الملك المغيث هذا بالديار المصريّة ورُبّي يتيماً عند عمّاته القُطْبِيّات بنات الملك العادل (والقطبيات عُرِفْن بالقطبيات لأنهنّ أشقّاء الملك المفضّل قطب الدين آبن الملك العادل) وبقي المغيث هذا عندهّن إلى أن أُخْرِج إلى الكَرَك وآعتقِل بها ثم مَلَكها بعد موت عمّه الملك الصالح نجم الدين أيّوب، ووقع له بها أمور، إلى أن قدِم في العام الماضي على الملك الظاهر بِيبَرْس بمصر، فقبَض عليه وقتله في محبسه، رحمه الله تعالى، لِمَا كان في نفسه منه أيام كان بخدمته في الكَرَك مع البحريّة.

وفيها تُوفِّي الأمير حُسام الدين لاجين بن عبدالله العزيزيّ [الجُوكَنْدَار][1]؛ كان من أكابر الأمراء وأعظمهم، وكان شجاعاً جَوَاداً ديناً له اليد البيضاء في غزو التّتار؛ وكان يجمع الفقراءَ ويصنَع لهم الأوقات[2] والسماعات، وكان كبيرَ القَدْر عظيم الشأن، رحمه الله تعالى.

وفيها تُوفّي الشيخ محيي الدين أبو بكر محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحسين بن سُراقة الأنصاريّ الأندلسيّ الشاطبّي؛ كان فاضلاً محدّثاً؛ سمِع الكثير ووِلِي مشيخة دار الحديث بحلب، ثم ولِيَ مشيخة الحديث بمصر بالمدرسة الكامليّة وحدّث بها. ومن شعره، رحمه الله تعالى: [مخلّع البسيط]

وصاحبٍ كالزُّلال يمحو صفاؤه الشكَّ باليقين
لم يُحْصِ إلّا الجميلَ منّي كأنّه كاتبُ اليمين

---

(١) زيادة عن السلوك.
(٢) عبارة شذرات الذهب: «يجمعهم على السماعات والسماطات التي يضرب بها المثل».

قلت: وهذا بعكس قول الأديب شهاب الدين المَنَازيّ[١]، رحمه الله تعالى: [مخلّع البسيط]

وصاحبٍ خلته خليلاً ... وما جرى غَدْرُه ببالي
لم يُحصِ إلّا القبيحَ منّي ... كأنّه كاتبُ الشمال

وفيها تُوُفِّي الملك الأشرف مظفّر الدين موسى آبن الملك المنصور إبراهيم ابن الملك المجاهد أسد الدين شِيرِكُوه بن محمد آبن الملك المنصور أسد الدين شِيرِكُوه الكبير، ملَك الأشرفُ هذا حِمْص بعد وفاة أبيه، وطالت مدّته به ووقع له أمور؛ وكان فيه مداراةٌ للتتار، وآستمرّ على ذلك إلى أن تُوفي بحِمْص في حادي عشر صفر قبل صلاة الجمعة، ودُفِن ليلاً على جَدّه الملك المجاهد أسد الدين شِيرِكوه.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي المحدّث ضياء الدين عليّ بن محمد البالِسِيّ في صفر، وله سبع وخمسون سنة. وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأنصاريّ البَابْشَرْقِيّ في شهر ربيع الأوّل. والحافظ رشيد الدين أبو الحسين يحيى بن عليّ الأُمَويّ العطّار المالكيّ في جمادى الأولى، وله ثمانٍ وسبعون سنة. وأبو الطاهر إسماعيل بن صارم[٢] الخياط بعده بأيام. والخطيب عِماد الدين عبد الكريم [آبن جمال الدين أبي القاسم عبد الصمد][٣] بن محمد الأنصاريّ بن الحَرَسْتَانيّ في جمادى الأولى. والوَرِع الزاهد أبو القاسم بن منصور في شعبان. والإمام محيي الدين أبو بكر محمد بن محمد بن سُراقة الشاطبيّ بمصر، وله سبعون سنة. وشيخ الشيوخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصاريّ بحَمَاة في رمضان. والملك المغيث فتح الدين عمر ابن العادل أبي بكر ابن الكامل محمد صاحب الكَرَك، أعدمه الملك الظاهر. والأمير الكبير حسام الدين لاجين الجُوكَنْدار العزيزيّ في المحرّم، ودفن بقاسِيون. وصاحب

(١) المنازي: نسبة إلى منازجرد من بلاد أرمينية. وهو أبو نصر أحمد بن يوسف المنازي المتوفى سنة ٤٣٧هـ. (الأعلام: ١/٢٧٣)

(٢) في الشذرات: «إسماعيل بن سالم».

(٣) زيادة عن الشذرات والسلوك.

حِمْص الملك الأشرف موسى آبن المنصور إبراهيم بن أسـد الدين بِحمص في صفر، وله خمس وثلاثون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربـع أذرع وأربـع عشرة إصبعاً. مبلـغ الزيادة سبـع عشرة ذراعاً وآثنتا عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الخامسة من سلطنة الملك الظاهر بِيبَرْس على مصر

وهي سنة ثلاث وستين وستمائة.

فيها وَلّى الملكُ الظاهرُ بِيبرس من كلّ مذهب قاضياً وقد تقدّم ذكر ذلك.

وفيها تُوُفّي الأديب البارع شرف الدين محاسن الصُّوريّ، كان عالماً فاضلاً أديباً شاعراً، ومات في شهر رجب. ومن شعره، رحمه الله: [الكامل]

عَتَبْتْ عليّ فقلتُ إن عـاتبتُـهـا ... كـان العتابُ لـوصلها آستهـلاكـا

وأردتُ أن تبقى المـودّةُ بيـنـنـا ... مـوقـوفـةً فتـركتُ ذاك لـذاك

وفيها تُوُفّي الأمير جمال الدين موسى بن يَغْمُور بن جلدك بن بلُيمان[١] بن عبد الله أبو الفتح، مولده في جُمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وخمسمائة بالقُوب[٢] من أعمال قُوص بصعيد مصر وسمِـع الحديث، وتنقّل في الولايات الجليلة مثل نيابة السلطنة بالقاهرة ونيابة دِمَشق؛ ولم يكن في الأمراء من يضاهيه في منزلته وشجاعته وقُرْبه من الملوك؛ وكان أميراً جليلاً خبيراً حازماً سَيُوساً مدبِّراً جَوَاداً ممدَّحاً؛ وكان الملك الظاهر إذا عَمل مشورة وتكلّم جمـعُ خُشْداشِيته من الأمراء فلا يصغي إلّا إلى قول آبن يَغْمور هذا ويفعل ما أشار به عليه. وكانت وفاته في مستهل شعبان بالقُصَيْر من أعمال الفاقوسيّة بين الغَرابـي والصالحيّة. ومن شعره قوله: [دوبيت]

---

(١) في عقد الجمان: «موسى بن يغمر بن جلدك بن بلهان بن عبد الله».

(٢) في عقد الجمان: «مولده بالغزية قرية بالقرب من سمهود من أعمال قوص». وفي تعليقات محمد رمزي على النجوم أن القوب أو قرية ابن يغمور هي من قرى سمهود من أعمال قوص. وهي القرية التي تعرف اليوم باسم كوم يعقوب إحدى قرى مركز نجع حمادي بمديرية قنا.

ما أحسن ما جاء كتابُ الحِبِّ يُبْدي حرقاً كأنّه عن قلبي
فازددتُ بما قرأتُ شوقاً وضمّاً لا يُبَرِّده إلا نسيمُ القُرْبِ

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي المحدّث مُعِين الدين إبراهيم بن عمر بن عبد العزيز القُرشيّ الزَّكَوِيّ. والحافظ زَيْن الدين أبو البقاء خالد بن يوسف بن سعد النابُلسيّ بدِمَشق، وله ثمانٍ وسبعون سنة في سَلْخ جُمادى الأولى. والأمير الكبير جمال الدين موسى بن يَغمُور. والنجيب فِرَاس بن عليّ بن زَيْد العَسقَلَانيّ التاجر. وقاضي الديار المصريّة بدر الدين يوسف بن الحسن السِّنْجَارِيّ في رجب. والشيخ أبو القاسم[1] الحُوّارِيّ الزاهد.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم سبع أذرع وإصبعان. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً وأربع عشرة إصبعاً.

* * *

السنة السادسة من سلطنة الملك الظاهر بِيبرس على مصر

وهي سنة أربع وستين وستمائة.

فيها تُوفّي شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن صالح؛ كان فاضلاً أديباً. ومن شعره، رحمه الله، في مُكارٍ مَلِيح: [مجزوء الرجز]

علِقْتُه مُكارِياً شرّد عن عيني الكَرَى
قد أَشْبه البدرَ فلا يَمَلُّ من طُول السُّرَى

وفيها تُوفّي طاغيةُ التّتار وملكهم هُولاَكُو وقيل هُولاَوُون وقيل هولاو بن تُولِي خان بن جنْكِزْ خان المُغلي التُّركيّ؛ مَلَك مكان أبيه بعد موته وكان من أعظم ملوك التّتار، وكان حازماً شجاعاً مدبراً، إستولى على الممالك والأقاليم في أَيْسر مدّة، وفتح بلاد خُرَاسان وأَذْرَبِيجَان وعِرَاق العجم وعِراق العرب والمَوْصل والجزيرة

(١) في الشذرات: «أبو القسم ابن يوسف بن أبي القسم بن عبد السلام الأموي الحواري العوفي الزاهد المشهور الحنبلي صاحب الزاوية بحوارى».

وديار بكر والشام والروم والشرق وغير ذلك[١]. وهو الذي قَتَل الخليفة المستعصم المقدّم ذكره؛ وكان على قاعدة المُغْل لا يتديّن بدِين، وإنّما كانت زوجته طقز[٢] خاتون قد تنصّرت، فكانت تَعْضُد النصارى وتُقيم شعائرهم في تلك البلاد. وكان هُولاكو سعيداً في حروبه لا يروم أمراً إلّا ويسهل عليه، وكانت وفاته بعِلّة الصَّرْع، وكان الصَّرْع يَعْتَرِيه من عدّة سنين في كلّ وقت، حتّى إنّه كان يعتريه في اليوم الواحد المرّة والمرّتين والثلاث، ثم زاد به فَمرض ولم يزل ضعيفاً نحو شهرين وهَلَك، فأخفَوْا موته وصبروه حتى حضر ولده أبْغَا وجلس مكانَه في المُلك، وقيل: إنّه لم يدفن وعُلِّق بسلاسل، ومات وله ستّون سنة أو نحوها. وخلّف من الأولاد الذكور سبعة عشر ولداً. وهم أبْغَا[٣] الذي مَلَك بعده وأشموط[٤] وتمشين[٥] وتِكْشِي[٦] وكان جَباراً، وأجَايْ وتستر[٧] ومَنْكُوتَمُر[٨] الذي آلتقى مع الملك المنصور قلاوون على حِمْص وآنهزم جريحاً، كما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى، وباكودر وأرغون وتغاي[٩] تَمُر والملك أحمد[١٠] وجماعة أخر[١١].

---

(١) وصف المقريزي مملكة هولاكو على النحو التالي: «كان بيد هولاكو إقليم خراسان وكرسيه (أي قاعدته) نيسابور، وعراق العجم ـ ويعرف ببلاد الجبل ـ وكرسيه أصفهان، وعراق العرب وكرسيه بغداد، وآذربيجان وكرسيه تبريز، وخوزستان وكرسيه تستر ـ ويسميها العامة شستر ـ وفارس وكرسيه شيراز، وديار بكر وكرسيها الموصل، والروم وكرسيه قونية» ـ انظر السلوك: ٥٤١/٢/١.

(٢) ورد اسمها في السلوك وعقد الجمان: «طقز خاتون». وفي المختصر الدول لابن العبري: «دوقوز» و «طقز». وفي الأصل: «ظفر خاتون» وهو تحريف. وما أثبتناه هو الصيغة الأكثر شيوعاً في المصادر العربية.

(٣) ويرد هذا الاسم في المصادر برسم: أباغا وآباقا.

(٤) ويرد: يشموت ويصمت.

(٥) ويرد: توسين.

(٦) ويرد: بكشي وبيكين.

(٧) ويرد: يستز.

(٨) ويرد: منكوتيمور.

(٩) ويرد: طغاي تيمور.

(١٠) هو أحمد تكودار.

(١١) لم يذكر سوى أحد عشر ولداً. وقد اختلفت الروايات في عدد أولاده، فقيل خمسة عشر، وقيل أربعة عشر.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي أبو الفضل إسماعيل بن إبراهيم بن يحيى القرشي بن الدَّرَجيّ في صفر. والشيخ جمال الدين أحمد بن عبد الله بن شُعَيْب التَّميميّ في شهر ربيع الآخر، وله آثنتان وسبعون سنة. ورَضِي الدين إبراهيم بن البُرْهان عمر الواسِطِيّ التاجر بالإسكندرية في رجب، وله إحدى وسبعون سنة، وخلّف أموالاً عظيمة. والأمير الكبير جمال الدين أيْدُغْدِيّ العَزيزيّ. والشيخ أحمد بن سالم المصريّ النحويّ في شوّال بدِمَشق. والطاغية هولاكو بمراغة(١).

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وسبع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وآثنتا عشرة إصبعاً.

* * *

السنة السابعة من سلطنة الملك الظاهر بِيبرس على مصر

وهي سنة خمسٍ وستين وستمائة.

فيها تُوفّي بَرَكة خان [بن جوجي](٢) بن جِنْكِزْخان مَلِك التَّتار، هو آبن عمّ هولاكو المقدّم ذكره؛ وكانت مملكته عظيمةً متّسعة جداً وهي بعيدة عن بلادنا وله عساكر وافرة العدد؛ وكان بَرَكة هذا يَميل إلى المسلمين مَيْلاً زائداً ويُعظِّم أهل العلم ويَقْصد الصُّلحَاء ويتبرّك بهم. ووقع بينه وبين آبن عمّه هُولاكو، وقاتَله بسبب قتله للخليفة المستعصم بالله وغيره من المسلمين؛ وكان بينه وبين الملك الظاهر مودّة ويُعظِّم رَسُلَه(٣)، وكان قد أسلم هو وكثير من جُنْده وبنى المساجد وأُقيمت الجُمُعة ببلاده، وكان جَواداً عادلاً شجاعاً، ومات ببلاده في هذه السنة وهو في عشر الستين، وقام مقامه مَنْكُوتَمُر.

---

(١) مراغة: بلدة مشهورة في آذربيجان.

(٢) زيادة عن معجم زامباور.

(٣) راجع ص ١٣٤ من هذا الجزء، حاشية (٣).

وفيها تُوفّي الأمير ناصر الدين أبو المعالي حسين بن عزيز بن أبي الفوارس القَيْمُريّ؛ كان من أكابر الأمراء وأجلهم قَدْراً وأكبرهم شأناً، وكان شجاعاً كريماً عادلاً؛ وكان الملك الظاهر قد جعله مقدّم العساكر بالساحل فتوجّه إليه فمات به مرابطاً في يوم الأحد ثالث عشر شهر ربيع الأوّل، وهو صاحب المدرسة القَيْمُرِيّة[1] بدمشق؛ وكان عالي الهمة يُضاهي السلاطين في مَوْكِبِهِ وخيله ومماليكه وحواشيه.

وفيها تُوفّي القاضي تاج الدين عبد الوهاب بن خَلَف بن محمود بن بدر أبو محمد العَلاَمِيّ الفقيه الشافعيّ المعروف بآبن بنت الأعزّ؛ كان إماماً عالماً فاضلاً وولي المناصب الجليلة كنظر الدواوين والوزارة وقضاء القضاة ودرس بالشافعيّ، وكانت له مكانةٌ عند الملك الظاهر؛ ومولده سنة أربع عشرة وستمائة، ومات ليلة السابع والعشرين من شهر رجب ودُفِن من الغد بسَفْح المقطّم.

وفيها تُوُفّي الشيخ الإمام المحدّث تاج الدين أبو الحسين عليّ بن أحمد بن عليّ بن محمد بن الحسين بن عبد الله بن أحمد بن مَيْمُون القَيْسِي المصريّ المالكيّ المعروف بآبن القَسْطَلاّنيّ، وُلِد سنة ثمان وخمسمائة بمصر، وبها تفقه وسمع الحديث من جماعة كبيرة وحدّث بالكثير ودرّس وأفتى وتولى مشيخة دار الحديث الكامليّة بالقاهرة إلى أن مات بُكْرة السابع والعشرين من شوّال ودُفِن من يومه بسَفْح المقطّم.

وفيها تُوُفّي الشيخ الإمام الفقيه المحدّث شمس الدين مَلِكشاه بن عبد الملك ابن يوسف بن إبراهيم المَقْدِسِيّ الأصل المصريّ المولد الدِّمَشقيّ الدار الحنفيّ المعروف بقاضي بَيْسان، كان فقيهاً عالماً فاضلاً مُفْتناً في علوم؛ وُلِد بحارة زويلة بالقاهرة سنة ثلاثٍ وسبعين وخمسمائة ومات في سادس عشر صفر بدِمَشْق، رحمه الله.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي أبو الحجّاج يوسف بن مَكْتوم السُّوَيْديّ الحبّال. والشيخ الصالح الأَثَرِيّ محمود بن أبي القاسم الدَّشْتِيّ

(١) المدرسة القيمرية الكبرى بسوق الحريميين بدمشق. وكانت من مدارس الشافعية. (انظر الدارس في تاريخ المدارس: ١/٣٣٥).

بالقاهرة في رجب. وقاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن خَلَف ابن بنت الأَعَزّ في رجب، وله إحدى وستون سنة. والعلامة شهاب الدين أبو شَامَة أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل المَقْدِسِيّ ثم الدِّمَشْقِيّ في رمضان، وله ستّ وستون سنة. والإمام تاج الدين عليّ آبن الشيخ أبي العبّاس أحمد بن علي القسطلانيّ بمصر، وله سبع وسبعون سنة. والسلطان بركة خان بن جوجي[1] بن جِنْكِزخان. والأمير الكبير ناصر الدين حسين بن عزيز بن أبي الفوارس القَيْمُرِيّ صاحب القَيْمُرِيّة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وأربع عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً وأربع عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الثامنة من سلطنة الملك الظاهر بِيبرس على مصر

وهي سنة ستّ وستين وستمائة.

فيها تُوُفّي الرئيس كمال الدين أبو يوسف أحمد بن عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحيم بن الحسن بن عبد الله الحلبيّ المعروف بآبن العَجَمِيّ؛ كان شاعراً رئيساً عالماً فاضلاً حسن الخط والإنشاء؛ كَتَب للملك الناصر صلاح الدين يوسف، وكان من أعيان الكُتّاب وأماثلهم، بلغ من العمر ستّاً وأربعين سنة، ومات بظاهر صُور من بلاد الساحل في العشر الأوّل من ذي الحجّة وحُمِل إلى ظاهر دِمَشق فدُفِن بها. ومن شعره في خال مَلِيح، قال: [الطويل]

وما خالُه ذاك الذي خالَه الوَرَى ... على خده نَقْطاً من المِسْك في وَرد
ولكنّ نارَ الخدّ للقلب أحرقت ... فصار سوادُ القلب خالاً على الخدّ

قلت: يعجبني قولُ آبن صابر[2] المَنْجَنِيقِيّ في هذا المعنى: [مخلّع البسيط]

---

(١) في الأصل: «تولي» وهو خطأ.

(٢) هو يعقوب بن صابر بن بركات، أبو يوسف المنجنيقي المتوفى ٦٢٦هـ. كان شاعراً ومتفوقاً في صناعة المنجنيق فنسب إليه. (الأعلام: ٨/١٩٩).

أهـلاً بـوجـهٍ كـالبـدر حسنـاً صـيّـرنـي حـبُّـه هِـلالا
قـد رقّ حتّى لـحَـظْتُ فـيـه سـوادَ عيـنـي فـخـلْتُ خـالا

ومثل هذا أيضاً قول القائل في هذا المعنى، ولم أدرِ لمن هو غير أنّني أحفظه قديماً، وهو في خالٍ تحت العِذار: [الوافر]

لـه خـالٌ تـغـشّـاه هـلالٌ يفـوت العينَ إنْ نَـظَرتْ إليـه
كـشُحْـرُورٍ تـخبّـأ فـي سيـاجٍ مخـافـة جـارحٍ من مُـقْلَتَيْـهِ

وفي هذا المعنى للعزّ الموصِليّ[1] وأبدع إلى الغاية: [السريع]

لحَـظْتُ من وجنتهـا شـامـةً فـآبتسمتْ تَعْجَب من حـالِي
قـالتْ قِفُوا وآستمعـوا مـا جَرَى قـد هـام عمّي الشيخُ في خالي

وفي هذا المعنى: [مخلّع البسيط]

تفـاخـر الحسنُ في آنتسـابٍ لـمّـا بـدَا خـالُـه الأنـيـقُ
فـقـالت الـعـينُ ذا آبنُ أختـي وقـال لـي الـخـدُّ ذا شقـيـقُ

وقد استوعبنا هذا النوع وغيره في كتابنا «حلية الصفات في الأسماء والصناعات» فلينظر هناك.

وفيها تُوُفّي عَفِيف الدين أبو الحسن عليّ بن عدلان بن حَمّاد بن عليّ الموصلِيّ النحويّ المترجم؛ كان إماماً عالماً أديباً مُفْتَنّاً شاعراً، مات بمصر في يوم الجمعة تاسع شوّال. ومن شعره، رحمه الله: [البسيط]

لا تعجبنّ إذا ما فاتك المَطْلَبْ وعوِّدِ النفس أن تَشْقَى وأن تَتْعَبْ
إن دام ذا الفقرُ في الدنيا فلا تَعْجَب مات الكرام وما فيهم فتىً أعقب

---

(١) هو علي بن الحسين بن علي، عز الدين الموصلي ثم الدمشقي الشاعر. توفي سنة ٧٨٩هـ. (الأعلام: ٢٨٠/٤).

وفيها تُوفّي السلطان ركن الدين كَيْقُبَاد آبن السلطان غياث الدين كَيْخُسْرو آبن السلطان علاء الدين كَيْقُبَاد بن كَيْخُسْرُو بن قِليج أرْسلان بن مسعود بن قِليج أرسلان بن سليمان بن قُطُلْمِش بن أتْسِز بن إسرائيل بن سَلْجُوق بن دُقْمَاق السَّلْجُوقيّ صاحب الروم؛ كان ملِكاً جليلاً شجاعاً لكنّه كان غير سديد الرأي؛ كان جعل أمرَه بيد البَرْوَاناه فآستفحل أمرُ البَرْوَاناه، فأراد ركنُ الدين هذا قتله فعاجله البرواناه وعمِل على قتله حتى قُتِل (وكيقباد بفتح الكاف وسكون الياء آخر الحروف وضم القاف وفتح الباء ثانية الحروف وبعد الألف دال مهملة ساكنة). وكَيْخُسْرُو مثل ذلك غير أن الخاء المعجمة مضمومة وبعدها سين مهملة ساكنة وراء مهملة مضمومة. وقِلِيج أرسلان بكسر القاف واللام وسكون الياء والجيم معاً. وأَرْسلان معروف.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي أيُّوب بن أبي بكر عمر الحَمّامي آبن الفُقَّاعِيّ. ومجد الدين أحمد بن عبد الله بن مَيْسرة الأَزْدِيّ آبن الحَلَوَانِيّة في شهر ربيع الأوّل. والشيخ القُدْوة إبراهيم بن عبد الله آبن الشيخ أبي عمر المَقْدِسِيّ في شهر ربيع الأوّل، وله ستون سنة. وأبو بكر عبد الله بن أحمد بن ناصر النَّحّاس في ذي القعدة. وفيها قَتَلت التّتار السلطان ركن الدين كَيْقُبَاد آبن السلطان غِياث الدين كَيْخُسْرُو آبن السلطان علاء الدين كَيْقُباد صاحب الروم، وله ثمانٍ وعشرون سنة وأجلسوا ولده كَيْخُسْرُو على التخت وهو آبن عشر سنين.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً سواء.

* * *

السنة التاسعة من سلطنة الملك الظاهر بيبرس على مصر

وهي سنة سبع وستين وستمائة.

فيها تُوفّي الأمير عز الدين أَيْدَمُر بن عبد الله الحِليّ[1] الصالحيّ النجميّ؛ كان

(١) كذا أيضاً في السلوك وعقد الجمان. وفي المنهل الصافي والدارس: «الحلبي».

من أكبر أمراء الدولة وأعظمهم محلاً عند الملك الظاهر، وكان نائب السلطنة عنه بالديار المصرية في غَيْبَتِه عنها لوثوقه به وآعتماده عليه، وكان قليل الخِبْرة لكن رُزِق السعادة.

قلت: له أُسْوَةٌ بأمثاله. قال: وكان محظوظاً من الدنيا له الأموال الجمّة والمتاجر الكثيرة والأملاك الوافرة. وأمّا ما خلّفه من الأموال والخيول والجمال والبغال والعدد فيقصُر الوصف عنه. ومات بقلعة دِمَشق في يوم الخميس سابع شعبان ودفِن بتربته[1] بجوار مسجد الأمير موسى بن يَغْمور. ومات وقد نيّف على الستين.

وفيها تُوُفّي الشيخ المحدّث عماد الدين محمد بن محمد بن عليّ أبو عبد الله؛ كان فاضلاً سَمِع الكثير، ومات بدِمَشق في شهر ربيع الأوّل؛ ولما كان بحلب كتَب إليه أخوه سعد الدين سعد يقول: [البسيط]

ما للنّوى رِقّةٌ تَرْثِي لمكتئبِ حرّان في قلبه والدمعُ في حلبِ
قد أصبحتْ حلبُ ذاتَ العِماد بكم وجِلّقٌ إرماً هذا من العجبِ

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي زَين الدين إسماعيل بن عبد القَوِيّ بن عَزّون الأنصارِيّ في المحرّم. والإمام مجد الدين عليّ بن وَهْب القُشَيْرِيّ [والد][2] آبن دَقِيق العِيد. والحافظ زين الدين أبو الفتح محمد بن محمد الأَبِيوَرْدِيّ الصوفيّ في جمادى الأولى. واللغويّ مجد الدين عبد المَجِيد بن أبي الفرج الرُّوذْرَاوَرِيّ بدِمَشق في صفر.

أمر النيل في هذه السنة:
الماء القديم خمس أذرع وست عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وسبع أصابع.

* * *

(١) هي التربة الأيدمرية. (انظر الدارس: ٢/١٧٦).
(٢) زيادة عن المنهل الصافي.

السنة العاشرة من سلطنة الملك الظاهر بِيبرس على مصر

وهي سنة ثمانٍ وستين وستمائة.

فيها تُوفّي الشيخ موفّق الدين أبو العبّاس أحمد بن القاسم بن خليفة الخَزْرَجِيّ المعروف بآبن أبي أُصَيْبِعَة الحكيم الفاضل صاحب المصنّفات منها «طبقات الأطباء». مات بصَرْخَد في جمادى الأولى، وقد نيف على سبعين سنة؛ وكان فاضلاً عالماً في الطِّبّ والأدب والتاريخ وله شِعْر كثير، من ذلك ما مَدَح به الصاحب أمين[1] الدولة، وهي قصيدة طَنّانة أوّلها: [الوافر]

فُؤادِي في محبتّهم أسيرُ ... وأنّى سار ركبُهُمُ يَسِيرُ
يَحِنّ إلى العُذَيْب وساكنيه ... حَنيناً قد تضمّنه سَعِيرُ
ويَهْوَى نَسْمَةً هبّت سُحَيْراً ... بها من طِيب نشرهِمُ عَبِيرُ
وإنّي قانعٌ بعد التّدَانِي ... بطيفٍ من خيالهمُ يزورُ
ومعسولُ اللّمَى مرُّ التجنّي ... يجورُ على المحبّ ولا يُجِيرُ
تصدّى للصدود ففي فؤادي ... بوافر هَجْره أبداً هَجِيرُ
وقد وصلَتْ جفوني فيه سُهْدِي ... فما هذي القطيعةُ والنفورُ

وهي طويلة كلُّها على هذا النَّمَط.

وفيها تُوفّي الأمير عِزّ الدين أيْبَك بن عبد الله الظاهريّ نائب حِمْص؛ كان فيه صَرَامةٌ مُفرِطة، وكان موصوفاً بالعَسْف والظلم وسِيرةٍ قبيحةٍ، ومع هذه المساوىء كان أيضاً فيه رَفْض. مات بحِمْص وفَرِح بموته أهل بلده.

وفيها تُوفّي الأمير عزّ الدين أَيْبَك بن عبد الله المعروف بالزَّرّاد؛ كان نائب قلعة دِمَشْق، وكان من المماليك الصالحيّة النَّجْمِيّة، وكانت حرمته وافرة وسيرته جميلة. ومات في ذي القعدة.

---

(١) هو أمين الدولة أبو الحسن المتطبّب وزير الملك الصالح إسماعيل. (راجع وفيات سنة ٦٤٨ من هذا الجزء).

وفيها تُوفّي موسى بن غانم بن عليّ بن إبراهيم بن عساكر بن حسين الأنصاري المَقْدِسِيّ؛ كان كبير القَدْر صَدْراً كبيراً شُجاعاً وافر الحُرمة؛ تولّى مشيخة الحَرَم بالقُدْس الشريف؛ وكان كريماً وله سُمْعةٌ وصِيتٌ. مات بالقُدْس في المحرّم وقد جاوز سبعين سنة.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي المحدّث زَين الدين أحمد بن عبد الدائم بن نِعْمَة المَقْدِسِيّ في رجب، وله ثلاث وتسعون سنة. وقاضي القضاة محيي الدين يحيى بن محمد بن الزَّكِي القُرَشِي في رجب، وله آثنتان وسبعون سنة. وأبو حَفْص عمر بن محمد بن أبي سعد الكِرْمَانِيّ الواعظ في شعبان، وله ثمانٍ وتسعون سنة. وفيها قُتِل في المصافّ صاحبُ المغرب الملك أبو دبّوس أبو العلاء [الواثق بالله] إدريس بن عبد الله[1] بن محمد المؤمنيّ.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وآثنتان وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وآثنتان وعشرون إصبعاً.

* * *

السنة الحادية عشرة من سلطنة الملك الظاهر بِيبرس البُنْدُقْدَارِيّ على مصر

وهي سنة تسع وستين وستمائة.

فيها تُوفّي الشيخ شمس الدين أبو إسحاق إبراهيم بن المسلم بن هبة الله بن البارِزِيّ الفقيه الحَمَويّ الشافعيّ؛ مولده سنة ثمانين وخمسمائة؛ وكان فقيهاً فاضلاً ورِعاً؛ وله شِعْر جيّد؛ وأفتى ودرّس بمَعَرّة النُّعمان وغيرها؛ ومات في شعبان بحَمَاة. ومن شعره، رحمه الله، يصِف دِمَشق: [المتقارب]

دِمشقُ لهـا منـظرٌ رائـقٌ ... وكـلٌّ إلى وصلهـا تـائـقُ
وأنّـى يُقـاس بهـا بـلدةٌ ... أبى الله والجـامعُ الفـارِقُ

---

(١) كذا أيضاً في الشذرات والسلوك. وفي الأعلام للزركلي: «إدريس بن محمد بن عمر بن عبد المؤمن الكوفي آخر ملوك دولة الموحدين بالمغرب» وقد قتله المرينيون في معركة بظاهر مراكش.

وفيها تُوُفّي القاضي كمال الدين أبو السعادات أحمد بن مِقْدَام بن أحمد بن شُكْر المعروف بآبن القاضي الأَعَزّ؛ كان أحد الأكابر بالديار المصريّة متأهِّلاً للوزارة وغيرها؛ وتولّى المناصب الجليلَة؛ وكان له يدٌ في النظم ومعرفةٌ بالأدب ومشاركةٌ في غيره. ومات في شهر رمضان بالقاهرة.

وفيها تُوُفّي الأمير علم الدين سَنْجَر بن عبد الله الصَّيْرَفِيّ؛ كان من أعيان الأمراء بالديار المصريّة وممّن يُخْشَى جانبه، فلمّا تمكّن الملك الظّاهر بِيبَرْس أخرجه إلى دِمَشْق ليأمَن غائلته وأقطعه بها خُبزاً[1] جيّداً، فدام به إلى أن مات ببعلبك وهو في عشر الستين.

وفيها تُوُفّي الأمير قطب الدين سَنْجَر بن عبد الله المستنصريّ البغداديّ المعروف بالياغِز؛ كان من مماليك الخليفة المستنصر بالله، وكان محترماً في الدولة الظاهريّة وعنده معرفةٌ وحسنُ عِشرة ومحاضرة بالأشعار والحكايات.

وفيها تُوُفّي الملك الأمجد تقيّ الدين عبّاس آبن الملك العادل أبي بكر محمد بن أَيُّوب بن شادي، وكنيته أبو الفضل؛ كان مُحْترماً عند الملك الظاهر لا يرتفع عليه أحدٌ في المجالس، وهو آخرُ مَنْ مات من أولاد الملك العادل لصُلْبه؛ وكان دَمِث الأخلاق حسن العِشْرة لا تُمَلّ مجالسته. ومات بدِمَشق في جُمادى الآخرة ودُفِن بسَفْح قاسِيون.

وفيها تُوفّي قطب الدين عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن محمد بن نصر بن محمد بن سبعين أبو محمد المُرْسِيّ الرُّقُوطِيّ الصوفيّ المعروف بآبن سبعين. قال الذهبيّ في تاريخ الإسلام: كان صوفيّاً على قاعدة زُهّاد الفلاسفة وتصوّفهم، وله كلامٌ كثير في العِرْفان على طريق الاتّحاد والزّندقة. وقد ذكرنا محطّ هؤلاء الجنس في ترجمة آبن الفارض[2] وآبن العَرَبيّ[3] وغيرهما، فيا حسرةً على

---

(١) الخبز: الإقطاع

(٢) توفي سنة ٦٣٢هـ.

(٣) توفي سنة ٦٣٨هـ.

العباد! كيف لا يغضبون لله تعالى ولا يقومون في الذبّ عن معبودهم، تبارك الله وتقدّس في ذاته عن أن يمتزج بخَلْقه أو يَحُلّ فيهم، وتعالى الله عن أن يكون هو عَيْن السموات والأرض وما بينهما، فإنّ هذا الكلام شرٌّ من مقالة مَن قال بِقدَم العالم. ومن عَرَف هؤلاء الباطنيّة عَذَرني أو هو زِنْدِيق مُبْطِنٌ للاتّحاد يذُبُّ عن الاتّحاديّة والحُلوليّة، ومَن لم يعرفهم فالله يُثيبه على حسن قصده. ثم قال بعد كلام طويل: وآشتهر عنه (يعني عن آبن سبعين هذا) أنّه قال: لقد تحجّر آبن آمنة واسعاً بقوله: «لا نبِيّ بَعْدِي». ثم ساق الذهبيّ أيضاً من جنس هذه المقولة أشياء أضربتُ عنها إجلالاً في حقّ الله ورسوله لا لأجل هذا النِّجِس.

قلتُ: إن صحّ عنه ما نقله الحافظ الذهبيّ، وهو حجّة في نقله، فهو كافرٌ زِنْديق مارقٌ من الدين مطرودٌ من رحمة الله تعالى. اِنتهى. والرُّقُوطِيّ نسبة إلى حصن من عمل مُرْسِيَةَ يقال له رُقُوطة.

وفيها توفي الأمير شرف الدين أبو محمد عيسى بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن كامل الكُرْدِي الهَكَّارِيّ؛ كان أحد أعيان الأمراء سمِع الحديث وحدّث؛ ومولده سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بالقُدْس؛ وكان أحد الأمراء المشهورين بالشجاعة والإقدام وله وقائعُ معدودةٌ ومواقفُ مشهورةٌ مع العدوّ بأرض الساحل؛ ولي الأعمال الجليلة وقدّمه الملك الظاهر بِيبَرْس على العساكر في الحروب غير مرّة، ومات بدمشق في شهر ربيع الآخر. ومن شعره مما كتبه للوزير شرف الدين ابن المبارك وزير إِرْبِل: [الطويل]

أأحبابَنا إن غِبتُ عنكم وكان لي ... إلى غير مَغْناكم مراحٌ وَإيْسَامُ
فما عن رِضاً كانت سُلَيْمَى بديلةً ... بلَيْلَى ولكن للضرورات أحكامُ

وفيها تُوفّي محمد بن عبد المنعم بن نصر [الله] بن جعفر بن أحمد بن حَوَارَى، الفقيه الأديب أبو المكارم تاج الدين التَّنوخِي المَعَرِّيّ الأصل الحنفِيّ الدِّمشقي المولد والدار والوفاة المعروف بابن شُقَيْر. وُلِد سنة سبع وستمائة وسمِع وحدّث بدِمَشق والقاهرة؛ وكان فقيهاً محدّثاً فاضلاً بارعاً أديباً وعنده رياسة ومكارم

ودَمَاثة أخلاق وحسن محاضرة؛ وهو معدودٌ من شعراء الملك الناصر [صلاح الدين يوسف ابن العزيز] ومات في صفر. ومن شعره: [السريع]

قد أقبل الصيفُ وولّى الشِّتا وعن قريبٍ نشتكِي الحَرَّا
أما ترى البانَ بأغصانِهِ قد قَلَبَ الفرو إلى بَرَّا

وقال، رحمه الله: [الكامل]

واحَيْرةَ القمرين منه إذا بدا وإذا انثنى واخجلةَ الأغصانِ
كتبَ الجمالُ ويا لَهُ من كاتبٍ سطرين في خَدَّيه بالرَّيْحَانِ

قلتُ: ويعجبني قول ابن المعتزّ في هذا المعنى وقد أبدع في التشبيه فقال: [البسيط]

كأنّ خطَّ عِذارٍ شقَّ عارضه مَيْدان آسٍ على وردٍ ونسْرِينِ
وخطّ فوق حِجاب الدر شاربُه بنصف صادٍ ودَار الصُّدْغُ كالنونِ

ولمحمد بن يوسف الخيّاط(١) الدِّمشقي في معنى العِذَار: [مخلّع البسيط]

عِذارُ حِبِّي دقيقُ معنًى تَجِلُّ عن حسنه الصفاتُ
حلا لرائيه وهو نبتٌ هذا هو السكّر النّباتُ

ولابن نُبَاتة(٢): [الكامل]

وبمُهْجتي رَشَأٌ يَمِيس قَوَامُه فكأنّه نَشْوَانُ من شَفَتَيْهِ
شُغِف العِذارُ بخدّه ورآه قد نَعَسَتْ لواحظُه فدبّ عليه

وللصَّفَديّ(٣):

---

(١) انظر وفيات سنة ٧٥٦هـ.

(٢) هو جمال الدين محمد بن محمد بن الحسن الجذامي الفارقي المصري، ابن نباتة: شاعر عصره وأحد الكتّاب المترسلين العلماء بالأدب. توفي سنة ٦٨٦هـ (الأعلام: ٣٨/٧).

(٣) هو صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي المؤرخ الأديب صاحب الوافي بالوفيات، المتوفى سنة ٦٩٦هـ.

عيناه قد شَهِدتْ بأنّي مخطىءٌ وأتَت تَخُطُّ عِذاره تَذْكَارَا
يا حاكم الحُبِّ آتَئِدْ في قِتْلَتي فالخطُّ زورٌ والشهودُ سُكَارَى

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي الشيخ حسن بن أبي عبد الله بن صَدَقة الصَّقَلِّيّ المقرىء في شهر ربيع الأوّل وقد نيّف على سبعين. وشيخُ السَّبعينيّة[1] قطب الدين عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن سبعين المُرْسيّ بمكّة في شوّال، وله خمس وخمسون سنة. ومجد الدين محمد بن إسماعيل بن عثمان بن مظفّر بن هبة الله بن عساكر في ذي القعدة. وقاضي حَمَاة شمس الدين إبراهيم بن المسلم بن البارِزيّ في شعبان، وله تسع وثمانون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ست أذرع وإحدى وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وآثنتا عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الثانية عشرة من سلطنة الملك الظاهر بِيبرس على مصر

وهي سنة سبعين وستمائة.

فيها تُوفّي الملك الأمجد مجد الدين أبو محمد الحسن آبن الملك الناصر داود ابن الملك المعظّم عيسى آبن الملك العادل أبي بكر بن أيُّوب؛ كان الملك الأمجد هذا من الفضلاء وعنده مشاركةٌ جيّدة في كثير من العلوم، وله معرفةٌ تامّة بالأدب.

وفيها تُوفّي الشيخ عِماد الدين عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الحسن بن عبد الرحمن بن طاهر بن محمد بن محمد بن الحسين الحَلَبِيّ الشافعيّ المعروف بآبن العَجَمِيّ؛ كان فاضلاً سمع الحديث وتفقّه وحدّث ودرّس وتولّى الحكم بمدينة الفَيُّوم من أعمال مصر وغيرها وناب في الحكم بدِمشق، وكان مشكور السِّيرة. ومات بحلب في رابع عشر شهر رمضان. ومولده في سنة خمس وستمائة بحلب.

---

(١) نسبة إلى ابن سبعين، وهم أتباعه.

وفيها تُوفّي الأديب أمين الدين عليّ بن عثمان بن عليّ بن سليمان بن عليّ بن سليمان بن عليّ أبو الحسن المعروف بأمين الدين السُّلَيْمانِيّ الصوفيّ الإِرْبِلِيّ الشاعر المشهور، ولد سنة آثنتين وستمائة. ومات بمدينة الفيوم من أعمال مصر في جُمادى الأولى؛ وكان فاضلاً مقتدراً على النظم؛ وهو من أعيان شعراء الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام؛ وكان أوّلاً جندياً ثم ترك ذلك وتزهّد. ومن شعره وقد أرسل إلى بعض الرؤساء هديّة فقال: [الطويل]

هـديّـة عَبْـدٍ مخلصٍ في وَلائـهِ ... لها شاهدٌ منها على عدم المالِ
وليستْ على قدري ولا قدر مالكي ... ولكنّهـا جاءت على قَـدَر الحالِ

وقال رحمه الله: [الوافر]

ألا فـآحفظ لسـانـك فهـو خيـرٌ ... وطرفَك وآستمـع نُصْحِي ووعظِي
فـربَّ عـداوةٍ حـصـلتْ بـلفظٍ ... وربَّ صـبـابـةٍ حصلتْ بلَحْظِ

وفيها تُوفّي الرئيس الصدر عماد الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن الحسن بن هبة الله بن محفوظ بن الحسن بن محمد بن الحسن بن أحمد بن الحسين بن صَصْرَّى التَّغْلَبيّ، البَلَدِيّ الأصل الدِّمشقي المولد والدار والوفاة العدل الكبير؛ مولده سنة ثمانٍ وتسعين وخمسمائة وسمع الكثير وحدّث؛ وكان شيخاً جليلاً من بيت العلم والحديث؛ وقد حدّث هو وأبوه وجَدّه وجَدّ أبيه وجدّ جدّه وغير واحد من بيته. ومات في ذي القعدة.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي العلّامة الكمال سَلّار بن الحسن الإِرْبِلِيّ الشافعيّ في جُمادى الآخرة ومُعين الدين أحمد آبن القاضي زَيْن الدين عليّ بن يوسف الدمشقيّ العدل بمصر في رجب. والإمام جمال الدين عبد الرحمن بن سَلْمان الحرّانيّ البغداديّ الحنبليّ في شعبان، وله خمس وثمانون سنة. والقاضي عماد الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن الحسن بن هبة الله الدِّمشقي بن صَصْرَّى في ذي القعدة. والملك الأمجد السيد الجليل حسن آبن الناصر داود صاحب الكَرَك في جُمادى الأولى كَهْلاً. والصدر وجيه الدين محمد بن عليّ بن سُوَيْد التَّكْرِيتيّ التاجر في ذي القعدة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم سبع أذرع وإصبعان. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وإحدى عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الثالثة عشرة من سلطنة الملك الظاهر بِيبرس على مصر

وهي سنة إحدى وسبعين وستمائة.

فيها تُوفّي الأديب الفاضل مُخْلِص الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن قُرْناص الخُزَاعِي الحَمَوِيّ الشاعر المشهور؛ كان أديباً فاضلاً وله اليد الطُّولَى في النظم، ومات بحَمَاة يوم الأحد رابع شوّال. ومن شعره: [البسيط]

لَيْلِي وليلُكِ يا سُؤْلي ويا أملي ... ضِدّان هذا به طولٌ وذا قِصَرُ
وذاك أنّ جفوني لا يُلِمّ بها ... نومٌ وجَفْنُك لا يَحْظَى به السَّهَرُ

قلت: وهذا يشبه قول القائل وما أدري أيهما أسبق[1] إلى هذا المعنى وهو: [البسيط]

لَيْلِي ولَيْلَى نَفَى نومي آختلافُهما ... بالطُّولِ والطُّوْل يا طُوبَى لو آعتدلا
يجودُ بالطُّول لَيْلِي كُلّما بَخِلَتْ ... بالطُّوْل لَيْلَى وإن جادت به بَخِلا

وفيها تُوفّي الشريف شرف الدين أبو عبد الله محمد بن رِضْوان بن عليّ بن أبي المظفّر بن أبي العَتَاهِيَة المعروف بالشريف الناسخ. مات بدِمَشْق في شهر ربيع الآخر؛ وكان من الفضلاء وله مشاركةٌ في كثير من العلوم وله اليد الطُّولَى في النظم والنثر. ومن شعره: [الكامل]

عانقتُه عند الوَدَاع وقد جرتْ ... عَيْنِي دموعاً كالنجيع القَانِي
ورجعتُ عنه وطرفُه في فَتْرةٍ ... يُمْلِي عليّ مقاتلَ الفُرْسانِ

(١) تقدم ذكر هذين البيتين في الجزء الخامس، ص ١٠٣ والجزء السادس: ص ١٩٥. وذكر المؤلف أنهما للفضل بن عبد القاهر المتوفى سنة ٥٠٥هـ.

قلت: وما أحسن قول القاضي ناصح الدين الأرّجانيّ[١] في هذا المعنى: [مخلّع البسيط]

إذا رأيتَ الوداع فاصبِر ولا يَهُمّنك البِعادُ
وانتظِر العَوْد عن قريبٍ فإنّ قَلب الوداعِ عادوا

وأجاد أيضاً من قال في هذا المعنى: [الطويل]

فإنْ سِرْتُ بالجُثْمان عنكُم فإنّني أُخَلِّف قلبي عندكم وأسيرُ
فكونوا عليه مُشفقين فإنّهُ رَهِينٌ لديكم في الهوى وأسيرُ

وفيها تُوفّي المحدّث شرف الدين أبو المظفّر يوسف بن الحسن بن بَدْر بن الحسن بن مفرّج بن بَكّار النّابُلُسي الأصل الدِّمَشْقيّ المولد والدار والمنشأ والوفاة المحدّث المشهور؛ كان فاضلاً وسمع الكثير وحدّث؛ وكانت لديه فضيلةٌ ومشاركة ومعرفةٌ بالأدب. ومن شعره: [البسيط]

عَرِّج بعِيسك واَحْبِس أيّها الحادِي عند الكَثِيب وعرِّسْ يَمْنَةَ الوادي
واَقْرَ السّلام على سُكّان كاظمةٍ مِنّي وعرِّض بتَهْيامي وتَسْهَادِي
وقُلْ مُحِبٌّ بنار الشَّوْق مُحتَرِقٌ أودَى به الوَجْدُ خلّفناه بالنّادِي

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي الحافظ شرف الدين أبو المظفّر يوسف بن الحسن بن النابُلُسي الدِّمَشْقيّ في المحرّم. وخطيب المِقياس[٢] أبو الفتح عبد الهادي بن عبد الكريم القَيْسيّ المقرىء، وله أربع وتسعون سنة في شعبان. والمحدّث شمس الدين محمد بن عبد المنعم بن عَمّار بن هامل الحَرّانيّ في رمضان. وأبو العبّاس أحمد بن هبة الله بن أحمد السُّلَمِيّ الكَهْفِي في رجب. وصاحب «التعجيز»[٣] الإمام تاج الدين أبو القاسم

---

(١) هو القاضي أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني المتوفى سنة ٥٤٤هـ.
(٢) أي خطيب جامع المقياس. وهو الجامع الذي بناه بدر الجمالي سنة ٤٨٠هـ بقلعة الروضة في الزاوية الغربية تجاه الجيزة بالقرب من مقياس النيل. (خطط علي مبارك: ٥/٢٧٨).
(٣) هو «التعجيز في مختصر الوجيز» في فروع الشافعية. (كشف الظنون: ١/٤١٧).

عبد الرحيم بن محمد بن محمد بنُ يونُس المَوْصِلِيّ في جُمادى الأولى ببغداد، وله ثلاث وسبعون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:
الماء القديم سبع أذرع وإحدى عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وثلاث عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الرابعة عشرة من سلطنة الملك الظاهر بِيبرس على مصر

وهي سنة آثنتين وسبعين وستمائة.
فيها ملَك الملك الظاهر بِيبَرْس بَرْقة[1] بعد حروب كثيرة.

وفيها تُوفّي الصاحب محيي الدين أحمد بن عليّ بن محمد بن سليم الصاحب محيي الدين أبو العباس آبن الصاحب بهاء الدين بن حِنّا في ثامن شعبان بمصر ودُفِن بسفح المقطّم؛ ووجد عليه والده وَجْداً شديداً، وعُمِلت له الأَعْزِيَة والخِتَم؛ وكان فاضلاً، وسمِع من جماعة وحدّث ودرّس بمدرسة[2] والده التي أنشأها بزقاق القناديل بمصر إلى حين وفاته.

وفيها تُوفّي المحدّث مؤيّد الدين أبو المعالي أسعد بن المظفّر بن أسعد بن حمزة بن أسد بن عليّ بن محمد التّمِيمِيّ المعروف بآبن القَلاَنِسيّ؛ مولده بدِمَشق سنة ثمانٍ أو تسع وتسعين وخمسمائة؛ وسمع الكثير وحدّث بدِمَشق ومصر؛

(١) المراد إقليم برقة أو مدن برقة. وعبارة السلوك: «وفيها استولى السلطان على عامة مدن برقة وحصونها» وذكر ذلك في حوادث سنة ٦٧١هـ. وكان يشتمل إقليم برقة على البلاد الواقعة بين الإسكندرية وتونس. ومن مدنها: انطابلس، وطبرق، وطلميثة، ولبدة، وسرت، والمرج، وطرف، وبني غازي. (انظر مسالك الأبصار: ١٦٣، وصبح الأعشى: ٣/٣٩١ — ٣٩٢، والروض الزاهر: ٤١٥). قال القلقشندي: «والتحقيق أن برقة قسمان: قسم محسوب من الديار المصرية، وهو ما دون العقبة الكبرى إلى الشرق، وقسم محسوب من إفريقية وهو ما فوق العقبة المذكورة إلى الغرب».

(٢) هي المدرسة الصاحبية البهائية. أنشأها الوزير بهاء الدين علي بن محمد بن سليم بن حنّا سنة ٦٥٤هـ. وكان زقاق القناديل إذ ذاك أعمر أخطاط مصر، وإنما قيل له زقاق القناديل لأنه كان سكن الأشراف، وكانت أبواب الدور يعلق على كل باب منها قنديل. (خطط المقريزي: ٢/٣٧٠).

وهو من البيوتات المشهورة بالحديث والعدالة والتقدّم. ومات في ثالث عَشَر المحرّم ببستانه ظاهر دمشق؛ وكان وافر الحُرْمة متأهِّلاً للوزارة كثير الأملاك واسع الصدر.

وفيها توفي الأمير فارس الدين أَقْطَاي بن عبد الله الأَتَابَكيّ المعروف بالمُسْتَعْرِب الصالحِيّ النجمِيّ؛ كان من أكابر الأمراء وأعيانهم؛ وكان الملك المظفّر قُطُزْ قرّبه وجعله أتابكاً وعلّق جميع أمور المملكة به. فلمّا تسلطن الملك الظاهر قام معه وحلَف له وسلطنه فلم يَسَع الملك الظاهر إلّا أن أبقاه على حاله، وصار الظاهر في الباطن يتبرم منه ولا يَسَعُه إلّا تعظيمه لعدم وجود مَن يقوم مقامه، فإنّه كان من رجال الدهر حزماً وعزماً ورأياً؛ فلمّا أنشأ الملك الظاهر بِيلِيك الخازِندار أمَره بملازمته والاقتباس منه فلازمه مدّة، فلمّا عَلِم الظاهر منه الاستقلال جعله مشاركاً له في الجيش، وقطَع الرواتب التي كانت لأَقْطاي المذكور؛ فجمع أقطاي نفسه وتعلّل قريب السنة وصار يَتَداوَى إلى أن مات؛ وكان أظهرَ أن به طَرَفَ جُذَام ولم يكن به شيء من ذلك، رحمه الله تعالى.

وفيها تُوُفّي مجاهد بن سليمان بن مُرْهَف بن أبي الفتح التَّميميّ المصريّ الخياط الشاعر المشهور؛ وكان يعُرف بابن أبي الربيع. مات في جُمادى الآخرة بالقرافة الكبرى؛ وكان بها سكَنُه وبها دُفِن؛ وكان فاضلاً أديباً؛ ومن شعره في أبي الحسين الجَزّار وكان بينهما مُهاجاة: [المجتث]

أبا الحُسين تأدّبْ ... ما الفخرُ بالشِّعْر فخرُ
وما ترشّحتَ[1] منه ... بقطرةٍ وهو بحرُ

وفيه يقول أيضاً: [مخلّع البسيط]

إنْ تاه جزارُكم عليكمُ ... بفطنة عنده وكَيْسِ
فليس يرجوه غيرُ كَلْبٍ ... وليس يخشاه غيرُ تَيْسِ

ومن شعره قوله، لغز في إبرة وكُسْتبان: [السريع]

(١) في فوات الوفيات: «تبلّلت».

ثـلاثـةٌ فـي أمـر خَصْمَيـن إلـفيـن لـكـن غـيـر إلـفيـن
همـا قـريبـان وإن فـرّقت بينهمـا الأيـام فَـرْقَـيْن
فـواحـدٌ يَـعْضُـده(١) واحـدٌ ويُـعْـضَـدُ الآخـرُ بـآثـنين
تـراهـمـا بينـهـمـا وقعـة إذْ تـقـع العيـن عـلى العين

وفيها تُوُفّي الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن سليمان بن عبد الملك بن عليّ المَعَافِريّ الشاطبيّ المقرىء الزاهد نزيل الإسكندرية؛ قرأ بالسبع في الأَنْدَلُس وبَرَع في القراءات والتفسير، وله تفسير صغير. ومات في العشرين من شهر رمضان، وله سبع وثمانون سنة.

وفيها تُوفّي الشيخ الإمام العلّامة فريدُ عصره جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك النحوِيّ الجَيَّانِيّ الشافعيّ الطائيّ العالم المشهور صاحب التصانيف في النحو والعربيّة نزيل دِمَشْق. مولده سنة إحدى وستمائة؛ وسَمِع الحديث وتصدّر بحلب لإقراء العربيّة، وصَرف همّته إلى النحو حتى بلَغ فيه الغاية، وصنّف التصانيف المفيدة؛ وكان إماماً في القراءات، وصنّف فيها أيضاً قصيدة مرموزة في مقدار الشاطبيّة، وكان إماماً في اللّغة.

قلت: وشهرته تُغْنِي عن الإطناب في ذكره. ومات في ثاني عشر شعبان وقد نيّف على السبعين، رحمه الله تعالى.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي مؤيّد الدين أسعد آبن المظفّر التَّميميّ ابن القَلاَنِسِيّ عن ثلاث وسبعين سنة في المحرّم والسيد نجيب الدين عبد اللطيف بن أبي محمد عبد المنعم بن الصَّيْقَل الحرانيّ في صفر، وله خمس وثمانون سنة. والمسند تقيّ الدين إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليُسْر التَّنُوخيّ الكاتب في صفر، وله ثلاث وثمانون سنة. وأبو عيسى عبد الله بن

(١) رواية هذا البيت في الأصل:
وواحـدٌ بـعـضـه واحـد وبـعض الآخـر اثـنـين
وما أثبتناه من طبعة دار الكتب المصرية.

عبد الواحد بـن محمد بن عَلّاق الأنصاريّ الرزاز في شهر ربيـع الأوّل عن ستّ وثمانين سنة. والقاضي كمال الدين عمر بن بُنْدار التَّفلِيسيّ بمصر في شهر ربيـع الأوّل وقد جاوز السبعين. والمحدّث نجم الدين عليّ بن عبـد الكافيّ الـرَّبَعِيّ الشافعيّ في شهر ربيـع الآخر شابّاً. والشيـخ كمال الدين عبد العزيز بن عبد المنعم في شعبان عن ثلاث وثمانين سنة. والعلامة جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الطائيّ الجَيّانيّ في شعبان عن نحو سبعين سنة. والأمير الكبير أتَابَك المُسْتَعْرِب، وآسمه فارس الدين أَقْطاي الصالحيّ، وقد ولي نيابة المظفر قُطُزْ؛ توفي في جمادى الأولى. والزاهد الكبير الشيـخ محمد بن سليمان الشاطبـيّ بالإسكندريّة. وخواجا نصير [الدين] الطُّوسيّ[١] في ذي الحجّة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وإحدى وعشرون إصبعاً. مبلـغ الزيادة سبـع عشرة ذراعاً وست أصابـع.

* * *

السنة الخامسة عشرة من سلطنة الملك الظاهر بِيبرس على مصر

وهي سنة ثلاث وسبعين وستمائة.

فيها كانت أُعجوبة في السابـع والعشرين من شعبان وهو أنّه وقـع رمل بمدينة المَوْصِل ظَهر من القِبْلة وآنتشر يميناً وشمالاً حتى ملأ الآفاق وعُمِّيت الطّرق، فخرج العالم إلى ظاهر البلد، ولم يزالوا يبتهلون إلى الله تعالى بالدعاء إلى أن كشف الله ذلك عنهم.

وفيها تُوُفّي الأمير شهاب الدين أبو العبّـاس أحمد بن مـوسى بن يَغْمُور بن

---

(١) هو محمد بن محمد بن الحسن، أبو جعفر، نصير الدين الطوسي. كان رأساً في العلوم العقلية فيلسوفاً علامة بالأرصاد والمجسطي والرياضيات. علت منزلته عند هولاكو فكان يطيعه فيما يشير به عليه. ابتنى بمراغة قبة ورصداً عظيماً، واتخذ خزانة ملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة، وقد اجتمع فيها نحو أربعمائة ألف مجلد. (الأعلام: ٧/ ٣٠).

جَلْدك. وقد تقدّم ذكر والده الأمير جمال الدين موسى. كان شهاب الدين هذا معروفاً بالشجاعة والشهامة والصَّرامة والحرمة، ولّاه الملك الظاهر المحلّة وأعمالها من الغربيّة من إقليم مصر، فهذّبها ومهّد قواعدها وأباد المفسدين بها بحيث إنّه قطع من الأيدي والأرجل ما لا يُحْصَى كثرةً، وشَنَق ووسَّط[1] فخافه البريء والسقيم. ومات بالمحلّة في الرابع والعشرين من جُمادى الأولى؛ وكان عنده رياسة وحِشْمَة وبِرّ لمن يَقْصِده، وله نظمٌ وعنده فضيلة. ومن شعره يُخاطب الأمير علم الدين الدّوَادَاري: [الخفيف]

إنْ صدَدتُم عن منزلي فلكم فيـ ـه ثناءٌ كَنَشْر رَوْضٍ بهيّ
أو رددتُم فأنا المحبُّ الذي من آل موسى في الجانب الغربيّ

وله: [مخلّع البسيط]

خَطْبٌ أتى مُسرِعاً فآذى أصبح جسمي به جُذاذ[2]
خَضَّد قلبي وعمّ غيري يا ليتني مِتُّ قبل هذا

وله في مَلِيح نحوِيّ: [الخفيف]

ومليح تعلّم النحو يَحْكِي مشكِلات له بلفظٍ وَجِيزِ
ما تميزتُ حسنَه قطّ إلّا قام أيْرِي نصباً على التمييزِ

وفيها هلك بِيمْند[3] الفرنجيّ متملّك طرابُلُس بها في العشر الأوّل من شهر رمضان ودُفِن في كنيسة بها، وتملّك بعده آبنه، وكان حسن الشكل مليح الصورة.

وفيها تُوُفّي الشيخ الإمام أبو محمد شمس الدين عبد الله ابن شرف الدين محمد بن عطاء الأَذْرَعِيّ[4] الأصل الدِّمشقي الوفاة الحنفيّ؛ كان إماماً فقيهاً مفتياً عالماً مُفْتَنّاً؛

---

(١) التوسيط: هو أن يضرب المحكوم عليه بالإعدام بالسيف في وسط جسمه فيقطع نصفين.

(٢) الجُذاذ: المقطّع أو المكسّر. وفي التنزيل العزيز: «فجعلهم جُذاذاً إلا كبيراً منهم».

(٣) هو بيمند بن بيمند (بوهيمند السادس) أمير طرابلس وأنطاكية.

(٤) كذا في السلوك. وفي الشذرات: «الأوزاعي». وفي الأصل «البعلبكي».

أفتى ودرّس بعدة مدارس؛ وهو أوّل قاضٍ ولي القضاء آستقلالاً بدمشق من الحنفيّة في العصر الثاني. وأمّا أوّل الزمان فوليها جماعة كثيرة من العلماء في أوائل الدولة العبّاسيّة. وحسُنت سِيرتُه في القضاء إلى الغاية؛ وقصتّه مع الملك الظاهر بِيبرس مشهورة لمّا أوقع الظاهر الحوطة على الأملاك والبساتين بدِمَشق، وقعد الظاهر في دار العدل بدِمَشق وجرى الحديث في هذا المعنى بحضور القضاة الأربعة والعلماء وغيرهم، فكلٌّ من القضاة ألان له القول وخَشِيّ سَطْوة الملك الظاهر إلاّ شمس الدين هذا، فإنّه صدَع بالحقّ وقال: ما يَحِلُّ لمسلم أن يتعرّض لهذه الأملاك والبساتين! فإنّها بيد أربابها ويدُهم ثابتةٌ عليها. فغَضِب الملك الظاهِر من هذا القول وقام من دار العدل وقال: إذا كُنّا ما نحن مسلمون إيش قعودنا! فشرَع الأمراء يتألّفوه ولا زالوا به حتى سكن غضبُه؛ فلمّا رأى الظاهر الظاهر صلابة دينه حَظِيّ عنده وقال: أثبتوا كتبنا عند هذا القاضي الحنفيّ، وعظُم في عينه وهابه. وكان من العلماء الأعيان تامّ الفضيلة وافَر الديانة كريم الأخلاق حَسَن العِشرة كثير التواضع عديم النظير؛ وآنتفع بعلمه جمّ غفير، رحمه الله تعالى.

وفيها تُوُفّي الشيخ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود بن أحمد بن محمد التَّكْرِيتيّ الجدّ، المَوْصليّ الأب، الدمشقيّ المولد، المحليّ الوفاة، المعروف بابن الطحّان الشهير بالحافظ اليَغْمُوريّ؛ كان فاضلاً سمِع الكثير بعِدّة بلاد؛ وكان له مشاركة في فنون، وكان أديباً شاعراً. ومن شعره: [الرمل]

رجَع الودُّ على رَغْم الأعادي وأتى الوصلُ على وَفْق مرادِي
ما على الأيام ذنبٌ بعد ما كفّر القربُ إساءات البِعاد

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي الحافظ وجيه الدين أبو المظفّر منصور بن سليم الهَمْداني بالإسكندريّة في شوّال. وقاضي القضاة شمس الدين عبد الله بن محمد بن عطاء الحنفيّ في جمادى الأولى وهو في عشر الثمانين. وأبو الفتح عمر بن يعقوب الإربِلي الصوفيّ في يوم النحر.

أمر النيل في هذه السنة المباركة:

الماء القديم خمس أذرع وأربع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وثلاث أصابع.

* * *

السنة السادسة عشرة من سلطنة الملك الظاهر بِيبرس على مصر

وهي سنة أربع وسبعين وستمائة.

فيها تُوُفّي الأمير عزّ الدين أبو محمد أَيْبك بن عبد الله الإسكندرانيّ الصالحيّ النجميّ؛ كان أستاذه الملك الصالح نجم [الدين] أيّوب يِثق به ويعتمِد عليه وولّاه الشُّوبَك، وجعل عنده جماعة كثيرة من خواصّه: منهم الأمير عزّ الدين أَيْدَمُر الحِلّيّ، والأمير سَنْجَر الحِصْنِيّ(١)، والأمير أَيْبك الزرّاد؛ وكان عنده كفاية وخِبرة تامّة وصَرامَة شديدة ومهابة عظيمة يُقِيم الحدود على ما تَجِب، ثم نُقل في عدّة وظائف إلى أن مات في شهر رمضان بقلعة الرَّحبة ودفن بظاهرها.

وفيها تُوُفّي الحسن بن عليّ بن الحسن بن ماهك بن طاهر أبو محمد فخر الدين الحُسَيْني نقيب الأشراف وآبن نقيبهم؛ مولدُه سنة ثمانٍ وستمائة، ومات يوم الأحد تاسع شهر ربيع الأوّل بِبَعْلَبَكّ؛ وكان عنده فضيلة ومعرفة بأنساب العلويّين ونظَم نظماً متوسّطاً، وكان مبذِّراً للأموال.

وفيها توفّي الأمير الكبير ركن الدين خاص ترك بن عبد الله الصالحيّ النجميّ؛ وكان شجاعاً مِقداماً مقدّماً عند الملوك. مات في شهر ربيع الأوّل بدمشق.

وفيها توفيّ الشيخ زَيْن الدين أبو المظفّر عبد الملك بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحسن بن عبد الرحمن بن طاهر الحَلبِيّ الشافعيّ المعروف بآبن العَجَمِيّ؛ مولده بحلب سنة إحدى وتسعين وخمسمائة؛ وسمِع الحديث وحدّث وكان شيخاً فاضلاً. مات في ذي القعدة بالقاهرة، ودُفِن بسفح المقطّم وهو خال قاضي القضاة كمال الدين أحمد(٢) ابن الأستاذ.

(١) في الأصل: «سنجر الحلبي» وما أثبتناه عن طبعة دار الكتب المصرية.
(٢) تقدّمت وفاته سنة ٦٦٢هـ.

وفيها توفّي الشيخ بهاء الدين(١) أبو عبد الله محمد بن عُبَيْد الله. كان صَدْراً كبيراً عالماً فاضلاً شاعراً. مات بالقاهرة ودُفِن بالقرافة وهو في عشر الستين. ومن شعره، رحمه الله تعالى: [مجزوء الكامل]

ولقد شكوتُ لمتْلفِي حالي ولطّفْتُ العبارَهْ
فكأنّني أشكو إلى حَجَرٍ وإنَّ من الحِجارَهْ

وله: [الكامل]

يا راحلاً قد كِدْتُ أقضي بعدَه أسفاً وأحشائي عليه تَقَطَّعُ
شطّ المَزَارُ فما القلوب سواكنٌ لكنّ دمع العين بعدَك يَنْبُعُ

وفيها تُوُفّي الشيخ الإمام تاج الدين أبو الثناء محمود بن عابد بن الحسين بن محمد بن الحسين بن جعفر بن عمارة بن عيسى بن عليّ بن عمارة التميمي الصَّرْخَدِيّ الحنفيّ؛ مولدُه سنة ثمانٍ وسبعين وخمسمائة بصَرْخَد. ومات ليلة الجمعة السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر بدمشق، ودُفِن بمقابر الصوفيّة عند قبر شيخه جمال الدين الحَصِيرِيّ(٢)؛ كان من الصلحاء العلماء العاملين؛ كان كثير التواضع قَنُوعاً من الدنيا مُعْرِضاً عنها؛ وكانت له وجاهة عظيمة عند الملوك وآنتفع به جمٌّ غفير من الطلبة؛ وكانت له اليد الطُّولى في النظم والنثر. ومن شعره قوله: [مخلّع البسيط]

ما(٣) نلتُ من حُبّ من كلِفتُ به إلّا غراماً عليه أو وَلَها
ومِحْنَتِي(٤) في هواه دائرةٌ آخِرُها ما يزال أوّلَها

قلت: وأرشق من هذا مَنْ قال: [مجزوء الرجز]

(١) في السلوك: «زين الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن جبريل كاتب الإنشاء بقلعة الجبل».
(٢) تقدّمت وفاته سنة ٦٣٦هـ.
(٣) في الأصل: «ما قلت من حبّ من ذا كلفت به». وما أثبتناه عن طبعة دار الكتب المصرية.
(٤) في الأصل: «ومحبتي» وما أثبتناه عما سبق.

مـحبّتي مـا تَنْقـضِي لـجَـفْـوة تُـبْـطِلُها
كـأنّـهـا دائـرة آخـرهـا أوّلـهـا

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي المحدّث مَكِين الدين أبو الحسن بن عبد العظيم الحِصْنِيّ المصريّ في رجب، وله أربع وسبعون سنة. وسعد الدين أبو الفضل محمد بن مهلهل بن بَدْران الأنصاريّ الجبتي المصري سمِع الأَرْتاحيّ. وتوفي تاج الدين محمود بن عابد التميميّ الصَّرْخِديّ الحنفي الشاعر المشهور في شهر ربيع الآخر عن نيّف وتسعين سنة. وسعد الدين الخِضَر ابن شيخ الشيوخ تاج الدين عبد الله [ابن شيخ الشيوخ أبي الفتح عمر][1] بن حَمّويه الجُوَيْني في ذي الحجّة عن ثلاث وثمانين سنة. وأبو الفتح عثمان بن هبة الله بن عبد الرحمن [بن مَكّي بن إسماعيل][1] بن عوف الزهري آخر أصحاب آبن مُوقا[2] في شهر ربيع الآخر بالإسكندرية.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم القاعدة لم تُحرّر لاختلاف المؤرّخين. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وخمس عشرة إصبعاً.

* * *

السنة السابعة عشرة من سلطنة الملك الظاهر بِيبرس على مصر

وهي سنة خمس وسبعين وستمائة.

فيها تُوُفّي إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن عليّ بن جماعة بن حازم بن صخر، أبو إسحاق الحَمَويّ الكِنانيّ المعروف بآبن جماعة؛ سمِع الفخر[3] بن عساكر وغيره وحدّث. ومولدُه يوم الاثنين منتصف رجب سنة ست وتسعين وخمسمائة بحَمَاة، وهو والد القاضي بدر الدين[4] بن جماعة. مات يوم عيد النَّحْر.

(١) زيادة عن الشذرات.
(٢) راجع وفيات سنة ٥٩٩هـ.
(٣) راجع وفيات سنة ٦٢٠هـ.
(٤) سيأتي ذكره في وفيات سنة ٧٣٣هـ.

وفيها تُوفّي الأمير ناصر الدين محمد بن أَيْبَك الإسكندرِيّ؛ وكان ممّن جمع بين حسن الصورة وحسن السِّيرة ووفور العقل والرياسة ومكارم الأخلاق. مات غريقاً؛ مَرّ بفَرَسه على جسر حجر فزَلِق الفَرَس ووقع به في النهر وخرج الفرس سباحةً ومات هو. فكأنّ الجلال بن الصفّار المارديني عناه بقوله[1]: [البسيط]

يا أيّها الرَّشَأ المكحولُ ناظره بالسِّحر[2] حَسْبُك قد أحرقتَ أحشائي
إنّ آنغماسك في التّيار حقّق أ نّ الشمس تغرُب في عين من الماء

أو بقوله أيضاً. وقيل إنهما لأبي إسحاق الشِّيرازيّ[3]، والله أعلم: [الطويل]

غريقٌ كأنّ الموتَ رقّ لحُسْنِه فلَان له في صفحة الماء جانبُهْ
أبى الله أن يسلوه قلبي فإنّه توفّاه في الماء الذي أنا شارِبُهْ

وفيها تُوفّي الشيخ المُعْتَقد الصالح أبو الفِتْيَان أحمد بن عليّ بن إبراهيم بن أبي بكر المَقْدِسِيّ[4] الأصل البَدَوِيّ المعروف بأبي اللِّثامَيْن[5] السطوحيّ. مولده سنة ستّ وتسعين وخمسمائة، وتوفّي في سنة خمس وسبعين في شهر ربيع الأوّل، ودُفِن بطَنْدَتَا[6] وقَبره يُقصد للزيارة هناك، وكان من الأولياء المشهورين؛ وسُمّي بأبي اللِّثامَيْن لملازمته اللِّثامَيْن صيفاً وشتاءً؛ وكان له كرامات ومناقب جمة، رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته.

وفيها تُوُفّي العلامة بدر الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن

---

(١) في الأصل: «فقال فيه الجلال بن الصفّار المارديني» وهو غير مستقيم. لأن ابن الصفار توفي سنة ٦٥٨هـ. وورد في فوات الوفيات أن ابن الصفار قال هذا الشعر في غلام مليح غرق في الماء. (الفوات: ١٢١/٣).

(٢) رواية الفوات: «إني أعيذك من نار بأحشائي».

(٣) راجع وفيات سنة ٤٧٦هـ. وقد ورد هذان البيتان في ترجمة الشيرازي ببعض اختلاف عما هنا.

(٤) لعله: «الفاسي» لأن مولده بفاس من بلاد المغرب. (انظر الأعلام: ١٧٥/١).

(٥) ويشتهر بمصر باسم السيّد البدوي. وقد انتسب الظاهر بيبرس إلى طريقته الصوفية. (الأعلام) وضريحه مشهور بطنطا، ولا ينقطع عنه الزوّار للتبرك. ويحتفل أهل طنطا سنوياً بذكرى مولده. (محمد رمزي).

(٦) هي المدينة المصرية التي تعرف اليوم باسم «طنطا» قاعدة مديرية الغربية. ويرد اسمها في المصادر العربية: طنتثا، وطنتتا، وطنطنة، وطنتدا، وطندتا. (محمد رمزي).

عبد الرحمن بن محمد بن حَفَّاظ السُّلَمِيّ الحنفيّ المعروف بآبن الفُوَيْرة. مات بدمشق في يوم السبت حادي عشرين جمادى الأولى وقال الحافظ عبد القادر في طبقاته: رأيتُ بخط الحافظ الدِّمياطِيّ في مشيخته أنّه توفّي ليلة الجمعة فجأة منتصف شهر ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وستمائة. وكان إماماً عالماً متبحّراً في العلوم؛ درّس بالشِّبْلِيّة[١] [بجبل][٢] الصالحيّة وأفتى سنين وبرَع في الفقه والعربيّة وسمِع الكثير؛ وكان يكتُب خَطّاً حسناً، وله معرفة أيضاً بالأصول والأدب وله نَظْمٌ رائق؛ وكان رئيساً وعنده ديانة ومُروءة ومكارم أخلاق. ومن شعره: [السريع]

وشاعرٍ يَسْحَرُني طرفُه ... ورِقّة الألفاظ من شِعْرِه
أنشدني نظماً بديعاً فما ... أحَسَن ذاك النظم من ثَغْرِه

وله في معذّر: [مجزوء الكامل]

عانيتُ حَبّة خالِه ... في رَوْضَةٍ من جُلنّار
فغدَا فؤادي طائراً ... فآصطاده شركُ العِذار

وله: [البسيط]

كانتْ دموعِيَ حُمْراً يومَ بَيْنِهِمُ ... فمُذْ نَأوْا قصّرتها لَوْعَةُ الحُرَقِ
قطفتُ باللّحظ ورداً من خدودِهِمُ ... فآستقطرَ البعدُ ماء الورد من حَدَقِي

وقيل إنّه رُئِي في المنام بعد موته فسئل عمّا لَقِي بعد موته فكان جوابه: [السريع]

ما كان لي من شافعٍ عنده ... إلّا آعتقادي أنّه واحدُ

وفيها تُوُفّي الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن منصور الحَرّانيّ الحنبليّ؛ كان فقيهاً إماماً عالماً عارفاً بعلم الأصول والخِلاف والفقه ودرّس

---

(١) المدرسة الشبلية بسفح جبل قاسيون. بناها شبل الدولة الحسامي طواشي حسام الدين محمد بن لاجين. (الدارس: ١/٤٠٧).

(٢) في الأصل: «ودرّس بالشبلية وبالصالحية» وما أثبتناه عن طبعة دار الكتب المصرية. وجاء في الدارس: ١/٤٣٤ أنه درّس بالمدرسة القصاعية بحارة القصاعين.

وأفتى وآشتغل [على الشيخ علم الدين القاسم في الأصول والعربيّة][١] ومات في جُمادى الأولى. ومن شعره قوله: [الرمل]

طار قلبي يوم ساروا فَرَقَا ... وسواءٌ فاض دمعي أو رَقَا
حار في سُقْمِيَ من بعدهم ... كلّ من في الحيّ دَاوَى أو رَقَى
بعدهم لا طُلَّ وادي المنحنَى ... وكذا بانُ الحِمَى لا أورقا

وفيها توفي الأديب الشاعر شهاب الدين أبو المكارم محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة الشيباني التلَّعْفَري[٢] الشاعر المشهور؛ مولده سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بالمَوْصِل، ومات بحَمَاة في شوّال. كان أديباً فاضلاً حافظاً للأشعار وأيّام العرب وأخبارها، وكان يتشيّع؛ وكان من شعراء الملك الأشرف موسى شاه أَرْمن، وكان التّلَّعْفرِيّ هذا مع تقدّمه في الأدب وبراعته آبْتُلِي بالقِمار، ووقع له بسبب القِمار أمور منها: أنه نُودِي بحلب من قِبَل السلطان: من قامَرَ مع الشّهاب التلَّعْفَرِيّ قطعنا يده، فضاقت عليه الأرض، فجاء إلى دِمَشق ولم يزل يستجدي ويُقَامِر حتى بقي في أُتون من الفقر.

قلت: وديوان شعره لطيفٌ في غاية الحسن وهو موجود بأيدي الناس. ومن شعره قصيدته المشهورة: [الخفيف]

أيَّ دمع من الجفون أَسَالَهْ ... إذ أتتْه مع النسيم رِسالَهْ
حَمَّلَته الرياحُ أسرارَ عَرْفٍ ... أودعتْها السحائبَ الهَطّالَهْ
يا خليلي وللخليل حُقوقٌ ... واجباتُ الأحوال في كلّ حالهْ
سَلْ عقيقَ الحِمى وقل إذ تراه ... خالياً من ظِبائِه المُخْتالَهْ
أين تلك المَرَاشِفُ العسلِيّـ ... ـاتُ وتلك المعاطفُ العسّالَهْ
وليالٍ قضيتُها كلآل ... بغزالٍ تَغارُ منه الغَزالَهْ
بابليّ الألحاظِ والريقِ والألـ ... ـفاظِ كلُّ مدامةٌ سلسالَهْ

(١) زيادة عن طبعة دار الكتب المصرية.
(٢) نسبة إلى التلّ الأعفر بنواحي الموصل.

من بني التُّرْكِ كلّما جَذَبَ القو سَ رأينا في بُرْجِه بَدْر هالـه
أوقـع[١] الوهمَ حين يَرْمِي فلم ند رِ يـداه أم عينُـه النَّبَّالَـهْ
قلتُ لمّـا لَوَى ديـونَ وِصَالِي وهـو مثـرٍ وقـادرٌ لا محالـه
بيننا الشرعُ قال سِرْ بي فعندي من صفاتي لكلّ دَعْوَى دلالـه .
وشهودِي من خال خدِّي و[من][٢] قَدِّ ي شهـودٌ معروفـةٌ بالعَدَالـه
أنـا وكلتُ مُقْلتِي في دم الخلـ ـقِ فقالتْ: قبِلت هذي الوَكَالـه

وله موشّحة مدح بها شهاب الدين الأعزازيّ[٣]، ثم وقع بينهما وتهاجيا. وأوّل الموشّحة:

ليس[٤] يُرْوِي ما بقلبي من ظَمَا غيـرُ بـرقٍ لائح مـن إضَـمِ

إن تبـدّى لـكَ بـانُ الأجـرع
وأُثَيْـلاتُ النَّقـا مـن لَعْلَـعِ

يـا خَليلي قـفْ على الـدّار مَـعِي
وتـأمّـلْ كـم بـهـا مـن مَـصْرَعِ

وآحتـرز وآحذر فـأحداق الدُّمَى كم أراقت في رُبـاهـا من دمِ

حظّ قـلبي فـي الـغـرام الـولَـهُ
فـعـذولي فـيـه[٥] مـا لي ولَـهُ
حـسبيَ[٦] الـلـيـلُ فـمـا أطـولَـهُ
لـم يـزل آخـرُه أوّلَـهُ

---

(١) رواية الأصل:

يقطع الوهم حين يرمي ولا تد ري يداه أو عينه النبّاله

وما أثبتناه من طبعة دار الكتب عن ديوانه، وهي أوضح في المعنى والسياق.

(٢) زيادة عن فوات الوفيات.

(٣) انظر وفيات سنة ٧١٠هـ.

(٤) في الأصل: « كيف يروي». وما أثبتناه عن الفوات.

(٥) في الأصل: « فعذولي في الهوى». وما أثبتناه عن الفوات.

(٦) في الأصل: « حتى الليل علي ما أطوله» وما أثبتناه رواية الفوات.

في هوى أهيفَ معسول اللَّمَى ريقه كم قد شفَى من ألمِ

وله في القِمار: [الرجز]

ينشَرِح الصدرُ لمَنْ لاعَبَني والأرضُ بي ضيِّقةٌ فُروجُها
كم شوّشت شهوتُها[1] عقلي وكم عهداً سقتني عامداً بنوجُها

ومن شعره وأجاد، عفا الله عنه: [الوافر]

أُحبّ الصالحين ولستُ منهم رجاءً أن أنال بهم شفاعَهْ
وأُبْغِض من به أثرُ المعاصي وإن كنّا سواءً في البِضاعَهْ

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي القاضي شمس الدين عليّ بن محمود الشهرُزُورِيّ مدرّس القَيْمُرِيّة في شوّال. والشيخ قطب الدين أحمد بن عبد السلام بن أبي عَصْرُون بحلب في جُمادى الآخرة. والإمام شمس الدين محمد بن عبد الوهّاب بن منصور الحَرَانيّ الحنبلِيّ في جُمادى الأولى. والشهاب محمد بن يوسف بن مسعود التَّلَّعْفَرِيّ الشاعر بَحَماة في شوّال، وله ثلاث وثمانون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وثلاث عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وإحدى عشرة إصبعاً.

---

(١) في طبعة دار الكتب: «شيوشُها».

ذكر سلطنة السلطان الملك السعيد[١] محمد آبن الملك الظاهر بِيبرس على مصر

هو السلطان الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالي محمد المدعو بركة خان آبن السلطان الملك الظاهر بِيبَرْس البُنْدُقْدَارِيّ الصالحيّ النَّجْمِيّ، الخامس من ملوك التُّرك بمصر. سُمِّي بركة خان على آسم جدّه لأمّه[٢] بركة خان بن دولة خان الخُوَارَزْمِي.

تسلطن الملك السعيد هذا في حياة والده حسب ما ذكرناه في ترجمة والده في يوم الخميس تاسع صفر سنة سبع[٣] وستين وستمائة. وأقام على ذلك سنين، وليس له من السلطنة إلّا مجرّد الاسم، إلى أن تُوفّي أبوه الملك الظاهر بِيبرس في يوم الخميس بعد صلاة الظهر التاسع والعشرين من المحرّم من سنة ستّ وسبعين وستمائة بدِمَشْق. آتفق رأي الأمراء [على] إخفاء موت الظاهر، وكَتَب الأمير بِيلِيك[٤] الخازِندار عرّف الملك السعيد هذا بذلك على يد الأمير بدر الدين بَكْتُوت الجُوكَنْدار الحَمَوِيّ، وعلى يد الأمير علاء الدين أَيْدغمُش الحَكِيميّ الجاشْنِكِير.

---

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك: ٦٤١/٢/١؛ والخطط المقريزية: ٢٣٨/٢؛ والجوهر الثمين: ٨٥/٢؛ وبدائع الزهور: ٣٤٢/١/١؛ وشذرات الذهب: ٣٦٢/٥.

(٢) ورد خطأ في بدائع الزهور أنه جده لأبيه.

(٣) كذا أيضاً ورد في ترجمة الظاهر بيبرس، ص ١٤٤ من هذا الجزء. وفي طبعة دار الكتب المصرية استبدل المحقق هذا التاريخ بتاريخ « الخميس ثالث عشر شوال سنة ٦٦٢هـ». والواقع أن بيبرس حلّف الأمراء على البيعة لولده الملك السعيد مرتين: الأولى سنة ٦٦٢هـ، ثم جدّدها سنة ٦٦٧هـ.

(٤) كان هذا الأمير في ذلك الوقت نائب السلطنة بالديار المصرية، أوما يسمى بالنائب الكافل. وقد ولي هذه الوظيفة للظاهر بيبرس ثم لولده الملك السعيد هذا في بداية سلطنته.

فلمّا بَلَغ الملك السعيدَ موتُ والده الملك الظاهر أخفاه[١] أيضاً، وخلَع عليهما وأعطى كلّ واحد منهما خمسين ألف دِرهم، على أنّ ذلك بِشارةٌ بعَوْد السلطان إلى الديار المصريّة. وسافرت العساكر من دِمَشْق إلى جهة الديار المصريّة فدخلوها يوم الخميس سادس عشرين صفر من سنة ستّ وسبعين وستمائة، ومقدّمُهم الأمير بدر الدين بِيلِيك الخازِندار؛ ودخلوا مصر وهم يُخْفُون موت الملك الظاهر في الصورة الظاهرة، وفي صدر المَوْكِب مكان تَسْبِير السلطان تحت العصائب[٢]، مِحَفّةٌ وراءها السِّلَحْدارِية والجَمَدارِيّة وغيرهم من أرباب الوظائف تُوهِم أنّ السلطان في المِحفّة مريض، هذا مع عمل جِدّ في إظهار ناموس السلطنة والحُرْمة للمِحَفّة والتأدُّب مع مَن فيها حتى تمّ لهم ذلك.

قلتُ: لله درّهم من أمراء وحاشية! ولو كان ذلك في عصرنا هذا ما قدر الأمراء على إخفاء ذلك من الظهر إلى العصر.

ولمّا وصلوا إلى قلعة الجبل، ترجّل الأمراءُ والعساكر بين يدي المِحَفّة، كما كانت العادة في الطريق في كل منزلة من حين خروجهم من دمشق إلى أن وصلوا إلى قلعة الجبل من باب السرّ، وعند دخولها إلى القلعة آجتمع الأمير بدر الدين بِيلِيك الخازِندار بالملك السعيد هذا، وكان الملك السعيد لم يركب لتلقّيهم، وقبّل الأرض ورَمَى بعمامته ثم صرَخ، وقام العَزَاء في جميع القلعة، ولوقتهم جمعوا الأمراء والمقدمين والجند وحلّفوهم بالإيوان المجاور لجامع القلعة للملك السعيد، وآستثبت له الأمر على هذه الصورة، وخُطِب له يوم الجمعة [سابع عشرين صفر][٣] بجوامع القاهرة ومصر، وصُلّي على والده صلاة الغائب.

---

(١) ذكر ابن إياس أن السبب في إخفاء موت الظاهر هو خوف الأمراء، وعلى رأسهم بيليك الخازندار، من عودة التتار إلى البلاد إذا بلغهم موته. (بدائع الزهور: ٣٤٢/١/١).

(٢) العصائب: هي الأعلام. وهي عبارة عن عدة رايات، منها راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب عليها ألقاب السلطان واسمه. وهي مما يستعمل في مواكب السلطان. (صبح الأعشى: ٨/٤، ومسالك الأبصار: ٩٧).

(٣) زيادة عن السلوك.

ومولد الملك السعيد هذا في صفر سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة؛ وقيل: سنة سبع وخمسين بالعُشّ[١] من ضواحي مصر، ونشأ بديار مصر تحت كنَفَ والده إلى أن سلطنه في حياته؛ كما تقدّم ذكره.

وأمّا الأمير بدر الدين بيليك الخازِندار فإنّه لم تَطُل مدّته، ومات في ليلة الأحد سابع شهر ربيع الأوّل. وخَلَع الملك السعيد على الأمير شمس الدين آق سُنْقُر الفارِقَانِيّ بنيابة السلطنة عِوَضاً عن بِيلِيك الخازِنْدار المذكور.

وفي سادس عشر شهر ربيع الأوّل [يوم الأربعاء][٢] ركب السلطان الملك السعيد من القلعة تحت العَصَائب على عادة والده وسار إلى تحت الجبل الأحمر[٣]، وهذا أوّل ركوبه بعد قدوم العسكر، ثم عاد وشقّ القاهرة وسُرّ الناس به سروراً زائداً، وكان عمره يومئذ تسع عشرة سنة؛ وطلَع القلعة وأقام إلى يوم الجمعة خامس وعشرين شهر ربيع الأوّل المذكور قَبَض على الأمير سُنْقُر الأشقر وعلى الأمير بدر الدين بَيْسَرِيّ وحبسهما بقلعة الجبل. ثم في يوم السبت ثامن عشر شهر ربيع الآخر قَبَض الملك السعيد على الأمير آق سُنْقُر الفارِقانِيّ نائب السلطنة بديار مصر المقدّم ذكره. ثم في تاسع عشر الشهر المذكور أفرج الملك السعيد عن الأمير سُنْقُر الأشقر وبيسري وخلَع عليهما وأعادهما إلى مكانتهما[٤].

---

(١) العشّ: هي القرية التي تعرف اليوم باسم منية شبين إحدى قرى شبين القناطر بمديرية القليوبية. والعش ما زال يطلق على الحوض رقم ٣ المجاور لسكن منية شبين. (محمد رمزي).

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) الجبل الأحمر: هذا الجبل مطلّ على القاهرة من شرقيها الشمالي ويعرف باليحموم أي الجبل الأسود المظلم. (خطط المقريزي: ١/١٢٥).

(٤) وقد سجنهما الملك السعيد بالقلعة ثلاثة وعشرين يوماً. قال المقريزي: فزادت الوحشة بينه وبين الأمراء، ودخل خاله الأمير بدر الدين محمد بن بركة خان إلى أخته أم السلطان وقال لها: «قد أساء ابنك التدبير بقبضه على مثل هؤلاء الأمراء الكبار، والمصلحة أن تردّيه إلى الصواب لئلا يفسد نظامه وتقصر أيامه». فلما بلغ الملك السعيد ذلك قبض عليه واعتقله. فلم تزل به أمه تعنّفه وتتلطف به حتى أطلقهم وخلع عليهم وأعادهم إلى ما كانوا عليه، وقد تمكنت عداوته في قلوبهم (السلوك: ١/٢/٦٤٥) ـ وقال ابن إياس في بدائع الزهور: «ولما مات الأمير بيليك طاش الملك السعيد، واقتدى برأي الأوباش فقبض على جماعة من الأمراء ... واستمر يفعل من هذه المساوىء حتى نفرت عنه قلوب العسكر وتمنى كل أحد زواله» (بدائع الزهور: ١/١/٣٤٣).

وفي يوم الاثنين رابع جُمادى الأولى فُتِحت المدرسة[١] التي أنشأها الأمير آق سُنْقُر الفارَقَانِيّ المجاورة للوزيريّة[٢] بالقاهرة وجعل شيخها على مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه.

وفي يوم الجمعة [خامس عشريه][٣] قَبض الملك السعيد على خاله الأمير بدر الدين محمد آبن الأمير حسام الدين بركة خان الخُوَارَزْمِيّ وحبسه بقلعة الجبل لأَمْرٍ نَقَمَه عليه[٤]، ثم أفرج عنه في ليلة خامس عشرينه، وخَلَع عليه وأعاده إلى منزلته.

وكان الملك السعيد هذا أَمَرَ ببناء مدرسة لدَفْن أبيه فيها، حسب ما أوصى به والده، فنقل تابوت الملك الظاهر بِيبَرْس في ليلة الجمعة خامس شهر رجب من قلعة دمَشْق إلى التربة المذكورة بدِمَشْق داخل باب الفرج قُبالة المدرسة العادِلِيّة؛ والتربة المذكورة كانت دار الشريف العقيقي[٥] فآشترِيت وهُدِمت، وبَنى موضع بابها قُبّة الدفن وفتَح لها شبابيك على الطريق وجعَل بقيّة الدار مدرسة على فريقين: حنفيّة وشافعيّة. وكان دفنه بها في نصف الليل، ولم يحضره سوى الأمير عِزّ الدين أَيْدَمُر الظاهريّ نائب الشام، ومن الخواصّ دون العشرة لا غير.

ثم وقع الاهتمام إلى السَّفَر للبلاد الشامية وتجهّز السلطان والعساكر. فلمّا كان يوم السبت سابع ذي القعدة بَرَز الملك السعيد بالعساكر من قلعة الجبل إلى مسجد التّبن[٦] خارج القاهرة فأقام به إلى يوم السبت حادي عشرينه، اِنتقل بخواصّه

(١) المدرسة الفارقانية. (انظر خطط المقريزي: ٣٦٩/٢) وهذه المدرسة لا تزال موجودة إلى اليوم بشارع درب سعادة، وتعرف باسم جامع محمد آغا أو جامع الحبشلي (محمد رمزي).
(٢) المدرسة الوزيرية: سبق الكلام عليها في الجزء الرابع، ص ٥١.
(٣) زيادة عن السلوك.
(٤) راجع الصفحة السابقة، حاشية (٤).
(٥) انظر عن المدرسة الظاهرية الجوانية ودار الشريف العقيقي: الدارس في تاريخ المدارس: ٢٦٣/١ ــ وعن المدرسة العادلية الكبرى انظر نفس المرجع: ٢٧١/١ وخطط الشام لمحمد كرد علي: ٨٤/٦.
(٦) راجع ص ١٧٢، حاشية (٤).

إلى المَيْدان الذي أنشأه بين مصر والقاهرة، ودخلت العساكر إلى منازلهم، وبطَلَت حركة السفر بعد أن أعاد قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خَلِّكَان إلى قضاء دِمَشق وأعمالها من العَرِيش إلى سَلَمْيَة، وتوجهّ آبن خلكان إلى الشام، وطلع الملك السعيد إلى قلعة الجبل وأبطل حركة السفر بالكليّة إلى وقت يريده حسب ما وقع الاتفاق عليه، وآستمرّ بالقلعة إلى أن أمر العساكر بالتأهب إلى السفر وتجهّز هو أيضاً لأمرٍ آقتضى ذلك.

وخرج من الديار المصريّة في العشر الأوسط من ذي القعدة من سنة سبع وسبعين وستمائة، وخرج من القاهرة بعساكره وأمرائه، وسار حتى وصل إلى الشام في خامس ذي الحجّة، فخرج أهلُ دِمَشْق إلى ملتقاه وزيّنوا له البلد وسُرُّوا بقدومه سروراً زائداً. وعَمِل عيد النَّحْر بقلعة دمشق وصلّى العيد بالمَيْدان الأخضر.

وورد عليه الخبر بموت الصاحب بهاءالدين عليّ بن محمد بن سليم بن حِنّا بالقاهرة، فَقَبَض السلطان على حفيده الصاحب تاج الدين محمد، وضرب الحَوْطة على موجوده بسبب موت جَدّه الصاحب بهاء الدين المذكور[١].

ثم أرسل السلطان الملك السعيد إلى بُرْهان الدين الخَضِر[٢] بن الحسن السِّنْجارِيّ بآستقراره وزيراً بالديار المصرية ثم خَلَع السلطان على الصاحب فتح الدين عبد الله بن القَيْسَرَانِيّ بوزارة دمشق، وبسط يده في بلاد الشام وأَمر القضاة وغيرهم بالركوب معه.

ثم جهّز السلطان العساكر إلى بلاد سِيس للنّهْب والإغارة، ومقدّمُهم الأمير سيف الدين قلاوون الأَلْفِيّ[٣]. وأقام الملك السعيد بدِمَشْق في نَفَر يسير من الأمراء

(١) قارن بالسلوك: ١/٢/٦٤٩.

(٢) وكان بينه وبين ابن حنا الوزير السابق عداوة ظاهرة وأحقاد كامنة، فبلغ من التمكن في أولاده وأمواله ما كان يؤمله. (السلوك: ١/٢/٦٤٩).

(٣) أشار المقريزي إلى أن هذا التدبير من قبل الملك السعيد كان بهدف التخلّص من هؤلاء الأمراء. قال: «وفيه ـ أي ذي الحجة سنة ٦٧٧هـ ــ أشار خاصكية السلطان عليه بإبعاد الأمراء الأكابر عنه، فجهز الأمير قلاوون الألفي بعسكر، وجهز الأمير بيسري بعسكر، وأنفق فيهم الأموال. فساروا إلى جهة سيس =

والخواصّ، فصار في غَيْبة العسكر يُكثِر التردُّد إلى الربَعية من قرى المَرْج يُقيم فيها أيّاماً ثمّ يعود. ثم أسقط السلطان ما كان قرّره والده الملك الظاهر على بساتين دِمَشْق في كلّ سنة، فسُرّ الناس بذلك وتضاعفت أدعِيَتُهم له وآستمرّ السلطان بِدمَشْق إلى أن وقـع الخُلْفُ في العَشْر الأوسط من شهر ربيـع الأوّل من سنة ثمانٍ وسبعين بين المماليك الخاصَّكِيّة الملازِمين لخدمته وبين الأمراء لأمورٍ يطول شرحها. وعَجَز الملك السعيد عن تلافي ذلك، وخرج عن طاعته الأميرُ سيف الدين كَوُنْدَك[١] الظاهريّ نائب السلطنة ومقدّم العساكر مُغاضباً للسلطان الملك السعيد، وخرج معه نحو أربعمائة مملوك من الظاهريّة: منهم جماعة كثيرة مشهورة بالشجاعة ونزلوا بمنزلة القُطَيِّفة[٢] في آنتظار العساكر التي ببلاد سيس؛ ففي العشر الأخير من شهر ربيـع الأوّل عادت العساكر من بلاد سِيس إلى جهة دِمَشْق فنزلوا بمَرْج عَذراء[٣] إلى القُصَيْر؛ وكان قد آتّصل بهم سيف الدين كَوُنْدَك ومَنْ معه وآستمالوهم فلم يدخل العسكر دِمَشق، وأرسلوا إلى الملك السعيد في معنى الخُلْف الذي حصل بين الطائفتين، وكان كَوْنَدَك مائلاً إلى الأمير بَيْسَرِيّ. ولمّا آجتمـع بالأمير سيف الدين قلاوون الألفي والأمير بدر الدين بَيْسَرِيّ والأمراء الكبار أوحى إليهم عن السلطان ما غلّت صدورهم، وخوّفهم من الخاصَّكِيّة وعرّفهم أنّ نيّتهم لهم غير جميلة، وأنّ الملك السعيد موافقٌ على ذلك وأكثَرَ من القول المختلق؛ فوقـع الكلام بين الأمراء

= وفي نفوسهم من ذلك إحن» ـ (السلوك: ٦٥٠/٢/١) ثم إنه في المحرم من سنة ٦٧٨هـ قرر مع خاصكيته القبض على هؤلاء الأمراء عند عودهم من سيس، كما قرر نزع إقطاعاتهم وإعطاءها لآخرين غيرهم. واتفق في ذلك الوقت أن حدث نفور بين الملك السعيد ونائبه كوندك (وكان هذا الأخير مقرباً جداً من السلطان بسبب صحبة قديمة بينهما) بسبب خاصكية السلطان، فاتفق كوندك مـع جماعة الأمراء، وكان هذا بداية النهاية بالنسبة لسلطنة الملك السعيد. ولم ينفـع تدخل والدته أو الخليفة الحاكم بأمر الله للتوسط والصلـح فيما بين الطرفين. (انظر المرجع السابق: حوادث سنتي ٦٧٧ ـ ٦٧٨هـ؛ والجوهر الثمين: ٨٦/٢ ـ ٨٩).

(١) راجـع الصفحة السابقة، حاشية (٣).

(٢) القطيفة: قرية دون ثنية العقاب للقاصد إلى دمشق في طرف البرية من حمص. (معجم البلدان).

(٣) عذراء: قرية بغوطة دمشق. وإليها ينسب مرج عذراء. والقصير: هي ضيعة أول منزل لمن يريد حمص من دمشق. وهي غير حصن القصير. (معجم البلدان).

الكِبار وبين السلطان الملك السعيد، وتردّدت الرُّسل بينهم، فكان من جملة ما آقترح الأمراءُ على الملك السعيد إبعادُ الخاصّكِيّة عنه، وألّا يكون لهم في الدولة تدبيرٌ ولا حديث، بل يكونوا على أخبازهم ووظائفهم مُقيمين؛ فلم يُجِب الملك السعيد إلى ذلك؛ فرحل العسكر من مَرْج عَذراء إلى ذَيْل عَقَبة الشُّحُورَة بأسرهم ولم يعبُروا المدينة بل جعلوا طريقهم من المَرْج، وأقاموا بهذه المنزلة ثلاثة أيام، والرُّسل تتردّد بينهم وبين الملك السعيد؛ ثم رَحَلوا ونزلوا بمَرْج الصُّفَّر[1]، وعند رحيلهم رجع الأمير عِزّ الدين أَيْدَمُر الظاهريّ نائب الشام وأكثرُ عسكر دِمَشق، وقدِموا مدينة دِمَشق ودخلوا في طاعة السلطان. وفي يوم رحيلهم من مَرْج الصُّفَّر سَيّر الملك السعيد والدته بنت بركة خان في مِحَفّة وفي خدمتها الأمير شمس الدين قَرَاسُنْقُر، وكان من الذين لم يتوجّهوا إلى بلاد سِيس ولَحِقوا العسكر؛ فلمّا سمِعوا بوصولها خرج الأمراء الأكابر المقدّمون لملتقاها، وترجّلوا بأجمعهم وقبّلوا الأرض أمام المحفّة، وبَسَطُوا الحرير العَتّابي[2] وغيره تحت حوافر بِغال المِحَفّة ومشَوْا أمام المِحَفّة حتى نزلت في المنزلة، فلمّا آستقرّت بها تحدّثْت معهم في الصلح والانقياد واجتماع الكلمة، فذكروا ما بلغهم من تغيّر السلطان عليهم، وموافقته الخاصَّكِيّة على ما يرومونه من إمساكهم وإبعادهم؛ فحَلفتْ لهم على بُطلان ما نُقِل إليهم، فآشترطوا شروطاً كثيرة آلتزمتْ لهم بها، وعادت إلى ولدها وعرّفته الصورة؛ فمنعه مَن حوله من الخاصَّكِيّة من الدخول تحت تلك الشروط، وقالوا: ما القصد إلّا إبعادنا عنك حتّى يتمكنوا منك وينْزِعُوك من الملك، فمال إلى كلامهم وأَبى قبول تلك الشروط.

فلمّا بلغ العسكرَ ذلك رحل من مَرْج الصُّفَّر قاصداً الديار المصريّة؛ فخرج السلطان الملك السعيد بنفسه فيمن معه من الخاصَّكِيّة جريدةً، وساق في طلبهم ليتلافى الأمر إلى أن بلغ رأس الماء، فوجدهم قد عَدَوْه وأبعدوا، فعاد من يومه ودخل قلعة دِمَشق في الليل وهي ليلة الخميس سَلْخ شهر ربيع الأوّل سنة ثمانٍ

(١) تقدم الحديث عنه في الجزء السادس، ص ١٤٩، حاشية (٨).
(٢) العتّابي: قماش خشن بحمرة وصفرة. وسمّي بذلك نسبة إلى محلة العتابية ببغداد.

وسبعين وستمائة. وأصبح في يوم الجمعة مستهلّ شهر ربيع الآخر خرج السلطان الملك السعيد بجميع من تخلّف معه من العساكر المصريّة والشاميّة إلى جهة الديار المصريّة بعد أن صلّى الجمعة بها، وسار بَمن معه في طلب العساكر المقدّم ذكرهم، وجهّز والدته وخزائنه إلى الكَرَك؛ وسار حتّى وصل إلى بُلْبَيْس يوم الجمعة خامس شهر ربيع الآخر المذكور؛ فوجد العسكر قد سبقه إلى القاهرة؛ فأَمَر بالرحيل من بُلْبَيس؛ فلمّا أخذت العساكر في الرحيل من بُلْبَيْس بعد العصر فارق الأمير عِزّ الدين أَيْدَمُر الظاهريّ نائبُ الشام وصحبتهُ أكثرُ أمراء دمشق السلطانَ الملكَ السعيد، وآنضاف إلى المصريّين[١]؛ وبلغ الملكَ السعيدَ ذلك فلم يَكْتَرِث؛ وركب بَمن بَقِي معه من خواصّه وعساكره وسار بهم حتّى وصل ظاهر القاهرة؛ وكان نائبه بالديار المصريّة الأميرَ عز الدين أَيْبَك الأفرم، وهو بقلعة الجبل والعساكر مُحْدِقة بها، فتقدّم الملك السعيد بَمْن معه لقتال العساكر، وكان الذي بقِي مع السلطان الملك السعيد جماعة قليلة بالنسبة إلى من يقاتلونه، ووقع المصافّ بينهم وتقاتلوا فحمَلَ الأميرُ سَنْجَر الحلبيّ من جهة الملك السعيد وشقّ الأطلاب ودخل إلى قلعة الجبل بعد أن قُتِل من الفريقين نفرٌ يَسِير، ومَلَك القلعة وشال عَلَم السلطان، ثم نزل وفتح للملك السعيد طريقاً وطلعَ به إلى القلعة.

وأمّا سُنْقُر الأشقر فإنّه بَقِي في المَطَرِيّة[٢] وحده وصار لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. ولمّا طلع السلطان إليها أحاطت العساكر بها وحاصروها وقاتلوا مَنْ بها قتالاً شديداً وضايقوها وقطعوا الماء الذي يطلُع إليها وزَحَفُوا عليها فجُدوا في القتال، ورأى الملك السعيد تخلّي من كان معه وتخاذُل من بقي من الخاصَّكِيّة، وعَلِم أنّه لا طاقةَ له بهم؛ وكان المشار إليه في العسكر المُخَامِر الأميرَ سيف الدين قلاوون الأَلْفِيّ، وهو حمو الملك السعيد، فإنّ الملك السعيد كان تزوّج آبنته قبل ذلك بمدّة[٣]، فَجرت المراسلات بينهم وكثُر الكلام وتردّدت الرُّسل غير مرّة، حتّى آستقرّ

(١) المراد جماعة الأمراء الكبار الذين خرجوا على الملك السعيد، وفي مقدمهم بيسري وقلاوون.

(٢) المطرية: من القرى المصرية القديمة. ولا تزال موجودة بهذا الاسم في الضواحي الشمالية الشرقية لمدينة القاهرة.

(٣) راجع ص ١٤٨ من هذا الجزء، حاشية (١).

الحال على أن الملك السعيد يُخْلَع من السلطنة ويُنَصِّبونَ في السلطنة أخاه بدر الدين سَلاَمُش آبن الملك الظاهر بيبرس، ويُقْطِعون الملك السعيد هذا وأخاه نجم الدين خَضِراً الكَرَك والشُّوبَك وأعمالهما؛ فسيّر الملك السعيدُ الأميرَ علم الدين سَنْجَر الحَلَبِيّ والقاضيَ تاج الدين محمد بن الأثير إلى الأمير سيف الدين قلاوون وأعيان الأمراء ليستوثِق لنفسه منهم، فحَلفوا على الوفاء بما آلتزموه من إعطاء الكرك والشُّوبَك له ولأخيه. وخرج من قلعة الجبل يوم الأحد سابع عشر شهر ربيع الآخر المذكور ونزل إلى دار العدل[١] التي على باب القلعة، وكانت مركز الأمير قلاوون في حال المصافّ والقتال، وكان الحِصار ثلاثة أيام بيوم القُدوم لا غير.

ولمّا حضر الملك السعيد إلى عند قلاوون أحضر أعيان القضاة والأمراء والمُفتِين وخلعوا الملك السعيد هذا من السلطنة وسلطنوا مكانه أخاه بدر الدين سلامش ولقّبوه بالملك العادل سلامش، وعُمره يومئذ سبع سنين، وجعلوا أَتابكه الأمير سيف الدين قلاوون الألفي الصالحيّ النَّجْمِيّ. وآستمّرت بنت قلاوون عند زوجها الملك السعيد المذكور إلى ما سيأتي ذكره.

ثم أخذ قلاوون في تحليف الأمراء للملك العادل فحلفوا بأجمعهم على العادة، وضُربت السِّكّة في أحد الوجهين: آسم الملك العادل والآخر آسم قلاوون، وخُطِب لهما أيضاً معاً على المنابر، وآستمرّ الأمر على ذلك؛ وتصرّف قلاوون في المملكة والخزائن، وعامله الأمراء والجيوش بما يعاملون به السلطان. ثم عَمِل قلاوون بخَلْع الملك السعيد محضراً شرعياً ووضع الأمراءُ خطوطَهم عليه وشهادتَهم فيه، وكتب فيه المُفتون والقضاةُ وأعطوا الملك السعيد الكَرَك وعملَها، وأخاه نجم الدين خَضِراً الشُّوبك وعَمَلها. وخرج الملك السعيد من قلعة الجبل إلى بِرْكة الحُجّاج متوجِّهاً إلى الكَرَك في يوم الاثنين ثامن عشر شهر ربيع الآخر المذكور من سنة ثمانٍ وسبعين (أعني ثاني يوم من خلعه) ومعه جماعة من العسكر صورة ترسيم، ومقدّمهم الأمير سيف[٢] الدين بيدغان الرُّكْنِي، ثم بَدَا لهم أن يرجِعوا به

---

(١) راجع ص ١٤٦ من هذا الجزء، حاشية (٤).

(٢) كذا أيضاً في السلوك. وفي الجوهر الثمين: « بدر الدين».

إلى القلعة فعادوا إليها في نهار الاثنين لأمرٍ أرادوه وقرّروه معه ثم أَمَرُوه بالتوجّه؛ فخرج وسافر ليلة الثلاثاء إلى الكَرَك بمن معه فوصلها يوم الاثنين خامس عشرين شهر ربيع الآخر المذكور، وتسلّم أخوه نجم الدين خَضِر الشُّوبَك، وكان الأمير بيدغان ومن معه قد فارقوا الملك السعيد من غَزّة ورجعوا إلى الديار المصريّة؛ وأقام الملك السعيد بالكَرَك وزال مُلْكه؛ فكانت مدّة حُكمه وسلطنته بعد موت أبيه الملك الظاهر بِيبَرْس إلى يوم خلعه سنتين وشهرين[١] وخمسة عشر يوماً؛ وآستمرّ بالكَرَك مع مماليكه وعياله، وقصده الناس والأجناد، فصار يُنعم على من يَقْصِده، وآستكثر من آستخدام المماليك.

ثم رَسَم الأميرُ سيف الدين قلاوون بآنتقال الملك خَضِر من الشُّوبَك إلى عند أخيه الملك السعيد بالكَرَك، وتسلّم نُوّاب قلاوون الشُّوبَك؛ ودام الملك السعيد على ذلك حتى خُلِع سَلَامش من السلطنة وتسلطن قلاوون حسب ما يأتي ذكر ذلك كلّه في ترجمتهما.

فلمّا تسلطن قلاوون بلغه عن الملك السعيد أنّه آستكثر من آستخدام المماليك وأنّه يُنْعِم على مَنْ يقصِده فآستوحش منه، وتأثّر من ذلك. فمرِض الملك السعيد بعد ذلك بمدّة يسيرة وتُوفّي[٢]، رحمه الله تعالى، في يوم الجمعة حادي عشر ذي القعدة سنة ثمانٍ وسبعين وستمائة بالكَرَك، ودُفن من يومه بأرض مُؤْتة[٣] عند جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، ثم نُقِل بعد ذلك إلى دِمَشق في سنة ثمانين وستمائة فدُفِن إلى جنب والده الملك الظاهر بِيبَرْس بالتُّرْبة التي أنشأها قبالة المدرسة العادلية السيفِيّة، وألحده قاضي القضاة عِزّ الدين محمد بن الصائغ. وكانت مدة إقامته بالكَرَك بعد أن خُلِع من السلطنة ستة أشهر وخمسة وعشرين يوماً.

---

(١) في الجوهر الثمين: « سنتين وشهراً واحداً وأياماً».

(٢) ذكر ابن إياس في بدائع الزهور سبباً آخر لموت الملك السعيد. قال: « . . وكان سبب موته، قيل إنه لعب بالأكرة في ميدان قلعة الكرك، فتقنطر به الفرس، فانكسر ضلعه، ومات من وقته، ودفن بالكرك، ثم نقل من بعد ذلك ودفن بالقرافة الصغرى، وقيل بل دفن بالشام على أبيه الملك الظاهر» (بدائع الزهور: ٣٤٦/١/١).

(٣) راجع الحاشية السابقة؛ وص ١٧١ من هذا الجزء، حاشية (٢).

ووجد الناس عليه كثيراً وعُمِل عزاؤه بسائر البلاد، وخرجت الخَوَنْدات حاسراتٍ بجَوَارِيهِنّ يَلْطِمْن بالملاهي والدُّفوف أياماً عديدة، ويُسْمِعْن الملك المنصور قلاوون الكلام الخشن وأنواع السبّ وهو لا يتكلّم، فإنّه نُسِب اليه أنه آغتاله بالسمّ لمّا سمِع كثرةَ آستخدامه للمماليك. وغيرهم.

قلتُ: ولا يبعد ذلك عن الملك المنصور قلاوون لكثرة تخوّفه عِظَم شَوْكته وكثرة مماليك والده وحواشيه. وأبغضَ الناسُ الملك المنصور قلاوون سنيناً كثيرة إلى أن أرضاهم بكثرة الجِهاد والفتوحات؛ وأبغض الملكَ المنصورَ قلاوون حتى آبنتُه زوجة الملك السعيد المذكور، فإنّها وجدت على زوجها الملك السعيد وَجْداً عظيماً وتألّمت لفَقْده؛ ولم تزل باكيةً عليه حزينةً لم تتزوّج بعده إلى أن تُوُفِّيت بعد زوجها الملك السعيد بمدّة طويلة في مستهل شهر رجب سنة سبع وثمانين وستمائة. وكانت شقيقةَ الملك الأشرف خليل بن قلاوون، ودُفِنت في تربة[1] معروفة بوالدها بين مصر والقاهرة.

وصُلِّي على الملك السعيد بدِمشْق صلاة الغائب يوم الجمعة رابع وعشرين ذي الحجّة. ثم أنعم الملك المنصور بالكَرَك بعد موته على أخيه خَضر ولُقِّب بالملك المسعود خَضر.

وكان الملك السعيد، رحمه الله، سلطاناً جليلاً كريماً سَخِيّ الكَفّ، كثير العدل في الرعيّة، محسِناً للخاصّ والعامّ، لا يردّ سائلاً ولا يُخَيِّب آملاً؛ وكان متواضعاً بَشُوشاً، حسن الأخلاق ليس في طبعه عَسْفٌ ولا ظلمٌ، كثير الشفقة والرحمة على الناس، ليِّن الكلمة محبّاً لفعل الخير، قليل الحِجَاب على الناس، يتصدّى للأحكام بنفسه؛ وكان لا يميل لسَفْك الدماء مع قدرته على ذلك؛ وكان يوم

(١) تربة المنصور قلاوون: وتسمى تربة أم صالح، بجوار المدرسة الأشرفية بالقرب من المشهد النفيسي بين القاهرة ومصر. أنشأها المنصور قلاوون سنة ٦٨٢هـ برسم زوجته أم ولده الملك الصالح علاء الدين علي. وذكرها ابن دقماق باسم التربة الخاتونية بنت قلاوون. (انظر خطط المقريزي: ٣٩٤/٢، والانتصار: ١٢٥/٤) وهذه التربة لا تزال موجودة إلى اليوم بشارع الأشرف بقسم الخليفة بالقاهرة باسم تربة الست فاطمة خاتون. (محمد رمزي).

دخوله إلى قلعة الجبل وُلِد له مولود ذَكَر من بعض حظاياه في شهر ربيع الآخر من هذه السنة. وكان يُحِبّ التجمُّل ويُكثر من الإنعام على الناس ويَخْلَع حتّى في الأعزية. ولمّا مات خاله الأمير بدر الدين محمد بن بركة خان بن دولة خان، وكان من أعيان الأمراء بالديار المصريّة في الدولة الظاهريّة، وكان حصل له عند إفضاء الملك لابن أخته الملك السعيد تقدّمٌ كبير ومكانة عالية، وتوجّه معه إلى دِمَشق فَمرِض بها إلى أن تُوفّي ليلة الخميس تاسع شهر ربيع الأوّل، ودُفِن بسفح قاسِيون بالتُّربة المجاورة لرباط الملك الناصر صلاح الدين يوسف، ومقدار عمره خمسون سنة، عَمِل[1] له عدّةَ أعزيَة وقُرِىء بالتُّربة عدّة ختَمات، حضر إحداها آبن أخته الملك السعيد، ومُدَّ خِوَانٌ فيه من عظيم فاخر الأطعمة والحلاوات، فأكل مَن حضر، وخَلَع الملك السعيد على الدولة ومماليكه وخواصّه وهو في العزاء فلبِسُوا الخِلَع وقبّلوا الأرض، وكانت الخلَع خارجةً عن الحدّ. فهذا أيضاً ممّا يدّل على كرمه ووسع نفسه وكثرة إنعامه حتّى في الأعْزِية، رحمه الله تعالى. اِنتهت ترجمة الملك السعيد. ويأتي ذكر حوادث سنين سلطنته على عادة هذا الكتاب، إن شاء الله تعالى.

* * *

السنة الأولى من سلطَنة الملك السعيد محمد بَرَكَة خان على مصر

وهي سنة ستّ وسبعين وستمائة.

فيها توفي الشيخ كمال الدين أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الإسكندري المقرىء؛ كان عارفاً بالقراءات، وآنتفَعَ به خَلْق كثير، وتَولّى نَظَر حَبْسِ دِمَشْق، ونَظَرَ بيت المال بها مضافاً إلى نظر الحَبْس، وباشر عدّة وظائف دينيّة. ومات في صفر. وكان رئيساً فاضلاً.

وفيها تُوفّي الأمير جمال الدين آقوش بن عبد الله المحمَّدِيّ الصالحيّ النَّجميّ؛ كان من أعيان الأمراء ومن أكابرهم، وكان الملك الظاهر بيبرس يخافه،

---

(١) هذا جواب « لما مات خاله».

فحبَسه مدّة طويلةً ثم أفرج عنه فمات في شهر ربيع الأوّل، ودفن بتربته بالقرافة الصغرى.

وفيها تُوفّي الأمير عِزّ الدين أَيْبَك بن عبد الله المَوْصِلي الظاهريّ نائب السلطنة بحِمْص؛ وكان ولي حِمْص مدّة ثم عَزَله الملك الظاهر عنها ونفاه إلى حصن الأكراد، وكان شجاعاً مِقداماً.

وفيها تُوفّي الأمير عِزّ الدين أَيْبَك بن عبد الله الدِّمْياطِيّ الصالحيّ النَّجمِيّ أحد أكابر الأمراء المقدّمين على الجيوش؛ كان قديم الهِجْرة [بينهم] في علوّ المنزلة وسمّو المكانة، وكان الملك الظاهر أيضاً حبسه مدّة طويلة ثم أطلقه وأعاده إلى مكانته. ومات بالقاهرة في شعبان ودُفِن بتربته التي أنشأها بين القاهرة ومصر في القُبّة المجاورة لحوض السبيل المعروف به.

وفيها تُوفّي الأمير عِزّ الدين أَيْدَمُر بن عبد الله العَلاَئِي نائب قلعة صَفَد؛ حضر بعد موت الملك الظاهر إلى القاهرة ومات بها ودُفِن بالقرافة الصغرى؛ وكان ديِّناً عفيفاً أميناً؛ وهو أخو الأمير علاء الدين أَيْدكِين الصالحيّ.

وفيها تُوفِّي الأمير بدر الدين بيلِيك بن عبد الله الظاهريّ الخَازِنْدار نائب السلطنة بالديار المصريّة بل بالممالك كلّها. قد تقدّم من ذكره نبذةٌ جيّدة في عِدّة مواطن، وهو الذي أخفى موت الملك الظاهر حتى قَدِم به إلى مصر حسب ما تقدّم ذكرهُ، وكانت وفاته بالقاهرة في سادس شهر ربيع الأوّل بقلعة الجبل ودُفِن بتربته التي أنشأها بالقرافة الصغرى، وحَزِن الناس عليه حُزْناً شديداً حتى شَمِل مُصابُه الخاصّ والعامّ، وعُمِل عزاؤه بالقاهرة ثلاثة أيام، في الليل بالشُّموع وأنواع الملاهي: وصدّعَ موتُه القلوبَ وأبكى العيونَ؛ وقيل: إنّه مات مسموماً، وكان عمره خمساً وأربعين سنة، ومحاسنه كثيرة يطول الشرح في ذكرها.

وفيها تُوفّي الشيخ المعتَقَد خَضِر بن أبي بكر بن موسى أبو العبّاس المِهْرَانِيّ العَدَوِيّ؛ كان أصله من قرية المُحَمّديّة من أعمال جزيرة آبن عمر، وهو شيخ

الملك الظاهر بِيبَرْس، وصاحب الزاوية[١] التي بناها الملك الظاهر بالحُسَيْنِيّة على الخليج بالقرب من جامع[٢] الظاهر. وقد تقدّم من ذكره في ترجمة الملك الظاهر ما يُغني عن الإعادة هاهنا. وكان الشيخ خَضِر بَشَّرَ الملك الظاهر قبل سلطنته بالمُلك، فلمّا تسلطن صار له فيه العقيدة العظيمة حتّى إنه كان ينزل إليه في الجمعة المرّة والمرّتين، وكان يُطْلِعه على غوامض أسراره، ويستشيره في أموره، ويستصحبه في أسفاره؛ وفيه يقول الشريف محمد[٣] بن رِضْوان الناسخ: [الكامل]

ما الظاهرُ السلطانُ إلا مالك الـ ـدنيا بذاك لنا الملاحم تُخْبِرُ
ولنا دليلٌ واضحٌ كالشمس في وَسَط السماء بكلّ عَيْنٍ تُنْظَرُ
لمّا رأينا الخِضْر يقدُم جيشَه أبداً علمنا أنّه الإسكندرُ

وكان الشيخ يخبر الملك الظاهر بأمور قبل وقوعها فتقع على ما يُخبره، ثم تغيّر الملك الظاهر عليه لأمور بلغتْه عنه وأحضر السلطان مَن حاققه، وذكروا عنه من القبائح ما لم يصدُر عن مسلم! والله أعلم بصحّة ذلك؛ فاستشار الملك الظاهر الأمراء في أمره، فمنهم من أشار بقتله، ومنهم من أشار بحَبْسه، فمال الظاهر إلى قتله ففهم خَضِر؛ فقال للظاهر: اِسمع ما أقول لك؛ إنّ أجلي قريب من أجلك، وبيني وبينك مدّة أيّام يسيرة، فمن مات منّا لحِقه صاحبه عن قريب! فوَجَم الملك الظاهر وكَفَّ عن قتله، فحَبَسه في مكان لا يُسمع له فيه حديثٌ؛ وكان حبسه في شوّال سنة إحدى وسبعين وستمائة، وتُوفّي يوم الخميس أو في ليلة الجمعة سادس المحرّم سنة ست وسبعين وستمائة، ودُفِن بزاويته بالحُسينية. وكان الملك الظاهر بدمَشْق، فلمّا بلغه موته اضطرب وخاف على نفسه من الموت لِما كان قال له الشيخ خَضِر: إنّ أجله قريب، فمَرِض الظاهر بعد أيام يسيرة ومات، فكان بين الشيخ خَضِر وبين الملك الظاهر دون الشهر. اِنتهى.

وفيها تُوُفّي شيخ الإسلام محيي الدين أبو زكريّا يحيى بن شرف بن مِرَى بن

(١) راجع ص ١٤٥ من هذا الجزء، حاشية (١).
(٢) راجع ص ١٤٥ من هذا الجزء، حاشية (٢).
(٣) تقدّم الكلام عليه في وفيات سنة ٦٧١هـ.

الحسن بن الحسين النَّوَوِيّ الفقيه الشافعيّ الحافظ الزاهد صاحب المصنّفات المشهورة. وُلِد في العشر الأوسط من المحرّم سنة إحدى وثلاثين وستمائة، ومات ليلة الأربعاء رابع عشرين شهر رجب بقرية نَوَى.

قلت: وفضله وعلمه وزُهْده أشهر من أن يُذْكر. وقد ذكرنا من أمره نبذةً كبيرة في تاريخنا «المنهل الصافي والمُسْتَوْفَى بعد الوافي»؛ إذ هو كتاب تراجم يحسُن الإطناب فيه. اِنتهى.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي الملك القاهر عبد الملك ابن المعظّم [عيسى] ابن العادل [أبـي بكر بن أيّوب] في المحرّم مسموماً. والسلطان الملك الظاهر ركن الدين الصالحيّ بِيبَرْس في أواخر المحرّم بالقصر الأبلق، وله بِضْعٌ وخمسون سنة. وكمال الدين إبراهيم بن الوزيري نجيب الدين [أحمد] بن إسماعيل [بن إبراهيم] بن فارس التَّمِيميّ الكاتب المقرىء في صفر، وله ثمانون سنة. والواعظ نجم الدين عليّ بن عليّ بن إسفنديار بِدمَشْق في رجب، وله خمس وأربعون[١] سنة وأشهر. وبِيلِيك الظاهريّ الخازِنْدار نائب مصر. والصاحب معين الدين سليمان بن عليّ البَرْوَانَاه الروميّ، قتله أَبْغَا في المحرّم. والشيخ خَضِر بن أبـي بكر العَدَوِيّ شيخ السلطان. والشيخ الإمام شمس الدين محمد [بن إبراهيم بن عبد الواحد بن عليّ بن سرور قاضي القضاة أبو بكر وأبو عبد الله المعروف بـ][٢] آبن العِماد الحنبليّ في المحرّم بمصر. والقاضي تقيّ الدين محمد بن حَيَاة الرَّقِّيّ قاضي حلب بتَبُوك في المحرّم.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ست أذرع وثلاث عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وثماني أصابع.

* * *

(١) في شذرات الذهب أنه ولد سنة ٦١٦هـ، فيكون قد مات وسنّه واحد وستون سنة.

(٢) زيادة عن الشذرات.

السنة الثانية من سلطنة الملك السعيد على مصر

وهي سنة سبع وسبعين وستمائة.

فيها تُوفّي الشيخ الإمام زَيْن الدين أبو العباس إبراهيم بن أحمد بن أبي الفَرَج الدِّمشقيّ الحنفيّ المعروف بآبن السَّدِيد إمام مقصورة الحنفيّة[١] شمالي جامع دِمشق وناظر وقفها. كان إماماً فقيهاً ديِّناً كثير الخير غَزِير المرُوءَة. مات في جُمادي الأولى ببستانه بالمِزّة ودُفِن بسفح قاسِيون.

وفيها تُوفّي الأمير شمس الدّين آق سُنْقُر بن عبد الله الفارِقانِيّ ؛ كان أصله من مماليك الأمير نجم الدين حاجب الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام، ثم آنتقل إلى مِلْك السلطان الملك الظاهر بِيبَرْس، وتقدّم عنده وجعله أستاداراً كبيراً. وكان للملك الظاهر عِدّةُ أستادارية، وكان الملك الظاهر كثيرَ الوثوق به في أموره ويَسْتَنِيبه في غَيْبته ويُقَدِّمه على عساكره؛ ولمّا صار الأمر إلى الملك السعيد جعله نائبه لسائر الممالك بعد بِيلِيك الخَازِنْدار، فلمّا ثارت الخاصَّكِيّة قَبَضُوا عليه وقتلوه، وقيل إنّه بَقِي في هذه السنة، والأصحُّ أنّهم قبَضُوا عليه وسجنوه إلى أن مات في جُمادى الأولى من هذه السنة. وكان أميراً كبيراً جسيماً شجاعاً مِقداماً مُهاباً ذا رأيٍ وتدبير وعقل ودَهاء، كثير البِرّ والصدقات عالي الهِمّة؛ وله مدرسة[٢] عند داره داخل باب سعادة[٣] بالقاهرة.

---

(١) المقصورة الحنفية: من مدارس الحنفية بدمشق، داخلة في حرم الجامع الأموي. (انظر الدارس في تاريخ المدارس: ٢/٣١٥).

(٢) راجع ص ٢٢٦ من هذا الجزء، حاشية (١).

(٣) باب سعادة: أحد أبواب القاهرة، ينسب إلى سعادة بن حيان أحد قواد المعز لدين الله الفاطمي. وكان هذا الباب واقعاً في الوجهة الغربية لمبنى محكمة الاستئناف اليوم على بعد عشرة أمتار من شمال الباب الغربي للمحكمة المذكورة. وكانت الطريق التي توصل من هذا الباب إلى داخل المدينة تسير إلى الشرق في القسم البحري من مبنى محكمة الاستئناف حتى تتلاقى بمدخل شارع المنجلة، وهو امتداد الطريق التي لا تزال توصل إلى داخل مدينة القاهرة القديمة. (عن تعليقات الاستاذ محمد رمزي على النجوم: ٢٨٠/٧ والاستدراك في ص ٣٣٠ من الجزء التاسع).

وفيها تُوفّي الأمير جمال الدين آقوش بن عبد الله النَّجِيبيّ الصالحيّ النَّجْمِيّ الأيُّوبِيّ؛ كان مُقَرَّباً عند أستاذه الملك الصالح وولّاه أُسْتاداراً؛ وكان كثير الاعتماد عليه. ثم ولّاه الملك الظاهر بِيبَرْس نيابة دِمَشْق فأقام بها تسع سنين، ثم عَزَله وتركه بطّالاً[١] بالقاهرة إلى أن مات بها في ليلة الجمعة خامس شهر ربيع الآخر بداره بدرب مُلُوخيّا[٢] من القاهرة، ودُفِن يوم الجمعة بتربته بالقرافة الصغرى.

وفيها تُوفّي الشيخ جمال الدين طه بن إبراهيم بن أبي بكر بن أحمد بن بَخْتِيَار الهَذَباني الإرْبِلِيّ؛ كان عنده فضيلة وأدب ورياسة، وله يدٌ في النظم. ومات في جُمادى الأولى. ومن شعره[٣] في النهي عن النظر في النجوم: [البسيط]

دَعِ النجومَ لِطُرْقِيٍّ يعيشُ بها ... وبالعزيمة فانْهَضْ أيُّها المَلِكُ
إنّ النبيَّ وأصحابَ النبيِّ نَهَوْا ... عن النجوم وقد أبصرتَ ما مَلَكُوا

وفيها تُوُفّي قاضي القضاة مجد الدين أبو المجد عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن هبة الله العقيليّ الحَلبيّ الحنفيّ ابن الصاحب كمال الدين عمر بن

---

(١) البطّالون من الأجناد والأمراء هم العاطلون من أعمال الدولة ووظائفها وإقطاعاتها نتيجة غضب السلطان أو كبر السنّ، أو اضطراراً إلى الاعتكاف والاختفاء، أو لمجرّد حب الانزواء والابتعاد. (السلوك: ٩٦/١/١، حاشية رقم ٤). وكان يطلق على الأمير البطّال اسم الطرخان. والبطّالون كانوا يتقاضون عادة معلوماً (مرتباً) من الدولة، ويكتب لهم في ذلك مراسيم تسمى طرخانيات. (انظر صبح الأعشى: ٢١٩/٧، و١٣/ ٥١ ـ ٥٦ ونزهة النفوس والأبدان: ٤٩/١) وقد ورد في حاشية الصفحة السابقة من نزهة النفوس أن الطرخان اصطلاح مملوكي يقصد به الأمير البطّال الذي يعيش من إقطاعه فقط. والتعريفات السابقة للطرخان أو الأمير البطّال تلتقي على أنه عاطل من أعمال الدولة ووظائفها، غير أنها لا تحسم مسألتين: الأولى هل كان البطّال يجرّد من إقطاعه أم لا؟ وهل كان يتلقى راتباً من الدولة أم يعيش من إقطاعه السابق الذي يحتفظ به؟ يبدو لنا أن هذا الوضع كان يختلف من زمن إلى آخر، أو أنه يتعلّق بمزاج السلطان والسبب الذي من أجله يحال هذا الأمير على البطالة.

(٢) درب ملوخيا: هذا الدرب كان يعرف بحارة قائد القواد، وعرف في زمن المقريزي بدرب ملوخيا. وملوخيا كان صاحب ركاب الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، ويعرف بملوخيا الفراش. (خطط المقريزي: ٣٨/٢) ومكان هذا الدرب اليوم الطريق المعروفة بحارة قصر الشوك أحد فروع قصر الشوك بقسم الجمالية بالقاهرة (محمد رمزي).

(٣) قارن بما جاء في حوادث سنة ٥٨٢هـ.

العَدِيم. كان إماماً عالماً فاضلاً كبير الديانة والوَرَع؛ كان جمع بين العلم والعمل والرياسة؛ وَلِي قضاء دِمَشق مع عِدّة تداريس، ولم يزل قاضياً إلى أن تُوفّي بظاهر دِمَشْق بجَوْسَقِه[1] الذي على الشَّرَف القبلي في يوم الثلاثاء سادس عشر شهر ربيع الآخر، ودُفِن في تُرْبة أنشأها قُبالة الجَوْسَق المذكور. ومن شعره ما كتبه لخاله عَوْن الدين سليمان ابن العَجَمِيّ بسبب آبن مالك، فقال، : [الطويل]

أمولايَ عونَ الدين يا راوياً لنا ... حديثَ المعالي عن عَطاءٍ ونافِع
بعيشك حدّثني حديثَ آبنِ مالكٍ ... فأنت له يا مالكي خيرُ شافِع

وفيها تُوُفّي الشيخ موفَّق الدين أبو محمد عبد الله بن عمر بن نصر الله الأنصاريّ؛ كان أديباً فاضلاً. قال الشيخ قطب الدين اليُونينِيّ في الذيل على المرآة: «صاحبنا [كان أديباً فاضلاً مقتدراً على النظم][2]، وله مشاركة في علوم كثيرة، منها: الكُحْل والطّب، وغير ذلك من الفقه والنحو والأدب، ويَعظ الناس، حُلْو النادرة حسن المحاضرة». اِنتهى كلام قطب الدين. قلتُ: ومن شعره: [السريع]

قَلْبي وطَرْفي في ديارهم ... هذا يَهِيمُ بها وذا يَهْمِي
رَسَمَ الهوى لما وقَفْتُ بها ... للدمع أن يجري على الرسْمِ

وفيها تُوفّي الأديب نجم الدين أبو المعالي محمد بن سَوَّار بن إسرائيل بن الخضَر بن إسرائيل الشَّيْبَانيّ الدمشقيّ المولد والدار والوفاة؛ كان أديباً فاضلاً قادراً على النظم صوفيّاً. وقد ذكرنا حكايته مع الشّهاب[3] الخِيَمِيّ لمّا آدّعى كلٌّ منهما القصيدة البائية التي أوّلها: [البسيط]

يا مَطْلَباً ليس لي في غيره أَرَبُ

وتداعيا عند الشيخ شرف الدين عمر بن الفارِض فأمر ابن الفارض أن يَعْمَل كلٌّ منهما قصيدةً على الوزن والقافية فعمِلا ذلك، فحكَمَ آبنُ الفارض بالقصيدة

(١) الجوسق: القصر.
(٢) زيادة من طبعة دار الكتب المصرية عن الذيل على مرآة الزمان.
(٣) انظر حوادث سنة ٦٨٥هـ من هذا الجزء.

للشهاب الخيميّ. وقد ذكرنا القصائد الثلاث في «المنهل الصافي» في ترجمة شهاب الدين الخِيَمِيّ. وآبن إسرائيل هذا ممّن تكلّموا فيه ورمَوْه بالاتّحاد[١]. والله أعلم بحاله. ومن شعر آبن إسرائيل هذا على مذهب القوم: [الطويل]

خَلَا منه طَرْفي وآمتلا منه خاطري ... فطَرْفي له شاكٍ وقلبيَ شاكرُ
ولو أنّني أنصفتُ لم تَشْكُ مُقْلَتي ... بِعاداً ودارات الوجود مَظَاهِرُ

وله أيضاً: [الرجز]

يا من تناءَى وفؤادي دارُهُ ... مُضْناكَ قد أقلقه تَذْكَارُه
صددتَ عنه قبل ما وصلتَه ... وكان قبل سُكره خُمَاره

وفيها تُوفّي الشيخ الإمام العلّامة مجد الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمر بن أحمد بن أبي شاكر الإِرْبِلِيّ الأديب الفقيه الحنفيّ المعروف بآبن الظّهير. مولده بإربل في ثاني صفر سنة آثنتين وستمائة ونشأ بها، وطلب العلم وتفقّه وبَرَع في الفقه والأصول والعربيّة، وقَدِم دِمَشق وتَصَدَّى بها للإقراء والتدريس ودرّس بالقايمازِيّة[٢] بدِمَشْق؛ وهو من أعيان شيوخ الأدب وفحول المتأخرين وله ديوان شعر؛ وسمع الحديث ببغداد من أبي بكر بن الخازِن والكَاشْغَرِيّ [و][٣]بدِمَشْق من السَّخَاوِيّ وكَرِيمة وتاج الدين ابن حَمّويه؛ ورَوَى عنه أبو شامة والقُوصيّ والدِّمْياطيّ والشهاب محمود، وعليه تدرّب في الأدب، و[أبو الحسين][٣] اليونينِيّ والحافظ جمال الدين المِزِّيّ. ولمّا مات رثاه تلميذه الشّهاب محمود بقصيدة أوّلها: [الطويل]

تمكّن ليلي وآطمأنّت كواكبُه ... وسُدّت على صُبْحي الغداة مذاهبُهْ[٤]
بكتْه معاليه ولم يُر قبلَه ... كريمٌ مضى والمكرماتُ نوادبُهْ

---

(١) الاتحاد: ذهب قوم من متصوفة الإسلام إلى أن المنقطع عن الدنيا المتوجه إلى الله تعالى قد يتحد مع الله تعالى. (انظر تفصيل هذا الموضوع في الكليات للكفوي: ١/٣٤).

(٢) المدرسة القايمازية: من مدارس الحنفية بدمشق. أنشأها صارم الدين قايماز النجمي. كان بمثابة استادار للسلطان صلاح الدين الأيوبي. وكان موقعها داخل بابي النصر والفرج (الدارس: ١/٤٣٩).

(٣) زيادة عن تاريخ الإسلام للذهبي.

(٤) رواية فوات الوفيات:

تنكّر ليلي واطمأنت كواكبه ... وسدّت على صبح الغداة مذاهبه

ومن شعر آبن الظَّهير: [الكامل]

قَلبِي وطَرْفِي ذا يَسيل دماً وذا ... دون الوَرَى أنت العليم بقَرْحهِ
وهما بحُبّك شاهدان وإنّما ... تعديلُ كلٍّ منهما في جَرْحهِ
والقلب منزِلُك القديمُ فإن تَجِد ... فيه سواك من الأنام فَنَحِّهِ

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال وفيها تُوفّي الأديب نجم الدين محمد [بن سوّار] بن إسرائيل الحَريري الشاعر المشهور في شهر ربيع الآخر. والإمام مجد الدين محمد بن أحمد بن عمر بن الظَّهير الحنفيّ الأديب في شهر ربيع الآخر أيضاً. والأمير شمس الدين آق سنقر الفَارِقَانِيّ في الحبس في جُمادى الأولى. والأمير جمال الدين آقوش النَّجِيبيّ بالقاهرة في شهر ربيع الآخر. وشيخ الحنفية وقاضيهم الصَّدر سليمان بن أبي العِزّ وُهَيْب الحنفِي في شعبان، وله ثلاث وثمانون سنة. والصاحب مجد الدين أبو المجد عبد الرحمن بن أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله العقيليّ قاضي الحنفية في شهر ربيع الآخر، وله ثلاث وستون سنة. والوزير بهاء الدين عليّ بن محمد بن سليم المصريّ بن حِنّا في ذي القعدة. والمحدّث ناصر الدين محمد بن عَرَبْشاه الهَمَذَانِيّ في جمادى الأولى. والمحدّث شهاب الدين أحمد بن محمد بن عيسى الجَزَرِيّ. وأبو المُرَجى المؤمَّل بن محمد بن عليّ البالِسِيّ في رجب.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم سبع أذرع وإحدى وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وخمس أصابع.

ذكر سلطنة الملك العادل سُلامِش[(١)] على مصر

هو السلطان الملك العادل بدر الدين سُلامِش آبن السلطان الملك الظاهر ركن الدين بِيبَرْس البُنْدُقْدَارِيّ الصالحيّ النجميّ السادس من ملوك الترك بمصر. تسلطن بعد خَلْع أخيه الملك السعيد أبي المعالي ناصر الدين محمد بركة خان بآتّفاق الأمراء على سلطنته، وجلس على سرير الملك في يوم الأحد سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ثمانٍ وسبعين وستمائة وعمره يوم تسلطن سبعُ[(٢)] سنين. وجعلوا أتَابكَه ومدبِّر مملكته الأمير سيف الدين قلاوون الصالحيّ النَّجْمِيّ. وضُرِبت السِّكَّة على أحد الوجهين باسم الملك العادل سُلامِش هذا، وعلى الوجه الآخر آسم الأمير قلاوون؛ وخُطِب لهما أيضاً على المنابر. وآستمرّ الأمر على ذلك وصار الأمير قلاوون هو المتصرف في الممالك والعساكر والخزائن، ولم يكن لسُلامِش في السلطنة مع قلاوون إلّا مجرّد الاسم فقط. وأخذ قلاوون في الأمر لنفسه. فلمّا آستقام له الأمر دَخَل إليه الأمير شمس الدين سُنْقُر الأشقر ووافقه على السلطنة وأخْفَى ذلك لكونه كان خشداشَه، وكان الأمير عِزّ الدين أَيْدَمُر نائب الشام عاد إلى الشام بمَنْ معه بعد خلع الملك السعيد، فوصل إلى دِمَشق يوم الأحد مستهلّ جُمادى الأولى، فخرج لتلقّيه من كان تخلّف بدِمَشق من الأمراء والجند، والمقدَّم عليهم الأمير جمال الدين آقوش الشمسيّ. وكان قلاوون قد كاتب آقوش في أمر أَيْدَمُر هذا والقَبْض عليه، فلمّا وصلوا إلى مُصَلّى العِيد بقصر حَجّاج آحتاط الأمير

---

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك: ٦٥٦/٢/١، والخطط المقريزية: ٢٣٨/٢، والجوهر الثمين: ٩٠/٢ وبدائع الزهور: ٣٤٦/١/١، وشذرات الذهب: ٤١١/٥.

(٢) في السلوك والجوهر الثمين: «سبع سنين وأشهر» وفي بدائع الزهور والبداية والنهاية ودول الإسلام للذهبي: «سبع سنين ونصف».

جمال الدين آقوش الشمسي والأمراء الذين معه على الأمير أَيْدَمُر نائب الشام وأخذوه بينهم، وفرّقوا بينه وبين عسكره الذين حضروا معه من الديار المصريّة، ودخلوا إلى دِمَشق من باب الجابية، ورسموا عليه بدار في دمشق؛ ثمّ نقلوه إلى قلعة دمشق وآعتقلوه بها. وكان الملك السعيد قبل أن يخرج من الشام سلّم قلعة دِمَشق للأمير علم الدين سَنْجَر الدويدَارِيّ وجعله النائب عنه أيضاً في البلد. ثمّ أرسل قلاوون جمال الدين آقوش الباخِلي وشمس الدين سُنْقُر جاه [الكَنْجِيّ][1] إلى البلاد الشاميّة وعلى يدهم نسخة الأيمان بالصورة التي آستقرّ الحال عليها بمصر، وأحضروا الأمراء والجند والقضاة والعلماء وأكابر البلد للحَلِف، وكان معهم نسخة بالمكتوب المُتَضَمِّن خَلْع الملك السعيد وتولية الملك العادل سَلامُش، فقُرىء ذلك على الناس وحَلَفوا وآستمرّ الحَلف أيّاماً. ثم إنّ الأمير قلاوون وَلّى خُشْدَاشَه الذي آتّفق معه على السلطنة، وهو الأمير شمس الدين سُنْقُر الأشقر، نيابة الشام وأعمالها فتوجّه سُنْقُر الأشقر إليها، ودَخَلها يوم الأربعاء ثالث جُمادى الآخرة من سنة ثمانٍ وسبعين المذكورة بتحمُّل زائد، فكان مَوْكِبُه يُضاهي مَوْكِبَ السلطان؛ وعند وصوله إلى دِمَشْق أمر الأمير علم الدين سَنْجَر الدويدَارِيّ بالنزول من قَلْعة دِمَشْق فنزل في الحال. وصفا الوقت للأمير قلاوون بمَسْك أَيْدَمُر نائب الشام، وبخروج سُنْقُر الأشقر من الديار المصريّة وآنْبَرَم أمره مع الأمراء والخاصَّكِيّة، وآتّفقوا معه على خَلْع الملك العادل سَلامُش من السلطنة وتوليته إيّاها. فلمّا كان يوم الثلاثاء حادي عشرين شهر رجب سنة ثمانٍ وسبعين وستمائة آجتمع الأمراء والقضاة والأعيان بقلعة الجبل وخَلَعُوا الملك العادل بدر الدين سَلاَمُش من السلطنة لصِغَر سنّه، وتسلطن عِوَضه أتَابكُه الأميرُ سيف الدين قلاوون الأَلْفي الصالحيّ النَّجْمِيّ، ونُعِت بالملك المنصور، على أنّه كان هو المتصرِّف في المملكة منذ خُلِع الملك السعيد وتسلطن الملك العادل سُلامِش، ولم يكن لسُلاَمش في أيام سلطنته غيرُ الاسم، وقلاوون هو الكلّ! وكان عدم سلطنة قلاوون قبل سُلاَمِش أنّه خاف ثَوْرَة المماليك الظاهريّة عليه، فإنّهم كانوا يوم ذاك هم معظمَ عسكر الديار المصريّة، وأيضاً كانت بعض

(١) زيادة عن السلوك.

القلاع في يد نُوّاب الملك السعيد فلمّا مهّد أمرَه تسلطن(١). ولمّا بلغ سُنْقُر الأشقر سلطنةُ قلاوون داخله الطَّمع في الملك وأظهر العِصيان، على ما سيأتي ذكره في ترجمة الملك المنصور قلاوون إن شاء الله تعالى.

وكانت مدّة سلطنة الملك العادل بدر الدين سلامش على مصر ثلاثة أشهر تنقص ستّة أيام(٢). ولزِم الملك العادل سَلاَمُش داره عند أُمِّه إلى أن أرسله الملك المنصور قلاوون إلى الكَرَك، فأقام به عند أخيه الملك خَضِر مدّة؛ ثم رسم الملك المنصور بإحضاره إلى القاهرة فَحَضر إليها، وبَقِي خاملاً إلى أن مات الملك المنصور قلاوون وتسلطن من بعده ولَدُه الملك الأشرف خليل بن قلاوون، جهزه وأخاه الملك خضراً وأهله إلى مدينة اسْطَنْبُول بلاد الأَشْكُري، فأقام هناك إلى أن تُوفِّي بها في سنة تسعين وستمائة. وكان شاباً مليحاً جميلاً تامّ الشكل رَشِيق القَدِّ طويل الشَّعْرِ ذا حياء ووقار وعقل تامّ. مات وله من العُمُر قريب من عشرين سنة؛ قيل: إنّه كان أحسن أهل زمانه، وبه افتتن جماعة من الناس، وشَّببَ به الشعراء وصار يُضرب به المَثَل في الحسن حتى يقول القائل: «ثغرٌ سُلامشِيّ». اِنتهت ترجمة الملك العادل سُلامِش، رحمه الله.

* * *

---

(١) لما تمَّ خلع الملك السعيد عرض أمراء المماليك السلطنة على قلاوون الألفي فامتنع وقال: «أنا ما خلعت الملك السعيد طمعاً في السلطنة، والأولى ألا يخرج الأمر عن ذرّية الملك الظاهر». وقد اتضح سريعاً أن موقفه هذا كان مناورة ذكية حتى يستطيع التخلّص من الأمراء الظاهرية ويتحكم في القلاع التي كانت ما تزال بيدهم. هذا علماً أن مبدأ الوراثة في الحكم لم يكن مقبولاً لدى الأمراء المماليك الذين كانوا ــ بطبيعة نشأتهم ــ يرون في الدهاء والقدرة السياسية والمهارة العسكرية شروطاً كافية لتسلم السلطة. ولقد كان لعدم إقرار مبدأ الوراثة فائدة كبيرة إذ أعفى الدولة من وجود غلمان غير مجربين على رأس السلطة لمدة طويلة، وسمح بوجود قادة كبار أمثال بيبرس وقلاوون وغيرهما أمنوا للدولة قوة ومنعة واستقراراً خاصة في الفترة المملوكية الأولى.

(٢) سيأتي أنه حكم من ١٧ شهر ربيع الآخر إلى ٢١ شهر رجب، وعليه تكون مدة سلطنته ثلاثة أشهر تزيد أياماً. وفي السلوك: «وكانت مدة ملكه مائة يوم». وفي الجوهر الثمين وبدائع الزهور: «وكانت مدة مملكته خمسة شهور وأياماً».

السنة التي حكم فيها الملك السعيد إلى سابع عشر شهر ربيع الآخر

ثم حكم من سابع عشر شهر ربيع الآخر إلى حادي عشرين شهر رجب الملك العادل سلامش.

ثم في باقيها الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألْفِيّ

وهي سنة ثمان وسبعين وستمائة.

فيها كان خَلْعُ ولدي الملك الظاهر بِيبَرْس من السلطنة: الملك السعيد محمد بركة خان، والملك العادل بدر الدين سُلاَمِش، وتسلطن بعد سلامش الأمير قلاوون. وقد تقدّم ذكرُ ذلك كلّه.

وفيها تُوفّي الفقيه المحدّث صفيّ الدين أبو[محمد][1] إسحاق [بن][1] إبراهيم بن يحيى الشَّقْرَاويّ الحنبليّ، وُلِد بشقراء من ضياع بَرْزَة من عمل دِمَشق سنة خمس وستمائة. ومات بدمشق في ذي الحجّة، وكان فاضلاً فقيهاً سمع الكثير وحدّث.

وفيها تُوفّي الأمير جمال الدين آقوش بن عبد الله الرُّكْنِيّ المعروف بالطبّاخ أحد أكابر أمراء دمشق، عاد من تجريدة سِيس مريضاً ومات بحلب ونُقِل إلى حِمْص فدُفِن عند قبر خالد بن الوليد، رضي الله عنه. والركني: نسبة إلى أستاذه الأمير ركن الدين بِيبرس الصالحيّ النَّجْمِيّ الذي لَقِي الفرنج بأرض غَزّة وكسرهم، وهو غير الملك الظاهر بِيبرس.

وفيها تُوفّي الأمير جمال الدين آقوش بن عبد الله الشّهابيّ السِّلَحْدَار؛ كان أيضاً في تجريدة سِيس وعاد مريضاً، وتُوفّي بحماة ثم نُقِل إلى دِمَشق ودفن عند خشداشه أيدكِين الشهابي، نسبة إلى الطَّوَاشي شهاب الدين رَشِيد الخادم الصالحيّ الكبير وهو أستاذهما.

وفيها تُوفّي الأمير نور الدين أبو الحسن عليّ بن عمر بن مَجَلّي الهَكّاريّ؛ كان

(١) زيادة عن شذرات الذهب.

من أجل الأمراء وأعظمهم؛ ولي نيابة حلب، وكان حسن السيرة عالي الهمة كريم الأخلاق شجاعاً مِقْداماً عارفاً مدبراً معظّماً في الدُّول. مات بعد عزله عن نيابة حلب في مرض موته بآستعفائه عنها بها في شهر ربيع الآخر ودُفِن بها، وقد نَيّف على السبعين سنة، رحمه الله تعالى.

وفيها تُوُفّي جمال الدين أبو زكريّا يحيى بن أبي المنصور بن أبي الفتح آبن رافع بن عليّ الحَرّانيّ الحنبليّ المعروف بآبن الصَّيْرَفِيّ؛ كان إماماً فقيهاً عالماً مُفْتَناً في الفقه متبحِّراً فيه كثير الإفادة؛ وأفتى ودرّس وآنتفع به الطلبة؛ ومات في صفر.

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي السلطان الملك السعيد ناصر الدين محمد ابن الظاهر بالكَرَك في ذي القعدة، وله عشرون سنة وأشهر. والمُسْنِد أبو العبّاس أحمد بن أبي الخَيْر سلامة بن إبراهيم الحَدّاد الحنبليّ يوم عاشوراء. والإمام جمال الدين يحيى بن أبي المنصور بن الصَّيْرَفيّ الحرّانيّ في صفر، وله خمس وتسعون سنة. وصفيّ الدين إسحاق بن إبراهيم الشَّقْرَاوِيّ. وفاطمة بنت الملك المُحسن[١] ببُزاعة[٢].

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ست أذرع سواء. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وإصبع واحدة.

(١) هو الملك المحسن أحمد ابن السلطان صلاح الدين. تقدمت وفاته سنة ٦٣٤هـ.
(٢) بزاعة: بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان. (معجم البلدان).

ذكر سلطنة الملك المنصور سيف الدين قلاوون[1] على مصر

السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو المعالي وأبو الفتح قَلاوُون بن عبد الله الألْفِيّ التركيّ الصالحيّ النَّجْمِيّ، السابع من ملوك الترك بالديار المصرية، والرابع ممن مسّه الرِّق.

مَلَك الديار المصرية بعد خَلْع الملك السعيد وصار مدبِّر مملكة الملك العادل بدر الدين سُلامِش إلى أن خلع سُلَامِش وتسلطن الملك المنصور قلاوون هذا من بعده في حادي عشرين، وقيل عشر شهر رجب سنة ثمانٍ وسبعين وستمائة، وجلس على سرير الملك بأُبَّهة السلطنة وشِعار المُلك وتمّ أمره.

ولمّا آستقل بالمملكة أمسك جماعة كثيرة من المماليك والأمراء الظاهريّة وغيرهم، وآستعمل مماليكه على البلاد والقِلَاع، فلم يَبْلع رِيقَه حتّى خرج عليه الأمير شمس الدين سُنقُر الأشقر نائب دِمَشْق، فإنّه لمّا وصل إليه البَرِيد إلى دِمَشْق بسلطنة المنصور قلاوون في يوم الأحد سادس عشري[2] رجب، وعلى يده نُسْخَةُ يمين التّحليف للأمراء والجند وأرباب الدولة وأعيان الناس، فأحْضِروا إلى دار[3] السعادة بدمشق وحَلَفُوا إلّا الأمير سُنْقُر الأشقر نائب الشام، فإنّه لم يَحلِف ولا رَضِي

---

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك: ٧٧٣/٣/١، وخطط المقريزي: ٢٣٨/٢، والجوهر الثمين: ٩٢/٢، وبدائع الزهور: ٣٤٧/١/١، وشذرات الذهب: ٤٠٩/٥، وتشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور للقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر.

(٢) في الأصل: «سادس عشر». وما أثبتناه عن تاريخ ابن الفرات.

(٣) دار السعادة: هي دار العدل التي أنشأها في دمشق قريباً من باب النصر قبلي قلعة دمشق الشهيد محمود بن زنكي، واشتهرت في عصر المماليك بدار السعادة. وموضعها اليوم قبلي سوق الأروام. (محمد رمزي) وكانت دار السعادة مسكناً لنواب السلطنة بدمشق. (ابن الفرات).

بما جرى من خَلْع سَلامُش وسلطنة قلاوون، فلم يلتفت أهلُ دِمشق إلى كلامه. وخُطِب بجامع دمشق للملك المنصور قلاوون وجوامع الشام بأَسْرها خلا مواضع يسيرة توقَّفُوا، ثم خطبوا بعد ذلك.

وأمّا الملك المنصور قلاوون فإنّه في شهرِ رمضان عَزَل الصاحب بُرْهان الدين السِّنْجارِيّ عن الوزارة بالديار المصريّة، وأمَره بلزوم مدرسة أخيه قاضي القضاة بدر الدين السِّنْجارِيّ بالقرافة الصغرى، وآستقرّ مكانه في الوزارة الصاحب فخر الدين إبراهيم بن لُقْمان صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالديار المصريّة، وتولى عِوضَه صحابة الديوان القاضي فتح الدين محمد آبن القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، وهو أوّل كاتب سرّ كان في الدولة التُّركية وغيرها؛ وإنما كانت هذه الوظيفة في ضمن الوزارة، والوزير هو المتصرّف في الديوان، وتحت يده جماعة من الكتاب المُوَقِّعين، وفيهم رجل كبير كنائب كاتب السّر الآن، سُمِّي في الآخر صاحب ديوان الإنشاء. ومن الناس من قال: إنّ هذه الوظيفة قديمة وآستدلّ بقول صاحب صبح الأعشى وغيره ممن كتب للنبيّ، صلى الله عليه وسلم، ومَن بعده وردّ على من قال ذلك جماعة أخر، وقالوا: ليس في ذكر من كتب للنبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، وغيره من الخلفاء دلالة على وظيفة كتابة السّر، وإنما هو دليل لكلّ كاتب كتب لملك أو سلطان أو غيرهما كائناً من كان، فكلّ كاتب كَتَب عند رجل يقول: هو أنا ذاك الكاتب، وإذا الأمر آحْتَمَل وآحْتَمل سَقَط الاحتجاج به. ومَنْ قال: إنّ هذه الوظيفة ما أحدَثها إلاّ الملك المنصور قلاوون فهو الأصحّ، ونُبَيِّن ذلك، إن شاء الله تعالى. في أواخر هذه الترجمة، وذكر من ذكره صاحب صبح الأعشى وغيره من الكُتّاب من عهد النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، إلى يومنا هذا على سبيل الاختصار. انتهى. وقد خرجنا عن المقصود.

وأمّا سنقر الأشقر فإنّه في يوم الجمعة رابع عشري[1] ذي القعدة من السنة رِكِب من دار السعادة بدمشق بعد صلاة العَصْر ومعه جماعةٌ من الأمراء والجند، وهم

(١) في تاريخ ابن الفرات: «في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة ٦٧٨هـ». وفي الأصل: «رابع عشر ذي القعدة». وما أثبتناه عن تاريخ أبي الفداء.

رَجَّالة وهو راكب وحدَه وقصد القلعة من الباب الذي يلي المدينة فهجَمَها بمن كان معه، وطلَعها وجلس بها من ساعته وحَلَّف الأمراء والجند ومَن حضر وتسلطن وتلقب «بالملك الكامل»، ونادت المنادِية في المدينة بسلطنته وآستقلاله بالمماليك الشاميّة؛ وفي بُكرة يوم السبت خامس عشرين ذي القعدة طَلَب القضاة والعلماء ورؤساء البلد وأكابره وأعيانه إلى مسجد أبي الدَّرْدَاء، رضي الله عنه، بقلعة دمشق وحَلّفهم وحلّف بقيّة الناس على طاعته؛ ثم وَجَّه العساكر في يوم الأربعاء تاسع عشرينه إلى بلاد غَزّة الحفظ البلاد ومَغَلّها ودَفْع من يأتي إليها من الديار المصريّة. وخرجت سنة ثمانٍ وسبعين وليس للملك المنصور قلاوون حكمٌ إلّا على الديار المصرية وأعمالها فقط.

وآستهلّت سنة تسع وسبعين والملك المنصور سلطان مصر، والملك الكامل شمس الدين سُنْقُر الأشقر سلطانَ دِمَشق وما والاها، وصاحب الكرك الملك المسعود خَضِر آبن الملك الظاهر بِيبَرْس، وصاحبَ حَمَاة والمَعَرّة الملكُ المنصور ناصر الدين محمد آبن الملك تقي الدين محمود الايوبيّ؛ والعراق والجزيرة والمَوْصِل وإِرْبِل وأذْرِبيجان وديار بكر وخِلاط وخُرَاسان والعجم وما وراء ذلك بيد التَّتار والروم؛ وصاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين يُوسف بن عمر [بن عليّ بن رَسول]، وصاحب مكة، شرّفها الله تعالى، الشريف نجم الدين أبو نُميّ الحَسَنِيّ، وصاحب المدينة الشريفة، على ساكنها أفضلُ الصلاة والسلام، الأمير عِزّ الدين جَماز بن شِيحة الحُسَيْنيّ؛ ذكرنا هؤلاء تنبيهاً للناظر في الحوادث الآتية، ليكون فيما يأتي على بَصِيرة. إنتهى.

ثم إنّ السلطان الملك المنصور قلاوون في أوّل سنة تسع وسبعين وستّمائة المذكورة جهّز عسكراً لغَزّة، فلمّا قاربوها لقيهم عسكر الملك الكامل سُنْقر الأشقر وقاتلوهم حتّى نزحوهم عنها، وآنكسر العسكر المصريّ وقَصَد الرّمل، وآطمأنّ الشاميّون بغَزّة ونزلوا بها ساعةً من النهار، وكانوا في قِلّة، فكَرّ عليهم عساكر الديار المصريّة ثانياً وكبسوهم ونالوا منهم منالاً كبيراً، ورَجَع عسكر الشام منهزماً إلى مدينة الرَّملة.

وأمّا الملك الكامل سُنْقُر الأشقر فإنّه قَدِم عليه بدمشق الأميرُ شرف الدين

عيسى بن مُهَنّا ملك العرب بالبلاد الشرقيّة والشماليّة؛ ودَخَل على الكامل وهو على السِّمَاط فقام له الكامل، فقبّل عيسى الأرضَ وجلس عن يمينه فوق مَن حضر. ثم وصل إلى الملك الكامل أيضاً الأمير شهاب الدين أحمد بن حجّي بن يزيد[1] مَلِك العرب بالبلاد الحجازيّة فأكرمه الملك الكامل غاية الإكرام.

وأمّا الملك المنصور لما بلغه ما وقع لعسكره بغزّة جهز عسكراً آخر كثيفاً إلى دِمَشق لقتال الملك الكامل سُنْقُر الأشقر، ومقدّمُهم الأمير علم الدين سَنْجَر الحلبيّ، وخرجوا من مصر وساروا إلى جهة الشام، فصار عسكر دِمَشق الذي بالرَّمْلة كلمّا تقدّم العسكر المصريّ منزلة إلى أن وصل أوائلُهم إلى دمشق في أوائل صفر. وفي يوم الأربعاء ثاني عشر صفر المذكور خرج الملك الكامل من دِمَشق بنفسه بجميع مَنْ عنده من العساكر، وضَرَب دِهْلِيزَه بالجُسُورَة[2] وخيّم هناك بجميع الجيش، وآستخدم المماليك وأَنْفَق الأموال، وجمع خَلْقاً عظيماً وحضر عنده عرب الأميرين: آبن مُهَنّا وآبن جحيّ ونجدة حلب ونَجْدَةُ حَمَاة، مقدمُهما الملك الأفضل نور الدين عليّ أخو صاحب حماة؛ ورَجّالة كثيرة من جبال بَعْلَبَكّ، ورَتّب العساكر والأطلابَ بنفسه وصَفَّ العساكر مَيْمَنةً ومَيْسَرَةً ووقف هو تحت عصائبه؛ وسار العسكر المصري أيضاً بترتيب هائل وعساكر كثيرة، والأطلاب أيضاً مُرتبة، وآلتقى الجيشان في يوم الأحد [سادس عشر صفر][3] وقت طلوع الشمس في المكان المذكور وتقاتلا أشد قتال، وثَبَت كلُّ من الطائفتين ثباتاً لم يُسْمَع بمثله إلاّ نادراً لا سيما الملك الكامل سُنْقُر الأشقر، فإنّه ثبت وقاتل بنفسه قتالاً شديداً، وآستمرّ

---

(١) كذا أيضاً في مسالك الأبصار للعمري. وفي طبعة دار الكتب المصرية: «بُرَيد» وهو تصحيف. وهو أحمد بن حجّي بن يزيد بن نَبْل بن مِرا بن ربيعة. كان رأس آل مرا. وبنو أحمد بن حجّي وبنو عيسى بن مهنّا هم أبناء عمومة ينتسبون إلى آل مرا وآل فضل فخذين من آل ربيعة من طيِّىء من كهلان من القحطانية. (انظر مسالك الأبصار: ١/١٣٧، وصبح الأعشى: ٤/٢١٠ ــ ٢١٦ طبعة دار الكتب العلمية).

(٢) الجسورة: موضع بظاهر دمشق.

(٣) زيادة عن ابن الفرات. وفيه: «والتقى العسكران بالجسورة في خامس عشر، وقيل يوم الاثنين سابع عشر، وقيل يوم الأربعاء تاسع عشر صفر» وذكر المقريزي في السلوك فقط تاريخ التاسع عشر من صفر.

المصافُّ بين الطائفتين إلى الرابعة من النهار ولم يُقتل من الفريقين إلا نفرٌ يسير جداً، وأمّا الجِراحُ فكثيرة. فلمّا كانت الساعة الرابعة من النهار خامر أكثرُ عسكر دِمَشق على الملك الكامل سُنْقُر الأشقر وغَدروا به وآنضافوا إلى العسكر المصريّ؛ وكان لما وقع العَين على العين قبل أن يلتحم القتال آنهزم عساكر حَمَاة وتخاذل عسكر الشام على الكامل، فمنهم: مَنْ دخل بساتين دِمَشق وآختفى بها، ومنهم مَن دخل دمشق راجعاً، ومنهم من ذَهب إلى طريق بَعلْبَك، فلم يلتفت الملك الكامل لمن ذهب منه من العساكر وقاتَل، فلمّا آنهزم عنه مَن ذكرنا في حال القتال ضَعُفَ أمْره ومع هذا آستمرّ يقاتل بنفسه ومماليكه إلى أن رأى الأميرُ عيسى بن مُهنا الهزيمةَ على الملك الكامل أخذه ومضى به إلى الرَّحْبَة، وأنزله عنده ونصب له بيوت الشَّعْر.

وأمّا الأمير شهاب الدين أحمد بن حجيّ فإنه دخل إلى دمشق بالأمان، ودخل في طاعة الملك المنصور قلاوون.

وأمّا عساكر الشام فإنهم آجتمعوا على القصب من عمل حِمْص، ثم عاد أكثر الأمراء إلى جهة دِمَشق وطلبوا الأمان من مقدّم العساكر المصرية الأمير عَلَم الدين سَنْجَر الحَلَبيّ.

وأمّا العساكر المصرية فإنّهم ساقوا من وقتهم إلى مدينة دِمَشق وأحاطوا بها، ونزلوا بخيامهم ولم يتعرّضوا للزحف، وراسلوا مَنْ بالقلعة إلى العَصْر من ذلك النهار، وفُتِح من المدينة بابُ الفرج ودَخل منه إلى دمشق بعضُ مقدّمي الجيش؛ ثم طَلَب مَن بالقلعة الأمان فأمنهم سَنْجَر الحلبي، ففُتِحت القلعة فدخلوا إليها من الباب الذي داخل المدينة وتَسلّموها بالأمان وأفرجوا عن جماعة كثيرة من الأمراء وغيرهم، كان آعتقلهم سُنْقُر الأشقر، منهم: الأمير ركن الدين بِيبَرْس العَجَمِيّ المعروف بالجالق، والجَالق: آسم للفَرَس الحادّ المِزاج باللغة التركية، والأمير حُسام الدين لاجين المنصوريّ، والقاضي تقيّ الدين تَوْبَة التّكرِيتيّ وغيرهم. وكَتَبَ الأمير علم الدين سَنْجَر الحلبيّ بالنصر إلى الملك المنصور قلاوون فسُر المنصور بذلك، ودقّت البشائر لذلك أياماً بالديار المصرية وزُيِّنت القاهرة ومصر.

وأما سَنْجَر الحلبيّ فإنه لما ملك دِمَشق وقلعتها جهز في الحال قطعة جيّدة

من الجيش المصريّ تُقارب ثلاثة آلاف فارس في طَلب سُنْقُر الأشقر ومَنْ معه من الأمراء والجند. ثم حضر جواب الملك المنصور قلاوون بسرعة يتضمّن: بأننا قد عَفَوْنا عن جميع الناس الخاصّ والعام أرباب السيوف والأقلام، وأمّنّاهم على أنفسهم وأهليهم وأموالهم؛ وحضر التشريفُ للأمير حُسام الدين لاجين المنصوري السِّلَحْدَار بنيابة دِمَشق، فلبِس الخلعة وقبّل الأرض؛ ثم أردف الأميرُ سنجر الحلبيّ العسكرَ الذي كان توجّه لقتال سُنْقُر الأشقر بعسكر آخر، مقدّمه الأمير عِزّ الدين الأفرم، فلَحِق بمَنْ كان توجّه قبله وسار الجميع في طلب سُنْقُر الأشقر. فلمّا بلغ سُنْقُر ذلك رَحَل عن عيسى بن مُهَنّا وتوجّه في البريّة إلى الحصون التي كانت بَقِيتْ في يد نُوّابه، فتحصّن هو ومن معه بها في أواخر الشهر المذكور وهي: صِهْيَوْن، كان بها أولاده وخزائنه ودَخَلها هو أيضاً، وبـلاطُنُس وحصْـن بُرْزَيْه وحصن عَكّار وجَبَلة واللاذِقِيّة وغيرها؛ ثم عادت العساكر إلى دِمَشق وترددت الرسل بينهم وبين سُنْقُر الأشقر.

وبينما هم في ذلك وردت الأخبار في أوائل جُمادى الآخرة أنّ التّتار قصدوا البلاد الشاميّة، فخرج مَنْ كان بدمشق من العساكر الشاميّة والمصريّة، ومقدّمُهم الأمير رُكن الدين إياجي، ولَحِقهم العساكر الذين كانوا في طَلَب سُنْقُر الأشقر، ونزل الجميع بظاهر حَمَاة؛ وكانوا كاتبوا الملك المنصور قلاوون بمجيء التّتار. فجهّز إليهم في الحال عسكراً عليه الأمير بدر الدين بكتاش النَّجْمِيّ، فلَحِق بهم الأمير بكتاش المذكور بمن معه من العسكر المصريّ، وآجتمع[(١)] الجميع على حَمَاة وأرسلوا وأرسلوا كشّافة في العشر الأوسط من جمادى الآخرة إلى بلاد التّتار. هذا وقد جفَل غالبُ مَنْ بالبلاد الشاميّة وخرجوا عن دورهم ومنازلهم ولم يبقَ هناك إلاّ من عَجز عن الحركة. وكان سبب حركة التّتار أنّهم لمّا سمِعوا آختلاف الكلمة، وظنّوا

(١) كان جيش التتار الذي توجه إلى البلاد الشامية قد افترق ثلاث فرق: فرقة سارت من جهة بلاد الروم ومقدمهم صمغار وتبخي وطرنجي، وفرقة من جهة الشرق ومقدمهم بيدو بن طوغاي بن هولاكو وصحبته صاحب ماردين، وفرقة فيها معظم العسكر بقيادة منكوتمر بن هولاكو. (عن السلوك وتاريخ ابن الفرات).

أنّ سُنْقُر الأشقر بمن معه يتّفِق[1] معهم على قتال الملك المنصور قلاوون. فأرسل أمراءُ العساكر المصريّة إلى سنقر الأشقر يقولون له: «هذا العدوّ قد دَهَمنا، وما سببه إلا الخُلْف بيننا! وما ينبغي هلاك الإسلام، والمصلحة أنّنا نجتمِع على دَفْعه؛» فآمتثل سنقر ذلك وأنزل عسكره من صِهْيَوْن وأمرَ رفيقَه الحاج أَزْدَمُر أن يفعل كذلك من شَيْزَر، وخَيَّمت كلّ طائفة تحت قلعتها، ولم يجتمعوا بالمصريين، غير أنهم آتّفقوا على آجتماع الكلمة ودَفْع العدوّ المخذول عن الشام.

وآستمرُّوا على ذلك إلى يوم الجمعة حادي عشرين جُمادى الآخرة، [حيث] وصل طائفة كبيرة من عساكر التّتار إلى حلب [بعد أن ملكوا عين تاب وبغراس والدربساك][2] ودخلوها من غير مانع يَمْنَعُهم عنها، وأحرقوا الجوامع والمساجد والمدارس المُعْتَبَرة ودار السلطنة ودور الأمراء، وأفسدوا إفساداً كبيراً على عادة أفعالهم القبيحة، وأقاموا بها يومين على هذه الصورة؛ ثم رحلوا عنها في يوم الأحد ثالث عشرينه راجعين إلى بلادهم بعد أن تقدّمتهم الغنائم التي كسبوها وكان شيئاً كثيراً. وكان سبب رجوعهم ما بلغهم [من] آتّفاق الطائفتين على قتالهم [ولما بلغهم من اهتمام الملك المنصور صاحب حلب وخروجه بالعساكر من الديار المصرية][3]. وقيل في رجوعهم وجه آخر، وهو أن بعض من كان آستتر بحلب يَئس عن نفسه من الحياة؛ فطَلَع منارة الجامع وكَبَّر بأعلى صوته على التّتار، وقال: جاء النَّصْرُ من عند الله، وأشار بِمنْديل كان معه إلى ظاهر البلد، وأوهم أنّه أشار به إلى عسكر المسلمين، وجعل يقول في خلال ذلك: اقبضوهم من البيوت مثل النّساء! فتوهّم التّتار من ذلك وخرجوا من البلد على وجوههم وسَلِم الذي فعل ذلك.

(١) لما انهزم سنقر الأشقر من دمشق أقام مدة عند الأمير شرف الدين بن مهنا، كما مرّ معنا. ثم إنه توجه إلى الرحبة فامتنع نائب قلعتها موفق الدين خضر الرحبي من تسليمها إليه. عند ذلك كاتب الأمير سنقر الأشقر أبغا بن هولاكو ملك التتار يحثه على الحضور لأخذ البلاد الشامية ووعده الانحياز إليه والإعانة والمساعدة على ذلك، وكتب عيسى بن مهنا إلى ملك التتار بمثل ذلك. (عن السلوك وتاريخ ابن الفرات).

(٢) زيادة عن السلوك وتاريخ ابن الفرات.

(٣) زيادة عن ابن الفرات.

وأمّا سُنْقُر الأشقر فإنّ جماعة من الأمراء والأعيان الذين كانوا معه فَرُّوا إلى العسكر المصريّ ودخلوا تحت طاعة الملك المنصور قلاوون.

وأمّا الملك المنصور قلاوون فإنّه لما طال عليه أمر سُنْقر الأشقر وأمرُ التّتار جمَع أعيان مملكته في هذا الشهر بقلعة الجبل، وجعل ولده الأمير علاءَ الدين علياً وَلِيَّ عهده[١]، ولقبه «الملك الصالح»، وخُطِب له على المنابر.

ثم تجهّز السلطان وخرج من الديار المصريّة بعساكره، وسار حتى وصل إلى غَزّة بلَغه رجوع العدو المخذول، فأقام بالرَّمْلَة وتوقّف عن التّوجه إلى دمشق لعدم الحاجة إلى ذلك، وقَصَد تخفيف الوَطْأة عن البلاد وأهلها. ثم رَحل يوم الخميس عاشر شعبان راجعاً من الرَّمْلة إلى الديار المصريّة، فدخلها وأقام بها أقلّ من أربعة أشهر.

ثم بَدَا له التوجُّه إلى الشام ثانياً، فتجهّز وتجهّزت عساكره وخرج بهم من مصر في يوم الأحد مستهلّ ذي الحجّة قاصداً الشام، وتَرَك ولده الملك الصالح علياً يُباشر الأمور عنه بالديار المصريّة. وسار الملك المنصور قلاوون حتى وصل إلى الرَّوْحَاء من عمل الساحل، ونزل عليها في يوم الثلاثاء سابع عشر ذي الحجّة، وأقام قُبالة عكّا، فراسلتْه الفرنج من عكّا في تجديد الهُدْنة، فإنّها كانت آنقضت مدّتها؛ وأقام بهذه المنزلة حتى آستهلّت سنة ثمانين وستّمائة رحَل عنها يوم الخميس عاشر المحرّم. ونزل اللَّجُون[٢]، وحضر رُسل الفرنج بها بحضرة الأمراء، وسمعوا رسالة الفرنج، فآستشارهم السلطان فحصل الاتّفاق على الهُدْنة، وحَلَف لهم الملك المنصور على الصورة التي وقع الاتّفاق عليها، وآنْبَرَم الصلح وآنعقدت

(١) انظر نص التقليد بولاية العهد من الملك المنصور لولده الملك الصالح علاء الدين علي، من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، في صبح الأعشى: ١٠/١٧٣ ــ ١٧٧، وتاريخ ابن الفرات: ٧/١٨٧ ــ ١٩٠.

(٢) اللَّجون: بلد بالأردن، بينه وبين طبرية عشرون ميلاً. (معجم البلدان).

الهُدْنة في يوم الأحد[١] ثالث عشر المحرّم.

ثم قَبَض الملك المنصور على الأمير كَوُنْدَك الظاهريّ وعلى جماعة من الأمراء الظاهريّة لمصلحة آقتضاها الحال[٢]. وعند قَبْضهم هرب الأمير سيف الدين بَلَبَان الهارُونيّ ومعه جماعةٌ وقصدوا صِهْيَوْن إلى عند سنقر الأشقر، ورُكِبت الخيل في طلبهم فلم يدركوهم، ثم هرب الأمير أَيْتَمُش السَّعْديّ أيضاً ومعه جماعةٌ إلى صِهْيَوْن من منزلة خَرِبة اللّصوص.

ثم سار الملك المنصور إلى دِمَشق فدخلها في يوم السبت تاسع عشره، وأقام بدِمَشق إلى أن قَدِم عليه في صفر الملك المنصور محمد صاحب حَمَاة، فخرج الملك المنصور قلاوون لتَلقّيه وأكرمه. ثم تردّدت الرسل بين السلطان الملك المنصور قلاوون وبين سُنْقُر الأشقر في تقرير قواعد الصلح. فلمّا كان يوم الأحد رابع شهر ربيع الأوّل من سنة ثمانين وستمائة وصل من جهة سنقر الأشقر الأمير علم الدين سَنْجَر الدواداري ومعه خازِنْدار سُنْقُر الأشقر في معنى الصلح والوقوف على اليمين، فحلف الملك المنصور قلاوون يوم الاثنين خامسه، ونادت المنادِيةُ في دِمَشق بآنتظام الصلح وآجتماع الكلمة، فَرَجع رسل سُنْقُر الأشقر ومعهم الأمير فخر الدين إياز المُقْرِىء ليحضُر يمين سُنْقر الأشقر، فحلفه وعاد إلى دمشق يوم الاثنين ثاني عشره، فضُرِبت البشائر بالقلعة وسُرّ الناس بذلك غايةَ السرور. وصورة ما آنتظم الصلح عليه أنّ سُنْقر الأشقر يَرْفع يده عن شَيْزَر ويُسلِّمها إلى نُوّاب الملك المنصور قلاوون، وعَوّضه قلاوون عنها فامِيَة وكَفَرْطَاب وأنطاكِيَة والسُّوَيْدِيّة وبَكَاس ودَرْكُوش بأعمالها كلّها وعدّة

---

(١) في تاريخ ابن الفرات: «يوم السبت العاشر من المحرم» وانظر نص الهدنة المقررة بين المنصور قلاوون وبين مقدم بيت الإستبار وسائر الإستبارية بعكا (وهو Nicholas Le Lorgne) ومتملك طرابلس الشام (وهو بوهيمند السابع ابن بوهيمند السادس) في تاريخ ابن الفرات: ٢٠٦/٧، والسلوك: ٩٧٤/٣/١ ملحق رقم (٦).

(٢) كان قد بلغ المنصور أن الأمير كوندك وجماعة من الأمراء الظاهرية والسعيدية قد أعدوا خطة لاغتياله، وكاتبوا الفرنج؛ فقبض عليهم المنصور وأمر بإعدامهم. ـ انظر تفصيل ذلك في تاريخ ابن الفرات: حوادث شهر المحرم من سنة ٦٨٠هـ.

ضِياع معروفة، وأن يُقيم على ذلك، وعلى ما كان آستقرّ بيده عند الصلح، وهو صِهْيَوْن وبَلاطُنُس وحِصْن بَرْزَة وجَبَلَة واللاّذِقيّة بستمائة فارس [لنصرة الإسلام][1] وأنه يُسَلِّم الأمر إلى الملِك المنصور قلاوون؛ وخوطِب سُنْقُر الأشقر في مكاتباته «بالمَقَرّ العالي المولوي السَّيِّدي العالميّ العادليّ الشمسيّ» ولم يُصرح في مخاطباته بالملك ولا بالأمير[2]، وكان يُخاطَب قبل ذلك في مكاتباته من الملك المنصور قلاوون: «إلى الجناب[3] العالي الأميري الشمسيّ». اِنتهى.

وبينما السلطان في ذلك ورَدَ عليه مجيء التَّتار إلى البلاد الشامية وهو بِدَمشق، فتهيأ لقتالهم وأرسل يطلب العساكر المصرية، وبعد قليل حضرت عساكر مصر إلى دِمَشق وآجتمعت العساكر عند السلطان، ولم يتأخر أحدٌ من التُّرْكُمان والعُرْبان وسائر الطوائف. ووصل الخبُر بوصول التّتار إلى أطراف بلاد حلب، فخلت حلب من أهلها وجُنْدها ونزحوا إلى جهة حَمَاة وحِمْص، وتركوا الغلال والحواصل والأمتعة، وخرجوا جرائدَ على وجوههم؛ ثم ورد الخبر بوصول مَنْكُوتَمُر بن هولاكو مَلِك التّتار إلى عين تاب وما جاورها في يوم الأحد سادس عشرين جُمادى [الآخرة]

---

(١) زيادة عن ابن الفرات.

وقد وردت العبارة في السلوك: «وشرط أيضاً أن يكون أميراً بستمائة فارس» وقد علق الدكتور محمد مصطفى زيادة على ذلك بقوله إن هذا الشرط يعني أن سنقر الأشقر شرط أن يعطى إقطاعات مساوية لما يعطى لستة من أكابر الأمراء، باعتبار أن مرتبة أميرمائة كانت أعلى مراتب الأمراء في دولة المماليك. انتهى.

(٢) جاء في تاريخ ابن الفرات أن الأمير سنقر الأشقر كان قد طلب إلى السلطان أن ينعته في التقليد بلفظ الملك فما أجاب الملك المنصور إلى ذلك، ونعته بالإمرة فقط. وما جاء في ابن الفرات يوافق ما ذكره المقريزي في السلوك والنويري في نهاية الأرب.

(٣) بالرغم من رفض السلطان مخاطبة سنقر الأشقر بالملك، فإن انتقال مخاطبته من «الجناب العالي» إلى «المقرّ العالي» دلالة على الزيادة في إكرامه وتشريفه، ذلك أن لقب «الجناب العالي» كان يطلق في ذلك الوقت على كبار مقدمي الألوف من الدرجة الثانية بالأبواب السلطانية (أي بمصر) وعلى كبار مقدمي الألوف من الدرجة الأولى بدمشق وعلى الوزير بمصر وأجلاء الوزراء من أرباب الأقلام، في حين أن لقب «المقرّ العالي» كان في نهاية العصر الأيوبي وبداية عصر المماليك يعتبر أرفع الألقاب الأصول، حتى إن هذا اللقب أطلق على الملك المنصور قلاوون نفسه في كتاب العهد إليه بالسلطنة سنة ٦٧٨هـ. (انظر الألقاب الإسلامية: ٢٤١، ٤٨٩).

فخرج الملك المنصور قلاوون بعساكره في يوم الأحد المذكور وخَيّم بالمَرْج، ووصل التتار إلى بَغْراس، فقدَّم الملك المنصور عسكره أمامه، ثم سافر هو بنفسه في سَلْخ جُمادى الآخرة المذكور، وسار حتى نزل السلطان بعساكره على حِمْص في يوم الأحد ثالث عشرين شهر رجب، وراسل سُنْقُر الأشقر بالحضور إليه بمَنْ معه من الأمراء والعساكر، وكذلك الأمير أَيْتَمُش السَّعْدِيّ الذي كان هرَب من عند السلطان لما قَبض على الأمراء الظاهريّة؛ فآمتثل سُنْقُر الأشقر أمرَ السلطان بالسمع والطاعة ورَكِب من وقته بجماعته، وحضَر إلى عند الملك المنصور قلاوون، وآستحلفه لأَيْتمش السَّعْديّ يميناً ثانية ليزداد طُمَأنينةً، ثم أحضره، وتكامل حضورهم عند السلطان. وعامَل السلطانُ سُنْقرَ الأشقرَ بالاحترام التامّ والخِدْمة البالغة والإقامات العظيمة والرّواتب الجليلة. وشَرَعت التّتار تتقدّم قليلاً قليلاً بخلاف عادتهم، فلمّا وصلوا حَمَاة أفسدوا بنواحيها، وشَعَّثُوا وأحرقوا بُستان الملك المنصور صاحب حَمَاة وجَوْسَقَه وما به من الأبنية. وآستمرّ عسكر السلطان بظاهر حِمْص على حاله إلى أن وصلت التّتار إليه في يوم الخميس رابع عشر شعبان، فركب الملك المنصور بعساكره وصافَفَ العَدُوَّ، وآلتقى الجَمْعان عند طلوع الشمس، وكان عددُ التّتار على ما قيل مائة ألف فارِس أو يزيدون، وعسكر المسلمين على مقدار النّصف من ذلك أو أقلّ، وتواقعوا من ضَحْوة النهار إلى آخره، وعَظُم القتال بين الفريقين وثَبت كلٌّ منهم.

قال الشيخ قُطْب الدين اليُونينيّ: «وكانت وَقْعَةً عظيمةً لم يُشْهَد مثلُها في هذه الأزمان ولا من سنين كثيرة، وكان المُلْتَقى فيما بين مَشْهَد خالد بن الوليد، رضي الله عنه، إلى الرَّسْتَن والعاصي، وآضطربت مَيْمَنة المسلمين، وحَمَلت التّتار على مَيْسرة المسلمين فكسروها وآنهزم مَن كان بها، وكذلك آنكسر جَنَاح القلب الأيسر وثَبت الملك المنصور سيف الدين قلاوون، رحمه الله تعالى، في جَمْع قليل بالقلب ثَباتاً عظيماً، ووصل جماعةٌ كثيرة من التّتار خَلْف المنكسرين من المسلمين إلى بُحَيْرة حِمْص، وأحدق جماعةٌ من التّتار بِحمْص، وهي مغلقة الأبواب، وبذلوا نفوسهم وسيوفَهم فيمَنْ وجدوه من العوامّ والسُّوقَة والغِلْمانِ والرَّجَّالة المجاهدين بظاهرها،

فقتلوا منهم جماعةً كثيرة، وأشرف الإسلام على خُطَّة صعبة! ثم إنّ أعيانَ الأمراء ومشاهيرهم وشُجعانهم: مثل سُنْقُر الأشقر المقدَّم ذكره، وبدر الدين بَيْسَريّ، وعلم الدين سَنْجَر الدواداري وعلاء الدين طَيْبَرْس الوَزِيريّ، وبدر الدين بِيليك أمير سلاح، وسيف الدين أَيْتَمش السَّعْدِيّ، وحُسام الدين لاجين المنصوريّ، والأمير حسام الدين طُرُنْطَاي وأمثالهم لما رأَوْا ثبات السلطان ردُّوا على التّتار وحَمَلوا عليهم حَمَلات حتّى كسروهم كَسْرَةً عظيمة، وجُرِحَ مَنْكُوتَمُر مقدَّم التّتار، وجاءهم الأمير شرف الدين عيسى بن مُهَنّا في عَرَبه عَرْضاً فتمت هزيمتُهم، وقتلوا منهم مَقتلةً عظيمةً تُجاوز الوصف؛ وآتّفق أنّ مَيْسَرة المسلمين كانت آنكسرت كما ذكرنا، والميمنة ساقتْ على العدُوّ ولم يبقَ مع السلطان إلاّ النَّفَرُ اليسير، والأمير حُسام الدِّين طُرُنْطَاي قُدّامه بالسناجق، فعادت المَيْمَنة الذين كَسُروا ميسرة المسلمين في خَلْق عظيم ومَرُّوا به، وهو في ذلك النَّفر تحت السناجق (يعني الملك المنصور قلاوون) والكُوسات تضرب. قال: ولقد مررتُ به في ذلك الوقت وما حوله من المقاتلة ألف فارس إلا دون ذلك، فلمّا مرّوا به (يعني ميمنة التّتار التي كانت كسرت ميسرة المسلمين) ثبَت لهم ثباتاً عظيماً، ثم ساق عليهم بنفسه فآنهزموا أمامه لا يَلْوُون على شيء، وكان ذلك تمام النَّصْر؛ وكان آنهزامهم عن آخرهم قبل الغروب، وآفترقوا فرقتين: فرقة أخذت جهة سَلَمْيَةَ والبَرِّيَّة، وفرقة أخذت جهة حلب والفُرات. ولمّا آنقضى الحرب في ذلك النهار عاد السلطان إلى منزلته، وأصبح بُكرة يوم الجمعة سادس عشر رجب جهّز السلطان وراءهم جماعةً كثيرة من العسكر والعُرْبان، ومقدَّمُهم الأمير بدر الدين بِيليك الأَيْدَمُرِيّ، وكان لمّا لاحت الكَسْرة على المسلمين نُهب لهم من الأقمشة والأمتعة والخزائن والسلاح ما لا يُحصى كثرةً، وذهب ذلك كلّه أخذتْه الحرافشة[١] من المسلمين مثل

---

(١) الحرافشة والحرافيش: مفردها حرفوش، وهو ذميم الخَلْق والخُلق، وهو المقاتل والمصارع واللص. (انظر المعاجم اللغوية ومعجم دوزي: مادة حرفش).

وقد أطلقت تسمية الحرافشة والحرافيش في ذلك العصر على فئة من الطبقات الدنيا، كثيرة العدد، استغلت تشجيع المماليك للتيار الصوفي الداعي إلى الزهد فانخرطوا في هذا التيار طمعاً في رزق ثابت مما كان يوقف على التكايا والربط والخانقات. وكان هؤلاء قبل ذلك يتكسبون من مصاحبة الجيوش =

الغِلْمان[(١)] وغيرهم. وكُتِبت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد، وحصَل للناس السرورُ الذي لا مَزيد عليه، وعُمِلت القلاع[(٢)] وزُيِّنت المُدُن».

وأمّا أهل دمشق فإنّه كان وَرَد عليهم الخبر أوّلاً بكَسْرة المسلمين، ووصَل إليهم جماعةٌ ممّن كان آنهزم؛ فلمّا بلغهم النصرُ كان سرورهم أضعاف سرور غيرهم. وكان أهل البلاد الشامية من يوم خرَج السلطان من عندهم إلى مُلْتَقَى التّتار وهم يدعون الله تعالى في كلّ يوم ويبتهلون إليه، وخرج أهلُ البلاد بالنساء والأطفال إلى الصَّحارَى والجوامع والمساجد، وأكثروا من الابتهال إلى الله، عَزّ وَجَلّ، في تلك الأيام لا يَفْتُرون عن ذلك حتى وردَ عليهم هذا النصرُ العظيم ولله الحمد؛ وطابت قلوبُ الناس، وردّ مَن كان نَزَح عن بلاده وأوطانه وآطمأنّ كلّ أحد وتضاعف شكرُ الناس لذلك. وقُتِل في هذه الوقعة من التتار ما لا يُحصى كثرةً؛ وكان مَن آستُشْهِدَ من عسكر المسلمين دون المائتين على ما قيل؛ وممّن قُتِل الأمير الحاج أَزْدَمُر، وسيف الدين بَلَبان الرّوميّ، وشهاب الدين تُوتل الشَّهْرُزُوريّ، و[عِزّ الدين بن النُّصْرة][(٣)] من بيت الأتابك صاحب المَوْصِل وكان أحد الشُّجْعان المُفْرِطين في الشجاعة، رحمهم الله تعالى أجمعين.

ثم إن السلطان آنتقل من منزلته بظاهر حِمْص إلى البُحيرة التي بحِمْص ليبعُد عن الجِيَف، ثم توجّه عائداً إلى دِمَشْق فدخلها يوم الجمعة الثاني والعشرين من

= الإسلامية عند الجهاد، أي كانوا من المطوّعة. وتعبير «حرافشة المسلمين» كان يطلق تحديداً على أولئك الحرافيش الذين يصاحبون الجيوش الإسلامية عند الغزو والجهاد. (انظر حكايات الشطّار والعيارين في التراث العربي للدكتور محمد رجب النجّار: ١٧٨ ــ ٢٣٣).

(١) الغلمان: هذه التسمية كانت تطلق على فئة من أهل السجون أو بقايا الجند المطوّعة، والذين اندرجوا في طائفة الحرافشة، كما أشرنا في الحاشية السابقة. (المصدر السابق: ص ٢٢٣).

(٢) كذا بالأصل. وعبارة السلوك: «ونصبت القلاع». والراجح أن المقصود هنا قلاع خشبية زينت بها الطرقات احتفالاً بالنصر. وجاء في معجم دوزي أن القلاع ــ وجمعه أقلع ــ قماش يغطي صحن الجامع. وربما كان المقصود هنا قماشاً شبيهاً بهذا نصبه الناس على جوانب الطرقات لاستكمال زينتها وبهجتها. (السلوك: ٧٠١/٣/١، حاشية رقم: ٢).

(٣) زيادة من طبعة دار الكتب عن ذيل مرآة الزمان. ــ قارن أيضاً بالسلوك: ٦٩٦/٣/١ وفيه ذكر لآخرين ممن استشهدوا في معركة حمص هذه.

شعبان قبل الصلاة؛ وخرَج الناس إلى ظاهر البلد للقائه، فدخل دِمَشق وبين يديه جماعةٌ من أَسْرَى التَّتار وبأيديهم رِماحٌ عليها رؤوسُ القَتْلى من التَّتار، فكان يوماً مشهوداً. ودخل السلطان الشام وفي خدمته جماعةٌ مِن الأعيان، منهم: سُنْقُر الأشقر الذي كان تسلطن وتلقّب بالملك الكامل، وأَيْتَمش السعديّ، و[الأمير علم الدين سَنْجَر] الدواداري، وبَلَبان الهاروني؛ ثم قَدِم بعد ذلك [الأمير بدر الدين] الأَيْدَمُرِيّ بمن معه من العسكر عائداً من تتبع التَّتار بعد ما أَنْكَى فيهم نِكايةً عظيمة، ووصل إلى حلب وأقام بها، وسير أكثر من معه يتبعونهم، فهلَك من التّتار خَلْقٌ كثير غَرِقوا بالفُرات عند عُبورهم؛ وعندما عَدَوْه نَزَل إليهم أهلُ البيرة فقتلوا منهم مقتلةً عظيمة وأَسَرُوا منهم جمعاً كثيراً، وتفرّق جَمْعُ التّتار وأخِذت أموالُهم. وأقام السلطان بدِمَشْق إلى ثاني شهر رمضان خَرج منه عائداً إلى الديار المصريّة، وخرج الناس لودَاعه مُبتهلين بالدعاء له، وسار حتى دخل الديار المصريّة يوم ثاني عشرين الشهر بعد أن آحْتَفَل أهلُ مصر لملاقاته، وزُيِّنت الديار المصرية زينة لم يُرَ مثلُها من مدّة سنين، وعملت بها القلاع(١)، وشقّ القاهرة في مروره إلى قلعة الجبل حتى طَلَع إليها؛ فكان هذا اليوم من الأيام المشهودة، وتضاعف سرورُ الناس بسلامته وبنصر المسلمين على العدوّ المخذول.

ثمّ إن السلطان عَقِيب دخوله إلى مصر قَبَض على الأمير ركن الدين إياجي الحاجب، وبهاء الدين يعقوب مقدّم الشَّهْرُزُورِيّة بقلعة الجبل. وآستمرّ السلطان بمصر إلى خامس ذي القعدة من السنة قَبَض على الأمير أَيتمش السَّعْدِيّ بقلعة الجبل وحبَسه بها، ثم أرسل إلى نائب دِمَشْق بالقَبْض على الأمير بَلَبان الهارُونيّ بدمشق فقبض عليه.

وفي هذه السنة (أعني سنة ثمانين وستمائة) تَرِبَتْ جزيرةٌ كبيرة ببحر النيل تُجَاه قرية بُولاق واللُّوق، وآنقطع بسببها مَجْرَى البحر ما بين قلعة المَكْس وساحل باب البحر، والرَّمْلة وبين جزيرة الفِيل وهو المارّ تحت مُنْية السِّيرج، وآنسد هذا البحر

---

(١) راجع ص ٢٦٠، الحاشية (٢).

ونشف بالكليّة، واتصل ما بين المَقْس وجزيرة الفِيل بالمشي، ولم يُعهد فيما تقدّم، وحصل لأهل القاهرة مشقّة من نقل الماء الحلو لبُعد البحر، فأراد السلطان حفره فنهَوْه عن ذلك، وقالوا له: هذا ينشف إلى الأبد، فتأسّف السلطان وغيره على ذلك[١].

قلت: وكذا وقع، ونحن الآن لا نعرف أين كان جريان البحر المذكور إلّا بالحَدْس، لإنشاء الأملاك والبساتين والعمائر والحارات في محلّ مجرى البحر المذكور، فسبحان القادر على كلّ شيء!

ثم في أوّل سنة إحدى وثمانين وستمائة ورد الخبر على السلطان أنّه تسلطن في مملكة التّتار مكان أبغا بن هولاكو أخوه لأبيه أحمد بن هولاكو، وهو مُسْلمٌ حسَن الإسلام وعمرُه يومئذ مقدارُ ثلاثين سنة، وأنّه وصلت أوامره إلى بغداد تتضمّن إظهار شعائر الإسلام وإقامة مَنَاره، وأنّه أعلى كلمة الدين، وبنى الجوامع والمساجد والأوقاف ورتّب القُضاة، وأنه انقاد إلى الأحكام الشرعية، وأنّه ألزم أهل الذِّمّة بلُبْس الغِيَار[٢]، وضرَب الجِزْية عليهم؛ ويقال إنّ إسلامه كان في حياة والده هولاكو، فسُرّ السلطان بذلك سُروراً عظيماً[٣].

---

(١) انظر الحواشي القيمة التي كتبها الاستاذ محمد رمزي عن الأماكن الواردة في هذا الخبر، في النجوم الزاهرة: ٣٠٧/٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠ طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) الغيار: هو ما يلبسه أهل الذمّة ليتميزوا عن المسلمين. وقد أوضح القلقشندي ذلك في أحكام عقود الذمة بقوله: «.. ومنها التمييز عن المسلمين في اللباس؛ بأن يخيطوا في ثيابهم الظاهرة ما يخالف لونها، سواء في ذلك الرجال والنساء. والأولى باليهود الأصفر وبالنصارى الأزرق والأكهب ــ وهو المعبَّر عنه بالرمادي ــ وبالمجوس الأسود والأحمر. ويشدُّ الرجال منهم الزنّار من غير الحرير في وسطه، وتشده المرأة تحت إزارها، وقيل فوقه. ويميزون ملابسهم عن ملابس المسلمين، وتغاير المرأة لون خفيّها: بأن يكون أحدهما أبيض والآخر أسود ونحو ذلك. ويجعل في عنقه في الحمّام جلجلاً أو خاتماً من حديد. وإن كان على رأس أحدهم شعر أُمر بجزّ ناصيته. ويمنعون من إرسال الضفائر كما تفعل الأشراف. ولهم لبس الحرير والعمامة والطيلسان. والذي عليه عُرف زماننا في التمييز أن اليهود مطلقاً تلبس العمائم الصفر، والنصارى العمائم الزرق، ويركبون الحمير على البراذع، ويثني أحدهم رجله قدّامه. وتختصّ السامرة بالشام يلبس العمامة الحمراء». (انظر صبح الأعشى: ٣٦٣/١٣ طبعة دار الكتب العلمية).

(٣) انظر نص كتاب السلطان أحمد تكودار إلى أهل بغداد في: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور: ص ٥.

=

وبعد مدّة قَبَض السلطان على الأمير بدر الدين بَيْسَري، وعلى علاء الدين كُشْتُغْدِي الشّمسيّ وآعتقلهما بقلعة الجبل، وذلك في يوم الأحد مستهلّ صفر من السنة.

وآستمرّ السلطان على ذلك إلى يوم الأربعاء ثاني عشرين شعبان طافوا بكسوة البيت العتيقِ التي عُمِلت برَسْم الكعبة، عظّمها الله تعالى، بمصر والقاهرة على العادة، ولَعِبت مماليك السلطان الملك المنصور قلاوون أمام الكسوة بالرِّماح والسلاح.

قلت: وأظنّ هذا هو أوّل آبتداء سَوْق المحمل المعهود الآن؛ فإنّنا لم نقف فيما مضى على شيء من ذلك مع كثرة آلتفاتنا إلى هذا المعنى، ولهذا غلَب على ظنّي من يوم ذاك بدأ السوق المعهود الآن، ولم يكن إذ ذاك على هيئة يومنا هذا، وإنّما آزداد بحسب آجتهاد المعلّمين، كما وقع ذلك في غيره من الفنون والملاعيب والعلوم؛ فإن مبدأ كلّ أمر ليس كنهايته، وإنّما شَرَع كلّ معلّم في آقتراح نوع من أنواع السَّوْق إلى أن آنتهى إلى ما نحن عليه الآن، ولا سبيل إلى غير ذلك. يَعْرِف

= كما أرسل سلطان المغول رسالة إلى المنصور قلاوون يعلن فيها إسلامه وأنه أمر ببناء المساجد وإقامة شعائر الإسلام، وسأله اجتماع الكلمة وإخماد الفتنة والحروب، فأجيب بتهنئته بالإسلام والرضى بالصلح. انظر نص الرسالتين المتبادلتين في تشريف الأيام والعصور: ٦ ــ ١٦، والسلوك للمقريزي: ١/٣/٩٧٧ ــ ٩٨٤ ملحق رقم (٧) وكان تكودار بن هولاكو قد اعتنق الدين المسيحي في صغره، وتعمد في صباه وتسمى منذ ذلك الحين باسم «نيقولا». ولكن على أثر اتصاله برعاياه من المسلمين صار يميل إلى الإسلام تدريجياً؛ ولما توطدت علاقته بعلماء المسلمين أعلن إسلامه ولقب بلقب السلطان أحمد تكودار، فكان بذلك أول إيلخانيي المغول الذين اعتنقوا الدين الإسلامي في إيران. وقد ترتب على إسلام تكودار أن خلا الديوان المغولي من المسيحيين واليهود، وحولت المعابد البوذية والكنائس إلى مساجد، وأجبر كثير من المسيحيين على اعتناق الإسلام. ولكن أمراء المغول الذين كانوا لا يزالون حريصين على التمسك بعقائدهم وتقاليدهم رأوا في سياسة تكودار خطراً يهدد كيانهم ويقوض بنيانهم؛ فناصبوه العداء وجهروا بالثورة عليه. وكان من أشد الناقمين عليه الأمير أرغون، خصوصاً وأنه كان يطمع في أن يلي العرش بعد وفاة أبيه أبغا (آباقا خان). وسرعان ما نشبت الحرب بينه وبين السلطان، وانتهى الأمر بهزيمة تكودار وقتله في ليلة الخميس ٢٦ من جمادى الأولى سنة ٦٨٣هـ. وبموته عادت قوانين جنكزخان وتقاليد المغول لتحل محل الشريعة الإسلامية. (عن كتاب: مؤرخ المغول رشيد الدين الهمذاني، ص ٦٠ ــ ٦١).

ما قلته مَن له إلمامٌ بالفنون والعلوم إذا كان له ذَوْقٌ وعقل. وعلى هذه الصيغة أيضاً اللعب بالرمح فإنّ مماليك قلاوون هم أيضاً أحدثوه، وإن كانت الأوائل كانت تلعبه، فليس كان لعبهم على هذه الطريقة؛ وأنا أضرب لك مثلاً لِمِصْداق قولي في هذا الفنّ، وهو أنّ مماليك الملك الظاهر برقوق كان أكثرهم قد حاز من هذا الفنّ طَرفاً جيّداً، وصار فيهم من يُضرب بلعبه المثَل، وهم جماعة كثيرة يطول الشرح في ذكرهم، ومع هذا أحدث معلّمو زماننا أشياء لم يعهدوها أولئك من تغيير القَبْض على الرمح في مواطن كثيرة في اللّعب، حتى إنّ لعب زماننا هذا يكاد أنّه يخُالف لعب أولئك في غالب قُبوضاتهم وحَركاتهم. وهذا أكبر شاهدٍ لي على ما نقلتُه من أمر المحمل، وتَعْدَاد فنونه، وكثرة ميادينه، وآختلاف أسمائها لتغيير لعب الرمح في هذه المدّة اليسيرة من صفة إلى أخرى، فكيف وهذا الذي ذكرناه من ابتداء السوق من سنة إحدى وثمانين وستمائة! فمن باب أولى تكون زيادات أنواع سوق المحمل أحقَّ بهذا لطول السنين، ولكثرة مَن باشره من المعلّمين الأستاذين، ولتغير الدُّوَل، ولمحبّة الملوك وتعظيمهم لهذا الفن، ولإنفاق سوق من كان حاذقاً في هذا الفن. وقد صنّفتُ أنا ثمانية ميادين كلّ واحد يخالف الآخر في نوعه لم أُسْبَق إلى مثلها قديماً ولا حديثاً، لكنّني لم أُظْهِرها لكساد هذا الفنّ وغيره في زماننا هذا، ولعدم الإنصاف فيه وكثرة حُسّاده ممّن يدّعي فيه المعرفة وهو أجنبيّ عنها، لا يعرف آسم نوع من أندابه[1] على جَلِيته بل يَدَّعيه جَهْلاً، ويَقْوَى على دعواه بالشَّوْكة والعصبيّة.

ولله درّ القائل: [الخفيف]

أيُّهـا المـدّعي سُلَيْمى كِفـاحـاً ... لستَ منهـا ولا قُـلامـة ظُفْـرِ

إنّمـا أنت مـن سُلَيْمَى كـواوٍ ... أُلْحِقَتْ في الهجاء ظُلْماً بعَمْرو

وشاهدي أيضاً قول العلّامة جار الله محمود الزَّمَخْشَرِيّ[2] وأجاد، رحمه الله تعالى: [الطويل]

---

(١) الأنداب: جمع نَدَب، وهو القوس السريعة السهم. (المعجم الوسيط). وفي حاشية ص ٣١٢، ج ٧ من النجوم أن الندب نوع من اللعب بالنشّاب. ــ وجاء في حاشية ص ٧٢٦ من السلوك، الجزء الأول، أن النَّدب كيس صغير يسع خمس بندقيات. والحاشيتان المذكورتان مأخوذتان عن كاترمير ودوزي!!.

(٢) راجع وفيات سنة ٥٣٨هـ.

وأخَّـرني دهـري وقَـدَّم مَعْشَـراً على أنّهـم لا يعلمـون وأعلمُ
ومُـذْ أفلح الجُهّـال أيقنتُ أنَّني أنـا الميمُ والأيـام أَفْلَح أَعْلَمُ

قلت: وتفسير الأفلح هو مشقـوق الشّفة العُليـا، والأعلم مشقوق الشّفـة السُّفْلى، وفائدة ذلك أن مشقوق الشفتين العُلْيا والسُّفْلى لا يقدر أن يَتلفّظ بالميم ولا يَنْطِق بها. فانظر إلى حسن هذا التخيّل والغَوْص على المعاني.

وما أحسن قولَ الإمام العلّامة القاضي الفاضل(١) عبد الرحيم وزير السلطان صلاح الدين، وهو: [مجزوء الكامل]

مـا ضـرّ جهـلُ الجـاهلـ ـينَ ولا انتفعتُ أنـا بحِذْقِي
وزيـادة في الحِـذْق فـهـ ـي زيـادةٌ في نقص رِزْقي

وقول الشّريف الرضِي(٢) في المعنى: [البسيط]

ما قَدْرُ فضلك ما أصبحتَ تُرْزَقُهُ ليس الحظوظ على الأقدار والمِهَنِ
قد كنتُ قبلك من دهري على حَنَقٍ فزاد ما بك في غَيْظِي على الزمنِ

وفي المعنى: [البسيط]

كم فاضلٍ فاضلٍ أَعيتْ مـذاهبُه وجـاهلٍ جـاهـلٍ تَلْقاه مـرزوقَـا
هـذا الذي تَـركَ الألبابَ حـائـرةً وصيـر العـالِمِ النِّحـريـرَ زِنْـدِيقَـا

قلت: ويُعجبني المقالةُ السادسة عشرة من كتاب «أطباق الذهب» للعلّامة شرف الدين عبد المؤمن الأصفهانيّ المعروف بشَوَرْوَة(٣)، وهي:

«طَبْعُ الكريم لا يحتمل حُمَة(٤) الضَّيْم، وهواءُ الصيف لا يَقْبَل غُمَّة الغَيْم؛ والنَّبيل يَرْضَى النِّبال والحُسام، ويأبـى أن يُسام؛ ولأنْ يُقْتَل صَبْراً، ويُودَعَ قبراً؛

(١) راجع وفيات سنة ٥٩٦هـ.
(٢) راجع وفيات سنة ٤٠٦هـ.
(٣) راجع ص ١٧٥ من هذا الجزء، حاشية (٢) و (٣).
(٤) الحُمة (بالضم): سمّ كل شيء يلدغ أو يلسع.

أحبُّ إليه من أن يُصيبه نُشَّابُ الجفاء، من جَفِير[١] الأكفاء؛ يَهْوَى المَنِيَّة، ولا يَرْضَى الدَّنِيَّة؛ يستقبل السيف، ولا يقبل الحَيْف؛ إن سِيمَ أخذتْه الهِزَّة، وإن ضيم أخذته العِزَّة؛ إن عاشرتَه سال عَذْباً، وإن عاسرتَه سُلَّ عَضْباً؛ إن شاربته تخمّر، وإن حاربتَه تنمّر؛ يَرَى العِزّ مَغْنما، والذّل مَغْرَما، وكان كأنف اللَّيث لا يَشتَم مُرْغَما!.

فيا هذا كن في الدنيا حَمِيَّ الأنف منَيع الجناب، أبيّ النفس طَرِير[٢] النَّاب؛ ولا تصحب الدنيا صحبَة بِعَال[٣]، ولا تنظر إلى أبنائها إلاّ من عال؛ ولا تخفِض جَناحك لبنيها، ولا تُضَعْضِع ركنَك لبانيها؛ ولا تَمُدَّن عَيْنَيْك إلى زخارفها، ولا تَبْسُط يَدك إلى مَخَارِفها؛ وكن من الأكياس، وآتْلُ على اللِّئام سُورَةَ الناس، ولا تُصَعرٌ خَدَّك للناس». اِنتهى.

قلتُ: وقد خرجنا عن المقصود غير أنّنا وجدنا المقال فقلنا. ولنعُد إلى ما نحن فيه من ترجمة الملك المنصور قلاوون.

ودام السلطان الملك المنصور بديار مصر إلى سنة ثلاث وثمانين وستمائة؛ وتُوفّي صاحب حَمَاة الملك المنصور محمد الأيُوبيّ، فأنعم السلطان الملك المنصور على ولده بسلطنة حَمَاة، وولاّه مكان والده المنصور.

ثم تجهّز السلطان في السنة المذكورة وخَرَج من الديار المصريّة بعسكره متوجِّهاً إلى الشام في أواخر جُمادى الأولى، وسار حتى دخل دِمَشْق في ثاني عشر جُمادى الآخرة؛ وأقام بدِمَشْق إلى أن عاد إلى جهة الديار المصريّة في الثُّلُث الأخير من ليلة السبت ثالث عشرين شعبان، وسار حتى دخل مصر في النصف من شهر رمضان؛ وأقام بديار مصر إلى أوّل سنة أربع وثمانين وستمائة فتجهّز وخرج منها بعساكره إلى جهة الشام؛ وسافر حتى دخل دمشق يوم السبت ثاني عشرين المحرّم

(١) الجفير: الكنانة.
(٢) طرير: حاد.
(٣) باعل مباعلة وبعالاً: اتخذ زوجاً ولاعب زوجته.

من السنة المذكورة، وعَرَض العسكر الشاميّ عدّة أيّام، وخرجوا جميعاً قاصدين المَرْقَب[١] في يوم الاثنين ثاني صفر.

وكان قد بَقِي في يد سُنْقُر الأشقر قطعة من البلاد، منها: بِلَاطُنُس وصِهْيَوْن وبُرْزَيْه وغير ذلك، وكان عمل السلطان في الباطن آنتزاع ما يُمكن آنتزاعه من يد سُنْقُر الأشقر[٢] المذكور وإفساد نُوَّابه. فآتّفق الحال بين نُوّاب السلطان وبين نوّاب سنقر الأشقر على تسليم بِلَاطُنس فسُلِّمت في أوّل صفر. ووافى السلطانَ البُشْرَى بتسليمها وهو على عيون القَصَب في توجُّهه إلى حصار المَرْقَب فسُرّ بذلك وآستبشر بنَيْل مقصوده من المَرْقَب.

وكان في نفس السلطان من أهل المَرْقَب لِمَا فعلوا مع عسكره ما فعلوا في السنين الماضية، فنازل السلطان حصن المَرْقَب في يوم الأربعاء عاشر صفر، وشرَع العسكر في عمل الستائر والمجانيق. فلمّا آنتهت الستائر التي للمجانيق حَمَلَتْها المقاتلة لباب الحصن، فسقَطت السّتارة إلى بركة كبيرة كان عليها جماعةٌ من أصحاب الأمير علم الدين سَنْجَر الدَّوِيدَارِيّ، منهم شمس الدين سُنْقُر أستاداره وعِدّةٌ من مماليكه فآسْتُشْهِدُوا جميعهم، رحمهم الله تعالى.

ثمّ في يوم الأحد رابع عشره، حضَر رسُل الفرنج من عند مَلِكهم الإسبتار،

(١) المرقب: بلد وحصن بساحل الشام، بينه وبين أنطرسوس ثمانية أميال. واسمه في الحوليات الصليبية Castrum Merghatum. وكان حصن المرقب من الحصون المشهورة بالمنعة والحصانة وقد بقي بيد فرسان الاسبتارية من الفرنجة. وكان هؤلاء الفرسان الرهبان قد انحازوا إلى المغول وذهبوا إلى حد القتال إلى جانبهم ضد المسلمين. وهكذا فقد كان تصميم المنصور قلاوون أن يأخذ هذا الحصن مهما كلّف الأمر وأن يجعل الفرنجة يدفعون ثمن انحيازهم إلى المغول. ــ وقد أورد ابن عبد الظاهر نبذة وافية عن تاريخ هذا الحصن في تشريف الأيام والعصور: ٨٥ ــ ٨٦.

(٢) كان سنقر الأشقر مقيماً بصهيون منذ سنة ٦٧٩هـ. ولما كان ما بينه وبين السلطان قلاوون قد انتهى بالصلح منذ شهر صفر سنة ٦٨٠هـ، فقد اعتقد السلطان وهو بالمرقب أن سنقر سيسير إليه وهو بها أداء لواجب التابع نحو المتبوع، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك، وبعث إليه ابنه ناصر الدين صمغار، فأسرّها السلطان في نفسه، ولم يمكن صمغار من العود إلى أبيه بل حمله معه إلى مصر. (انظر السلوك: ١/٣/٧٢٨، ٧٣٤).

وسألوا السلطانَ الصُّلح والأمان لأهل المَرْقب على نفوسهم وأموالهم ويُسَلِّمون الحِصْن المذكور، فلم يُجِبْهم السلطان إلى ذلك، وكَمّل نَصْب المجانيق ورَمَى بها وشَعَّثَ الحصن وهدَم معظَم أبراجه وآستمرّ الحال إلى سادس عشر شهر ربيع الأوّل، زحَف السلطان على الحصن فأذعن مَن فيه بالتسليم؛ وحصَلت المُراسلةُ في معنى ذلك. فلمّا كان يوم الجمعة ثامن عشر شهر ربيع الأوّل المذكور سُلِّم، ورُفِعت عليه الأعلام الإسلاميّة ونزَل من به بالأمان على أرواحهم فركبوا، وجهّز معهم مَن أوصلهم إلى أَنْطَرْطُوس[١].

[و]بالقُرب من هذا الحصن [مَرَقِيّة] وهي بلدة صغيرة على البحر، وكان صاحبها قد بَنَى في البحر برجاً[٢] عظيماً لا يُرام ولا تَصِله النُّشّاب ولا حجرُ المَنْجَنِيق وحصّنه؛ وآتفق حضورُ رُسُل صاحب طَرَابُلُس إلى السلطان بطَلَب مراضيه، فاقترح عليه خَرَاب هذا البرج وإحضار مَن كان فيه أسيراً من الجُبَيْلِيّين[٣] الذين كانوا مع

(١) في تاريخ ابن الفرات: ١٨/٨ أنه بعث بهم إلى طرابلس؛ ومثل ذلك في السلوك: ٧٢٨/٣/١.

(٢) أورد ابن عبد الظاهر وصفاً دقيقاً لهذا البرج، قال: «هو برج مربّع، عرضه قريب من طوله، كل جانب منه خمسة وعشرون ذراعاً ونصف بالعمل (أي ذراع العمل) وعرض سوره سبعة أذرع. وهو سبع طباق، وبني على مراكب غرّقت في وسط البحر، فيها أحمال كثيرة من الحجارة، تحت كل قطر منه مغرّق تسعمائة مركب، فيها حجارة، وبين كل حجرين في أسوارها قضيبان من الحديد متّصلان، وعليهما شبك الرصاص، وداخله صهريج عظيم، وفوق الصهريج قبو، وفوق القبو أخشاب وفوق الأخشاب حصى صغار، وفوق الحصى خيش، وفوق الخيش حبال قنّب مشدّدة، حتى إذا نصب المنجنيق من البرّ ورمي به لا يبالي بما يرمى فيه، ويقع الحجر من أعلاه في الماء. وفيه مائة مقاتل. وخلف هذا البرج برج متصل به. وفيه ثلاثة مجانيق منصوبة، لا يؤخذ هذا الحصن بحصار ولا بمضايقة. (تشريف الأيام والعصور: ٨٨).

(٣) يقصد بالجبيليين هنا جماعة من المسلمين كانوا مع صاحب جبيل سيرجي (Sir Guy) الفارس التمبلاري (نسبة إلى التمبلار أو فرسان المعبد أو الداويّة). وكان الأمير سيف الدين بلبان قد أمد صاحب جبيل بهم سنة ٦٨١هـ بهدف انتزاع طرابلس من صاحبها بيمند السابع؛ وكان صاحب جبيل المذكور قد اشترط على نفسه أنه متى تملك طرابلس تكون مناصفة بينه وبين الملك المنصور. ولكن الأمور جرت على غير ما يرغب صاحب جبيل، فقد استطاع صاحب طرابلس إفشال خطته وقبض عليه وأسره، كما احتلّ جبيل فصارت له مع طرابلس. أما الجبيليون من المسلمين فبقوا في الأسر إلى هذه السنة. (النجوم الزاهرة، ٣١٦/٧، حاشية رقم: ٢، طبعة دار الكتب المصرية).

صاحب جُبَيْل فَأَحْضَر مَن بَقِي منهم في قَيْد الحَيَاة وآعتذر عن هَدْم البُرْج بأنّه ليس له، ولا هو تحت حُكْمه؛ فلم يقبَل السلطان آعتذاره وصمّم على طلبه منه، فقيل: إنّه آشتراه من صاحبه بعدة قُرى وذهبٍ كثير، ودفعه إلى السلطان، فأَمَر بهدمه فهُدِم[1] وآستراح الناس منه. وحَصَل الاستيلاء في هذه الغَزْوة على المَرْقَب وأعماله ومَرَقِيّة.

والمَرْقَبُ هو من الحصون المشهورة بـالمنَعَة والحصـانة وهـو كبير جـدّاً، ولم يفتحه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فيما فتَـح، فأبقاه السلطان الملك المنصور بعد أن أشير عليه بهَدْمه، ورمَّمَ شَعَثَه وآستناب فيه بعضَ أمرائه ورتّب أحواله. وكُتِبت البشائر بهذا الفتح إلى الأقطار.

ولمّا كان السلطان الملك المنصور على حصار المَرْقَب جاءتْه البُشْرَى بولادة ولده «الملك الناصر محمد بن قلاوون»، فمولِدُ الملك الناصر محمد هذه السنة، فيحفظ إلى ما يأتي ذكره في ترجمته، إن شاء الله تعالى، فإنّه أعظم ملوك الترك بلا مدافعة.

ولمّا فَتَـح السلطان الملك المنصور المَرْقَب عَمِلت الشعراء في ذلك عِدّة قصائد، فمن ذلك ما قاله العلاّمة شهاب الدين أبو الثَّناء محمود، وهي قصيدة طنّانة أوّلها: [البسيط]

آلله أكبـرُ هـذا النَّصْـر والـظَّفَـرُ ... هذا هو الفتح لا ما تَزْعُم السِّيَرُ
هذا الذي كانت الآمالُ إن طَمَحتْ ... إلى الكـواكب تـرجـوه وتَنْتَـظِرُ

---

(١) وذكر ابن عبد الظاهر أن ولد صاحب مرقية كان قد حضر إلى أبواب السلطان مستخفياً يريد تسليم الحصن إلى السلطان، وتوجه إلى عكا مختفياً على البريد، فأمسكه أهل عكا وتسلمه وقتله بيده في وسط عكا. غير أن صاحب مرقية ما لبث أن أذعن لصاحب طرابلس وأجاب إلى تسليم الحصن وهدمه. وفي ذلك يقول أحد الشعراء:

قـتـل ابنـه في وسط عـكـا عـامـداً ... وأتى إلى الـبـرج الحـصـين وخـرَّبـه

(تشريف الأيام والعصور: ٨٩ ـ ٩٠).

فآنْهَضْ وسِرْ وآمْلِك الدّنيا فقد نَحلَتْ شَوْقاً منابرُها وآرتاحت السُّرُرُ
كَمْ رام قبلَك هذا الحِصْنَ من مَلِكٍ فطال عنه وما في باعه قِصَرُ
وكيف تَمْنَحه الأيّامُ مملكةً كانت لدولتك الغَرَّاءِ تُدَّخَرُ
وكيف يسمو إليها مَن تأَخَّرَ عن إسعادِه مُنْجِداك القَدْرُ والقَدَرُ
غَرَّ العِدَا منك حِلْمٌ تحته هِمَمٌ لأشقر البَرْق من تحجيلها غُرَرُ
لها وإن أشبهت لُطْفَ النَّسيم سَرَى معنى العواصف لا تُبْقِي ولاَ تَذَرُ
أوردْتَها المَرْقَبَ العالي وليس سوى ماءِ المَجَرَّة في أرجائها نَهَرُ
كأنّه وكأنّ الجَوَّ يَكْنُفُه وهمٌ تُمَثِّلُهُ في طَيِّها الفِكَرُ
يختال كالغادة العَذْرَاءِ قد نُظِمَتْ منه مكانَ اللآلي الأنجمُ الزُّهُرُ
له الهِلالُ سِوَارٌ والسُّهَا شَنَفٌ والقَلْبُ قُلْبٌ ومسوَدُّ الدُّجَى طُرَرُ
تعلو الرياحُ إليه كي تُحِيطَ به [خُبْراً] وتدنو وما في ضِمنْها خَبَرُ
ويُومِضُ البَرْقُ يهفُو نحوَه لِيَرَى أدنى رُبَاه ويأتي وهو معتَذِرُ
وليس يَرْوَى بماء السُّحْبِ مُصْعِدَةً إليه مَنْ فِيهِ إلاّ وهو مُنْحَدِرُ

ومنها:

وأُضْرِمَتْ حوله نارٌ لها لَهَبٌ من السّيوف ومِن نَبْلِ الوَغَى شَرَرُ

ومنها:

كأنّها ومجانيقُ الفرنج لَهَا فرائسُ الأُسْدِ في أظفارها الظَّفَرُ
وكَمْ شكا الحصن ما يَلْقَى فما آكترَثَتْ يا قلبَها أحديدٌ أنت أم حَجَرُ
وللنقوب دَبِيبٌ في مفاصلِه تثير سُقْماً ولا يبدو له أَثَرُ
أضحى به مثل صَبٍّ لا تَبِينُ به نارُ الهوَىَ وهي في الأحشاء تَسْتَعِرُ

ومنها:

ركِبْتَ في جُندك الأُولى إليه ضُحاً والنصرُ يتلوك منه جُندُك الأُخَرُ
قد زال تُجْلَى قُواهُ عن قواعِده وخرَّ أعلاه نحوَ الأَرْضِ يَبْتَدِرُ

وســاخَ وآنكشفت أقبــاؤه وبــدَا   لديك من مُضْمَرات النصرِ ما سَتَروُا
فمالَ يَهْوِي إليهم كلّ ليثِ وغًى   لـه من البِيض نـابٌ والقَنــا ظُفُـرُ

ومنها بعد أبيات كثيرة براعة المَقْطَـع:

إن لم يُوَفِّ الوَرَى بالشكر ما فتحَتْ   يـداك فاللهُ والأمـلاكُ قد شَكَـرُوا

ثم سار الملك المنصور قلاوون من المَرْقب إلى دِمَشق وأقام بها أياماً، ثم خرج منها عائداً إلى نحو الديار المصريّة في بُكرة الاثنين ثاني عشر جُمادى الأولى؛ فدخل الديار المصريّة في أوائل شهر رجب.

ولمّا دخل القاهرة وأقام بها أخَذ في عمل أَخْذ الكَرَك من الملك المسعود نجم الدين خَضِر آبن السلطان الملك الظاهر ركن الدين بِيبَرْس البُنْدُقْدارِيّ حتى أخِذت، وورد عليه الخبر بأخذها في ليلة الجمعة سابع صفر [سنة خمس وثمانين وستمائة](١) ودُقّت البشائر بالديار المصريّة ثلاثة أيام.

ثمّ في سنة ستّ وثمانين وستمائة جهّز السلطان طائفة من العسكر بالديار المصريّة صحبَة الأمير حُسام الدين طُرُنْطَاي إلى الشام لحِصار صِهْيَوْن وبُرْزَيْـه وآنتزاعهما من يد سُنْقُر الأشقر(٢)؛ فسار حُسام الدين المذكور بمَن معه حتى وصل دِمَشق في أثناء المحرّم، وآستصحب معه الأميرَ حُسام الدين لاجين نائب الشام، وتوجّه الجميـع إلى صِهْيَوْن بالمجانيق فوصلوها وشرعوا في حصارها؛ وكان سُنْقُر الأشقر قد آستعدّ لهم وجمـع إلى القلعة خَلْقاً كثيراً؛ فحاصروه أيّاماً، ثم بعد ذلك توجّه الأمير حُسام الدين إلى بُرْزَيْه وحصرها وآستولى عليها، وهي ممّا يُضْرَب المَثَلُ بحَصَانتها. ولمّا فتحها وجد فيها خُيولاً لسُنْقُر الأشقر. ولمّا فُتِحت بُرْزَيْه لانتْ عريكةُ سُنْقُر الأشقر، وأجاب إلى تسليم صِهْيَوْن على شروط آشترطها، فأجابه طُرنطـاي إليهـا وحلف له بما وَثِق به من الأيمان، ونزل من قلعة صِهْيَوْن بعد حصرها شهراً واحداً، وأعِين على نَقْل أثقاله بِجِمالٍ كثيرة وحضر بنفسه وأولاده وأثقاله

(١) زيادة للتوضيـح عن تشريف الأيام والعصور.
(٢) راجع ص٢٦٧ من هذا الجزء، حاشية (٢).

وأتباعه إلى دمشق. ثم توجّه إلى الديار المصريّة صحبةَ طُرُنْطَاي المذكور ووَفَى له بجميع ما حلف عليه؛ ولم يزل يَذُبُّ عنه أيام حياته أشدَّ ذَبٍّ. وأعطى السلطانُ لِسُنْقُر الأشقر بالديار المصريّة خُبْزَ مائة فارس، وبَقِي وافرَ الحرمة إلى آخر أيام الملك المنصور قلاوون. وآنتظمت صِهْيَوْن وبُرْزَيْه في سلك الممالك المنصورية.

ثم خرج الملك المنصور من الديار المصرية قاصداً الشام في يوم سابع عشرين شهر رجب سنة ستّ وثمانين، وسار حتى وصل غَزّة أقام بتَلّ العُجُول أياماً إلى شوّال؛ ثم رجَع إلى الديار المصرية فدخلها يوم الاثنين ثالث عشرين شوّال، ولم يَعْلَم أحد ما كان غرضُه في هذه السَّفْرة.

وفي شوّال هذا سَلْطن الملكُ المنصورُ ولدَه الملكَ الأشرف صلاح الدين خليلاً وجعله مكان أخيه الملك الصالح عَلَاء الدين عليّ بعد موته، ودُقّت البشائر لذلك سبعةَ أيام بالديار المصريّة وغيرها، وحلفَ الناس له والعساكرُ، وخُطِب له بولاية العهد[1].

ثمّ في سنة ثمانٍ وثمانين وستّمائة فُتِحت طَرَابُلُس، وهو أنّ صاحب طرابلس كان وقَع بينه وبين سِير تلميه[2] الفرنجيّ، وكان من أصحاب صاحب الحصن[3] الذي أخربه صاحب طَرَابُلُس رضاءً للملك المنصور قلاوون حسب ما تقدّم ذكره. فحصلت بينه وبين صاحب طَرَابُلُس وحشةٌ بسبب ذلك، وآتّفق موتُ صاحب الحصن، وسأل سير تلميه من السلطان الملك المنصور المساعدة، وأن يتقدّم للأمير بَلَبان الطَّبّاخِي السِّلَحْدَار أن يساعده على تملك طَرَابُلُس، على أن تكون مناصفةً، وبذَل في ذلك بذُولاً كثيرة، فسُوعِد إلى أن تَم له مراده؛ ورأى أنّ الذي بذَله

(١) انظر نسخة العهد في صبح الأعشى: ١٠/١٦٦.

(٢) أي سير بارتلميو (Bartholomew of Jubail). وكانت طرابلس في ذلك الوقت بيد الأميرة لوسيا (Lucia) أخت الأمير المتوفى بوهيمند السابع الذي مات سنة ٦٨٦هـ ولم يعقب.

(٣) أي حصن مرقية المذكور سابقاً في الصفحتين ٢٦٧ و ٢٦٨ من هذا الجزء.

للسلطان لا يُوافقه الفرنجُ عليه، فشَرع في باب التَّسويف والمُغالطة ومدافعة الأوقات؛ فلما عَلِم السلطان باطنَ أمره عزَم على قتاله قبل آستحكام أمره، فتجهّز وخرج من الديار المصريّة بعساكره لحِصار طَرَابُلُس، وسار حتّى وصل دِمَشْق وأقام بها، ثم تهيّأ وخرج منها، ونازل طَرَابُلُس في مستهلّ شهر ربيع الأوّل، ونصب عليها المجانيق وضايقَها مضايقةً شديدة إلى أن ملكها بالسيف في الرابعة من نهار الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر؛ وشَمِل القتُل والأَسْرُ لسائر مَن كان بها، وغرق منهم في الماء جماعة كثيرة، ونُهِب من الأموال والذخائر والمتاجر وغير ذلك ما لا يُوصف. ثم أُحْرِقت وخُرِّب سُورُها، وكان من أعظم الأسوار وأمنعِها.

ثم تَسَلَّمَ حصن أَنَفَة[1] وكان أيضاً لصاحب طَرَابُلُس فأمر السلطان بتخريبه، ثم تَسَلَّمَ السلطان البِتْرُون وجميع ما هناك من الحصون. وكان لطرابُلُس مدّة طويلة بأيدي الفرنج من سنة ثلاث وخمسمائة إلى الآن.

قلت: وكان فتح طرابُلُس الأوّل في زمن معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، وتنقلت في أيدي الملوك، وعظمت في زمن بني عَمَّار قضاة طرابُلُس وحُكّامها. فلمّا كان في آخر المائة الخامسة ظَهَرت طوائف الفرنج في الشام واستولَوْا على البلاد فآمتنعت عليهم طرابُلُس مدّةً حتّى ملكوها بعد أمور في سنة ثلاث وخمسمائة، وآستمرّت في أيديهم إلى أن فتحها الملك المنصور قلاوون في هذه السنة.

وقال شرف الدين محمد بن موسى المَقْدِسِيّ الكاتب في «السِّيرة المنصوريّة»: إن طَرَابُلُس كانت عبارةً عن ثلاثة حصون مجتمعة باللسان الرومي، وكان فتحها على يد سُفيان بن مُجِيب الأزْدِيّ، بعثه لحِصارها معاوية بن أبي سفيان في خلافة عثمان بن عَفّان، رضي الله عنه، اِنتهى كلام شرف الدين بآختصار.

قلت: وأما طرابُلُس القديمة كانت من أحسن المُدُن وأطيبها، ثمّ بعد ذلك

---

(١) أنفة: بلدة على الساحل اللبناني بين طرابلس والبترون في منتصف المسافة بينهما.

آتخذوا مكاناً على ميل من البلدة وبَنـوه مدينةً صغيرة بلا سُور، فجاء مكاناً رديءَ الهوى والمزاج من الوَخَم. اِنتهى.

ولمّا فُتِحت طرابُلُس كُتِبت البشائر إلى الآفاق بهذا النصر العظيم، ودُقّت البشائر والتهاني وزُيِّنت المُدُن وعُمِلت القِلاع[1] في الشوارع وسُرّ الناس بهذا النصر غاية السُّرور. وأنشأ في هذا المعنى القاضي تاج الدين آبن الأثير[2] كتاباً إلى صاحب اليمن بأمر الملك المنصور يُعَرِّفه بهذا الفتـح العظيم وبالبِشارة به. وأوّله:

[بسم الله الرحمن الرحيم أعزّ الله][3] نَصْرَ المقام العاليّ السلطانيّ الملكيّ المظُفَّريّ الشمسيّ. ثم آستطرد وحكَى أمر الفتـح وغيره إلى أن قال فأحسن فيما قال: وكانت الخلفاء والملوك في ذلك الوقت ما فيهم إلا مَن هو مشغول بنفسه، مُكِبّ على مجلس أنْسه؛ يرى السلامةَ غنيمة، وإذا عنّ له وصفُ الحرب لم يَسأل [منها إلا][3] عن طُرُق الهزيمة؛ قد بلَـغ أَمَلَه من الرتبة، وقَنِـع [من ملكه كما يقال با][3] لسكة والخطبة؛ أموالٌ تُنْهب، وممالك تَذْهَب؛ لا يُبالون بما سلبوا، وهم كما قيل: [البسيط]

إن قاتلوا قُتِلوا أو طَارَدوا طُـرِدوا ... أو حارَبُوا حُرِبُوا أو غَالَبُوا غُلِبـوا

إلى أن أوجد الله مَنْ نصَر دينه، وأذّل الكُفر وشياطينَه. اِنتهى.

قلت: والكتاب هذا خلاصته والذي أعجبني منه.

وعَمِل الشعراء في هذا الفتـح عِدّةَ قصائد، فمن ذلـك ما قـاله العـلّامة شهاب الدين أبو الثّناء محمود كاتب الدَّرْج[4] المقدّم ذكرهُ يمدَح الملك المنصور

---

(١) راجـع ص ٢٦٠ من هذا الجزء، حاشية (٢).

(٢) هو تاج الدين (أو نجم الدين) أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن سعيد، ابن الأثير الحلبي الأصل القاهري. تولى ديوان الإنشاء بمصر أيام الأشرف خليل بن قلاوون بعد وفاة القاضي فتح الدين بن محيي الدين بن عبد الظاهر. توفي ابن الأثير المذكور سنة ٧٣٧هـ. (الأعلام: ٩٧/١، وصبح الأعشى: ١٣١/١ طبعة دار الكتب العلمية).

(٣) زيادة من طبعة دار الكتب المصرية عن نثر الجمان للفيومي.

(٤) كتّاب الدرج: هم الطبقة الثانية من موظفي ديوان الإنشاء (أي يأتون في المرتبة بعد كتّاب الدست) وهم الذين يكتبون ما يوقـع به كاتب السرّ أو كتّاب الدست، أو إشارة النائب أو الوزير أو رسالة الدوادار.

قلاوون ويذكر فتحه طَرَابُلُس، والقصيدة أولها: [الطويل]

عَلَيْنَا لمن أولاك نِعْمَتَه الشكـرُ ... لأنـك لـلإسـلام يـا سيفَه ذُخْـرُ
ومنَّا لك الإخلاصُ في صالحِ الدُّعا ... إلى مَن له في أمر نُصرتك الأمرُ
ولله في إعلاء مُلْكِك في الوَرَى ... مرادٌ وفي التأييد يوم الـوَغَى سِرّ
ألا هكذا يا وارِثَ المُلْكِ فليكُنْ ... جِهادُ العِدا لا ما تَوالَى به الدَّهْرُ

ومنها:

نهضتَ إلى عَلْيَـا طَـرَابُلُس التي ... أقـلُّ عَنَـاهـا أنّ خنـدقهـا البَحْـرُ

والقصيدة طويلة كلّها على هذا المِنْوال، أضربتُ عنها خوفَ الإطالة. انتهى.

ثم عاد الملك المنصور إلى الديار المصريّة في جُمادى الآخرة من السنة، وآستمرّ بالقاهرة إلى أوّل سنة تسع وثمانين وستمائة، جهّز الأميرَ حُسام الـدين طرُنْطَاي كافلَ الممالك الشاميّة إلى بلاد الصَّعِيد، ومعه عسكر جيِّد من الأمراء والجند، فسكّن تلك النواحي وأباد المفسدين وأخذ خَلْقاً عظيماً من أعيانهم رهائنَ، وأخذ جميـع أسلحتهم وخيولهم، وكـان معظم سـلاحهم السيوفَ والحَجَفَ[1] والرماح، وأحْضَرُوا إلى السلطان من ذلك عِدّةَ أحمال، ففرّق السلطان من الخيول والسلاح فيمن أراد من الأمراء والجند وأودع الرهائن الحبوس.

وفي هذه السنة أيضاً عاد الأمير عِزّ الدين أيْبَك الأفرم من غَزْو بلاد السودان بمغانم كثيرة ورَقيق كثير من النساء والرجال وفيلٍ صغير.

ثم في هذه السنة أيضاً رَسَم السلطان ألاّ يَسْتَخْدِمَ أحدٌ من الأمراء وغيرهم في دواوينهم أحداً من النصارى واليهود وحرّض على ذلك، فآمتثـل ذلك الأمـراء جميعُهم.

= وسمّوا كتّاب الدرج لكتابتهم هذه المكتوبات ونحوها في دروج الورق. ويجوز أن يطلق عليهم كتاب الإنشاء، ولا يجوز أن يطلق عليهم لقب الموقعين لأنهم لا يوقعون على جوانب القصص ونحوها كما يفعل كتّاب الدست الذين هم أحق كتاب ديوان الإنشاء باسم الموقعين. (انظر صبح الأعشى: ١٣/١، ١٣٧ و٥/٤٦٤، ٤٦٥).

(١) الحَجَف: واحدته حجفة، وهي الترس من جلود بلا خشب ولا رباط من عصب.

وفي هذه السنة عزَم السلطان الملك المنصور على الحجّ فبلغه خبُر فرنج عَكّا، ففتَر عزُمه وتهّيأ للخروج إلى البلاد الشامية، ورأى أن يُقدِّم غزْوَهم والانتقامَ على الحجّ؛ وأخذ في تجهيز العساكر والبعوث، وضرب دِهْلِيزَه خارج القاهرة، وبابُ الدهليز إلى جهة عَكّا. وخرج من القاهرة إلى مُخَّيمه وهو متوعِّك لأيام خلت من شوّال، ولا زال متمرضاً بُمخيمه عند مسجد التبن خارج القاهرة إلى أن تُوُفّي به في يوم السبت سادس ذي القعدة من سنة تسع وثمانين وستمائة، وحُمل إلى القلعة ليلة الأحد. وتسلطن من بعده ولدُه الملك الأشرف صلاح الدين خليل الذي كان عَهِد له بالسلطنة قبل تاريخه حسب ما ذكرناه. وكثُر أسفُ الناس عليه.

قال الحافظ أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبيّ في «تاريخ الإسلام» بعدما سماه ولقّبه قال: اشْتُرِي بألف دينار، ولهذا كان في حال إمْرته يُسَمَّى بالألْفيّ؛ وكان من أحسن الناس صورةً في صِبَاه، وأبهاهم وأهيبهم في رجوليّته؛ كان تامّ الشكل مستدير اللّحية قد وخَطه الشّيْب، على وجهه هيبةُ الملك وعلى أكتافه حِشْمة السلطنة، وعليه سَكِينة وَوِقَار؛ رأيتُه مرات آخرها مُنْصَرَفَه من فتح طرابُلُس. وكان من أبناء الستين. ثم قال: وحدّثني أبي أنه كان مُعْجَمَ اللسان لا يكاد يُفصح بالعربية، وذلك لأنه أُتِي به من بلاد التُّرْك وهو كبير. ثم قال بعد كلام آخر: وعمِل بالقاهرة ببين القصرين تُرْبةً عَظيمةً ومدرسة كبيرة، قال: وبِيمَارِسْتاناً للْمَرضى.

قلت: ومن عمارته البيمَارِستانُ المذكور وعِظَم أوقافِه تُعرِّف هِمَّتَه، ونذكر عمارة البيمارِستان إن شاء الله تعالى بعد ذلك. انتهى.

وقال غيره: وكان يُعرف أيضاً قلاوون الآقْسنْقُرِيّ الكامِليّ الصالحيّ النَّجْميّ، لأن الأمير آق سُنْقُرُ الكامِلي كان آشتراه من تاجره بألف دينار، ثم مات الأمير آق سنقر المذكور بعد مدّة يسيرة، فآرتجع هو وخشداشيته إلى الملك الصالح نجم الدين أيّوب في سنة سبع وأربعين وستمائة، وهي السنة التي مات فيها الملك الصالح أيُّوب، وهذا القول هو الصحيح في أصل مشتراه.

قلت: ولمّا طلع الملك المنصور قلاوون إلى قلعة الجبل ميّتاً، أخذوا في تجهيزه وغسله وتكفينه إلى أن تمّ أمره، وحَمَلوه وأنزلوه إلى تربته ببين القصرين

فدُفِن بها. وكانت مدّةُ مُلْكه إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر، رحمه الله تعالى؛ وكان سلطاناً كريماً حليماً شجاعاً مِقْداماً عادلاً عَفِيفاً عن سَفْك الدماء مائلاً إلى فعل الخير والأمر بالمعرف، وله مآثر كثيرة:

منها البيمارِسْتان الذي أنشأه ببين القصرين، وتمم عِمارته في مدة يسيرة، وكان مُشِدُّ عمارته الأميرعَلَم الدين سَنْجَر الشُّجَاعِيّ المنصوري وزير الديار المصرية ومُشِدّ دواوينها[١]، ثمّ ولي نيابةَ دِمَشق ونهَض بهذا العمل العظيم وفرَغ منه في أيّام قلائل، ولمّا كمل عمارة الجميع آمتدحه مُعِين الدين آبن تُولُوَا[٢] بقصيدة أوّلها: [الكامل]

أنشأتَ مدرسةً ومَارَسْتانَا لتُصَحِّح الأديان والأبدانا

قلت: وهذا البِيمارِسْتان وأوقَافه وما شرَطه فيه لم يَسْبِقْه إلى ذلك أحد قديماً ولا حديثاً شرقاً ولا غرباً. وجدّد عمارة قلعة حلب وقلعة كَرْكَر[٣] وغير موضع.

وأمّا غَزَواته فقد ذكرناها في وقتها. وجمع من المماليك خَلْقاً عظيماً لم يجمعهم أحد قبله، فبلغتْ عِدَتُهم آثني عشر ألفاً[٤]، وصار منهم الأمراء الكبار والنوّاب، ومنهم من تسلطن من بعده على ما يأتي ذكره. وتسلطن أيضاً من ذُرّيّته سلاطين كثيرة آخرهم الملك المنصور حَاجِّيّ الذي خَلَعه الملك الظاهر بَرْقُوق. وأعظم من هذا أنّه مَنْ تسلطن من بعده من يوم مات إلى يومنا هذا، إمّا من ذريته، وإمّا من مماليكه أو مماليك مماليك أولاده وذرّيته، لأنّ يَلْبُغا مملوك السلطان حسن، وحسن بن محمد بن قلاوون، وبَرْقوق مملوك يَلْبُغَا، والسلاطين بأجمعهم مماليك

---

(١) مشدّ الدواوين أو شاد الدواوين: كانت مهمته مرافقة الوزير والتفتيش على مالية الدواوين وعلى موظفيها. وعادته إمرة عشرة. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٩١). والشدّ يعني في مصطلح ذلك العصر التفتيش.

(٢) كذا ضبطه الصفدي في الوافي بالوفيات، وعنه في طبعة دار الكتب المصرية. وفي فوات الوفيات، وعنه في الأعلام ضبط بفتح أوله وسكون ثانيه وضم اللام وفتح الواو الثانية وبعدها ألف. وهو عثمان بن سعيد بن عبد الرحمن بن أحمد الفهري: شاعر مصري، توفي سنة ٦٨٥هـ.

(٣) قلعة كرْكر: إحدى قلاع ديار بكر في تركية. وهي على جانب الفرات الغربي، وهي من أعظم ثغور الشام. (انظر تقويم البلدان: ٢٦٤ ــ ٢٦٥).

(٤) قال المقريزي في السلوك: «وقيل سبعة آلاف وهو الصحيح».

بَرْقوق وأولاده. اِنتهى. وكان من محاسن الملك المنصور قلاوون أنّه لا يَمِيل إلى جنس بِعَيْنه بل كان مَيْله يتخيّل فيه النّجابة كائناً من كان.

قلت: ولهذا طالت مدّة مماليكه وذرّيته بآختلاف أجناس مماليكه؛ وكانت حرمتُه عظيمةً على مماليكه لا يستطيع الواحد منهم أن يَنْهَر غلامه ولا خادمه خوفاً منه، ولا يتجاهر أحد منهم بفاحشة، ولا يتزوّج إلا إن زوّجه هو بعضَ جَوَارِيه؛ هذا مع كَثْرة عددهم.

قلت رحمه الله تعالى: لو لم يكن من محاسنه إلّا تربية مماليكه وكفّ شَرّهم عن الناس لكفاه ذلك عند الله تعالى، فإنّه كان بهم منفعة للمسلمين، ومضرّة للمشركين وقيامُهم في الغَزَوات معروف، وشرّهم عن الرعّية مكفوف؛ بخلاف زماننا هذا، فإنّه مع قلّتهم وضعف بنْيَتِهم وعدم شجاعتهم، شرّهم في الرعيّة معروف، ونفعهم عن الناس مكفوف؛ هذا مع عدم التجاريد والتقاء الخوارج وقلّة الغزوات، فإنّه لم يَقَع في هذا القرن، وهو القرن التاسع، لقاءٌ مع خارجيّ غير وقعة تَيْمُور، وآفتضحوا منه غاية الفضيحة، وسلّموا البلاد والعِباد وتسحّب أكثُرهم من غير قتال.

وأمّا الغَزَوات فأعظم ما وقع في هذا القَرْن[1] فتحُ قُبْرُس، وكان النصر فيها من الله سبحانه وتعالى، اِنكسر صاحبُها وأُخِذ من جماعةٍ يسيرةٍ، تلقّاهم بعض عساكره. خِذلانٌ من الله تعالى! وقع ذلك كلُّه قبل وصول غالب عسكر المسلمين.

وأما غير ذلك من الغَزَوات فسَفَرٌ في البحر ذَهاباً، فكيف لو كان هؤلاء أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب عندما غزا الساحل، وغاب عن الديار المصريّة نحو العشر سنين، لا يفارق فيها الخِيَمَ والتَّشتُّتَ عن الأوطان وآتِّصال الغَزْوة بالغزوة! أو لو كانوا أيّام الملك الكامل محمد لمّا قاتل الفرنج على دِمْياط نحو الثلاث سنين لم يدخل فيها مصرَ إلى أن فتح الله عليه، أو لو كانوا أيّام الملك الظاهر بِيبرس وهو يتجرّد ويغزُو في السنة الواحدة المرّة والمرتين والثلاث وهلّم جَرا! إلى أيّام الملك الأشرف شعبان بن حسين لمّا أخِذت الإسكندرية. وهذا شيء معروف لا يُشَاحُّ فيه أحدٌ. وأعجبُ من هذا كلّه أنّ أولئك كانوا على حَظّ وافرٍ من الأدبِ والحِشْمة

---

(١) يريد القرن التاسع الهجري. وهو يشير إلى فتحها على يد الأشرف برسباي سنة ٨٢٩هـ.

والتواضع مع الأكابر، وإظهار الناموس وعدم الازدراء بمَنْ هو دونهم، وهؤلاء آسْتٌ في الماء وأنفٌ في السماء، لا يهتدي أحدُهم لمَسْك لجَام الفَرَس، وإن تَكَلّم تَكلّم بنَفَس؛ ليس لهم صناعة، إلاّ نهب البضاعة؛ يتقَوَّوْن على الضعيف، ويَشْرَهُون حتّى في الرَّغِيف؛ جهادُهم الإخراق بالرئيس، وغَزْوُهم في التِّبْن والدريس؛ وحظُّهم مُنْقَام، ولا مُرُوءة لهم والسلام. اِنتهى.

قال آبن كَثِير في حقّ الملك المنصور قلاوون المذكور: اِشتراه الملك الصالح نجم الدين أَيُّوب من الملك الكامل محمد ابن العادل أبـي بكر بن أَيُّوب بألف دينار، فلذلك سُمِّيَ بالأَلْفِيّ.

قلت: وهذا بخلاف ما نقَله الشيخ صلاح الدين خليل بن أَيْبَك الصَّفَدِيّ في أنّ الذي آشتراه بألف دينار إنّما هو الأمير آق سُنْقُر الكامِلِيّ، والأرجح عندي ما قاله الصَّفَدِيّ في أنّ الذي آشتراه بألف دينار إنما هو الأمير آق سُنْقُر من وجوهٍ عديدة.

قال آبن كَثِير أيضاً: وكان الملك المنصور قد أَفْرَدَ من مماليكه ثلاثةَ آلاف وسبعمائة مملوك من الأمراء والجَرَاكِسَة وجعلهم بالقلعة، وسمّاهم «البُرْجِيّة»، وأقام نُوَّابَه في البُلْدان من مماليكه، وهم الذين غَيّرُوا ملابس الدولة الماضية.

قال الصلاح الصَّفَدِيّ: ولَبِسُوا أحسن الملابس، لأَنّ في الدولة الماضية الصلاحيّة كان الجميع يَلْبَسُونَ كلّوتات[١] صُفْر مُضَرّبة بكلبندات[٢] بغير شاشات[٣]، وشعورُهم مضفورةٌ دبابيق[٤] في أكياس حرير ملوّنة، وكان في

(١) الكلوتات: جمع كلّوتة، وهي غطاء للرأس تلبس وحدها أو بعمامة. وتسمى كلفة، وكلفتاة، وكلفتة. يقال إنها من أصل لاتيني (Calva) ويقول آخرون إنها من أصل فارسي. والكلوتات الجوخ الصفراء هي التي أحدثها سلاطين الأيوبيين بمصر. (انظر صبح الأعشى: ٦/٤، ٣٩، والخطط المقريزية: ٩٨/٢، والسلوك: ٤٩٣/٢/١ حاشية).

(٢) الكلبندات: جمع كلبندة، وهي نوع من الرباط تحت الذقن لحفظ الكلوتة فوق الرأس حتى لا تتزحزح أو تقع. (الخطط والسلوك للمقريزي، نفس الأجزاء والصفحات).

(٣) الشاشات: نوع من القماش، كانت تلاث على الكلوته. وهذا القماش كان يصنع في «الشاش» من ديار ما وراء النهر فنسبت إليها.

(٤) عبارة المقريزي: «وتكون شعورهم مضفورة مدلاة بدبُّوقة». والدُّبُّوقة هي الشعر المفتول المنسوج أو المضفور. (انظر خطط المقريزي: ٩٨/٢ وفيه تفاصيل وافية عما كان يلبسه المماليك في هذا العصر).

خواصرهم موضعَ الحوائص[١] بنود ملوّنة أو بعلبَكّيةُ، وأكمامُ أقْبيتَهم[٢] ضيّقة على زِي ملابس الفرنـج، وأخفافُهم بُرْغالي[٣] أو سقامين، ومن فوق قماشهم كَمَرات[٤] بحِلَق وإبزيم[٥]، وصَوَالِقُهم[٦] كِبار يسع كلّ صَوْلَق نصف ويبة أو أكثر، ومِنْديلُهم كبير طوله ثلاث أذرع، فأبطل المنصور ذلك كلَّه بأحسن منه. وكانت الخِلَـع للأمراء المقدّمين المَرْوَزِيّ[٧]، فخصَّص الملك المنصورُ من الأمراء بلُبْس الطّرْد وَحْش[٨] أربعةً من خُشْدَاشِيَته، وهم: سنقر الأشقر الذي كان تسلطن ولُقِّب بالملك الكامل والبَيْسَري والأَيْدَمُرِيّ والأفرم. وباقي الأمراء والخاصَّكِيّة والبَرّانيّة[٩] تَلْبَسُ المروزيّ،

---

(١) راجع ص ٦٨، حاشية (١).

(٢) الأقبية: جمع قباء، وهو ثوب يلبس فوق الثياب. وكان يقال له «البغلطاق» ويجمعونه على بغاليق (انظر المصدر المذكور في الحاشية (١)) والقباء يسميه أهل العراق «الزبون»، وأهل مصر والشام «القنباز». (رسوم دار الخلافة: ١٧، حاشية).

(٣) البرغالي: أي البلغاري، نسبة إلى بلغاريا والسقامين: جمع سقمان، وهو خف ثانٍ يلبس فوق الخفّ الأول. (خطط المقريزي: ٩٨/٢) وكانت عادة لبس خفّين أو أكثر فوق بعضها البعض شائعة، خاصة في أيام البرد الشديد. وقد أشار إلى ذلك ابن بطوطة في رحلته في كلامه حين انصرافه عن القسطنطينية: «... وذلك في اشتداد البرد. وكنت ألبس ثلاث فروات وسروالين، أحدهما مبطّن، وفي رجلي خفّ من صوف، وفوقه خفّ مبطن بثوب كتّان، وفوقه خف من البرغالي، وهو جلد الفرس مبطن بجلد ذئب». (رحلة ابن بطوطة: ص ٣٥٦).

(٤) الكمرات: جمع كَمَر، فارسي معرّب. وهو حزام مفرّغ من وسطه لحشو النقود أو نحوها. (معجم متن اللغة).

(٥) الإبزيم والإبزام: ما يكون في رأس المنطقة أو شبهها، له لسان يدخُل في الطرف الآخر. يجمع على أبازيم. وفسّره مجمع اللغة العربية بدمشق باللوح المعدني الذي يربط طرفي الزنار الجلدي. وفسّره مجمع مصر بالحلقة ذات اللسان في رأس المنطقة يدخل فيها الطرف الآخر. وهي بالفرنسية boucle. (معجم متن اللغة: مادة: بزم).

(٦) راجع ص ٧٢ من هذا الجزء، حاشية (١).

(٧) المروزيّ: نسبة إلى «مرو الشاهجان» أشهر مدن خراسان. قال ياقوت: والنسبة إليها مروزي، على غير قياس. قال: والثوب مرويّ، على القياس. ــ انظر أيضاً معجم متن اللغة.

(٨) الطرد وحش: كلمة مركبة، تطلق على نوع من قماش حرير منقوش بمناظر الصيد والطرد. (السلوك: ٧٨٨/٣/١، حاشية) ــ قارن أيضاً بالمقريزي، خطط: ٢٢٧/٢.

(٩) البرانية أو البرّانيون: هم المماليك الذين يخرجون عن حكم المماليك الخاصكية، خاصة السلطان من مشترياته والمقرّبين إليه. (انظر مسالك الأبصار: ١٤٣/٢).

والطبلخانات بالملَوّن، والعشرات بالعَتابي[١]. .

قلت: وهذا أيضاً بخلاف زماننا فإنّه لبس فيه أوباش الناس الخِلَع السَّنيّة، وأعجب من هذا أنه لمّا لبِس هؤلاء الخلع السَّنِية تلك الأبهَةُ والحِشْمة عن الخِلَع المذكورة وصارت كمن دونها من الخلع في أعين الناس لمعرفتهم بمقام اللابس. اِنتهى.

قلت: والآن نذكر ما وعدنا بذكره في أوائل ترجمة الملك المنصور قلاوون من أمر كُتّاب السِّرّ، لأنّه هو الذي أحدث هذه الوظيفة وسمّى صاحبها بكاتب السِّرّ على ما نُبَيِّنه من أقوال كثيرة:

منها أنّه لما كان أيّام الملك الظاهر بِيبرس كان الدَّوَادَار يوم ذاك بَلَبَان بن عبد الله الرومي. قال الشيخ صلاح الدين خليل الصَّفَدِيّ: كان من أعيان الأمراء (يعني عن بَلَبَان المذكور) ومن نُجبائهم، وكان الملك الظاهر بيبرس يَعْتَمِدُ عليه ويُحمِّله أسراره إلى القُصّاد. ولم يُؤمِّرْه إلا الملكُ السعيد آبن الملك الظاهر بِيبَرْس. وآسْتُشْهِد بمصافّ حِمص سنة ثمانين وستمائة، وكان يباشر وظيفة الدَّوادَارِيّة ولم يكن معه كاتب سرّ، فآتّفق أنه قال يوماً لمحيي الدين بن عبد الظاهر: أُكتب إلى فلانٍ مرسوماً أن يُطْلَق له من الخِزانة[٢] العالية بدمَشْق عشرة الآف درهم، نصفُها عشرون ألفاً، فكَتَب المرسوم كما قال له وجهَّزه إلى دِمَشْق، فأنكروه وأعادوه إلى السلطان، وقالوا: ما نعلم! هل هذا المرسوم بعشرين نصفها عشرة أو بعشرة نصفها خمسة؟ فطلب السلطان محيي الدين وأنكر عليه ذلك، فقال: يا خَوَنْد، هكذا قال لي الأمير سيف الدين بَلَبان الدَّوَادَار؛ فقال السلطان: ينبغي أن يكون للملك كاتبُ سِرٍّ يتلقّى المرسوم منه شِفاهاً. وكان الملك المنصور قلاوون حاضراً من جملة الأمراء فسمع هذا الكلام. وخرج الملك الظاهر عقيب ذلك إلى نوبة أَبُلُسْتَيْن،

---

(١) راجع ص ٢٢٩ من هذا الجزء، حاشية (٢).

(٢) الخزانة العالية: كان يعبّر عن الخزانة بدمشق بالخزانة العالية، ومتوليها يكون رفيقاً للخازندارية من الطواشية، ويكون متحدثاً في أمر التشاريف والخلع وما معها. (صبح الأعشى: ٤/١٩١).

فلمّا تُوُفّي الملك الظاهر ومَلَك المنصور قلاوون ٱتّخذ كاتب سِرّ. اِنتهى. كلام الصَّفَدِيّ بٱختصار.

قلت: وفي هذه الحكاية دلالة على أن وظيفة كتابة السّر لم تكن قبل ذلك أبداً، لقوله: ينبغي للملك أن يكون له كاتب سِرّ يتلقّى المرسوم منه شِفاهاً. وأيضاً تحقيق ما قلناه: إنّ وظيفة كتابة السّر لم تكن قديماً، وإنّما كانت الملوك لا يَتَلقّى الأمورَ عنهم إلّا الوزراء. قضية فخر الدين بن لُقْمان مع القاضي فتح الدين محمد بن عبد الظاهر في الدولة الأشرفيّة خليل بن قلاوون؛ وهو أنه لمّا توزّر فخر الدين بن لُقمان قال له الملك المنصور: من يكون عِوَضك في الإنشاء؟ قال: فتح الدين ابن عبد الظاهر، فوَلّى فتحَ الدين وتمكّن عند السلطان وحَظِيَ عنده؛ وفتح الدين هذا هو الذي قلنا عنه في أوّل الكتاب إنه أوّل كاتب سِرّ كان، وظهر ٱسمُ هذه الوظيفة من ثَمَّ. اِنتهى. وحَظِيَ فتحُ الدين عند السلطان إلى الغاية. فلمّا كان بعضُ الأيام دخل فخُر الدين بن لُقمان على السلطان فأعطاه السلطان كتاباً يقرؤه، فلمّا دخل فتح الدين أخذ السلطان الكتاب منه وأعطاه لفتح الدين، وقال لفخر الدين: تأخّر! فعظم ذلك على فخر الدين بن لُقمان.

قلت: ولولا أنّ هذه الواقعة خرقٌ للعادة ما غَضِب ٱبن لُقمان من ذلك، لأنّ العادَة كانت يوم ذاك لا يقرأ أحدٌ على السلطان كتاباً بحضرة الوزير. اِنتهى.

ومنها واقعة القاضي فتح الدين المذكور مع شمس الدين ٱبن السَّلْعوس لمّا ولي الوزارة للملك الأشرف خليل بن قلاوون، فإنّه قال لفتح الدين: اِعْرِض عليّ كلّ ما تكتبه عن السلطان كما هي العادة، فقال فتح الدين: لا سبيلَ إلى ذلك؛ فلما بلغ الملك الأشرفَ هذا الخبرُ من الوزير المذكور، قال: صَدَق فتح الدين، فغَضِب من ذلك الوزير ٱبن السَّلْعُوس.

قلت: وعندي دليل آخر أقوى من جميع ما ذكرته، أنّه لم أقف على ترجمة رجل في الإسلام شرقاً ولا غَرْباً نُعِت بكاتب السّر قبل فتح الدين هذا، وفي هذا كفاية. وما ذكره صاحب صبح الأعشى وغيره ممّن كتبوا للنبيّ صلى الله عليه وسلّم

ومَن بعده ليس في ذلك دليلٌ على أنّهم كُتّاب السِّرّ؛ بل ذلك دليلٌ لكلّ كاتب كَتَب عن مخدومه كائناً من كان. ونحن أيضاً نذكر الذين ذكرهم صاحبُ صبح الأعشى وغيره من الكُتّاب، ونذكر أيضاً من ألحقناه بهم من كُتّاب السِّرّ إلى يومنا هذا، ليُعْلَم بذلك صِدْقُ مقالتي بذكرهم وألقابهم وزمانهم. اِنتهى. قال[1]: اِعلم أنّ كُتّاب النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، كانوا نيفاً على ستة[2] وثلاثين كاتباً، لكن المشهور منهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ ومعاوية بن أبي سُفْيان ومَرْوان[3] بن الحَكَم.

قلت: وفي مَرْوَانَ خلاف، لأنّ الحافظ أبا عبد الله الذهبيّ قال في ترجمة مَرْوَان بن الحَكَم: له رُؤْية إن شاء الله، ولم يَعُدّه من الصحابة، فكيف يكون من الكُتّاب! وأيضاً حَذَف جماعة من كِبار الصحابة كُتّاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأثبت مروان هذا، وفي صحبته خلاف. ولولا خشية الإطالة لذكرنا مَن ذكره الحافظ العلامة مُغْلَطَاي[4] ممّن كتب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليُعلم بذلك غَلَطُ من عَدّ مَرْوَان من الكُتّاب. اِنتهى. قال: ولمّا تُوفّي النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم وصارت الخلافة إلى أبي بكر كتب عنه عمر بن الخطّاب وعثمان وعليّ رضي الله عنهم. فلمّا آستحلف عمر كَتَب عنه عثمان وعليّ ومعاوية وعبد الله بن خَلَف الخُزَاعِيّ، وكان زيد بن ثابت وزيد بن أَرْقَم يكتبان على بيت المال. فلمّا آستخلف عثمان كتب عنه مَرْوَان بن الحَكَم. فلمّا آستخلف عليّ كتب عنه عبد الله بن رافع مَوْلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وسعيد بن نِمْرَان. فلمّا آستخلف الحسن كَتَب عنه كُتّاب أبيه. فلمّا بايعوا معاوية كَتَب عنه عبد الله بن أَوْس، وكتب عبد الله المذكور عن آبنه يزيد أيضاً، وآبن آبنه معاوية بن يزيد. فلمّا خَلَع معاوية بن يزيد نفسه وتولّى مَرْوانُ بن الحَكَم كتب عنه سُفْيان[5] الأحول وقيل عُبَيْد الله بن أَوْس. فلمّا آستخلف

(١) انظر صبح الأعشى: ١/١٢٦ ـ ١٣٤. وقارن أيضاً بحسن المحاضرة للسيوطي: ٢/١٧١ ـ ١٧٥، وخطط المقريزي: ٢٢٥ ـ ٢٢٧، ومسالك الأبصار: ٢/١٢٠.

(٢) عبارة صبح الأعشى: «كان للنبي نيفٌ وثلاثون كاتباً».

(٣) لم يذكره صاحب صبح الأعشى من بين كتّاب النبيّ.

(٤) هو مغلطاي بن قليج بن عبد الله البكجري: مؤرخ من حفاظ الحديث، عارف بالأنساب. توفي سنة ٧٦٢هـ (الأعلام: ٧/٢٧٥).

(٥) في حسن المحاضرة: «شعبان الأحول».

عبدُالملك بن مَرْوان كتَب عنه رَوْح بن زِنْباع الجُذَامِيّ[١]. فلما آستخلف الوليدُ كتب عنه قُرَّةُ بن شَرِيك، ثم قَبِيصةُ بن ذُؤَيب، ثم الضحّاك بن زِمْل. فلما آستخلف سليمانُ كتب عنه يزيد بن المُهَلَّب، ثم عبد العزيز بن الحارث. فلما آستخلف الإمام عمرُ بن عبد العزيز رضي الله عنه كتب عنه رَجَاء بن حَيْوَة الكِنْدِيّ، ثم [اللَّيث][٢] بن أبي رُقَيَّة؛ فلما آستخلف يزيد بن عبد الملك كتب عنه سعيد بن الوليد الأبْرَش، ثم محمد بن عبد الله بن حارثة الأنصاريّ. فلما آستخلف هِشامُ بن عبد الملك أبقاهما على عادتهما، وآستكتب معهما سالماً مولاه. فلما آستخلف الوليدُ بن يزيد كتب عنه العباس بن مُسْلِم. فلما آستخلف يزيدُ بن الوليد كتب عنه ثابت بن سليمان. فلما آستخلف إبراهيم بن الوليد كتب عنه أيضاً ثابت على عادته. فلما صارت الخلافة إلى مَرْوان بن محمد بن مروان كتب عنه عبد الحميد بن يحيى مَوْلَى بني عامر إلى حين آنقراض الدول الأُمويّة.

ثم صارت الخلافة لبني العباس فآتخذوا كُتابَهم وزراء، وكان أوّل خلفاء بني العباس أبو العباس عبد الله بن محمد السفّاح فآتخذ أبا سَلَمة [حفص بن سليمان] الخَلّال[٣]، وهو أوّل وزير وزر في الإسلام؛ ثم آستوزر معه [خالد بن] بَرْمك وسليمان بن مَخْلَد والبربيع بن يُونُس، فتراكمت عليهم الأشغال، وآتّسعت عليهم الأمور، فأفردوا للمكاتبات ديواناً، وكانوا يُعبِّرون عنه تارة بصاحب ديوانٌ الرسائل، وتارة بصاحب ديوان المكاتبات؛ وتفرّقت دواوين الإنشاء في الأقطار، فكان بكلّ مملكة ديوانُ إنشاء.

وكانت الديار المصريّة من حين الفتح الإسلامي وإلى الدولة الطُّولُونية إمارةً، ولم يكن لديوان الإنشاء فيها كبيرُ أمرٍ. فلما آستولى أحمد بن طُولُون عظُمت مملكتها وقَوِي أمْرها فكتب عنه أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودُود. وكتب لولده

(١) في حسن المحاضرة: «روح بن زنباع الجذامي وقبيصة بن ذؤيب».
(٢) زيادة عن حسن المحاضرة.
(٣) في حسن المحاضرة أن كاتب السفّاح كان عبد الجبّار بن عديّ ثم كتب للمنصور.

خُمَارَوَيْه إسحاقُ بن نصر العباديّ [النَّصراني](١). وتوالت دواوين الإنشاء بذلك إلى حين آنقراض الدولة الإخشيدية. ثم كانت الدولة الفاطمية فعظُم ديوان الإنشاء بها، ووقع الاعتناء به وآختيار بُلغَاء الكُتّاب ما بين مُسلم وذِمِّيّ، فكتب للعَزيز بن المُعِزّ في الدولة الفاطمية أبو المنصور بن سُورِين(٢) النَّصْرَانِيّ، ثم كتب لابنه الحاكم ومات في أيامه، وكتب للحاكم بعده القاضي أبو الطاهر النهركيّ(٣). ثم تولى الظاهر بن الحاكم فكتب عنه أبو الطاهر المذكور. ثم تولى المستنصر فكتب عنه القاضي وليّ الدين(٤) بن خَيْرَان، ووليّ الدولة موسى بن الحسن بعد(٥) آنتقاله إلى الوزارة، وأبو سعيد العَمِيدِيّ(٦). ثم تولى الآمر والحافظ فكتب عنهما الشيخ أبو الحسن عليّ [بن أحمد بن الحسن](٧) بن أبي أُسامة الحَلَبِيّ إلى أن تُوُفّي في أيام الحافظ، فكتب بعده ولده أبو المكارم [هبة الله](٨) إلى أن تُوُفّي، ومعه الشيخ أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم عليّ بن سليمان بن مُنْجِب المعروف بابن الصَّيْرَفِيّ(٩)، والقاضي كافي الكُفاة محمود آبن القاضي الموفّق أسعد بن قادُوس، وآبنُ أبي الدّم اليَهُودِيّ، ثم كتب بعد أبي المكارم القاضي الموفّق بنُ الخَلّال(١٠) بقية أيام الحافظ إلى آخر أيام العاضِد آخرِ خلفائهم، وبه تَخَرّج القاضي الفاضل عبد الرحيم البَيْساني. ثم أشرك العاضدُ مع الموفّق بن الخَلّال في ديوان الإنشاء

---

(١) زيادة عن صبح الأعشى.

(٢) في الأصل وحسن المحاضرة: «أبو المنصور بن جورس» وفي صبح الأعشى: «أبو المنصور بن سوردين» وما أثبتناه عن أخبار مصر لابن ميسَّر: ص ١٧٩. وهو أبو منصور بشر بن عبيد الله بن سورين، كاتب السجلات. كان نصرانياً متشدداً في دينه. توفي في سابع عشر صفر سنة ٤٠٠هـ. (أخبار مصر: ص ١٧٩، حاشية: ٥٨٨).

(٣) في صبح الأعشى: «أبو الطاهر البهزكي» وفي حسن المحاضرة: «أبو الطاهر الهولي».

(٤) هو أحمد بن علي بن خيران المتوفى سنة ٤٣١هـ. (الأعلام: ١٧٢/١ وفيه أنه: وليّ الدولة).

(٥) في صبح الأعشى: «قبل انتقاله إلى الوزارة».

(٦) هو أبو سعيد (أو أبو سعد) محمد بن أحمد بن محمد العميدي. توفي سنة ٤٣٣هـ. وله كتاب الإبانة عن سرقات المتنبي. (الأعلام: ٣١٤/٥، ومقدمة كتابه المذكور: ص ١٥).

(٧) زيادة عن أخبار مصر لابن ميسر، ص ٩٠، وأخبار مصر لابن المأمون، ص ١٦. وقد توفي سنة ٥٢٢هـ.

(٨) زيادة عن ابن المأمون: ص ٥٢.

(٩) هو صاحب كتاب: «الإشارة إلى من نال الوزارة».

(١٠) الموفق أبو الحجاج يوسف بن علي بن الخلال؛ توفي سنة ٥٦٦هـ.

القاضيَ جلال الدين محموداً الأنصاريّ. ثم كتب القاضي الفاضل بين يدي الموفَّق بن الخَلَّال في وزارة صلاح الدين يوسف بن أيُّوب.

ثم كانت الدولة الأيُّوبية، فكتب للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب القاضي الفاضل المذكور، ثم أضيفت إليه الوزارة. ثم كتب بعد الناصر لابنه العزيز ولأخيه العادل أبي بكر، ثم مات العادل والفاضل.

قلت: هنا مجازفة لم يكتب القاضي الفاضل للعادل وكان بينهما مُشاحنة، ومات الفاضل قبل وصول العادل إلى مصر، وقيل وقت دخول العادل من باب النصر إلى القاهرة كانت جنازة القاضي الفاضل خارجة. وقد ذكرنا ذلك كلّه في هذا الكتاب(١)، وإنما كتب الفاضل للعزيز عثمان ولولده الملك المنصور محمد، فآلتبس المنصور على الناقل بالعادل. اِنتهى.

قال: ثم تَوَلّى الكامل بن العادل فكتب له أمين الدين سليمان المعروف بكاتب الدَّرْج إلى أن تُوُفّي، فكتَبَ له بعده الشيخ أمين الدين عبد المحسن [بن حمود](٢) الحَلَبِيّ مدّة قليلة؛ ثم(٣) كتب للصالح نجم الدين أيُّوب، ثم ولي ديوان الإنشاء الصاحب بهاء الدين زُهَيْر، ثم صُرِف وولي بعده الصاحب فخر الدين إبراهيم بن لُقْمان الإسعِرْدِيّ، فَبقِيَ إلى آنقراض الدولة الأيّوبية.

فلما كانت الدولة التركية كتب للمعز أيبك الصاحب فخر الدين المذكور، ثم بعده للمظفر قُطُزْ، ثم للظاهر بِيبَرْس، ثم للمنصور قلاوون، ثم نقله قلاوون من ديوان الإنشاء للوزارة، وولي ديوان الإنشاء مكانه القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر فكتب عنه بقية أيامه؛ ثم كتب لابنه الأشرف خليل إلى أن تُوُفّي، فوَلّى مكانه القاضي تاج الدين [أحمد](٤) بن الأثير فكتب إلى أن تُوفّي؛ فكتب بعده القاضي

(١) راجع حوادث سنة ٥٩٦هـ.

(٢) زيادة عن حسن المحاضرة.

(٣) كذا أيضاً في حسن المحاضرة. وعبارة القلقشندي في صبح الأعشى: «.. مدة قليلة؛ وتوالت كتّاب الإنشاء في الولاية إلى أن ولي الملك الصالح نجم الدين أيوب فولى ديوان الإنشاء الصاحب بهاء الدين زهيراً».

(٤) زيادة عن صبح الأعشى

شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله [العمري] فكتَب بقية أيام الأشرف. فلما تَولّى أخوه الناصر محمد كتَب عنه القاضي شرف الدين المذكور في سلطنته الأولى ثم في أيام العادل كَتْبُغَا ثم أيام المنصور لاجين ثم في أيام سلطنة الناصر محمد الثانية؛ ثم نقله إلى كتابة السِّرّ بدمشق عوضاً عن أخيه القاضي محيي الدين [بن فضل الله العمري]، وتولى مكانه بمصر القاضي علاء الدين [بن تاج الدين] بن الأثير فبقي حتى مَرِض بالفالج فاستدعى الملك الناصر مُحيي الدين بن فضل الله من دِمَشق وولده شهاب الدين [أحمد][1] وولاّهما ديوان الإنشاء بمصر. ثم وَلّى بعدهما القاضي شمس الدين[2] آبن الشهاب محمود فَبقِيَ إلى عَوْد السلطان من الحجّ فأعاد القاضي محيي الدين وولده القاضي شهاب الدين إلى ديوان الإنشاء بمصر فبَقِيَا مدّةً. ثم تغيّر السلطان على القاضي شهاب الدين وصرفه عن المباشرة، وأقام أخاه القاضي علاء الدين [عليّ] وكلاهما معين لوالده لكِبَر سنّه، ثم سأل القاضي مُحيي الدين السلطان في العَوْد إلى دمشق فأعاده وصحبته ولده شهاب الدين؛ وآستمرّ ولده القاضي علاء الدين بالديار المصريّة فباشر بقيّة أيام الناصر، ثم أيّام ولده الملك المنصور، ثم أيام الأشرف كجك، ثم أيام الناصر أحمد إلى أن خلَع نفسه وتوجّه إلى الكَرَك وتوجّه معه القاضي علاء الدين؛ فلمّا تَولّى الملك الصالح إسماعيل السلطنة بمصر بعد أخيه الناصر أحمد قرّر القاضي بدر الدين محمد آبن القاضي محيي الدين بن فضل الله عِوَضاً عن أخيه علاء الدين.

قلت: لم يلِ بدر الدين محمد بعد أخيه علاء الدين الوظيفة آستقلالاً وإنّما ناب عنه إلى حين حضوره. اِنتهى.

قال: ثم أُعِيد علاء الدين أيّام الصالح إسماعيل وأيّام الكامل شعبان، ثم أيام المُظَفَّر حاجي ثم أيّام الناصر حسن في سلطنته الأولى، ثم في أيّام الصالح

(١) وهو صاحب كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» وكتاب «التعريف بالمصطلح الشريف». وكتابه الأخير هذا يعتبر المرجع الأساس عن ترتيب الدولة المملوكية الأولى ونظمها ودواوينها ومصطلح الكتابة الديوانية في ذاك العصر. (انظر مقدمتنا لكتاب التعريف المذكور، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت).

(٢) هو محمد بن محمود بن سلمان بن فهد الحلبي، شمس الدين. توفي سنة ٧٢٧هـ. ـ انظر مقدمة كتاب: حسن التوسل إلى صناعة الترسّل لوالده شهاب الدين محمود الحلبي، وفيه تراجم وافية للوالد وأبنائه.

صالح، ثم في أيّام الناصر حسن في سلطنته الثانية، ثم أيام المنصور محمد آبن المظفر حاجي، ثم في أيّام الأشرف شعبان وتُوُفِّي في أيّامه.

قلت: وكانت وفاته في شهر رمضان سنة تسع وستين وسبعمائة بعد أن باشر كتابَة السر نَيِّفاً وثلاثين سنة لأحد عشر سلطاناً.

قال: ثم ولي الوظيفة بعده ولده بدر الدين محمد آبن القاضي علاء الدين، فباشر بقيّة أيام الأشرف شعبان، ثم ولدِه المنصور عليّ، ثم أخيه الملك الصالح حاجي بن شعبان إلى أن خُلِع بالظاهر بَرْقُوق، فآستقرّ برقوق بالقاضي أوحد الدين عبد الواحد بن إسماعيل التُّرْكُمَانِيّ إلى أن تُوفّي.

قلت: وكانت وفاته في ذي الحجة سنة ستّ وثمانين وسبعمائة.

قال: ثم أُعِيد بدر الدين فباشر حتى خُلِع الظاهر برقوق بالمنصور حَاجي، فاستمر بدر الدين إلى أن عاد بَرْقُوق إلى سلطنته الثانية، صرفه بالقاضي علاء الدين علي بن عيسى الكَركِي، ثم صرَف الكَرَكِيّ.

قلت: ومات معزولاً في شهر ربيع الأوّل في سنة أربع وتسعين وسبعمائة.

قال: ثم أُعِيد القاضي بدر الدين من بعد عَزْل القاضي علاء الدين فآستمرّ بدر الدين إلى أن عاد برقوق فتوفّي بدِمَشق.

قلت: ووفاته في شوّال سنة ست وتسعين وسبعمائة.

قال: وولي بعده القاضي بدر الدين محمود الكُلُسْتَانِيّ فباشر إلى أن تُوُفّي.

قلت: وكانت وفاته في عاشر جمادى الأولى سنة إحدى وثمانمائة.

قال: فتولى بعده القاضي فتح الدين فتح الله [التِّبْريزيّ][١] فباشر بقية أيام الظاهر، ومدّة من أيام الناصر إلى أن صَرفه الناصر فرج بالقاضي سعد الدين [إبراهيم][٢] بن غُراب مدّةً يسيرة، ثم صُرِفَ آبن غراب وأُعِيد القاضي فتح الله

---

(١) زيادة عن حسن المحاضرة وما سيأتي.

(٢) زيادة عن صبح الأعشى.

ثانياً، فباشر إلى أن صُرف بالقاضي فخر الدين بن المزوّق[١]، فباشر مدة يسيرة، ثم صُرِف وأعِيد فتح الله فباشر إلى أن صرَفه الملك المؤيَّد شيخ وقبض عليه وصادره.

قلت: ومات تحت العقوبة خَنْقاً في ليلة الأحد خامس عشر شهر ربيع الأوّل سنة ست عشرة وثمانمائة؛ وهو فتح الله بن مستعصم بن نَفِيس التبْريزيّ الحنفي الداوُدي، يأتي ذكره هو وغيرُه من كُتّاب السِّرّ في محلهم من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

قال[٢]: وتَوَلّى بعده القاضي ناصر الدين محمد [بن] البارِزِيّ فباشر إلى أن تُوُفّي.

قلت: وكانت وفاته يوم الأربعاء ثامن شوّال سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة، ومولده بحَمَاة في يوم الاثنين رابع شوّال سنة تسع وستين وسبعمائة. وتولى بعده ولده القاضي كمال الدين محمد[٣] بن البارِزِيّ، فباشر إلى أن صرفه الملك الظاهر ططر وولّى علمَ الدين داود [بن عبد الرحمن][٤] بن الكُوَيْز، فباشر إلى أن تُوفّي سنة ست وعشرين وثمانمائة في دولة الملك الأشرف بَرْسْبَاي. وولّى بعده جمالَ الدين يوسف[٥] بن الصَّفِيّ الكَرَكِيّ فباشر قليلاً إلى أن صُرِف بقاضي القضاة شمس الدين محمد[٦] الهَرَوِيّ، ودام الكَرَكِيّ بعد ذلك وباشر عِدّة وظائف بالبلاد الشامية إلى أن تُوفّي في حدود سنة خمس وخمسين وثمانمائة، وباشر الهَرَوِيّ إلى أن عُزِل بقاضي

---

(١) سيذكره المؤلف في حوادث سنة ٨٣٣هـ.

(٢) آخر من ذكر القلقشندي من كتّاب الإنشاء كان القاضي فتح الدين فتح الله التبريزي. وقد توفي القلقشندي سنة ٨٢٠هـ. لذا فإن ضمير الفاعل لفعل «قال» هنا لا يعود على صاحب صبح الأعشى. ولعل المؤلف يتابع النقل ابتداءً من هنا عن السيوطي في حسن المحاضرة.

(٣) هو محمد بن محمد بن محمد بن عثمان بن محمد، كمال الدين المتوفى سنة ٨٥٦هـ (الضوء اللامع: ٢٣٦/٩ ـ وترجمة والده ناصر الدين في نفس الجزء، ص ١٣٧).

(٤) زيادة عن الضوء اللامع.

(٥) انظر حوادث سنة ٨٥٦هـ.

(٦) انظر حوادث سنة ٨٢٩هـ.

القضاة نجم الدين عمر بـن حجّي، فباشر آبن حجّي إلى أن عُزِل وتوجّه إلى دِمَشْق على قضائها، ودام إلى أن قُتِل بها في ذي القعدة سنة ثلاثين وثمانمائة، وولّى بعده القاضي بدر الدين محمد [بـن محمد بن أحمد][١] بن مُزْهِر، وآستمرّ إلى أن مات في ليلة الأحد سابـع عشرين جُمادى الآخرة من سنة آثنتين وثلاثين وثمانمائة. وولّى بعده آبنه جلال الدين؛ وقيل بدر الدين محمد مـدّة يسيرة. وصُـرِف بالشـريف شهاب الدين أحمد [بن علي بن إبراهيم بـن عَدْنان][١] الحُسَيْني الدمشقي، فباشر مدةً يسيرةً وتُوُفّي بالطاعون في سنة ثلاث وثلاثين، وولي بعده أخوه نحو الجمعة بغير خِلْعَة وتُوُفّي بالطاعون أيضاً. وولي بعدهما شهاب الدين أحمـد [بن صالـح بن أحمد بن عمر المعروف بآ][٢] بن السَّفَاح الحَلَبِـيّ فباشر إلى أن مات في سنة خمس وثلاثين. وولي بعده الوزير كريم الدين عبد الكريم [بن عبد الرزّاق بن عبـد الله المعروف بـا][٢] بـن كاتب المَنَاخ مضافاً للوزارة، فباشر أشهراً وصُرِف؛ وأُعِيد القاضي كمال الدين محمد بن البارِزِيّ في يوم السبت العشرين من شهر ربيـع الآخر سنة ستّ وثلاثين، فباشر إلى أن صُرِف يوم الخميس سابـع شهر رجب سنة تسـع وثلاثين؛ وولي مكانه الشيـخ مُحِبّ الدين محمد بـن الأشقر فباشر إلى أن صرف، وولي صلاح الدين محمد آبن الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله، فباشر إلى أن تُوُفّي بالطاعون في سنة إحدى وأربعين، وولي مكانه والده الصاحب بدر الدين حسن فباشر إلى أن صرِف، وأُعيد القاضي كمال الدين بن البارِزِيّ في يوم الثلاثاء سابـع عشر شهر ربيـع الآخر سنة آثنتين وأربعين وثمانمائة، وهي ولايته الثالثة، فباشر إلى أن تُوُفّي بُكْرة يوم الأحد سادس عشرين صفر سنة ستّ وخمسين وثمانمائـة، ولم يُخَلِّف بعده مثلُه؛ وولي بعده القاضي محب الدين محمد بن الأشقر المقدّم ذكره، وباشر إلى أن صَرَفه الملك الأشرف إينال بالقاضي مُحِب الدين محمد بن الشِّحْنَة الحلبـي، فباشر ابن الشِّحنة أشهراً ثم صُرِف، وأُعِيد القاضي محب الدين محمد بن الأشقر وهي ولايته الثالثة. اِنتهى.

---

(١) زيادة عن الضوء اللامـع.

(٢) زيادة عن الضوء اللامـع وما سيأتي للمؤلف في حوادث سنة ٨٣٥هـ.

قلت: وغالب مَن ذكرناه من هؤلاء الكُتّاب قد تقدّم ذكر أكثرهم، ويأتي ذكر باقيهم في محلّهم من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى. وقد آستطردنا من ترجمة الملك المنصور إلى غيرها، ولكن لا بأس بالتطويل في تحصيل الفوائد. انتهى.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك المنصور قلاوون على مصر

وقد تقدّم ذكرها في ترجمة الملك السعيد، والملك العادل سَلَامش وَلَدي الملك الظاهر بِيبَرْس، وهي سنة ثمانٍ وسبعين وستمائة، فإنه حَكَم فيها من شهر رجب إلى آخرها.

* * *

وهذه السنة الثانية من سلطنة الملك المنصور قلاوون المذكور

وهي سنة تسع وسبعين وستمائة.

فيها تُوُفّي الشيخ محيي الدين أبو العباس أحمد [بن عليّ][(1)] بن عبد الواحد بن السابق الحلبيّ العدل الكبير؛ كان من أكابر بيوت حلب، وكان عنده فضيلةٌ ورياسةٌ، ومات بدِمشق في ذي الحجة.

وفيها تُوُفّي الأمير سيف الدين، وقيل صارم الدين، أُزْبك بن عبد الله الحلبي العَدْل الكبير؛ كان من أعيان أمراء دِمَشْق، وهو منسوبٌ إلى أستاذه الأمير عزّ الدين أَيْبَك الحَلَبي، وكان قد تجرّد إلى بَعْلَبَكّ فتمرّض بها، فحُمِل في محِفَّة إلى دِمَشْق، فمات بها في شوّال.

وفيها تُوُفّي الأمير جمال الدين آقوش بن عبد الله الشَّمسِيّ؛ كان من أعيان الأمراء وأماثلهم وشُجعانهم، وهو الذي أمسك الأمير عزّ الدين أَيْدَمُر الظاهري، وهو الذي باشر قتل كَتْبُغَا نُوين مقدّم التّتار يوم عَيْن جالوت؛ وكان ولي نيابة حلب في السنة الخالية؛ ومات بها في يوم الاثنين خامس المحرّم ودُفِن بحلب، وهو في عشر الخمسين.

---

(١) زيادة عن تاريخ الإسلام.

وفيها تُوُفّي الشيخ الإمام كمال الدين أبو محمد عبد الرحمن بن محمد الحنفيّ الفقيه العَدْل؛ كان من أعيان الفقهاء العدول، وكان كثير الديانة والتعبّد؛ وهو أخو قاضي القضاة شمس[1] الدين الحنفيّ.

وفيها تُوُفّي الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد [بن أيُّوب بن أبي رحلة][2] الحِمْصِي المولد والدار البَعْلَبَكّي الوفاة؛ كان فاضلاً ظريفاً أديباً شاعراً؛ ومما ينسب إليه من الشعر قوله: [البسيط]

والدهرُ كالطيف بؤساهُ وأنْعُمُه عن غير قَصْدٍ فلا تَحْمَد ولا تَلُمِ
لا تسألِ الدهرَ في البأساء يكشفها فلو سألتَ دوام البؤس لم يَدُمِ

وفيها تُوُفّي الأديب الفاضل الشاعر المُفْتَنّ جمال الدين أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد بن عليّ المصريّ المولد والوفاة، المعروف بالجَزّار، الشاعر المشهور أحد فحول الشعراء في زمانه. مولده سنة إحدى وستمائة. ومات يوم الثلاثاء ثاني عشر شوّال ودُفِن بالقرافة؛ وكان من محاسن الدنيا، وله نوادر مُسْتَظْرَفَةٌ ومُداعبات ومُفاوضات[3] مع شعراء عصره، وله ديوانُ شعر كبير.

قال الشيخ صلاح الدين الصَّفَدِيّ: لم يكن في عصره مَن يُقاربه في جَوْدة النظم غير السِّرَاج الورّاق[4]، وهو كان فارس تلك الحَلْبَة، ومنه أخذوا، وعلى نَمَطِه نسجوا، ومن مادّته آستمدُّوا. اِنتهى كلام الصَّفَدِيّ.

قلتُ: ونذكر قطعةً من شعره فمن ذلك قوله: [الطويل]

أكَلِّفُ نفسي كلَّ يومٍ وليلةٍ شروراً[5] عَلَى مَن لا أفوز بَخيْرِهِ
كما سَوَّد القَصَّار بالشمس وجهَهُ لِيَجْهَد[6] في تبييض أثوابِ غيرهِ

(١) راجع حوادث سنة ٦٧٣هـ.
(٢) زيادة عن طبعة دار الكتب المصرية.
(٣) المفاوضة في لغة ذلك العصر هي المكاتبة والمراسلة.
(٤) هو عمر بن محمد بن حسن، أبو حفص، سراج الدين الورّاق. كان شاعر مصر في عصره. توفي سنة ٦٩٥هـ. (الأعلام: ٥/٦٣).
(٥) في الشذرات: «هموماً».
(٦) في الشذرات: «حريصاً على تبييض...».

وقيل: إنه بات ليلة في رمضان عند الصاحب بهاء الدين بن حِنًّا، فصَلَّى عنده التراويحَ، وقرأ الإمام في تلك الليلة سورةَ الأنعام في ركعة واحدة؛ فقال أبو الحسين: [السريع]

ما لي على الأنعام من قُدْرة لا سِيّما في ركعةٍ واحده
فلا تَسُوموني حضوراً سِوى في ليلة الأنفالِ والمائده

ومن شعره: [الكامل]

طَرْف المُحِبِّ فمٌ يُذاع به الجَوَى والدمعُ إن صمتَ اللسانُ لسانُ
تبكي الجفونُ على الكَرَى فاعْجَب لَمْن تبكي عليه إذا نأى الأوطانُ

وفيها تُوُفّي الشيخ الإمام عِماد الدين أبو بكر بن هِلال بن عَبّاد الجِيليّ الحنفيّ مُعيد[1] المدرسة الشِّبْلِيّة. كان إماماً عالماً صالحاً منقطعاً عن الناس مشتغِلاً بنفسه، وكان معدوداً من العلماء؛ أفتى وأعاد ودرّس وٱنتفع به الناس ومات في تاسع عشر شهر رجب، وقد كَمُل له مائة سنة وأربع سنين. ورَوَى عنه ٱبن الزَّبِيديّ[2]؛ وروَى بالإجازة العامّة عن السِّلَفِيّ.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي الفقيه شمس الدين محمد بن عبد الله [بن محمد][3] بن النَّنّ. والأديب البارع أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم الجَزّار بمصر. وشيخ الرافضة النَّجِيب أبو القاسم بن الحسين ابن العُود الحِلّيّ بجِزِّين[4] في شعبان. والشيخ الزاهد يوسف [بن نَجاح بن موهوب][3] الفُقّاعيّ بزاويته بقاسِيون.

(١) المعيد: هو ثاني رتبة المدرّس. وكان عمله أنه إذا ألقى المدرس الدرس وانصرف أعاد ما ألقاه المدرس إليهم ليفهموه ويحسنوه. والمدرس هو الذي يتصدى لتدريس العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه والنحو والتصريف ونحو ذلك. (صبح الأعشى: ٤٣٦/٥ طبعة دار الكتب العلمية). والواضح أن وظيفة المعيد هذه هي نفسها المعروفة في نظام الجامعات في أيامنا.
(٢) تقدمت وفاته في أخبار سنة ٦٣١هـ.
(٣) زيادة عن الشذرات.
(٤) جزِّين: من قرى جنوب لبنان.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع وخمس أصابع. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وثلاث وعشرون إصبعاً.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة السلطان الملك المنصور قلاوون على مصر

وهي سنة ثمانين وستمائة.

فيها تَرِبَتْ جزيرة كبيرة ببحر النيل تجاه قرية بولاق واللُّوق، وآنقطع بسببها مَجْرى البحر ما بين قلعة المَقْس وساحل باب البحر والرَّمْلة وبين جزيرة الفِيل؛ ولم يعهد هذا فيما تقدّم، وحصل لأهل القاهرة مَشَقّة يَسيرةٌ من نقل الماء لبعْدْ البحر عنهم؛ وأراد السلطان حَفْرَه فمنعوه، وقالوا له: هذا نشَفَ إلى الأبد[1].

قلت: وكذا وقع، وغالب أملاك باب البحر والبساتين خارج باب البحر وداخله هي مكان البحر الذي نشَف، وآلتصقت المباني والبساتين بجزيرة الفِيل وصارت غيرَ جزيرة، فسبحان القادر على كل شيء!.

وفيها تُوُفّي الشيخ الصالح المولَّه المُعْتَقد إبراهيم بن سعيد الشَّاغُوريّ المعروف بجَيْعَانة في يوم الأحد سابع جُمادى الأولى بدمشق، ودُفِن بمقبرة المُولَّهين[2] بسفح قاسِيون، وله من العُمر نحو سبعين سنة، وكانت له جنازةٌ عظيمة، وكان له أحوالٌ ومكاشفاتٌ، رحمه الله.

وفيها تُوفّي ملك التّتار أَبْغَا بن هُولاكو بن تُولي خان بن جِنْكِزْ خان مَلِك التّتار وطاغيتُهم؛ كان مَلِكاً جليلَ القَدْر عالي الهِمّة شجاعاً مِقداماً خبيراً بالحروبِ؛ لم يكن بعد والده مثلُه؛ وكان على مذهب التّتار وآعتقادهم، ومملكته متّسِعة جدّاً وعساكره كثيرة؛ وكان مع ذلك كلمته مسموعةً في جنده مع كَثْرتهم. ولمّا توجّه أخوه مَنْكُوتَمر بالعساكر إلى جهة الشام لم يكن ذلك عن رأيه بل أُشير عليه فوافق،

---

(١) راجع ص ٢٦١ من هذا الجزء.

(٢) وتسمى: مقابر الصوفيّة.

ونزلَ في ذلك الوقت الرَّحْبَة، أو بالقرب منها، فلما بلَـغ أبْغَا كَسْرَةُ مَنْكُوتَمر رجـعَ إلى هَمَذَان فمات غَمّاً وكَمَداً. ومات منكُوتَمُر بعد أخيه أبْغَا بمدّة يسيرة بين العيدين، وله من العُمر نحو خمسين سنة، وقيل: ثلاثين سنة والثاني أرجـح. ومات بعده بيومين أخوه آجَايْ على ما يأتي ذكر مَنْكُوتَمُر في القابلة.

وفيها تُوُفّي التاجر نجم الدين أبو العبّاس أحمد بن عليّ بن المظفَّر بن الحِليّ؛ كان ذا نِعْمَة ضخمة وثَرْوة ظاهرة، وأموالٍ جَمّة، وله التقدّم في الدولة.

وفيهـا تُوُفّي الشيـخ مـوفّق الدين أبـو العباس أحمـد بن يوسف المعـروف بالكَوَاشِيّ، الإمام العالم المفسِّر صاحب التفسير الكبير والتفسير الصغير وهما من أحسن التفاسير؛ وكانت له اليَدُ الطُّولَى في القراءات ومشاركةٌ في غير ذلك من العلوم؛ وكان مقيماً بالجامع العتيق بالمَوْصِل منقطعاً عن الناس مجتهداً في العبادة لا يقبل لأحد شيئاً؛ وكان يزوره المَلِك ومَنْ دونه فلا يقوم لهم ولا يَعْبَأ بهم؛ وكان له مجاهداتٌ وكشوفٌ وكراماتٌ، ولأهل تلك البلاد فيه عقيدةٌ. ومات وله تسعون سنة تقريباً، وكانت وفاته في سابع عشر جُمادى الآخرة بالموصل ودُفِن بها.

وفيها تُوُفّي الأمير عِزّ الدين المعروف بالحاجّ أزْدَمُر بن عبد الله الجَمْدَار؛ كان من أعيان الأمراء، وكان ممن آنضاف إلى سُنْقُر الأشقر لمّا تسلطن، وكان سنقر جعله نائباً بدِمَشْق، ووقـع له أمورٌ ذكرنا بعضها في أوّل ترجمة الملك المنصور قلاوون إلى أن آستُشْهِد في واقعة التّتار مـع المنصور قلاوون بظاهر حِمْص مقبلاً غيرَ مدبر، رحمه الله وتَقبّل منه.

وفيها تُوُفّي الأمير عِزّ الدين أيْبَك بن عبد الله الشُّجَاعِيّ الصالحي العِمَادِي والي الوُلاة[1] بالجهات القبلية؛ كان ديِّناً خيِّراً ليِّن الجانب شديداً على أهل الرِّيَب وجيهاً عند الملوك؛ وكان الملك الظاهر بيبرس يعتمد عليه في أموره؛ ثم إنه ترك

(١) والي الولاة: هو المشرف على تلك الجهات، وتكون رتبته مقدّم طبلخاناه. أما إذا كان مقدم ألف، فتكون ولايته من الأبواب السلطانية ويسمى عندئذ كاشف الكشاف. (انظر صبح الأعشى: ٢٥/٤، ٢٧، ٦٦، ٦٧، ٢٠٧ ـ طبعة دار الكتب العلمية).

الأمر بآختياره ولزم داره إلى أن مات بدمَشْق في جُمادى الآخرة، وقد بلغ خمساً وثمانين سنة.

وفيها تُوُفّي الأمير بدر الدين بَكْتُوت بن عبد الله الخَازِنْدار؛ اسْتُشْهِد أيضاً في وقعة التّتار بحِمْص، وكان أميراً جليلاً.

وفيها تُوفّي الأمير سيف الدين بَلَبان الرُّومِي الدّوادار المقدّم ذكرُه في قضيّة كُتّاب السرّ؛ كان الملك الظاهر بِيبَرْس يعتمد عليه وولّاه دَوَاداراً؛ وكان المطَّلِعَ على أسراره، وتدبير أمور القُصَّاد والجواسيس والمكاتبات لا يُشارِكه في ذلك وزيرٌ ولا نائبُ سلطنة، بل كان هو والأمير حُسام الدين لاجين الأيْدَمُريّ المعروف بالدَّرْفِيل، فلما تُوُفّي لاجين المذكور آنفرد بَلَبان بذلك وحدَه، وكان مع هذه الخصوصية عند الملك الظاهر أميرَ عشرة، وقيل جندياً.

قال الصَّفَدِيّ: لم يُؤَمِّره طبلخاناه إلى أن مات الملك الظاهر أنعم عليه ولده الملك السعيد بِأمْرَة ستين فارساً بالشام، وبَقِي بعد ذلك إلى أن آستُشْهِد بظاهر حِمْص رحمه الله وقد نيّف على ستين سنة.

وفيها تُوُفّي الأمير شمس الدين سُنْقُر بن عبد الله الألْفِي؛ كان من أعيان الأمراء الظاهريّة، وولي نيابَة السلطنة بمصر للملك السعيد بعد موت الأمير بدر الدين بِيلِيك الخازِنْدَار، وباشر النّيابة أحسن مُباشرة إلى أن آسْتَعْفَى فأُعْفِي، وولي النيابة عِوَضَه الأمير كَوُنْدَك، فكان ذَهابُ الدولة على يده. ثم قَبَض الملك المنصور على سُنْقُر هذا وآعتقله بالإسكندرية، وقيل بقلعة الجبل، إلى أن مات، وله من العمر نحو أربعين سنة.

وفيها تُوُفّي الشيخ علاء الدين أبو الحسن عليّ بن محمود بن الحسن بن نَبْهَان اليَشْكُرِي ثم الربعيّ؛ كان له اليُد الطولى في علم الفَلَك، وتفرّد بحَلّ الأزياج وعَمَلِ التقاويم، وغَلَب ذلك عليه مع فضلية تامة في علم الأدب وجَوْدَة النظم.

ومن شعره: [الطويل]

ولما أتاني العاذِلون عدِمْتُهم ... وما منهمُ إلا للَحمي قارضُ
وقد بُهِتُوا لما رأوْنِيَ شاحباً ... وقالوا: به عينٌ فقلت: وعارضُ

وله: [الكامل]

إني أغار من النَّسيم إذا سَرَى ... بأريج عَرْفِكَ خِيفةً من ناشقِ
وأوَدُّ لو سُهِّرْتُ لا من عِلّةٍ ... حَذَراً عليكَ من الخيال الطارقِ

قلت: وأجاد الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح في هذا المعنى حيث قال: [الوافر]

فلو أمْسَى على تَلَفِي مُصِرّاً ... لقلتُ: معذّبي، بالله زِدْنِي
ولا تَسْمَح بوَصْلك لي فإنِّي ... أغارُ عليك منك فكيف مِنيٍّ

ومثل هذا أيضاً قول حَفْصَة[1] المغرِبية، رحمها الله: [الوافر]

أغَارُ[2] عليك من غيري ومنيٍّ ... ومنك ومن مكانك والزمان
ولو أنّي خَبَأْتُك في جُفوني ... إلى يوم القيامة ما كفانِي

وفيها تُوُفّي الشيخ الإمام الأديب البارع بدر الدين يوسف بن لؤلؤ بن عبد الله الذَّهَبيّ الشاعر المشهور؛ كان أبوه لؤلُؤ عتيقَ الأمير بدر الدين صاحب تَلّ باشر. وكان بدر الدين هذا فاضلاً شاعراً ماهراً. ومن شعره ممّا كتبه للشيخ نجم الدين [محمد] بن إسرائيل[3] وله صاحب يميل إليه يُسمَى بالجارح: [مجزوء الخفيف]

قلبُك اليوم طائرْ ... عنك في الجوائِحْ
كيف يُرْجَى خَلاَصُهْ ... وهو في كَفّ جارِحْ

---

(١) هي حفصة بنت الحاج الركونية الأندلسية. شاعرة انفردت في عصرها بالتفوق في الأدب والظرف والحسن وسرعة الخاطر بالشعر. توفيت سنة ٥٨٦هـ. (الأعلام: ٢/٢٦٤).

(٢) رواية نفح الطيب: ٤/١٧٦:

أغار عليك من عينيْ رقيبي ... ومنك ومن زمانك والمكان
ولو أني خبأتك في عيوني ... إلى يوم القيامة ما كفاني

(٣) راجع حوادث سنة ٦٧٧هـ من هذا الجزء.

ومن شعره في دولاب: [مجزوء الرجز]

وَرَوْضَـــةٍ دُولاَبُــهـــا إلى الـغُـصـون قـد شَـكَـا
مـن حـيـن ضـاع زَهْـرُهـا دار عـلـيـه وبَـكَـى

وله: [المجتثّ]

يـا عـاذِلي فيـه قـل لي إذا بَـدَا كـيـف أسْـلُو
يَـمُـرُّ بي كـلَّ حـيـنٍ وكـلـمـا مـرّ يَـحْـلُو

وله: [السريع]

حَـلا نبـاتُ الشَّعْـرِ يا عَـاذِلي لمَّـا بـدا في خـدّه الأَحْـمَـرِ
فـشـاقَنِي ذاك الـعِـذارُ الـذي نـبـاتـه أحلى مـن الـسُّـكَّـرِ

وله في غلام على وجهه حَبّ شباب: [الطويل]

تعشَّقْتُـه لَـدْنَ القَـوَامِ مُهَفْهَفـاً شَهِيَّ اللّمى أحوى المراشف أَشْنَبَا
وقـالوا بَـدَا حَبُّ الشباب بوجهِهِ فيـا حُسْنَـه وجهـاً إليَّ مُحَببـا

وله: [مجزوء الكامل]

رِفْـقـاً بِـصَـبٍّ مُـغْـرَمٍ أبليتَـه صَـدّاً وهَـجْـرا
وافـاك سـائـلُ دَمْـعِـهِ فـردَدْتَـهُ في الحـال نَهْـرَا

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي العلاّمة الزاهد مُوَفّق الدين أحمد بن يوسف الكَوَاشِيّ المفسِّر بالمَوْصِل في جُمادى الآخرة، وقد جاوز التسعين. والقاضي نجم الدين محمد ابن القاضي صدرالدين ابن سَنِيّ الدولة بدِمَشْق في المحرّم. والعلاّمة قاضي القضاة تَقِيّ الدين محمد بن الحسين بن رَزين العامريّ بالقاهرة في رجب، وله سبع وسبعون سنة. والحافظ المُسْنِد جمال الدين أبو حامد محمد بن عليّ بن محمود بن الصابونيّ في ذي القعدة. والمُسْنِد شمس الدين أبو الغنائم المُسْلم بن محمد بن المُسْلِم بن عَلّان في ذي الحجّة، وله سبع وثمانون سنة. والعدْلُ أمين الدين القاسم بن أبي بكر بن القاسم الإِرْبِلِيّ في

جُمادى الأولى. والعارف الزاهد وليّ الدين عليّ بن أحمد بن بدر الجَزَرِيّ المقيم بجامع بَيْت لهيا[١] في شوّال.

وأَبْغا بن هُولاكو مَلِك التَّتار ببلاد هَمَذَان. والحاج أَزْدَمُر الأمير بمصافّ حْمِص شهيداً.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمسة أذرع وثلاث أصابع. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وأربع أصابع.

* * *

السنة الرابعة من سلطنة الملك المنصور قلاوون على مصر

وهي سنة إحدى وثمانين وستمائة.

فيها تُوُفّي قاضي القضاة شمس الدين أبو العَبّاس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلِّكان بن باَوَل بن عبد الله بن شاكَل بن الحسين بن مالك بن جعفر بن يحيى بن خالد بن بَرْمَك البَرْمَكِيّ الإربِلِيّ الشافعيّ قاضي قضاة دِمَشْق وعالمُها ومؤرِّخُها. مولده في ليلة الأحد حادي عشر جمادى الآخرة سنة ثمانٍ وستمائة بإربِل وبها نشأ. ذكره آبن العدِيم في تاريخه فقال: من بيت معروف بالفقه والمناصب الدينية. وقال غيره: كان إماماً عالماً فقيهاً أديباً شاعراً مُفْتِناً مجموع الفضائل معدوم النظير في علوم شَتّى، حُجَّةً فيما ينقُله مُحَقِّقاً لِما يُورِده منفرداً في علم الأدب والتاريخ، وكانت وفاته في شهر رجب وله ثلاثٌ وسبعون سنة.

قلت: وهو صاحبُ التاريخ المشهور، وقد آستوعبنا من حاله نُبْذَةً جيدةً في تاريخنا «المنهل الصافي والمُسْتَوفى بعد الوافي». إنتهى.

وكان ولي قضاء دِمَشْق مرّتين: الأولى في حدود الستين وستمائة وعُزِل وقَدِم القاهرة، وناب في الحُكْم بها عن قاضي القضاة بدر الدين السِّنْجَارِيّ، وأفتى بها

(١) بيت لهيا: قرية مشهورة بغوطة دمشق. (معجم البلدان).

ودرّس ودام بها نحو سبع سنين؛ ثم أُعِيد إلى قضاء دِمَشْق بعد عِزّ الدين بن الصائغ، وسُرّ الناس بعَوْده. ومدحتْه الشعراء بِعدّة قصائد؛ من ذلك ما أنشده الشيخ رشيد الدين عمر بن إسماعيل الفارقيّ فقال: [الخفيف]

أنت في الشام مثل يُوسف في مِصـ ـرِ وعنـدي أنَّ الكِـرامَ جِنَـاسُ
ولكـلٍّ سَبْعٌ شِدَادٌ وبعد السَّبْـ ـعِ عـامٌ فيـه يُغـاثُ النـاسُ

وقال فيه أيضاً نور الدين عليٌّ بن مُصْعَب: [مخلّع البسيط]

رأيتُ أهـلَ الشـام طُـراً مـا فيهـمُ قَطُّ غيـرُ راض
أتـاهـمُ الخيـرُ بعـد شَـرٍّ فـالوقتُ بَسْطٌ بـلا آنقباضِ
وعُـوِّضُـوا فـرحـةً بُحـزْنٍ قد أنصف الدهرُ في التقاضي
وسَـرَّهـم بعـد طُـولِ غَـمٍّ قـدومُ قـاضٍ وعَـزْلُ قـاضِ
فـكـلُّهـم شـاكـرٌ وشـاكٍ لحـالِ مستَقْبَـلٍ ومـاضِ

ومن شعر آبن خلِّكان المذكور قوله: [الطويل]

تَـمَثَّلْتُم لِي والبـلادُ بعيـدةٌ فُخيِّـل لي أنّ الفؤادَ لكم مَغْنَى
وناجاكُم قلبي على البُعْـد والنَّوَى فآنستمو(١) لفظاً وأوحشتمو مَعْنَى

وله دوبيت:

قَاسُوكَ ببدْر التِّمِّ قومٌ ظلموا لا ذنبَ لهم لأنّهم مـا عَلِمُـوا
من أين لبـدرِ التِّمِّ يـا ويَحهُمُ جِيـدٌ وعيـونٌ وقَـوامٌ وفَـمُ

وله: [الكامل]

يـا رب إنّ العبدَ يُخْفِي عَيْبَـهُ فآستُر بحلمك ما بدا من عَيْبِهِ
ولقد أتاك ومـا لـه من شافعٍ لـذنوبه فاقْبَل شفاعةَ شَيْبه

(١) رواية فوات الوفيات لهذا المصراع:
« فأوحشتمو لفظاً وآنستمو معنى».

قلت ويعجبني في هذا المعنى قولُ القائل: [الكامل]

إن كانت الأعضاء خالفتِ الّذي أُمِرت به في سالفِ الأزمانِ
فسلوا الفؤادَ عن الذي أودعتُم فيه من التوحيد والإيمانِ
تجدوه قد أدّى الأمانةَ فيهما فهَبوا له ما حَلّ في الأركانِ

وفيها تُوُفّي ملك التّتار مَنْكُوتَمُر بن هُولاكو خان بن تُولي خان بن جِنْكِزْ خان، هو أخو أبغا ملك التّتار؛ ومَنْكوتَمُر هذا هو الذي ضرَب المصافّ مع السلطان الملك المنصور قلاوون على حِمْص حسب ما تقدّم ذكره وآنكسرت عساكره، فلمّا وقع ذلك عَظُمَ عليه وحصل عنده غَمٌّ شديدٌ وكَمَد زائد، وحدّثْته نفسه بجَمْع العساكر من سائر ممالك بَيت هولاكو، وآستنجد بأخيه أَبْغَا على غَزْو الشام، فقدَّر الله سبحانه وتعالى موتَ أَبْغَا، ثم مات هو بعده في محرّم هذه السنة، وأراح الله المسلمين من شرّهما. وكان مَنْكُوتَمُر شجاعاً مِقداماً وعنده بَطْش وجَبَرُوت وسَفْك للدّماء، وكان نَصْرانياً؛ وكان جُرِح يوم مَصافّ حِمْص، والذي جَرَحه الأمير علم الدين سَنْجَر الدويدَارِيّ.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي الإمام زَيْن الدين عبد السلام بن عليّ الزَّوَاوِيّ المالِكيّ شيخ القُرَّاء في رجب، عن آثنتين وتسعين سنة. وقاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان الإِرْبِلِيّ في رجب، وله ثلاث وسبعون سنة. ونجيب الدين المِقْداد بن هِبَة الله القَيْسِيّ العدل في شعبان. وأبو الطاهر إسماعيل بن هِبَة الله المَلِيجِيّ آخر من قرأ القرآن على أبي الجُود في رمضان بالقرافة. والبُرهان إبراهيم بن إسماعيل [بن إبراهيم بن يحيى بن عَلَوِيّ المعروف بـ][1] ـآبن الدَّرَجِيّ إمام المدرسة المُعِزِّيّة في صفر، وله آثنتان وثمانون سنة. والعِماد إسماعيل بن إسماعيل بن جوسلين البَعْلَبَكِّيّ. والعلاّمة برهان الدين محمود بن عبد الله المَراغِي في شهر ربيع الآخر، وله ستّ وسبعون سنة. والإمام أمين الدين أحمد بن عبد الله [بن عبد الجبّار بن طلحة بن عمر بن الأشتر المعروف

(١) زيادة عن الشذرات.

بـ][(١)] الأشتري الشافعي في شهر ربيع الأوّل. والشيخ الزاهد عبد الله [بن أبي بكر][(١)] ويُعرف بكُتَيْلَة ببغداد.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وثماني عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الخامسة من سلطنة الملك المنصور قلاوون على مصر

وهي سنة آثنتين وثمانين وستمائة.

فيها تُوُفّي الأمير شهاب الدين أحمد بن حجيّ بن يزيد[(٢)] البَرْمَكِيّ أمير آل مِرَى؛ كان من فُرسان العرب المشهورين؛ كانت سراياه تُغير إلى أقصى نجد وبلاد الحجاز ويؤدّون له الخَفَرَ، وكذلك صاحب المدينة الشريفة، وكانت له المنزلة العالية عند الظاهر والمنصور قلاوون وغيرهما من الملوك؛ كانوا يُدارونه ويَتَّقُونَ شَرَّه، وكان يزعمُ أنّه من نَسْل الوزير جعفر بن يحيى بن خالد بن بَرْمَك البَرْمَكيّ من أخت الخليفة هارون الرشيد الذي آمْتُحِن جعفر بسببها وقُتِل. وكان بين شهاب الدين هذا وبين عيسى بن مُهَنّا أمير آل فضل منافسةٌ، فكتب إليه شهاب الدين هذا مَرّةً كتاباً وأغلظ فيه، وكان عند عيسى الشيخ شهاب الدين أحمد بن غانم فسأله عيسى بن مُهَنّا المجاوبة، فكتب عنه يقول: [مجزوء الرمل]

زَعَمُوا أنّا هَجَوْنا ... جَمْعهم بالافتراءِ
كَذَبُوا فيما آدَّعَوْهُ ... وآفتَرَوْا بالادّعاءِ
إنّما قلنا مَقالاً ... لا كقول السُّفَهاءِ
آلُ فضلٍ آلُ فضلٍ ... وأنْتُمُ آل مِراءِ

وفيها تُوُفي شرف بن مَري بن حسن بن حسين بن محمد النَّواوِي والد الشيخ

(١) زيادة عن الشذرات.

(٢) راجع ص ٢٥١ من هذا الجزء، حاشية (١).

محيي الدين النَّوَاوِيّ، كان مقتنِعاً بالحلال يزرع أرضاً يقتاتُ منها هو وأهله، وكان يُمَوِّن ولده الشيخ محيي[1] الدين منها، ومات في صفر.

وفيها تُوُفّي الشيخ الإمام شمس الدين أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن محمد بن قُدَامة الحَنْبَلِيّ المَقْدِسِيّ؛ كان إماماً فقيهاً وَرِعاً زاهداً كبير القَدْر جَمّ الفضائل، اِنتهت إليه رياسة مذهب الإمام أحمد بن حَنْبَل، رضي الله عنه، في زمانه، وشرح كتاب «المُقْنِع» في الفقه تأليف عمّه شيخ الإسلام موفّق[2] الدين، رحمه الله.

وفيها تُوُفّي الأمير علاء الدين كُشْتُغْدِي[3] بن عبد الله الشرفيّ الظاهريّ المعروف بأمير مجلس، كان من أعيان الأمراء وأكابرهم بالديار المصريّة وكان بَطَلاً شُجَاعاً وله مواقف مشهورة ونكايات في العدو المخذول. ومات بقلعة الجبل وقد نَيَّفَ على خمسين سنة، وحضر الملك المنصور قلاوون جنازته.

وفيها تُوُفّي الكاتب المُجَوِّد عماد الدين أبو عبد الله، وقيل أبو الفضل، محمد آبن محمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله الشِّيْرازِيّ الدمشقيّ صاحب الخطّ المنسوب. اِنتهت إليه الرياسة في براعة الخط لاسيّما في المُحَقّق والنَّسْخ[4]. سمِع الكثير ورَوَى عنه الحافظ جمال الدين المِزِّيّ وغيره، وتَصدّى للكتابة وآنتفع به الناس. وقدم القاهرة وآتّفق أنه رَكِب النيل مرّة مع الصاحب بهاء الدين بن حِنّا،

(١) توفي الابن هذا قبل والده سنة ٦٧٦هـ.
(٢) تقدّمت وفاته سنة ٦٢٠هـ.
(٣) في الأصل: «كشي دغدي». وما أثبتناه عن السلوك. وهو فيه: سيف الدين كندغدي.
(٤) المراد: القلم المحقّق وقلم النسخ.
والقلم المحقّق هو قلم استحدثت كتابته في طغراوات كتب القانات في زمن القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١هـ. (صبح الأعشى: ٥٢/٣) وهو قلم مشتق من القلم الرياسي المنسوب إلى ذي الرياستين الفضل بن سهل وزير المأمون (الصبح: ١٧/٣، والفهرست: ص ١٣) والقلم الرياسي بدوره هو قلم ذو خط دقيق مشتق من القلم الجليل الذي كان يكتب به على المحاريب وعلى أبواب المساجد وجدران القصور، ويسمى الآن الخط الجليّ لأنه أكبر الأقلام وأوضحها. (الخط العربي وتطوّره: ص ٦٨).
أما خط النسخ فهو خط ليّن ذو حروف مدوّرة، استعمل منذ القرن السابع الميلادي. (الموسوعة العربية الميسرة: ٧٥٩).

وكان معه جماعةٌ من أصحابه وفيهم شخصٌ معروف بآبن الفُقَّاعي ممّن له عناية بالكتابة، فسأل الصاحبَ بهاء الدين، وقال: عندي لمولانا الصاحب وهؤلاء الجماعةِ يومٌ كامل الدَّعوة، ومولانا يدعو المولى عِماد الدين يُفيدني قَطَّة القَلَم، فقال الصاحب: والله ما في هذا شيء، مولانا يتفضّل عليه بذلك، فأطرق عِماد الدين مُغْضَباً، ثم رَفَع رأسه وقال: أو خيرٌ لك من ذلك؟ قال: وما هو؟ قال: أَحْمل إليك رَبْعَةً بخطّي، ويُعفيني من هذا، فقال الصاحب: لا والله، الرَّبْعَة بخطّ مولانا تساوي ألفي درهم، وأنا ما آكل من هذه الضيافة شيئاً يُساوي عشرة دراهم.

وفيها تُوُفّي الشيخ أبو محمد، وقيل أبو المحاسن، عبد الحليم بن عبد السلام آبن تَيْمِيّة الحَرَانِيّ أحد علماء الحنابلة ووالد الشيخ تَقيّ الدين بن تَيْمِيّة. مولده بحَرّان في ثاني عشر شوّال سنة سبع وعشرين وستمائة، وسمِع الكثير وتفقه وبرَع في الفقه وتَميَّز في عِدّة فنون، ودرّس ببلده وأفتى وخَطَب ووعَظ وفسّر؛ ولي هذه الوظائف عَقِيب موت والده مَجد الدين، وعمره خمس وعشرون سنة، وكان أبوه أيضاً من العلماء. ومات في سَلْخ ذي الحجّة ودُفِن بمقابر الصوفيّة بدِمَشق.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي الإمام عماد الدين عليّ بن يعقوب بن أبي زَهْرَان المَوْصِلّي الشافعيّ شيخ القرّاء بدِمَشْق في صفر، وقد قارب الستين. وشيخ الإسلام الشيخ شمس الدين عبد الرحمن بن أبي عُمر المَقْدِسيّ في شهر ربيع الآخر، وله خمس وثمانون سنة. والإمام شهاب الدين عبد الحليم بن عبد السلام بن تَيْمِيّة الحَرَّانيّ والد شيخنا في سَلْخ السنة، وله ستّ وخمسون سنة. والشيخ محيي الدين عمر بن محمد بن أبي سعد بن أبي عصرون التَّميميّ في ذي القعدة عن ثلاث وثمانين سنة. والإمام شمس الدين محمد آبن أحمد بن نعمة المَقْدِسِيّ مدرّس الشاميّة[1] في ذي القعدة. وخطيب دمشق مُحيي الدين محمد بن الخطيب عماد الدين عبد الكريم بن الحَرَسْتَانِيّ في جُمادى

(١) المدرسة الشاميّة البرّانية: أنشأتها ست الشام ابنة نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان أخت الملك الناصر صلاح الدين. وهي من أكبر مدارس الشافعية بدمشق بمحلة العقيبة. (انظر الدارس في تاريخ المدارس: ١/٢٠٨).

الآخرة، وله ثمانٍ وستون سنة. والحافظ شمس الدين محمد بن محمد بن عَبّاس بن جعوان الأديب في جمادى الأولى. والرئيس مُحيي الدين يحيى بن علي بن القَلانِسيّ في شوّال. والرئيس عماد الدين أبو الفضل محمد [بن محمد][1] ابن القاضي شمس الدين هبة الله بن الشِّيرازي في صفر. وشرف الدين محمد بن عبد المنعم بن القَوَّاس في شهر ربيع الآخر. والمحدّث جمال الدين عبد الله بن يحيى الجزائري في شوّال. والرشيد محمد بن أبي بكر بن محمد العامِريّ في ذي الحجّة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وخمس أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وثماني أصابع.

* * *

السنة السادسة من سلطنة الملك المنصور قلاوون على مصر

وهي سنة ثلاث وثمانين وستمائة.

فيها تُوُفّي قاضي القضاة ناصر الدين أبو العبّاس أحمد بن محمد بن منصور الجُذَامِيّ المالكيّ المعروف بآبن المُنَيِّر قاضي الإسكندرية، مولده في ذي القعدة سنة عشرين وستمائة، ومات بالإسكندرية ليلة الخميس مستهلّ شهر ربيع الأوّل، ودُفِن عند تربة والده عند الجامع المَغْرِبيّ[2]؛ وكان إماماً فاضلاً متبحِّراً في العلوم وله اليد الطُّولَى في علم الأدب والنظم والنثر. ومن شعره ما كتبه لقاضي القضاة شمس الدين آبن خلّكان في صدر كتاب: [الخفيف]

ليس شمسُ الضُّحا كأوصاف شمس الدّ ... ينِ قاضي القضاةِ حاشا وكَلّا
تلك مهما علَتْ مَحلّا ثَنَتْ ظلًّا وهذا مهما علا مَد ظِلّا

(١) زيادة عما تقدّم للمؤلف.

(٢) الجامع المغربي: لا يزال هذا الجامع موجوداً، ويعرف اليوم بجامع المنيِّر وبه قبره. ويقع هذا الجامع على رأس تقاطع شارع المنيّر بشارع الباب الأخضر بالإسكندرية. (محمد رمزي).

وله يهجو القاضي زَيْن الدين بن أبـي الفَرَج لمّا نازعه في الحكم: [الخفيف]

قل لمن يدَّعِي المناصب بالجهـ ـل تَنَحَّ عنهـا لمَن هـو أعلم
إن تكن في ربيع وُلِّيتَ يـومـاً فعليـك القضـاءُ أمسى محـرّمْ

وله في صدر كتاب كتبه إلى الفائزي[١] يسأله رفع التصقيع[٢] عن ثغر الإسكندريّة: [الوافر]

إذا آعتلّ الزمـانُ فمنك يـرجـو بـنـو الأيـام عـاقبـةَ الشِّفـاءِ
وإن يـنـزِل بسـاحـتهـم قضـاءٌ فـأنت اللُّطْفُ في ذاك القَضَـاءِ

وفيها تُوُفّي ملك التتار أحمد بن هولاكو قان بن تُولي قان بن جِنْكِزْخان؛ كان مَلِكاً شَهْماً خبيراً بأمور الرعيّة سالكاً أحسن المسالك، أسلم وحَسُن إسلامُه وبَنَى بممالكه الجوامع والمساجد، وكان مُتَّبِعاً دينَ الإسلام لا يصدُر عنه إلّا ما يوافق الشريعة؛ وكان لمّا حَسُن إسلامهُ صالح السلطان الملك المنصور قلاوون، وفرِح السلطان بذلك، فمات أحمد بعد مُدّة يسيرة، وملَك بعده أرغون بن أَبْغَا.

وفيها تُوُفّي القاضي نجم الدين أبو محمد عبد الرحيم بن إبراهيم بن هبة الله بن المُسْلِم بـن هبة الله بن حَسّان بن محمـد بن منصور بن أحمـد الجُهنِيّ الشافعيّ المعروف بابن البارِزيّ؛ وُلِد بحَمَاة سنة ثمانٍ وستمائة، وروَى الحديث وبرَع في الفقه والحديث والنحو والأدب والكلام والحكمة، وصنّف في كثير من العلوم، وتولّى القضاء بحَمَاة نيابةً عن والده، ثم آستقلّ بعده ولم يأخذ على القضاء رزقاً، وصُرِف قبل موته بسنين. ومن شعره تضميناً لأوّل قصيدة البهاء زُهَيْر البائيـة: [الطويل]

وكـان الرِّضـا مني إليه ولم يكن رسـولٌ فـأخشى أن ينّم ويَكْـذِبـا
ونـاديتُ أهلاً بـالحبيب ولم أَقُلْ رسولَ الرِّضا أهلاً وسهلاً ومَرْحَبَا

---

(١) أي الوزير الفائزي فتح الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن خالد بن محمد القيسراني المتوفى سنة ٧٠٣هـ. ولي الوزارة بدمشق في أيام السعيد بن الظاهر (الأعلام: ٤/١٢٥).

(٢) التصقيع: إحصاء البيوت والعقارات لأجل فرض ضريبة عليها. (السلوك: ١/٢/٣٨٤، حاشية).

وفيها تُوُفِّي الأمير شرف الدين عيسى بن مُهَنَّا أمير آل فضل ومَلِك العرب في وقته؛ وكان له منزلةٌ عظيمة عند الملوك لا سيّما عند الملك الظاهر بِيبرَس البُنْدُقْدَارِيّ، ثم تضاعفت عند الملك المنصور قلاوون؛ وكان كريمَ الأخلاق حَسَنَ الجِوَار مكفوف الشر مبذولَ الخير، لم يكن في العرب وملوكها من يضُاهيه،[1] وكان عنده ديانةٌ وصدقٌ. ولمّا مات وَلّى الملك المنصورُ قلاوون وَلَده مُهَنَّا عِوَضَه، وكان بين وفاته ووفاة عدوّه الأمير أحمد بن حجيّ أمير آل مِرَى دون السنة.

وفيها تُوفّي الشيخ الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن موسى بن النُّعْمان التِّلمسَاني؛ سمِع الكثير بعِدّة بلاد وحدّث؛ ومولده بتِلمَسان في سنة ست أو سبع وستمائة، ومات بمصر ودُفِن بالقرافة الكبرى، وهو غير شمس الدين محمد[2] بن العَفِيف التِّلِمْسانِيّ.

وفيها تُوُفّي الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي محمد آبن الملك المظفرّ محمود آبن الملك المنصور محمد بن تَقيّ الدين عمر بن شاهِنْشاه بن أَيُّوب صاحب حَمَاة والمَعَرّة وآبن صاحبهما، مَلكهما بعد وفاة أبيه سنة آثنتين وأربعين وستمائة، ووالدته الصاحبة غازية خاتون بنت الملك الكامل محمد صاحب مصر آبن الملك العادل أبي بكر بن أيوب. وكان مولده سنة آثنتين وثلاثين وستمائة، ووَلِيّ الملك المنصور قلاوون آبنه بعد وفاته.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي القاضي ناصر الدين أبو العبّاس أحمد بن محمد بن منصور الجُذَامِيّ بن المُنَيِّر بالإسكندريّة في شهر ربيع الآخر[3]، وله ثلاث وستون سنة. والملك أحمد بن هولاكو ملك

---

(١) يقول ابن فضل الله العمري في ذلك: «... وهذا البيت أسعد بيت في العرب في وقتنا الذي أشرقت فيه طوالع سعودهم، وأينع فيهم مخضرّ عودهم... وهؤلاء آل عيسى هم في وقتنا ملوك البرّ ما بعد واقترب، وسادات الناس، ولا تصلح إلا عليهم العرب...» وقد سطّر العمري على هذا النمط من التقريظ ما يربو على اثنتي عشرة صفحة. (انظر مسالك الأبصار: ١/١١٤ ــ ١٣٦) وراجع ص ٢٥١ من هذا الجزء، حاشية (١).

(٢) سيذكره المؤلف في حوادث سنة ٦٨٨هـ.

(٣) تقدّم للمؤلف ذكر ذلك في «ربيع الأول».

التّتار. وقاضي حَمَاة نجم الدين عبد الرحيم بن إبراهيم بن البارِزِيّ الشافعيّ في ذي القعدة، وحُمِل ودُفِن بالبقِيـع، وله خمس وسبعون سنة. وقاضي دمشق عز الدين أبو المفاخر محمد بن عبد القادر بن عبد الخالق الأنصاريّ بن الصائـع في شهر ربيـع الآخر في آخر الكهولية. وصاحب حَمَاة الملك المنصـور ناصـر الدين محمـد آبن المظفر محمود عن إحدى وخمسين سنة. والشيـخ العارف أبو عبد الله محمد بن موسى بن النُّعْمان التِّلمسَانيّ بمصر في رمضان، وله سبـع وسبعون سنة. ومَلِكُ العرب عيسى بن مُهنا في شهر ربيـع الأوّل.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربـع أذرع وعِدّة أصابـع. مبلـغ الزيادة سبـع عشرة ذراعاً وثلاث أصابـع.

* * *

السنة السابعة من سلطنة الملك المنصور قلاوون على مصر

وهي سنة أربـع وثمانين وستمائة.

فيها كان فتوح المَرْقَب وغيره من القلاع بالساحل حسب ما ذكرناه في أوّل الترجمة.

وفيها وُلِد الملك الناصر محمد بن قلاوون، ووالده على حِصار المَرْقَب؛ وقد تقدّم ذكر ذلك أيضاً.

وفيها تُوُفّي الشيـخ زَيْن الدين أبو العبّاس أحمد بن محمد بن أحمد الأَنْدَلُسِيّ الإشْبِيليّ الأصل المعروف بكتاكت المصريّ الواعظ المقرىء الأديب الشاعر؛ مولده سنة خمس وستمائة، وقيل غير ذلك، ومات بالقاهرة في شهر ربيـع الأوّل. وكان إماماً في الوعظ ولديه فضيلة ومشاركة. وله شِعْر جيّد. من ذلك قوله: [البسيط]

مَنْ أنت محبـوبُـه مـاذا يُغَيِّـره ... ومَن صفـوتَ لـه مـاذا يُكَـدِّرُهُ
هيهاتَ عنك مِلاحُ الكَوْن تشغَلُني ... والكلّ أعراضُ حُسنٍ أنت جوهرُه

وله القصيدة المشهورة عند الفقراء التي أوّلها: [الكامل]

حضروا فُمذْ نَظَرُوا جَمَالَك غابوا   والكلُّ مذ سمعوا خِطابك طابوا

وفيها تُوُفِّي الأمير علاء الدين أيْدَكين بن عبد الله البندُقْدَارِيّ الصالحيّ النجميّ أستاذ الملك الظاهر بِيبرْس البندقدارِيّ؛ كان أصل أيْدكين هذا من مماليك الأمير جمال الدين موسى بن يَغْمُور، ثم انتقل عنه للملك الصالح نجم الدين أيُّوب وجعله بُنْدُقْدَارَه وأمَّرَه ثم نَكَبه، وأخذ منه الملكَ الظاهر بيبرْس ثم أعاده. ثم تَرَقَّى بعد موت أستاذه وولي نيابة الشام من قِبَل مملوكه الملك الظاهر بِيبرْس، وكان الملك الظاهر بيبرس يُعَظِّمه ويقول له: أنت أستاذي، ويعرِف له حقَّ التربية! وكان هو أيضاً يبالغ في خدمة الملك الظاهر والنُّصح له؛ وهو الذي آنتزع له دِمَشق من يد الأمير سَنْجَر الحَلَبيّ كما تقدّم ذكره. وعاش أيْدكِين إلى دولة الملك المنصور قلاوون، وهو من أكابر الأمراء وأعيانهم إلى أن مات في القاهرة في شهر ربيع الآخر، ودفن بتربته[١] قريب بركة الفيل[٢] وقد ناهز السبعين.

قلت: وما العجب أنّ أيْدكِين هذا كان من جُملة أمراء مملوكه الملك الظاهر بيبرس، والعجب أن أستاذ إيدكين هذا الأمير جمال الدين بن يَغْمور كان أيضاً من جملة أمراء الظاهر بيبرِس فكان الظاهر أستاذ أستاذه في خدمته ومن جملة أمرائه فانظر إلى تقلبات الدهر بالملوك وغيرها!.

---

(١) تربة علاء الدين أيدكين البندقداري: ذكرها المقريزي باسم الخانقاه البندقدارية (انظر الخطط: ٤٢٠/٢) وهذه الخانقاه لا تزال موجودة إلى اليوم وتعرف بزاوية الأبار بشارع السيوفية بقسم الخليفة بالقاهرة. (انظر تعليقات الاستاذ محمد رمزي على النجوم: ٣٦٥/٧، طبعة دار الكتب المصرية).

(٢) انظر عن بركة الفيل: خطط المقريزي: ١٦١/٢، والانتصار: ٤٥/٥.

وكتب الأستاذ محمد رمزي (انظر أعلاه): إن بركة الفيل لم تكن بركة عميقة فيها ماء راكد بالمعنى المفهوم الآن من لفظ بركة، وإنما كانت تطلق على أرض زراعية يغمرها ماء النيل سنوياً وقت الفيضان، وكانت تروى من الخليج المصري، وبعد نزول الماء تزرع أصنافاً شتوية... وقد تحولت أراضيها تدريجياً من الزراعة إلى السكن ابتداءً من سنة ٦٢٠هـ، ولم يبق منها بغير بناء إلى سنة ١٢١٥هـ/١٨٠٠م إلا قطعة أقيم عليها فيها بعد سراي عباس حلمي باشا الأول والي مصر، المعروفة بسراي الحلمية. وفي سنة ١٩٠٢م هدمت السراي وقسمت أراضيها وبيعت جميع القطع وأقيم عليها عمارات حديثة تعرف بين أخطاط القاهرة بالحلمية الجديدة. ــ وانظر خطط علي مبارك: ١٤٥/٢.

وفيها تُوُفِّي الشيخ الإمام رشيد الدين أبو محمد سعيد بن سعيد بن عليّ بن سعيد البُصْرَاوِيّ الحنفيّ مدرّس الشِّبْلِيّة؛ كان إماماً عالماً فاضلاً مدرِّساً كثير الدّيانة والوَرَع؛ عُرِض عليه القضاء غير مرّة فآمتنع؛ وكانت له اليُد الطُّولَى في العربيّة والنظم؛ وكانت وفاته في شعبان ودُفن بقاسِيون. ومن شعره: [البسيط]

أَرَى عناصرَ طِيبِ العيش أربعةً ... ما زال منها فطيبُ العَيْش قد زالا
أَمْناً وصِحّةَ جِسْمٍ لا يُخالطها ... مُغايِر والشَّبابَ الغَضَّ والمالا

وله مواليا:

كيف آعتمدتَ على الدنيا وتَجْرِيبِكْ ... أراك فُلْك تَرَاها كيف تجري بِكْ
ما زالت الخادعة تدنو فتَغْرِي بِكْ ... حتى رَمَتْكَ بإبعادِكْ وتَغْرِيبكْ

وفيها تُوُفِّي الأديب البارع مُجِير الدين أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن عليّ المعروف بآبن تميم الشاعر المشهور، وهو سِبْط آبنِ تميم؛ كان أصله دِمَشْقِياً وآنتقل إلى حَمَاة وخدَم صاحبها الملك المنصور جُنْدِياً، وكان له به آختصاصٌ، وكان فاضلاً شجاعاً عاقلاً، وكان من الشعراء المعدودين. ومن شعره في الشجاعة والإقدام قولُه: [الكامل]

دَعْنِي أُخاطر في الحُروبِ بمهْجَتِي ... إمّا أموتُ بها وإمّا أُرزَقُ
فسوادُ عَيشي لا أراه أبيضاً ... إلّا إذا آحمرّ السِّنان الأزرقُ

وله: [الرجز]

لِمْ لا أَهِيمُ إلى الرِّياض وزَهْرِها ... وأقِيم منها تحت ظِل ضَافِي
والغصنُ يلقاني بثَغْرٍ باسمٍ ... والماءُ يلقاني بقلبٍ صافي

وله: [الكامل]

عاينت وَرْدَ الرَّوْض يَلْطُم خَدَّهُ ... ويقول وهو على البَنَفْسَج مُحْنَقُ
لا تقربوه وإن تضوَّع نَشْرُهُ ... ما بينكم فهو العدوُّ الأزرقُ

قلت: وقريب من هذا قولُ القائل: [مخلّع البسيط]

بَنَفسَج الـروض تـاه عُجْبـاً وقـال: طِيبـي للجَـوِّ ضَمَّخْ
فـأقبـل الـزهـرُ في آحتفـالٍ والـبـان مـن غـيـظه تَـنَـفَّخْ

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفِّيت أُمّ الخير سِتّ العرب بنت يحيى بن قَيْماز الكِنْدِيّة في المحرّم. والمحدِّث أبو القاسم عليّ بن بَلَبَان الناصريّ في رمضان. وأبو بكر محمد بن إسماعيل بن عبد الله الأنْمَاطِيّ في ذي الحجّة. والقُدْوة الشيخ محمد بن الحسن الإخْمِيمِيّ بقاسيون في جُمادى الأولى. والشيخ الزاهد شرف الدين محمد آبن الشيخ عثمان الرُّوميّ. والإمام الرشيد سعيد بن عليّ الحنفيّ في رمضان. والعلّامة رضيّ الدين محمد بن علي بن يوسف الشاطبيّ اللغويّ بمصر، وله نيّف وثمانون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:
الماء القديم لم يحرّر. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً وعشرون إصبعاً.

* * *

السنة الثامنة من سلطنة الملك المنصور قلاوون على مصر

وهي سنة خمس وثمانين وستمائة.

فيها آستولى الملك المنصور قلاوون على الكَرَك وآنتزعها من يد الملك المسعود خَضِر آبن الملك الظاهر بِيبَرْس.

وفيها تُوُفّي الشيخ معين الدين أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عبد الرحمن بن أحمد بن تُولُوَا[١] الفِهْرِيّ؛ مولده بتِنِّيس[٢] سنة خمس وستمائة، ومات بمصر في شهر ربيع الأوّل، ودُفِن بالقرافة الصغرى، وسمِع الحديث وتفقّه وكان له معرفةٌ بالأدب وله يَدٌ طُولَى في النظم؛ وشعره في غاية الجَوْدَة. ومن شعرِه، وقد أَمَر قاضي مصر بقطع أرزاق الشعراء من الصدقات سوى أبي الحُسين الجَزّار، فقال: [السريع]

(١) في الأصل هنا: «لؤلؤ». راجع ص ٢٧٧ من هذا الجزء، حاشية (٢).
(٢) تنيس: جزيرة في بحر مصر قريبة من البرّ ما بين الفرما ودمياط. (معجم البلدان).

تقدّم القاضي لنوّابه بقطع رزق البرّ والفاجرِ
ووفّر الجزّارَ من بينهم فاعجب للطف التّيْس بالجازرِ

وفيها تُوُفّي الشيخ شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم بن محمد الأنصاريّ الصوفي الفقيه الشافعي، الشاعر المشهور المعروف بآبن الخِيَمِيّ، كان إمام عصره في الأدب ونظم الشعر مع مشاركة في كثير من العلوم. ومولده سنة آثنتين وستمائة، وتوفي بمشهد الحُسَين بالقاهرة في شهر رجب؛ وقد أوضحنا أمرَه مع نجم الدين بن إسرائيل لمّا تداعَيَا القصيدة التي أوّلها: [البسيط]

يا مطلباً ليس لي في غيرهِ أَرَبُ إليك آل التَّقَصِّي وآنتهى الطَّلَبُ

في تاريخنا «المنهل الصافي والمُسْتَوْفَى بعد الوافي» وذكرنا أَمْرَهما لمّا أمرهما آبنُ الفارض بنظم قصيدتين في الرَّوِيّ والقافية وذكرنا القصيدتين أيضاً بكمالهما، ثم حكَم آبنُ الفارض بالقصيدة لشهاب الدين هذا. والقصيدة التي نظَمها شهاب الدين آبن الخِيَمِيّ هذا لما أمره آبن الفارض بالنظم أوّلها: [البسيط]

لله قومٌ بجَرْعاءِ الحِمَى غيَبُ جَنَوْا عليّ ولمّا أَنْ جَنَوْا عَتَبُوا

والتي نظمها آبن إسرائيل: [البسيط]

لم يَقْضِ من حُبِّكم بعضَ الذي يَجِبُ قلبٌ متى ما جرَى تَذْكارُكم يَجب

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي المُسنِد أبو العبّاس أحمد بن شيبان الصالحيّ في صفر، وقد قارب التسعين. والعلّامة جمال الدين محمد بن أحمد بن محمد البَكْرِيّ. والشهاب محمد بن عبد المنعم بن محمد الأنصاريّ آبن الخِيَمِيّ الشاعر في رجب، وله ثلاث وثمانون سنة. والشيخ عبد الرحيم بن محمد بن أحمد بن فارس العَلْثِيّ[1] بن الزّجاج في المحرّم. وأَمَةُ الحقّ شاميّة آبنة صدرالدين الحسن بن محمد بن محمد البكريّ في رمضان. والإمام صفيّ الدين خليل بن أبي بكر بن محمد المَرَاغِيّ في ذي القعدة. وقاضي القضاة

(١) نسبة إلى العَلْث، وهي قرية على دجلة بين عكبرا وسامراء. (معجم البلدان).

بهاء الدين يوسف آبن القاضي محيي الدين بن الزكي في ذي الحجّة، وله ستّ وأربعون سنة. والمقرىء برهان الدين إبراهيم بن إسحاق بن المظفَّر الوَزِيريّ في ذي الحجّة قافلاً من الحج. وخطيب كَفَرْبَطْنَا[1] جمال الدين محمد بن عمر الدِّيَنورِيّ في رجب، وله آثنتان وسبعون سنة. والمقرىء الشيخ حسن بن عبد الله بن وَيْحِيَان الرّاشِديّ في صفر.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع، وقيل خمس، وست أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وأربع أصابع.

* * *

السنة التاسعة من سلطنة الملك المنصور قلاوون على مصر

وهي سنة ست وثمانين وستمائة.

فيها تُوُفّي الشيخ الإمام العارف بالله تعالى قطب زمانه شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن عمر [بن محمد][2] المُرْسِيّ الأنصاريّ الإِسْكَنْدَرِيّ المالكي الصالح المشهور؛ كان علّامة زمانه في العلوم الإسلاميّة، وله القَدَم الراسخةُ في علم التحقيق، وله الكَرَاماتُ الباهرة، وكان يقول: شَارَكْنا الفقهاءَ فيما هم فيه، ولم يشاركونا فيما نحن فيه. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذِليّ: أبو العبّاس بطُرق السماء أعلم منه بطُرق الأرض. اِنتهى.

قلت: وكان لديه فضيلةٌ ومشاركةٌ، وله كراماتٌ وأحوالٌ مشهورة عنه، وللناس فيه آعتقاد كبير لا سيّما أهل الإسكندرية، وقد شاع ذكره وبَعُد صِيته بالصلاح والزُّهد، وكان من جملة الشهود بالثَّغْر، وبها تُوُفّي ودُفِن، وقبره يُقصد للزيارة.

---

(١) كفربطنا: من قرى غوطة دمشق (معجم البلدان).

(٢) زيادة عن نفح الطيب. والمرسي: نسبة إلى مرسية من بلاد الأندلس. وأهل مصر وبلاد المغرب يقولون: «سيدي المرسي أبو العباس». وهو أشعري المعتقد ووارث شيخه أبي الحسن الشاذلي تصوّفاً. (انظر نفح الطيب: ٢/١٩٠). وعن قبره ومسجده في الإسكندرية انظر تعليقات محمد رمزي على النجوم الزاهرة: ٧/٣٧١، طبعة دار الكتب المصرية.

وفيها تُوُفّي الشيخ شرف الدين أبو الربيع سليمان بن بُليمان بن أبـي الجيش آبن عبد الجبّار بن بُليمان الهَمَذانِيّ الأصل الرَّعْبَانِيّ[١] المولد، الإِرْبِلِيّ المنشأ، الشاعر المشهور صاحب النوادر؛ كان من شعراء الملك الناصر صلاح الـدين يوسف بن محمد صاحب الشام، وكان أبوه صائغاً وتَعَانَى هو أيضاً الصِّياغة؛ قيل إنّه جاء إليه مملوك مليحٌ من مماليك الملك الأشرف موسى، وقال له: عندك خاتم لإِصْبعيَّ؟ فقال له: لا، إنما عندي إصبع مليح لخاتَمك. ومات بدمشق في ليلة عاشر صفر. ومن شعره: [الطويل]

وما زالتِ الـرُّكبـانُ تُخْبـر عنكُمُ ... أحاديثَ كالمِسْـك الذَّكِيِّ بلا مَيْنِ
إلى أن تلاقينا فكان الذي وَعَتْ ... من القول أُذْني دون ما أبصرتْ عَيْنِي

ولمّا قَامَر التلَعْفَرِيّ[٢] بثيابه وأخفافه قال فيه شرف الدين هذا قصيدةً وأنشدها للملك الناصر بحضرة التَّلَعْفَرِيّ. فلمّا فَرَغ من إنشادها قال له التَّلعْفَرِيّ: ما أنا جُنديٌّ حتى أقامِرَ بأخفافي. فقال له شرف الدين: بخِفاف آمرأتك. فقال: ما لي آمرأة، فقال له: لك مقامرةٌ من بين الحجرين إمّا بالخِفاف أو بالنِّعال. اِنتهى.

قلت: وأنا مسامـح التَّلَعْفَرِيّ على القِمار، لحسن ما قاله من رائق الأشعار: [الطويل]

فمن كان ذَا عُذرٍ قبِلتُ آعتـذارَهُ ... ومَن لا له عُذرٌ فعنـدي له عُـذْرُ

وفيها تُوفّي الشيـخ الإمام المحدّث قطب الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن عليّ بن محمـد بن الحسن بن أحمد بن عبـد الله بن مَيْمـون القَيْسيّ الشّـاطبيّ المحـدّث الإمام العـلاّمة؛ كـان شيـخ الكـامليّـة بـالقـاهـرة [وهـو] المعـروف بـآبن القَسْطَلاَّنيّ التَّـوْزَرِيّ الأصل الـمصـري المولـد المكِّيّ المنشـأ الشـافعيّ المذهب؛ مولده سنة أربـع عشرة وستمائة، ومات يوم السبت ثامن عشر المحرّم، ودُفِن بالقرافة الصغرى، وكان مجموع الفضائل، رحمه الله.

---

(١) نسبة إلى رعبان، مدينة بالغور بين حلب وسميساط. (معجم البلدان).

(٢) راجع حوادث سنة ٦٧٥هـ من هذا الجزء.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي الإمام النَّحْوِيّ بدر الدين محمد آبن الشيخ جمال الدين بن مالك في المحرّم. والإمام قطب الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن عليّ القَسْطَلانّي بالقاهرة في المحرّم. وقاضي القضاة برهان الدين الخَضِر بن الحسن بن عليّ السِّنْجَارِيّ بمصر في صفر. والحكيم عماد الدين محمد بن عبّاس الرَّبَعِيّ الدُّنَيْسرِيّ، وله إحدى وثمانون سنة. وشرف الدّين سليمان بن بُليمان الإرْبِلِيّ الشاعر. والمحدث وجيه الدين عبد الرحمن بن حسن السَّبْتِيّ في جُمادى الأولى. والمُسْنِد عِزّ الدين أبو العز عبد العزيز بن عبد المنعم بن الصَّيْقَل الحَرّانِيّ في شهر رجب.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وأصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وعشر أصابع.

* * *

السنة العاشرة من سلطنة الملك المنصور قلاوون على مصر

وهي سنة سبع وثمانين وستمائة.

فيها تُوُفّي الشيخ المعتقد الصالح برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن مِعْضَاد بن شَدّاد الجَعْبَرِيّ الأصل والمولد المصريّ الدار والوفاة، الصالح المشهور؛ نشأ بَجعْبَر ثم آنتقل إلى الديار المصريّة وآستوطنها ولزِم مسجده؛ وكان يَعِظُ به ويجتمع عنده خَلْق كثير، ولأصحابه فيه عقيدةٌ حسنة، وله مقالاتٌ كثيرة؛ وكان زاهداً عابداً؛ سمِع الحديث وروَى عن السَّخَاوِيّ وغيره، وكان غَزِير الفضيلة حُلْوَ العبارة.

قال الصلاح الصَّفَدِيّ: أخبرني الشيخ الإمام العلّامة أثير الدين أبو حَيّان[1] من لفظه قال: رأيتُ المذكور بالقاهرة، وحضرتُ مجلسه أنا والشيخ نَجم الدين بن

(١) هو محمد بن يوسف بن علي، أثير الدين أبو حيّان الأندلسي الجيّاني المتوفى سنة ٧٤٥هـ. من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات. (الأعلام: ١٥٢/٧).

مَكِّيّ، وجرت لنا معه حكاية، وكان يجلس للعوامّ يُذَكِّرهم ولهم فيه آعتقاد، وكان يَدْرِي شيئاً من الحديث، وله مشاركةٌ في أشياء من العلوم وفي الطب، وله شعر جيِّد. وأنشَدَ له قصيدةً أذكر منها القليل: [الكامل]

عَشِقوا الجَمَال مجرّداً بمجرّد الر ... وح الـزكيّـة عِشْقَ مَن زكّـاهَـا
متجـرِّدين عن الـطِّبـاع ولؤمِهـا ... مـتلبِّسيـن عَفـافهـا وتُـقـاهـا

اِنتهى كلام الصَّفَدِيّ.

وقال القُطْب اليُونِينِيّ: وأظُنه نَيَّف على الثمانين من العُمر؛ ولمّا مَرِض مرض الموت أَمَر أن يخرج به إلى مكان مَدْفنه، فلما رآه قال له: «قُبَيْر جاكْ دُبَيْر». ومات بعد ذلك بيوم في يوم السبت رابع عشرين المحرّم بالقاهرة ودُفن من يومه بالحُسَيْنِيّة خارج باب النَّصر، وقبره معروف هناك يُقصد للزيارة.

قلت: ويُعجبني في هذا المعنى المقالة السابعة الزُّهْدِيّة من مقالات الشيخ العارف الرّبانِيّ شرف الدين عبد المؤمن بن هبة الله الأصفهانِيّ المعروف بشَوَرْوَة[١] من كتابه «أطباق الذهب» وهي:

طُوبَى للتَّقِيّ الخامل، الذي سَلِم عن إشارة الأنامل؛ وتَعْساً لمن قَعَد في الصوامع، ليُعْرَف بالأصابع؛ خزائنُ الأمناء مكتومةٌ، وكنوز الأولياء مختومة؛ والكامل كامنٌ يتضاءل، والناقص قصيرٌ يتطاوَل؛ والعاقل قُبَعَة[٢]، والجاهل طُلَعَة؛ فاقْبَعْ قُبوعَ الحيّات، وآكْمُنْ في الظُّلُماتِ، كُمون[٣] ماء الحيَاة؛ وصُن كنزَك في التُّراب، وسيفَك في القِراب؛ وعَفِّ آثارَك بالذَّيْلِ المسحوب، وآسْتُر رُواءَك بِسُفْعَة[٤] الشُّحُوب؛ فالنباهة فِتْنة، والوَجَاهة مِحْنة؛ فكن كَنْزاً مستُوراً، ولا تكن سَيْفاً

---

(١) راجع ص ١٧٥ من هذا الجزء، حاشية (٢) و (٣).
(٢) القُبَعة: الذي يدخل رأسه في ثوبه ابتغاء الاستتار وعدم الظهور. وهو عكس الطلعة. ويقال: أمرأة قبعة طلعة، أي تخفي رأسها مرة وتظهره أخرى.
(٣) في الأصل: «كماء الحياة» وما أثبتناه من طبعة دار الكتب المصرية عن أطباق الذهب.
(٤) السُّفعة من الألوان: السواد والشحوب، أو السواد ليس بالكثير، أو السواد المشرب بحمرة وهو أشهرها، أو السواد مع لون آخر من زرقة أو صفرة. (معجم متن اللغة).

مشهوراً؛ إنّ الظالم جدير أن يُقْبَرَ ولا يُحشر، والبالي خليقٌ أن يُطْوَى ولا يُنْشَر؛ ولو عرف الجِذلُ(١) صَوْلَةَ النَّجار، وعَضَّةَ المِنْشَار؛ لما تَطَاول شِبرا، ولا تخايل كِبرا، وسيقول البُلْبُلُ المُعْتَقَل: يا ليتني كنتُ غُرابا، ويقول الكافر يا ليتني كنتُ تُرابا». إنتهى.

وفيها تُوفّي الشيخ ناصر الدين أبو محمد حسن بن شَاوَر بن طَرْخان الكِنَانِيّ ويعرف بآبن الفُقَيْسِيّ وبآبن النَّقيب الشاعر المشهور؛ كان من الفضلاء الأدباء، ومات ليلة الأحد منتصف شهر ربيع الأوّل ودُفِن بسَفْح المقطّم، وله تسع وسبعون سنة؛ وكان بينه وبين العلّامة شهاب الدين محمود [الحلبي] صحبةٌ ومجالسةٌ ومذاكرةٌ في القَرِيض.

ومن شعره: [الطويل]

نَهْيناهُ عن فعل القبيح فما آنتهى ... ولا وَدَّهُ رَدْع وعادَ وعادى
وقلنا له دِنْ بالصَّلاح فقلَّما ... رأينا فتىً عانَى الفَسَاد فسادَا

وله: [الطويل]

وجُرِّدْتُ مع فَقْري وشيخوخَتِي التي ... تراها فنَوْمي عن جُفوني مُشَرَّدُ
فلا يَدَّعِي غيري مَقامي فإنَّني ... أنا ذلك الشيخ الفقيرُ المُجَرَّدُ

وله: [مخلّع البسيط]

حدَّثْتَ عن ثَغْره المُحَلَّى ... فمِلْ إلى خَدِّه المُوَرَّدْ
خَدٌّ وثَغْرٌ فجَلَّ ربٌّ ... بمُبْدِعِ الحسن قد تفرَّدْ

وله: [الكامل]

يا من أدار سُلافةً من رِيقِهِ ... وحَبابُها الثَّغْرُ الشَّنِيب الأشنبُ
تُفّاحُ خَدِّك بالعِذار مُمسَّكٌ ... لكنّه بدم القلوب مُخَضَّبُ

وله: [الوافر]

(١) الجذل: أصل الشجرة بعد ذهاب الفرع.

أنا العُذْرِيّ فاعذرني وسَامِحْ وجُرّ عليّ بالإحسان ذَيْلا
ولمّا صِرتُ كالمجنون عِشْقاً كتمتُ زيارتي وأتيتُ ليلا

وفيها تُوُفّي الملك الصالح علي آبن السلطان الملك المنصور قلاوون؛ كان والده المنصور قلاوون قد جعله وليَّ عَهْده وسلطنه في حياته حسب ما تقدم ذكرُه في سنة تسع وسبعين وستمائة، فدام في ولاية العَهْد إلى هذه السنة: مَرِض ومات بعد أيّام في رابع شعبان بقلعة الجبل، ووجد عليه أبوه الملك المنصور قلاوون كثيراً، فإنّه كان نجيباً عاقلاً خليقاً للملك.

وفيها تُوُفّي الشيخ الطبيب علاء الدين عليّ بن أبي الحرم[1] القرشي الدِّمَشْقِيّ المعروف بابن النَّفِيس الحكيم الفاضل العلاّمة في فنّه؛ لم يكن في عصره من يُضاهيه في الطّبّ والعِلاج والعلم، آشتغل على المهذّب الدَّخْوَار[2] حتى برَع، وآنتهت إليه رياسة فنّه في زمانه، وهو صاحب التصانيف المفيدة، منها: «الشامل في الطب»، و«المهذّب في الكُحل»، و«الموجز»[3]، و«شرح القانون لابن سينا». ومات في ذي القعدة بعد أن أوقف داره وأملاكه وجميع ما يتعلّق به على البِيمَارِسْتان المنصوريّ بالقاهرة.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي الشيخ إبراهيم بن مِعْضَاد الجَعْبَرِيّ بالقاهرة في المحرّم عن نيّف وثمانين سنة. والإمام أبو العبّاس أحمد بن أحمد بن عبد الله المَقْدِسِيّ الفَرَضِيّ. وخطيب القُدْس قُطْب الدين أبو الزَّكاء عبد المنعم بن يحيى الزُّهرِيّ في رمضان. والجمال أحمد بن

(١) قال الزركلي في الأعلام: «ورد اسمه في كثير من المصادر: علي بن أبي الحرم ـ بالراء المهملة ـ والصواب: ابن أبي الحزم ـ بالزاي الساكنة ـ كما هو بخطه» وابن النفيس هذا كان أول من وصف الدورة الدموية الرئوية (الدورة الدموية الصغرى) وأول من أشار إلى الحويصلات الرئوية والشرايين التاجية (الأعلام: ٤/٢٧٠).

(٢) هو مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار. انتهت إليه رياسة الطب في عصره. توفي سنة ٦٢٨هـ. (الأعلام: ٣/٣٤٧).

(٣) الموجز في الطب. اختصر به قانون ابن سينا.

أبي بكر بن سليمان الحَمَويّ. والشيخ الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن عبد العزيز اللُّورِيّ شيخ المالكية في صفر.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وأربع أصابع. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وأربع أصابع.

* * *

السنة الحادية عشرة من سلطنة الملك المنصور قلاوون على مصر

وهي سنة ثمانٍ وثمانين وستمائة.

فيها فُتِحَتْ طرابُلُس وما أُضيف إليها بعد أمور ووقائع حسب ما ذكرناه في أصل هذه الترجمة مُفَصّلاً.

وفيها تُوُفّي الشيخ علم الدين أحمد ٱبن الصاحب صَفِيّ الدين يوسف بن عبد الله بن شُكر المعروف بابن الصاحب، كان نادرةَ زمانه في المُجون والهزل وإنشاد الأشعار والبليقات[1] وكان بقِي في آخر عمره فقيراً مجرّداً؛ وكان ٱشتغل في صباه وحصّل ودرس؛ وكان لديه فضيلةٌ وذكاء وحسنُ تصور، إلّا أنه تَمَفْقَر في آخر عمره وأطلق طباعه على التَّكَدِّي وصار يُجارِد[2] الرؤساء، ويركب في قفص حَمّال ويتضارب الحمّالون على حمله، لأنّه كان مهما فُتِح له من الرؤساء كان للّذي يحمله، فكان يستمرّ راكباً في القَفَص والحمّال يدور به في أماكن الفُرَج والنُّزه؛ وكان يتعمّم بشرطوط[3] طويل جدّاً رقيق العَرْض ويعاشر الحرافيش؛ وكان له أولادٌ رؤساء، ويقال: إنّ الصاحب بهاء الدين بن حِنّا هو الذي أحوجه إلى أن ظهر بذلك

---

(١) البليقات: نوع من الشعر العامي، انتشر بمصر، وكثيراً ما يعتمد على الإفحاش في القول. (فوات الوفيات: ١/١٢٦، حاشية) ــ وجاء في حاشية الصفحة ٣٧٨ من الجزء السابع من النجوم، طبعة دار الكتب المصرية أنه نوع من التواشيح العامية كانت شائعة في بلاد الشام.

(٢) جرد القومَ جرداً: سألهم فمنعوه، أو أعطوه كارهين.

(٣) الشرطوط: الخرقة. واللفظ ما زال مستعملاً بهذا المعنى بالعامية في بلاد الشام.

المظْهَر، وأخمله وجنّنه لكونه كان من بيت وزارة، فكان آبن الصاحب هذا إذا رأى الصاحب بهاء الدين بن حِنّا يُنْشِد: [المجتثّ]

إشْـربْ (١) كـلْ وتـهـنّـا لا بـدّ أن تَـتَـغَـنّـى
مـحـمـد وعـليّ من أين لك يا آبنَ حنـا

قال الشيخ صلاح الدين الصَّفَدِيّ: «أخبرني من لفظه الحافظ نجم الدين أبو محمد الحسن خطيب صَفَد، قال: رأيتُه (يعني ابنَ الصاحب) أشقر أزرق العَيْنَين عليه قميصٌ أزرق، وبيده عُكّازٌ حديد. قال: وأخبرني مِن لفظه الحافظ فتح الدين آبن سَيِّد الناس، قال: كان آبن الصاحب يُعاشر الفارس أَقْطَايْ فاتّفق أنّهم كانوا يوماً على ظهر النِّيل في شَخْتُور(٢)، وكان الملك الظاهر بِيبَرْس مع الفارس أقطاي وجرى بينهم أمرٌ، ثم ضَرَب الدهر ضَرَبانَه حتّى تسلطن الملك الظاهر بِيبَرْس ورِكب يوماً إلى المَيْدَان، ولم يكن عَمَّر قنطرة(٣) السِّباع، وكان التوجه إلى المَيْدان من على باب زويلة على باب(٤) الخَرْق، وكان آبن الصاحب هذا نائماً على قَفَص صَيْرَفِيّ من تلك الصَّيارف بَرّا باب زويلة، ولم يكن أحدٌ يتَعرّض لابن الصاحب، فمرّ به الملك الظاهر فلم يَشْعُر إلا وآبن الصاحب يضرب بِمفتاح في يده على خشب الصيرفي قويّاً، فآلتفت الظاهر فرآه فقال: هاه! علم الدين؟ فقال: إيش علم الدين أنا جَيْعان! فقال: أعطوه ثلاثة آلاف درهم. وكان آبن الصاحب أشار بتلك الدَّقّة إلى دَقّة مثلها يوم المَرْكَب». اِنتهى.

قلت: ومن نوادره اللّطيفة أنّه كان بالقاهرة إنسان يُجرِّد(٥) الناس فسمَّوْه زُحَل، فلمّا كان في بعض الأيام وَقَف آبن الصاحب على دُكّان حَلْوَى يَزِن دراهم يشتري بها حَلْوَى، وإذا بزُحَل قد أقبل من بعيد، فقال آبن الصاحب للحلاوي: أعطني

---

(١) قارن برواية البداية والنهاية باختلاف غير يسير.
(٢) الشختور: المركب الصغير.
(٣) راجع ص ١٦٩ من هذا الجزء.
(٤) راجع ص ٩٣ من الجزء الرابع.
(٥) راجع ص ٣١٩ من هذا الجزء، حاشية (٢).

الدراهم، ما بَقِيَ لي حاجةٌ بالحَلْوَى، فقال: لِمَ؟ قال: أما ترى زُحل قارن المُشْتَرِيَ في الميزان! وله من هذا أشياءُ كثيرة ذكرنا منها نبذة في ترجمته في تاريخنا «المنهل الصافي». ومن شعره: [مخلّع البسيط]

يـا نفسُ مِيلِي إلى التَّصـابِي فـالـلَّهـوُ منـه الـفَتَـى يـعـيشُ
ولا تَـمـلِّي مـن سُـكْـرِ يـومٍ إن أعـوز الخمـرُ فـالـحشيشُ

وله في المعنى: [الخفيف]

في خُمَـار الحشيش مَعنى مَرامِي يـا أُهَـيْـل العقـول والأفهـامِ
حَـرَّموهـا من غير عَقْـلٍ ونَقْـلٍ وحـرامٌ تحـريمُ غيـر الحَـرَامِ

قلت: وأحسن ما قيل في هذا المعنى قول القائل ولم أدرِ لمَنْ هو: [الطويل]

وخضراء ما الحمراءُ[1] تفعل فعلَها لهـا وَثَبـاتٌ في الحشى وَثَبـاتُ
تُؤجِّجُ ناراً في الحشى وهي جَنَّةٌ وتُـرْوِي مَرِيـرَ الطَّعْم وهي نَبـاتُ

وفيها تُوُفِّي الشيخ الأديب البارع المفتن شمس الدين محمد ابن عفيف الدين سليمان بـن علي التِّلِمسَانِيّ الشاعر المشهور؛ كان شابّاً فاضلاً ظريفاً، وشعره في غاية الحسن والجَوْدة. وديوان شعره مشهورٌ بأيدي الناس، ومن شعره: [مخلّع البسيط]

يـا سـاكنـاً قلبي الـمُعَـنَّى وليس فيـه سِـواك ثـانـي
لأيّ مـعـنًى كـسـرتَ قـلبي ومـا آلتقى فيـه سـاكـنـان

وله في ذمّ الحشيش: [البسيط]

مـا للحشيشة فضـلٌ عنـد آكلهـا لكنـه غيـر مصروفٍ إلى رَشَـدِه
صفراءُ في وجهه خضراءُ في فَمِهِ حمراءُ في عينه سوداء في كَبِده

وله أيضاً: [الكامل]

(١) المراد بالحمراء الخمرة، وبالخضراء الحشيش.

لي من هـواك بعيدُه وقـريبُـهُ ولَـكَ الجمالُ بـديعهُ وغـريبُـهُ
يـا مَن أُعِيذُ جمَـالـه بجَـلالِـه حَـذَراً عليه من العُيـون تُصِيبُـهُ
إن لم تكن عيني فـإنّك نُـورُهـا أو لم تكن قلبي فـأنت حبيبُـهُ
هـل رحمـةٌ أو حُـرْمـةٌ لمُتيَّمٍ قـد قَـلَّ منـك نصيرهُ ونَصِيبُـهُ
ألف القصـائـد في هـواك تغـزُّلاً حتّى كـأنَّ بـك النسيبَ نَسِيبُـهُ
لم تُبقِ لي سِـرّاً أقـولُ تُـذِيعُـهُ عنّي ولا قـلبٌ أقـول تُـذِيبُـه
كـم ليـلةٍ قَضَّيْتُـهـا مُتَسَـهِّـداً والـدمع يجرَحُ مُقْلَتِي مَسْكُـوبُـهُ
والنجم أقـربُ من لِقَـاكَ مَنـالُـهُ عنـدي وأبعـدُ من رضـاك مَغِيبُـهُ
والجـوُّ قـد رَقَّتْ عليّ شمـالـه وجُفُـونُـهُ وشَمَـالـه وجَنُـوبُـهُ
هي مُقْلَةٌ سَهْمُ الفِـراق يُصيبُهـا ويَسُـحُّ وابـلُ دمعها فيَصُـوبُـهُ
وجـوىً تضَّرمَ جَمْـرُه لـولا نَـدَى قـاضي القضاة قضى عليّ لَهِيبُـه

وله: [السريـع]

أخجلتَ بـالثَّغر ثنـايا الأقـاح يـا طُـرَّةَ الليـل ووجـهَ الصبَّـاحْ
وأعجمتْ أعينُـك السِّحـرَ مُـذْ أعـربتَ منهن صِفَـاحـاً فِصـاحْ
فيـا لهـا سُـوداً مِـرَاضـاً غـدَتْ تَسُـلُّ للعـاشقِ بِيضـاً صِحـاحْ
يَـا للْهَـوَى مَنْ مُسْعِـدٌ مغْـرَمـاً رأى حَمَـام الأيْـك غَنّى فنـاح
يـا بـانـةً مـالت بـأعـطافـهِ علّمتنِي كـيف تُـهَـزُّ الـرِّمـاح
وأنـتِ يـا أسهـمَ ألحـاظـهِ أثـخـنـتِ والله فـؤادي جِـراح

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي كمال الدين أحمد آبن يوسف بن نصر الفاضِليّ. والمفتي فخر الدين عبد الرحمن بن يوسف البعلبكّيّ الحنبلي في رجب. ورئيس الشهود زَيْن الدين المهذب آبن أبي الغنائم التَّنُوخِيّ. والعلّامة شمس الدين الأصبهانيّ الأُصولي محمد بن محمود بالقاهرة في رجب. والمقرىء تقيّ الدين يعقوب بن بَدْرَان الجرائِدِيّ بالقاهرة في شعبان. والمسْنِدة العابدة زينب بنت مَكّيّ في شوّال، ولها أربعٌ وتسعون سنة. والعماد أحمد آبن

الشيخ العِماد إبراهيم بن عبد الواحد المَقْدِسِيّ. والإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن الكمال عبد الرحيم بن عبد الواحد المَقْدِسِيّ في جُمادى الأولى.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وعشر أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وعشر أصابع.

* * *

السنة الثانية عشرة من سلطنة الملك المنصور قلاوون على مصر

وهي سنة تسع وثمانين وستمائة.

فيها كانت وَفَاة صاحب الترجمة الملك المنصور قلاوون في ذي القعدة حسب ما تقدّم ذكره، وتسلطن بعده آبنه الملك الأشرف خليل.

وفيها تُوُفّي الشيخ الإمام أبو المعالي برهان الدين أحمد بن ناصر بن طاهر الحُسَيْنِيّ الحنفيّ إمام المقصورة الحنفية الشمالية بجامع دِمَشق؛ كان إماماً عالماً فاضلاً زاهداً صالحاً مُتَعَبِّداً مُفْتَنّاً مشتغلاً بما هو فيه من الاشغال بالعلم والأوراد والقراءة إلى أن مات في يوم السبت ثاني عشرين شوّال، وتَوَلّى بعده الإمامة الشيخ نجم الدين يعقوب البروكاريّ الحنفيّ، وسلك مَسْلَكه.

وفيها تُوُفّي الأمير حسام الدين أبو سعيد طُرُنْطَاي بن عبد الله المنصوريّ الأمير الكبير؛ كان أوحَد أهل عصره؛ كان عظيم دولة أستاذه الملك المنصور قلاوون؛ وكان المنصور قد جعله نائبَه بسائر الممالك، وكان هو المتصرفَ في مملكته. فلمّا مات الملك المنصور قلاوون وتسلطن ولده الملك الأشرف خليل آستنابه أيّاماً إلى أن رَتّب أموره ودبّره ودبّر أحوالَه؛ وكان عظيم التنفيذ سديدَ الرأي، مُفْرِط الذكاء غزيرَ العقل؛ فلمّا رَسَخت قَدَمُ الأشرف في السلطنة أمسكه، وكان في نفسه منه أيّام والده، وَبَسَط عليه العذابَ إلى أن مات شهيداً وصَبَر على العذاب صَبْراً لم يَعهد مثلَه عصره إلى أن هَلَك، ولمّا غَسّلوه وجدوه قد تهرّأ لحمهُ وتزايلت أعضاؤه، وأنّ جوفَه كان مشقوقاً، كلّ ذلك ولم يُسمع منه كلمةٌ. وكان بينه وبين الأمير علم الدين

سَنْجَر الشُّجاعيّ عداوةٌ على الرُّتبة، فسلّمه الأشرف إلى الشُّجاعِيّ وأمره بتعذيبه، فبسَط الشجاعيُّ عليه العذاب أنواعاً إلى أن مات، فحُمِل إلى زاوية الشيخ عمر السُّعودِيّ، فغسّلوه وكفّنوه ودفنوه بظاهر الزاوية[١]. وكان له مواقف مع العدوّ، وغزَوَات مشهورة وفتوحات. وبنى مدرسةً حسنةً بقرب داره بخط البُنْدُقانِيّين بالقاهرة، وقُبَّةً برسم الدفن، وله أوقاف على الأَسْرَى وغيرها. وكان فيه محاسن، لولا شُحُّه وبذاءة لسانه لكان أوحدَ أهل زمانه، وخلّف أموالاً جَمّة.

قال الشيخ قُطْب الدين اليُونينِيّ: قال الشيخ تاج الدين الفَزَارِي: حدّثني تاج الدين ابن الشِّيَرازي المحتسب: أنّهم وجدوا في خزانة طُرُنْطَاي من الذهب العَيْن ألفي ألف دينار وأربعمائة ألف دينار وألفي حِياصةٍ ذهب وألف وسبعمائة كلّوته مُزَركشة، ومن الدراهم ما لا يُحْصَى؛ فآستولى الأشرف خليل على ذلك كلّه، وفرّقه على الأمراء والمماليك في أَيْسر مدّة؛ وآحتاج أولاد طُرُنْطَاي هذا وعِيالُه من بعده إلى الطلب من الناس من الفقر[٢].

وقال غيره: وُجِد لطُرُنْطاي ألف ألف دينار وستمائة ألف دينار. ثم ذكر أنواع الأقمشة والخيول والجِمال والبِغال والمتاجر ما يُسْتَحَى من ذكره كثرةً. ومات طُرُنْطاي المذكور ولم يَبْلُغ خمسين سنة من العُمر.

وفيها تُوُفّي الأمير علاء الدين طيبرس بن عبد الله الصالحيّ المعروف بالوزيريّ، كان أحد الأمراء المشهورين بالشجاعة والإقدام، وكان من المبرّزين وله التقدّم في الدول والوجاهة، ولم يزل على ذلك إلى أن مات، رحمه الله تعالى.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي العلاّمة رشيد الدين عمر بن إسماعيل الفَارِقي: خُنِقَ في المحرّم وقد كمّل التسعين. والإمام

---

(١) أضاف المقريزي في السلوك: ٧٥٧/٣/١ « فلما تسلطن كتبغا نقله إلى مدرسته بالقاهرة ودفنه بها، وهو إلى اليوم هناك» ــ وانظر تعليقات محمد رمزي في النجوم: ٣٨٤/٧، حاشية (١) و٢٨٣/٨ استدراك.

(٢) ذكر المقريزي أن ولد طرنطاي حضر بين يدي الأشرف بعد أيام من مقتل والده، فوجده الأشرف أعمى وعلم منه أن أهله ليس عندهم ما يأكلون، فرقّ له السلطان وأفرج عن أملاك طرنطاي ــ وذكر المقريزي في تقدير ما صودر من خزانة طرنطاي أرقاماً مختلفة عما ورد هنا. (انظر السلوك: ٧٥٨/٣/١).

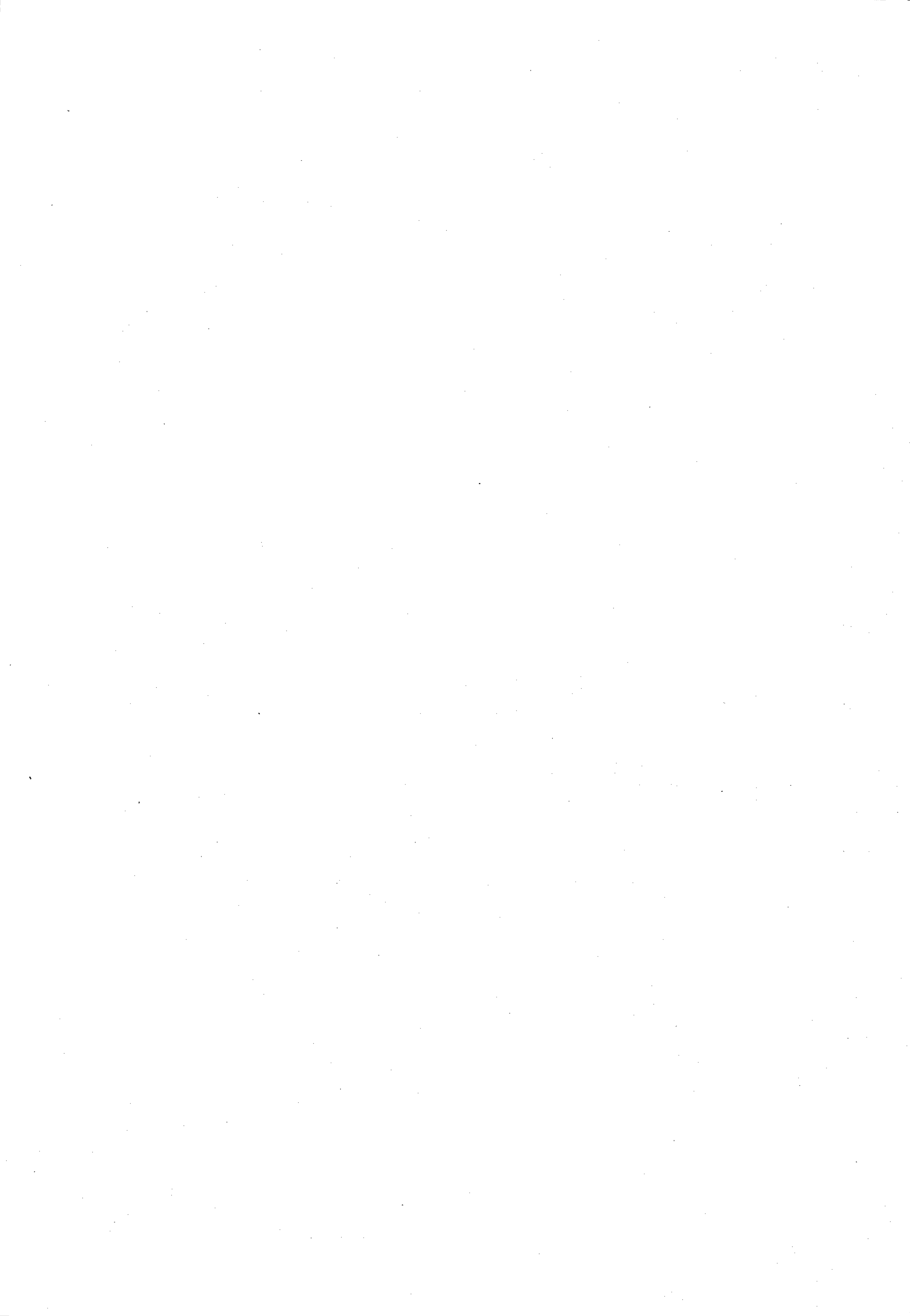
نور الدين علي بن ظهير بن شهاب بن الكفتي المقرىء الزاهد في شهر ربيع الآخر. وقاضي الحنابلة نجم الدين أحمد آبن الشيخ شمس الدين عبد الرحمن بن أبي عمر في جُمادى الأولى، وله ثمان وثلاثون سنة. وخطيب دمشق جمال الدين عبد الكافي بن عبد الملك بن عبد الكافي الربعي في سَلْخ جُمادى الأولى. والزاهد فخر الدين أبو طاهر إسماعيل عِزّ القضاة بن عليّ بن محمود[1] الصوفيّ في رمضان. والشيخ شمس الدين عبد الرحمن بن الزّين أحمد بن عبد الملك المقدسي في ذي القعدة. والسلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألْفِيّ الصالحيّ في ذي القعدة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع وإصبعان. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعاً وسبع عشرة إصبعاً؛ ولم يوفّ في هذه السنة.

---

(١) في الشذرات: «محمد».



ملحق رقم (١)

وصيّة منكوخان (منكو قا آن) إلى أخيه هولاكو لما سلمه قيادة الجيش الذي أرسله لفتح الغرب (غربي الصين).

«إنك الآن على رأس جيش كبير وقوات لا حصر لها، فينبغي أن تسير في توران من إيران: سر من توران إلى إيران مظفراً، واعل باسمك إلى الشمس الساطعة. وحافظ على تقاليد جنكيزخان وقوانينه في الكليات والجزئيات. وخصّ كل من يطيع أوامرك ويجتنب نواهيك ــ في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصي بلاد مصر ــ بلطفك وبأنواع عطفك وإنعامك. أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل من يتعلق به. وابدأ بإقليم قهستان في خراسان، فخرّب القلاع والحصون: اجعل كردكوه وقلعة لنبه سر[١] بحيث يكون رأسها إلى أسفل وجسدها إلى أعلى، ولا تبقِ في الدنيا قلعة قط ولا كومة واحدة من التراب.

فإذا فرغت من هذه المهمة، فتوجه إلى العراق، وأزل من طريقك اللور[٢] والأكراد الذين يقطعون الطرق على سالكيها. وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة فلا تتعرض له مطلقاً. أما إذا تكبّر وعصى، فألحقه بالآخرين من الهالكين. كذلك يجب أن تجعل رائدك في جميع الأمور العقل الحكيم والرأي السديد، وأن تكون في جميع الأحوال يقظاً عاقلاً، وأن تخفّف على الرعية التكاليف والمؤن، وأن ترفه عنهم.

وأما الولايات الخربة فعليك أن تعيد تعميرها في الحال. وثق أنك بقوة الله العظيم سوف تفتح ممالك الأعداء حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتي عديدة. وشاور دوقوز[٣] خاتون في جميع القضايا والشؤون.

(وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي: ٣٤٣ ــ ٣٤٤، نقلاً عن جامع التواريخ للهمذاني).

---

(١) من قلاع الإسماعيلية في بلاد فارس. وكان لهم في تلك المناطق قلاع حصينة تبلغ الخمسين أشهرها وأمنعها ثلاثة: ألموت وميمون دز ولنبه سر.

(٢) اللور أو اللرّ أو اللو: قبيلة كردية. (السلوك: ١/١/٢٣).

(٣) هي زوجة هولاكو، وكانت على دين النصرانية.

ملحق رقم (٢)

الرسائل المتبادلة بين هولاكو والمستعصم قبيل سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ .

١ ـ رسالة هولاكو إلى المستعصم بالله آخر خلفاء العباسيين يعاتبه ويهدده ويطلب منه الخضوع سنة ٦٥٥هـ .

«لقد أرسلنا إليك رسالة وقت فتح قلاع الملاحدة، وطلبنا مدداً من الجند، ولكنك أظهرت الطاعة ولم تبعث الجند؛ وكانت آية الطاعة والاتّحاد أن تمدّنا بالجيش عند مسيرنا إلى الطغاة، فلم ترسل إلينا الجند والتمست العذر. ومهما تكن أسرتك عريقة وبيتك ذا مجد تليد، فإن لمعان القمر قد يبلغ درجة يخفي معها نور الشمس الساطعة.

ولا بدّ أنه قد وصل إلى سمعك على لسان الخاص والعام ما حدث للعالم على أيدي الجيوش المغولية منذ جنكيزخان، وعلمت أية مذلة لحقت بأسر خوارزمشاه والسلاجقة وملوك الديلم والأتابكة وغيرهم ممن كانوا أرباب العظمة وأصحاب الشوكة، ومع ذلك لم يغلق باب بغداد قط في وجه أية طائفة من تلك الطوائف التي تولت هنا السيادة. فكيف يغلق هذا الباب في وجوهنا رغم ما لنا من قدرة وسلطان؟! ولقد نصحناك قبل هذا. والآن نقول لك: تجنّب الحقد والخصام والضغينة ولا تحاول أن تقف في سبيلنا لأنك ستتعب نفسك عبثاً.

ومع هذا فقد مضى ما مضى، فعليك أن تهدم الحصون، وتطمّ الخنادق، وتسلم ابنك المملكة، ثم تتوجه لملاقاتنا. وإذا كنت لا تريد ذلك فأرسل إلينا الوزير[1] وسليمانشاه والدويدار ليوصلوا رسالتنا إليك بغير زيادة ولا نقصان؛ فإذا أطعت أمرنا فلا حقد ولا ضغينة، ونبقي لك ولايتك وجيشك ورعيتك. وأما إذا لم تنتصح، وسلكت طريق الخلاف والجدال، فأعدّ جيشك وعيّن جبهة القتال، فإننا مستعدون لمحاربتك. واعلم أنني إذا غضبت عليك وقدت الجيش إلى بغداد فسوف لا تنجو مني، ولو صعدت إلى السماء أو اختفيت في باطن الأرض.

وأما إذا أردت أن تظل رئيساً لأسرتك العريقة فعليك أن تسمع نصيحتي، وإلا فسنرى كيف تكون إرادة الله».

---

(١) هو الوزير مؤيد الدين بن العلقمي وفي ذلك الوقت كانت الأمور في دولة المستعصم قد آلت إلى ثلاثة أشخاص هم الوزير ابن العلقمي، وسليمانشاه بن برجم الإيوائي ومجاهد الدين أيبك المعروف بالدويدار الصغير. وسليمانشاه هو الذي أشار على المستعصم برفض مهادنة المغول والاستعداد للقائهم. ونظراً لأهميته في دولة المستعصم كان هولاكو في رسائله إلى الخليفة يطلب إليه أن يرسل سليمانشاه فكان الخليفة يعتذر دائماً. وهكذا إلى أن صار النصر محققاً للمغول فأجبر الخليفة إلى إرساله مع الدويدار الصغير إلى هولاكو.

٢ ـ رسالة الخليفة المستعصم الجوابية، حملها لهولاكو شفهياً شرف الدين ابن الجوزي وبدر الدين محمود وزنكي النخجواني.

«أيها الغرّ الذي لم يخبر الأيام بعد، والذي يتمنى قصر العمر، والذي أغرته إقبال الأيام ومساعدة الظروف فتخيّل نفسه مسيطراً على العالم، وحسب أن أمره قضاء مبرم وأمر محكم، لم تبحث عن شيء لا طائل وراءه؟ هل جهلت أنه من المشرق إلى المغرب يدين لي بالطاعة عباد الله جميعهم، غنيهم وفقيرهم، شيخهم وشابهم. وإنني أستطيع أن أصدر إليهم أمراً بالاحتشاد فأستولي على إيران، ثم أتوجه إلى توران، وأضع كل شخص في موضعه فتتألب عليكم أمم الأرض؟

غير أني لا أود أن أسير وراء البغضاء، ولا أن أشتري أذى الناس، ولا أبتغي من وراء تردد الجيوش مدحاً ولا ذماً.

فلو كنت تزرع بذور المحبة كما أفعل أنا لما كان لك دخل بخنادق رعيتي ولا بحصونهم. فاسلك طريق الودّ، وعد إلى خراسان، وإلا فالقتال دونك».

٣ ـ رسالة جوابية من هولاكو إلى الخليفة المستعصم بالله وقد امتلأ غضباً للرسالة السابقة.

«إن الله الأزليّ رفع جنكيزخان ومنحنا وجه الأرض كله من الشرق إلى الغرب، فكل من سار معنا وأطاعنا واستقام قلبه ولسانه، تبقى له أمواله ونساؤه وأبناؤه، ومن يفكر في الخلاف والشقاق لا يستمتع بشيء من ذلك.

لقد فتنك حب الجاه والمال والعجب والغرور بالدولة الفانية، بحيث لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين بالخير؛ وإنّ في أذنيك وقراً فلا تسمع نصح المشفقين. ولقد انحرفت عن طريق آبائك وأجدادك، وإذن فعليك أن تكون مستعداً للحرب والقتال، فإني متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد. ولو جرى سير الفلك على شاكلة أخرى فتلك مشيئة الله العظيم».

٤ ـ رسالة ثانية من الخليفة إلى هولاكو، أرسلها له على يد بدر الدين قاضي بندنيجان.

«لو غاب عن الملك فله أن يسأل المطلعين على الأحوال، إذ إن كل ملك ـ حتى هذا العهد ـ قصد أسرة بني العباس ودار السلام بغداد كانت عاقبته وخيمة. ومهما قصدهم ذوو السطوة من الملوك وأصحاب الشوكة من السلاطين، فإن بناء هذا البيت محكم للغاية، وسيبقى إلى يوم القيامة. وفي الأيام السالفة قصد يعقوب بن الليث الصفّار الخليفة وتوجه بجيش لجب إلى بغداد فلم يبلغ أربه، إذ مات بعلّة الزُّحار؛ والأمر كذلك مع أخيه عمرو، إذ قبض عليه إسماعيل بن أحمد الساماني وكبّله وأرسله إلى بغداد لكي يجري عليه الخليفة ما حكم به القضاء. وكذلك جاء البساسيري بجيش عظيم من مصر إلى بغداد وقبض على الخليفة وسجنه في الحديقة. وفي بغداد جعل الخطبة والسكة مدة

عامين[1] باسم المستنصر الذي كان خليفة الإسماعيلية في مصر. وفي النهاية علم طغرلبك بذلك فأسرع من خراسان وقصد البساسيري في جيش جرار وقبض عليه وقتله، وأخرج الخليفة من السجن وأعاده إلى بغداد وأجلسه على عرش الخلافة. وكذلك قصد السلطان محمود السلجوقي بغداد فعاد منهزماً وهلك في الطريق. وجاء محمد خوارزمشاه بجيش عظيم قاصداً استئصال هذه الأسرة فابتلي في روابي استراباد بالثلج والعواصف بسبب غضب الله عليه وهلك أكثر جنده، وعاد خائباً خاسراً، ثم لاقى ما لاقى من جدك جنكيزخان في جزيرة آبكسون؛ فليس من المصلحة أن يفكر الملك في قصد أسرة العباسيين؛ فاحذر عين السوء من الزمان الغادر».

٥ ــ رسالة هولاكو للخليفة قبل الهجوم النهائي على بغداد.

«إذا كان الخليفة قد أطاع فليخرج، وإلا فليتأهب للقتال. وليحضر إلينا قبل كل شيء الوزير وسليمانشاه والدويدار ليسمعوا ما نقول».

٦ ــ رسالة الخليفة النهائية لهولاكو، وذلك بعد أن أيقن بالبوار بعد هزيمة جيشه وبدء بغداد بالسقوط في يد هولاكو. وقد أرسل الخليفة هذه الرسالة مع الجاثليق والوزير ابن العلقمي ليقولا لهولاكو ما يلي:

«إن الملك قد أمر أن أبعث إليه بالوزير. ها أنذا قد لبّيت طلبه، فينبغي أن يكون الملك عند كلمته».

٧ ــ جواب هولاكو للخليفة عن الرسالة السابقة.

«إن هذا الشرط قد طلبته وأنا على أبواب همذان. أما الآن فنحن على باب بغداد؛ وقد ثار بحر الاضطراب والفتنة، فكيف أقنع بواحد! ينبغي أن ترسل هؤلاء الثلاثة»[2].

(وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للدكتور محمد ماهر حمادة، ص ٣٤٥ ــ ٣٥١. ومؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني للدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد، ص ٣٢ ــ ٣٣. والمرجعان ينقلان عن جامع التواريخ للهمذاني وهو المصدر التاريخي الوحيد لهذه الرسائل).

(١) ورد في نص هذه الرسالة بعض الأخطاء التاريخية، ومن الواجب تصحيحها: فالبساسيري لم يأت بجيش قط من مصر، وإنما اعتماده كان على جيشه الخاص وحليفه الأمير البدوي قريش بن بدران العقيلي صاحب الموصل ونصيبين. كذلك التجأ الخليفة العباسي القائم إلى مدينة الحديثة وهناك استقر في إحدى قلاعها ولم يسجن، وإنما لجأ إلى أمير بدوي هو مهارش بن مجلي فأجاره وحماه. كما أن البساسيري خطب في بغداد للخليفة الفاطمي مدة سنة واحدة فقط.

(٢) يعني بالثلاثة: الوزير وسليمانشاه والدويدار.

ملحق رقم (٣)

رسالة هولاكو إلى السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي آخر ملوك بني أيوب وصاحب حلب وذلك في سنة ٦٥٧هـ

« يعلم الملك الناصر أننا نزلنا بغداد في سنة ٦٥٦هـ وفتحناها بسيف الله تعالى، وأحضرنا مالكها وسألناه مسألتين فلم يجب لسؤالنا، فلذلك استوجب منّا العذاب كما قال في قرآنكم: ﴿ إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾. وصان المال، فآل الدهر به إلى ما آل؛ واستبدل النفوس النفيسة، بنقوش معدنية خسيسة. وكان ذلك ظاهر قوله تعالى: ﴿ وجدوا ما عملوا حاضراً﴾. لأننا قد بلغنا بقوة الله الإرادة، ونحن بمعونة الله تعالى في الزيادة. ولا شك أننا نحن جند الله في أرضه، خلقنا وسلّطنا على من حلّ عليه غضبه. فليكن لكم في ما مضى معتبر، وبما ذكرناه وقلناه مزدجر. فالحصون بين أيدينا لا تمنع، والعساكر للقائنا لا تضرّ ولا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يستجاب ولا يسمع. فاتعظوا بغيركم، وسلموا إلينا أموركم، قبل أن ينكشف الغطا، ويحلّ عليكم الخطا. فنحن لا نرحم من شكا، ولا نرقّ لمن بكى. قد أخربنا البلاد، وأفنينا العباد، وأيتمنا الأولاد، وتركنا في الأرض الفساد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب. فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من سهامنا مناص. فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق. وعقولنا كالجبال، وعدونا كالرمال. فمن طلب منا الأمان سلم، ومن طلب الحرب ندم. فإن أنتم أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا. وإن أنتم خالفتم أمرنا وفي غيّكم تماديتم، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم. فالله عليكم يا ظالمين فهيئوا للبلايا جلبابا، وللرزايا أترابا. فقد أعذر من أنذر، وأنصف من حذَّر. لأنكم أكلتم الحرام وخنتم بالايمان، وأظهرتم البدع واستحسنتم الفسق بالصبيان، فأبشروا بالذل والهوان. فاليوم تجدون ما كنتم تعلمون، ﴿وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون﴾. فقد ثبت عندكم أننا كفرة، وثبت عندنا أنكم فجرة، وسلّطنا عليكم من بيده الأمور مقدَّرة، والأحكام مدبَّرة. فعزيزكم عندنا ذليل، وغنيكم لدينا فقير. ونحن مالكون الأرض شرقاً وغرباً، وأصحاب الأموال نهباً وسلباً، وأخذنا كل سفينة عصباً. فميِّزوا بعقولكم طرق الصواب قبل أن تضرم الكفرة نارها، وترمي بشرارها، فلا تبقي منكم باقية، وتبقى الأرض منكم خالية. فقد ايقظناكم، حين راسلناكم. فسارعوا إلينا بردّ الجواب بتّة، قبل أن يأتيكم العذاب بغتة، وأنتم تعلمون».

(تاريخ مختصر الدول لابن العبري: ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨)(*).

(*) أورد محمد ماهر حمادة في كتابه « وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي» ـ نقلاً عن جامع التواريخ والشذرات ـ ثلاثة نصوص لرسائل من هولاكو إلى الناصر صاحب حلب. وأورد السيوطي في تاريخ الخلفاء نصوصاً مشابهة كل المشابهة لنصوص هذه الرسائل الثلاث. في حين يورد المقريزي في السلوك: =

ملحق رقم (٤)

نصّ خطاب إيلخان أحمد تكدار ملك المغول بفارس إلى السلطان الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨١هـ، وجواب السلطان قلاوون عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم، بقوة الله تعالى، بإقبال قا آن (كذا) قرمان أحمد إلى سلطان مصر. أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى، بسابق عنايته ونور هدايته، قد كان أرشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحداثة إلى الإقرار بربوبيته، والاعتراف بوحدانيته، والشهادة بمحمد عليه أفضل الصلوات والسلام بصدق نبوته، وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده في بريته، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين، وإصلاح أمور المسلمين، إلى أن أفضت[1] بعد أبينا الجيد وأخينا الكبير نوبة الملك إلينا، فأفاض علينا من جلابيب ألطافه ولطائفه ما حقّق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه، وجلا هدى المملكة على يدينا، وأهدى عقيلتها إلينا. فاجتمع عندنا في قوريلتاي المبارك ــ وهو المجمع الذي تنقدح فيه الآراء ــ جميع الإخوان والأولاد، والأمراء الكبار ومُقَدَّمي العساكر وزعماء البلاد؛ واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير في إنقاذ الجمّ الغفير من عساكرنا التي ضاقت الأرض برحبها من كثرتها، وامتلأت الأرض رعباً لعظيم صواتها وشديد بطشتها إلى تلك الجهة بهمّة تخضع لها شمُّ الأطواد وعزمة تلين لها صمُّ الصلاد. ففكّرنا فيما تمخّضت زبدة عزائمهم عنه، واجتمعت أهواؤهم وآراؤهم عليه، فوجدناه مخالفاً لِمَا كان في ضميرنا من اقتناء الخير العام، الذي هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام، وألا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلا ما يوجب حقن الدماء وتسكين الدهماء، وتجري به في الأقطار رُخاء نسائم الأمن والأمان، وتستريح به المسلمون في سائر الأمصار في مهاد الشفقة والإحسان، تعظيماً لأمر الله وشفقة على خلق الله.

فألهمنَا الله تعالى إطفاء تلك النائرة، وتسكين الفتن الثائرة، وإعلام من أشار بذلك الرأي بما أرْشِدنا إليه من تقديم ما يرجى به شفاء مزاج العالم من الأدواء، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء، وإننا لا نحب المسارعة إلى هزِّ النصال للنصال إلا بعد إيضاح المحجة، ولا نأذن لها إلا بعد تبين الحق ووضوح الحجة.

وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعي الصلاح، وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح، أذكار شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن، الذي هو نعم العون لنا في أمور الدين، فأصدرناه رحمة من الله لمن دعاه، ونقمة على من أعرض عنه وعصاه. وأنفذنا أقضى القضاة وقطبَ الملة

= ١/٢/٤١٥ ــ ٤١٦ نص رسالة واحدة أرسلها هولاكو إلى الناصر، كما يفعل ابن العبري في النصّ أعلاه، والرسائل جميعاً وإن اختلفت في نصوصها، إلا أنها كلها تهديد ووعيد وإخبار بما حلّ ببغداد ودعوة للملك الناصر أن يخضع لهولاكو.

(١) الأصل «أقضى».

والدين، والأتابك بهاء الدين، اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة، ليعرّفاهم طريقتنا ويتحقق عندهم ما ينطوي عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا، وبينا لهم أنّا لهم من الله على بصيرة، وأن الإسلام يَجُبّ ما قبله، وأنه تعالى ألقى في قلبنا أن نتبع الحق وأهله، ويشاهدون[1] عظيم نعمة الله على الكافة بما دعانا إليه من تقديم أسباب الإحسان، ولا يُحْرَموها بالنظر إلى سالف الأحوال فكل يوم هو في شأن، فإنْ تطلّعت نفوسهم إلى دليل يستحكم بسببه دواعي الاعتماد، وحجة يثقون بها من بلوغ المراد، فلينظروا إلى ما ظهر من أثرنا مما اشتهر خبره، وعمّ أثره.

فإنّا ابتدأنا بتوفيق الله تعالى بإعلاء أعلام الدين، وإظهاره في إيراد كل أمر وإصداره تقديماً، وإقامة نواميس الشرع المحمّدي على مقتضى قانون العدل الأحمدي إجلالاً وتعظيماً. وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور، وعفونا عن كل من اجترح سيئة أو اقترف، وقابلناه بالصفح وقلنا عفا الله عما سلف؛ وتقدّمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين، من المشاهد والمساجد والمدارس، وعمارة بقاع البر والرُّبُط الدوارس، وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القديمة إلى مستحقّها لشروط واقفها، ومنعنا أن يلتمس شيء مما استحدث عليها، وألا يُغيِّر أحد مما قُرِّر أولاً فيها. وأمرنا بتعظيم أمر الحاج وتجهيز وفدها، وتأمين سبلها وتسيير قوافلها. وإنا أطلقنا سبيل التُّجار المترددين إلى تلك البلاد، ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم، وحرّمنا على العساكر والقراغول[2] والشحاني[3] في الأطراف التعرّض بهم مصادرهم ومواردهم. وقد كان صادف قراغولنا جاسوساً في زيّ الفقراء كان سبيل مثله أن يهلك، فلم يهرق دمه لحرمة ما حرّمه الله تعالى، وأعدناه إليهم. ولا يخفى عليهم ما كان في إنفاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين، فإنّ عساكرنا طالما رأوهم في زي الفقراء والنساك وأهل الصلاح، فساءت ظنونهم في تلك الطوائف، فقتلوا منهم من قتلوا وفعلوا بهم ما فعلوا. وارتفعت الحاجة بحمد الله إلى ذلك، بما صدر إذننا به من فتح الطريق وتردّد التجار وغيرهم. فإذا أمعنوا الفكر في هذه الأمور وأمثالها لا يخفى عليهم أنها أخلاق جبليّة طبيعية، وعن شوائب التكلف والتصنّع عرية. وإذا كانت الحال على ذلك فقد ارتفعت دواعي المضرّة التي كانت موجبة المخالفة، فإنها كانت بطريق الدين والذبّ عن حوزة المسلمين. فقد ظفر بفضل الله تعالى في دولتنا النور

---

(١) كذا في الأصل، وفي جميع المراجع المذكورة في تذييل الملحق.

(٢) القراغول عند المغول جماعة من العسكر، كان يناط بهم حراسة الطرق. (ceux qui étaient préposés à la garde des routes). انظر (dozy: Supp. Dict. Ar.)، حيث يوجد مثال لاستعمال هذا اللفظ بعد تحريفه قليلاً، ونصه: «وعند أرباب السياسة جماعة من الضابطية في أماكن معينة للمحافظة، وربما قالوا قراقون وكراكون انظر أيضاً ص ٧٥ من السلوك، سطر ٣، وحاشية ٣ بنفس الصفحة حيث ورد هذا اللفظ في مصطلح الدولة الأيوبية بالمعنى نفسه، برسم مخالف قليلاً.

(٣) الشحاني ــ والشحن أيضاً ــ جمع شحنة، وهو رئيس الشرطة والموكل بالأمن في بلد من البلاد. un gonverneur, celui qui est chargé de mainteuir la police dans une ville, un chef, un préposé. انظر (dozy: Supp. Dict. Ar.).

المبين، وإن كان لما سبق من الأسباب، فمن تحرّى الآن طريق الصواب، فإنّ له عندنا لزُلْفى وحسن مآب.

وقد رفعنا الحجاب؛ وأتينا بفصل الخطاب وعرّفناهم ما عزمنا عليه بنية خالصة لله تعالى على استئنافها، وحرمنا على جميع عساكرنا العمل بخلافها، لنرضي بها الله والرسول، وتلوح على صفحاتها آثار الإقبال والقبول، وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة، وتتجلى بنور الائتلاف ظلمة الاختلاف والغمة؛ فيسكن في سابغ ظلها البوادي والحواضر، وتقرّ القلوب التي بلغت من الجهد الحناجر، ويعفى عن سالف الهنات والجرائر.

فإن وفق الله سلطان مصر لاختيار ما فيه صلاح العالم، وانتظام أمور بني آدم، فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى، وسلوك الطريقة المثلى، بفتح أبواب الطاعة والاتحاد، وبذل الإخلاص بحيث تنعمر تلك المدائن والبلاد، وتسكن الفتنة الثائرة، وتغمد السيوف الباترة، وتحلّ الكافة أرض الهوينى وروض الهدون، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال البذل والهون، وإن غلب سوء الظن بما تفضّل به واهب الرحمة، ومنع عن معرفة قدر هذه النعمة، فقد شكر الله مساعينا، وأبلى عذرنا وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولاً. والله الموفق للرشاد والسداد، وهو المهيمن على البلاد والعباد، وحسبنا الله وحده». كُتب في (مدينة) واسط، (في شهر) [١] جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وستمائة، بمقام الأوطاق.

* * *

ذكر نسخة جواب السلطان الصادر إليه:

« بسم الله الرحمن الرحيم، بقوة الله تعالى، بإقبال دولة السلطان الملك المنصور، كلام قلاون إلى السلطان أحمد. أما بعد حمد الله الذي أوضح بنا ولنا الحق منهاجاً، وجاء بنا فجاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجاً، والصلاة على سيدنا ونبينا محمد الذي فضّله الله على كل نبي نجّى به أمته وعلى كل نبي ناجَى، صلاة تنير ما دجا وتجير من داجَى، فقد وصل الكتاب الكريم، المتلقّى بالتكريم، المشتمل على النبأ العظيم، من دخوله في الدين، وخروجه عمن خلف من العشيرة والأقربين.

ولما فُتِح هذا الكتاب فاتَحَ بهذا الخبر المعْلَم، والحديث الذي صُحِّح عند أهل الإسلام إسلامه، وأصحّ الحديث ما روي عن مسلم، وتوجّهت الوجوه بالدّعاء إلى الله سبحانه في أن يثبته على ذلك بالقول الثابت، وأن ينبت حَبَّ حُبِّ هذا الدين في قلبه كما أنبته أحسن النبت من أخشنَ المنابت. وحصل التأمل للفصل المبتدأ بذكره من حديث إخلاصه النية، في أول العمر وعنفوان الصبا والإقرار بالوحدانية، ودخوله في الملة المحمدية، بالقول والعمل والنية. فالحمد لله على أن شرح

(١) أضيف ما بين الأقواس بعد مراجعة النويري (ص ٢٨٠أ).

صدرَهُ للإسلام، وألهمه شريف هذا الإلهام، كحمدنا لله على أن جعلنا من السابقين الأولين إلى هذا المقال والمقام، وثبّت أقدامنا في كل موقف اجتهاد وجهاد تتزلزل دونه الأقدام. وأما إفضاء النوبة في الملك وميراثه بعد والده وأخيه الكبير إليه، وإفاضة جلابيب هذه المواهب العظيمة عليه، وتوقله الأسرة التي طهّرها إيمانه، وأظهرها سلطانه، فلقد أورثها الله من اصطفاه من عباده، وصدق المبشرات له من كرامة أولياء الله وعباده.

وأما حكاية اجتماع الإخوان والأولاد، والأمراء الكبار ومقدّمي العساكر وزعماء البلاد، في مجمع قوريلتاي الذي تنقدح فيه زُنُد الآراء، وأن كلمتهم اتفقت على ما سبقت به كلمة أخيه الكبير في إنفاذ العساكر إلى هذا الجانب، وأنه فكرّ فيما اجتمعت عليه آراؤهم، وانتهت إليه أهـواؤهم، فوجده مخالفاً لما في ضميره، إذ قصْدهُ الصلاح، ورأيه الإصلاح، وأنه أطفأ تلك الثائرة، وسكّن تلك النائرة، فهذا فِعل الملك المتقي، المشفق من قومه على [من بقي، المفكّر في العواقب[1]، بالرأي الثاقب؛ وإلا فلو تركوا وآراؤهم حتى تحملهم العزّة، لكانت هذه الكرّة] هي الكرّة. لكن هو كمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، ولم يوافق قول من ضل ولا فعل من غوى.

وأما القول منه بأنه لا يحبّ المسارعة إلى المقارعة، إلا بعد إيضاح المحجة، وتركيب الحجة، فبانتظامه في سلك الإيمان صارت حجتنا وحجته المتركبة، على من غدت طواغيته عن سلوك هذه المحجة متنكبة. فإن الله تعالى والناس كافة قد علموا أن قيامنا إنما هو لنصر هذه الملة، وجهادنا واجتهادنا إنما هو على الحقيقة لله. وحيث قد دخل معنا في الدين هذا الدخول، فقد ذهبت الأحقاد وزالت الذحول، وبارتفاع المنافرة، تحصل المظافرة، فالإيمان كالبنيان يشدّ بعضه ببعض، ومن أقام مناره فله أهل بأهل في كل مكان وجيران بجيران في كل أرض.

وأما ترتيب هذه القواعد الجمة على أذكار شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن، أعاد الله من بركاته، فلم تُرَ لِوَلي قبله كرامة كهذه الكرامة، والرجاء ببركاته وبركة الصالحين أن تصبح كلُّ دار للإسلام دارَ إقامة، حتى تتم شرائط الإيمان ويعود شمل الإسلام مجتمعاً كأحسن ما كان، ولا ينكر لمن لكرامته ابتداء هذا التمكن في الوجود، أنّ كلّ حق ببركته إلى نصابه يعود.

[وأما إنفاذ أقضى القضاة قطب الملّة والدين][2]، والأتابك بهاء الدين الموثوق بنقلها في إبلاغ رسائل هذه البلاغة، فقد حضروا وأعادوا كل قول حسن من حوالي أحواله وخطرات خاطره، ومنتظرات ناظره، ومن كلّ ما يشكر ويحمد، ويعنعن حديثها فيه عن مسند أحمد.

---

(١) و (٢) موضع ما بين القوسين ألفاظ تعذرت قراءتها بالأصل، وقد أضيفت من :Quatremère) .Op. Cit. I1. 1. p. 193)

وأما الإشارة إلى أنّ النفوس إن كان لها تطلّـع إلى إقامة دليل، تستحكم به دواعي الود الجميل، فلينظر إلى ما ظهر من مآثره في موارد الأمر ومصادره، ومن العدل والإحسان بالقلب واللسان، والتقدمّ بإصلاح الأوقاف والمساجد والربط وتسبيل السبل للحج إلى غير ذلك، فهذه صفات من يريد لملكه الدوام، فلما ملَكَ عَدلَ، ولم يمل إلى لؤم من عدى ولا لوم من عَذلَ. على أنها وإن كانت من الأفعال الحسنة، والمثوبات التي تستنطق بالدعاء الألسنة، فهي واجبات تؤدى وقربات بمثلها يُبدّى، وهو أكثر من أنه بإجراء أجر غيره يفتخر، أو عليه يقتصر أو له يدّخر. بل إنما يفخر الملوك الأكابر برد ممالك على ملوكها، ونظم ما كانت عليه في سلوكها، وقد كان والده فَعل شيئاً مـع الملوك السلجوقيّة وغيرهم، وما كان أحد منهم بدينه يدين، ولا دخل معه في دين، وأقرّهم في ملكهم وما زحزحهم عن مَلِكهم. ويجب عليه ألا يرى حقاً مغتصباً ويأتي إلا ردّه، ولا باعاً ممتداً بالظلم ويرضى إلا صدّه، حتى إن أسباب ملكه تقوى، وأيامه تتزيّن بأفعال التقوى.

وأما تحريمه على العساكر والقراغولات والشحاني بالأطراف التعرّض إلى أحد بالأذى، وإصفاء موارد الواردين والصادرين من شوائب الفدى، فمن حين بلغنا تقدّمه بمثل ذلك تقدّمنا أيضاً بمثله إلى سائر نُوّابنا بالرحبَة والبيرة وعين تاب، وإلى مقدّمي العساكر بأطراف تلك الممالك، وإذا اتحد الإيمان، وانعقدت الأيمان، تحتم هذا الإحكام، وترتّب عليه جميـع الأحكام.

وأما الجاسوس الفقير الذي أمسك وأطلق، وأنّ بسبب من يتزيّا من الجواسيس بزيِّ الفقراء قُتل جماعة من الفقراء الصلحاء رَجماً بالظنّ، فهذا باب من تلقاء ذلك الجانب كان فتحه، وزند من ذلك الطرف كان قدحه، وكم من متـزي بفقير من ذلك الجانب سَيّروه، وإلى الاطلاع على الأمور سوروه، وأظفر الله منهم بجماعة كبيرة فرُفـع عنهم السيف، ولم يكشَف ما غطّوه بخرقَة الفقر بِلمَ ولا كيفَ.

وأما الإشارة إلى أن باتفاق الكلمة تنجلي ظُلم الاختلاف، وتَدرّ بها من الخيرات الأخلاف، ويكون بها صلاح العالم، وانتظام شمل بني آدم، فلا رادَّ لمن فتـح أبواب الاتحاد، وجنـح إلى السلم فما حادَّ ولا حاد؛ ومن ثنى عنانه عن المكافحة، كان كمن مدّ يد المصالحة للمصافحة، والصلـح وإن كان سيد الأحكام، فلا بدَّ من أمور تبنـى عليها قواعده، ويُعلم من مدلولها فوائده. فالأمور المسطورة في كتابه هي كليات لازمة يعمر بها كل مغنىً وَمعلم، إن تهيأ صلـح أو لم، وثم أمور لا بد وأن تحكم، وفي سلكها عقود العهود تنظم، [قد تحملها[١]] بلسان المشافهة التي إذا أورِدَت أقبلت إن شاء الله عليها وأحرزتها صدور الرسائل كأحسن ما تحرزه سطور الطّروس.

وأما الإشارة إلى الاستشهاد بقوله تعالى: ﴿ومـا كنا معذّبين حتى نبعث رسولاً﴾ فما على هذا النسق من الود يُنسـج، ولا على السبيل يُنهـج، بل الفضل للمتقدم في الدين، ونصره عهود ترعى،

(١) موضـع ما بين القوسين بياض بالأصل، وقد أضيف من (Quatremère: Op. Cit. II. 1. p. 194).

وإفادات تستدعى، وما برح الفضل للأولوية وإن تناهى العدد للواحد الأول، ولو تأمّل مورد هذه الآية في غير مكانها لتروّى وتأوّل.

وعندما انتهينا إلى جواب ما لعلّه بحث عنه الجواب من فصول المكاتبة، سَمِعنا المشافهة التي على لسان أقضى القضاة قطب الدين، فكان منها ما يُناسب ما في هذا الكتاب من دخوله في الدين، وانتظام عقده بسلك المؤمنين، وما بَسَطه من مَعدلة وإحسَان، مشكورة بلسان كل إنسان، فالمنّة لله عليه في ذلك فلا يشينها منه بامتنان، وقد أنزل الله على رسوله في حقّ من امتنّ بإسلامه: ﴿قل لا تمنّوا عليّ إسلامكم بل الله يَمُن عليكم أنْ هداكم للإيمان﴾.

ومن المشافهة أن الله قد أعطاه من العطاء، ما أغناه عن امتداد الطَّرْف إلى ما في يد غيره من أرض وماء، فإن حصلت الرغبة في الاتفاق على ذلك فالأمر حاصلٌ. فالجوابُ أنّ ثَمّ أموراً متى حصلت عليها الموافقة ابتني على ذلك حكمُ المصاحبة والمصادقة، وَرَأى الله والناس كيف يكون تصافينا، وإذلال عدونا وإعزاز مُصَافينا، فكم من صاحب وُجِد حيث لا يوجد الأبُ والأخ والقرابة، وما تَمّ أمر هذا الدين واستحكم في صدر الإسلام إلا بمضافرة الصحابة. فإن كانت له رغبة إلى الاتحاد، وحسن الوداد، وجميل الاعتضاد، والاستناد إلى من يشتدُّ الأزرُ به عند الاستناد، فالرأي إليه في ذلك.

ومن المشافهة أنه إن كانت الرغبة ممتدَّةَ الأمل إلى ما في يده من أرض وماء، فلا حاجة إلى إنفاذ المغيرين الذين يؤذون المسلمين بغير فائدة تعود، فالجواب عن ذلك، أنه إذا كفَّ كفّ العدوان وتَركَ المسلمين وما لهم من ممالك، سكنت الدهماء، وحقنت الدماء، وما أحَقَّه بأن لا ينْه عن خلق ويأتي مثله، ولا يأمر ببر وينسى فعله، و[بلاد] قنغرطاي بالروم وهي بلاد في أيديكم، وخراجها يجبى إليكم وقد سفكَ فيها وفتك، وسَبىَ وهتك، وباع الأحرار، وأبى إلا التمادي على الإصرار والإضرار.

ومن المشافهة أنه إن حصل التصميم على أن لا تبطل هذه الغارات، ولا يُفتَرّ عن هذه الإثارات، فنُعَيِّن مكاناً يكون فيه اللقاء، ويعطي الله النصر لمن يشاء، فالجواب عن ذلك أن الأماكن التي اتفق فيها ملتقى الجمعين مرّةً ومرّةً، قد عاف مَوَارِدَها من سلم من أولئك القوم، وخاف أن يُعَاوِدَها فيعاوِده مصرع ذلك اليوم، فوقْتُ اللقاء عِلْمُه عند الله فلا يقدّر، وما النصر إلا من عند الله لمن أقدَرَ لا لمن قَدَّر، ولا نحن ممن ينتظر فلتة، ولا له إلى غير ذلك لفتة، وما أمْرُ ساعة النصر إلا كساعة لا يتأتى إلاَّ بغتة، والله الموفق لما فيه صلاح هذه الأمة، والقادر على إتمام كل خير ونعمة.

(السلوك: ١/٣/٩٧٧ ــ ٩٨٤ نقلاً عن بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ــ ومقابلاً على النهج السديد لابن أبي الفضائل، ونهاية الأرب للنويري، و Quatremère) ــ قارن أيضاً بتشريف الأيام والعصور: ٦ ــ ١٦.

ملحق رقم (٥)

نسخة عهد كتب بها القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر للسلطان الملك المنصور قلاوون عن الخليفة الإمام أبي العباس أحمد الحاكم بأمر الله

«الحمد لله الذي جعل آية السيف ناسخة لكثير من الآيات، وفاسخة لعقود أولي الشك والشبهات، الذي رفع بعض الخلق على بعض درجات، وأهّل لأمور البلاد والعباد من جاءت خوارق تملُّكه بالذي إن لم يكن من المعجزات، فمن الكرامات.

ثم الحمد لله الذي جعل الخلافة العباسية بعد القطوب حسنة الابتسام، وبعد الشحوب جميلة الاتسام، وبعد التشريد كل دار إسلام لها أعظم من دار السلام.

والحمد لله، على أن أشهدها مصارع أعدائها، وأحمد لها عواقب إعادة نصرها وإبدائها، ورد تشتيتها بعد أن ظن كل أحد أن شعارها الأسود، ما بقي منه إلا ما صانته العيون في جفونها، والقلوب في سويدائها.

ونشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، شهادة يتلذذ بذكرها اللسان، وتتعطر بنفحاتها الأفواه والأردان، وتتلقاها ملائكة القبول، فترفعها إلى أعلى مكان. ونصلي على سيدنا محمد الذي أكرمنا الله به، وشرف لنا الأنساب، وأعزنا به حتى نزل فينا محكم الكتاب، صلى الله عليه وعلى آله الذين انجاب الدين منهم عن أنجاب، ورضي الله عن صحابته الذين هم خير صحاب، صلاة ورضواناً يوفى قائلها أجره يوم الحساب من الكثرة بغير حساب يوم الحساب.

وبعد حمد الله على أن أحمد عواقب الأمور، وأظهر للإسلام سلطاناً اشتدت به للأمة الظهور، وشفيت الصدور، وأقام الخلافة العباسية في هذا الزمن بالمنصور، كما أقامها فيما مضى بالمنصور، واختار لإعلان دعوتها من يحيـي معالمها بعد العفاء، ورسومها بعد الدثور، وجمع لها الآن ما كان جمـع عليها فيما قبل من خلاف كل ناجم، ومنحها ما كانت تبشرها به صحف الملاحم، وأنفذ كلمتها في ممالك الدولة العلوية بخير سيف مشحوذ ماضي العزائم، ومازج بين طاعتها في القلوب، وذكرها في الألسنة ــ وكيف لا والمنصور هو الحاكم؟ ــ وأخرج لحياطة الأمة المحمدية ملكاً تقسم البركات عن يمينه، وتقسم السعادة بنور جبينه، وتقهر الأعداء بفتكاته، وتمهر عقائل المعاقل بأصغر راياته، ذو السعد الذي ما زال نوره يشف حتى ظهر، ومعجزه يرف إلى أن بهر، وجوهره ينتقل من جيد إلى جيد حتى علا الجبين، وسره يكمن في قلب بعد قلب حتى علم ــ والحمد لله ــ نبأ تمكينه في الأرض بعد حين، فاختاره الله على علم، واصطفاه من بين عباده بما جبله الله عليه من كرم وشجاعة، وحلم، وأتى به الأمة المحمدية في وقت الاحتياج عوناً، وفي إبان الاستمطار غيثاً، وفي حين عيث الأشبال في غير الافتراس ليثاً، فوجب على من له في أعناق الأمة المحمدية مبايعة رضوان، وعند

أيمانهم مصافحة أيمان، ومن وجبت له البيعة باستحقاقه لميراث منصب النبوة، ومن تصحّ به كل ولاية شرعية يؤخذ كتابها منه بقوة، ومن هو خليفة الزمان والعصر، ومن بدعواته تنزل بالنصر عليكم معاشر الإسلام ملائكة النصر، ومن نسبه بنسب نبيكم ـ صلى الله عليه وسلم ـ متّشج وحسبه بحسبه ممتزج، أن يفوض ما فوضه الله إليه من أمر الخلق، إلى من يقوم عنه بفرض الجهاد والعمل بالحق، وأن يوليه ولاية شرعية تصح بها الأحكام، وتنضبط أمور الإسلام، وتأتي هذه العصبة الإسلامية يوم يأتي كل أمة بإمامهم من طاعة خليفتهم هذا بخير إمام، وخرج أمر مولانا أمير المؤمنين ـ شرفه الله ـ أن يكون للمقر العالي، المولوي، السلطاني، الملكي، المنصوري أجلّه الله ونصره، وأظفره وأقدره وأبده وأيده، كل ما فوضه الله لمولانا أمير المؤمنين من حكم في الوجود، وفي التهائم والنجود، وفي المدائن والخزائن، وفي الظواهر والبواطن، وفيما فتحه الله وفيما سيفتحه، وفيما كان فسد بالكفر والرجاء من الله أنه سيصلحه، وفي كل جود ومن، وفي كل عطاء ومنّ[1]، وفي كل هبة وتمليك، وفي كل تفرد بالنظر في أمور المسلمين بغير شريك، وفي كل تعاهد ونبذ، وفي كل عطاء وأخذ، وفي كل عزل وتولية، وفي كل تسليم وتخلية، وفي كل إرفاق وإنفاق، وفي كل إنعام إطلاق، وفي كل تجديد وتعويض، وفي كل حمد وتقريض، ولاية عامة تامة محكمّة، منضدة منظمة، لا يتعقبها نسخ من خلفها ولا من بين يديها، ولا يعتريها فسخ يطرأ عليها، يزيدها مر الأيام جدة يعاقبها حسن شباب، ولا ينتهي على الأعوام والأحقاب، نعم ينتهي إلى ما نصبه الله للإرشاد من سنة وكتاب، وذلك من شرع لله أقامه للهداية علماً، وجعله إلى احتياز الثواب سلماً.

فالواجب أن يعمل بجزئيات أمره وكلياته، وأن لا يخرج أحد عن مقدماته. والعدل فهو الغرس المثمر، والسحاب الممطر، والروض المزهر، وبه تتنزل البركات، وتخلف الهبات، وتربى الصدقات، وبه عمارة الأرض، وبه تؤدى السنة والفرض، فمن زرع العدل اجتنى الخير، ومن أحسن كفي الضرر والضير. والظلم فعاقبته وخيمة، وما يطول عمر الملك إلا بالمعدلة الرحيمة. والرعية فهم الوديعة عند أولي الأمر، فلا يخصص بحسن النظر منهم زيد ولا عمرو. والأموال، فهي ذخائر العاقبة والمآل، والواجب أن تؤخذ بحقها، وتنفق في مستحقها. والجهاد براً وبحراً، فمن كنانة الله تفوق سهامه، وتؤرخ أيامه، وينتضي حسامه، وتجري منشآته في البحر كالأعلام، وتنشر أعلامه، وفي عقر دار الحرب يحط ركابه، ويخط كتابه، وترسل أرسانه، وتجوس خلالها فرسانه، فليلزمْ منه ديدناً، ويستصحب منه فعلاً حسناً. وجيوش الإسلام وكماته، وأمراؤه وحماته، فهم من قد علمت قدم هجرهِ وعظم نصرهِ، وشدة باس، وقوة مراس، وما منهم إلا من شهد الفتوحات والحروب، وأحسن في المحاماة عن الدين الدؤوب، وهم بقايا الدول، وتحايا الملوك الأول، لا سيما أولي السعي الناجح، ومن لهم نسبة صالحية إذا فخروا بها قيل لهم: نعم السلف الصالح، فأوسعهم براً، وكن بهم براً، وهم بما يجب من خدمتك أعلم، وأنت بما يجب من حرمتهم أدرى. والثغور والحصون فهم ذخائر الشدة، وخزائن العديد والعدة، ومقاعد للقتال، وكنائن الرجاء والرجال، فأحسن لها

(١) المنّ هنا بمعنى القطع.

التحصين، وفوض أمرها إلى كل قوي أمين، وإلى كل ذي دين متين، وعقل رصين ونواب الممالك ونواب الأمصار، فأحسن لهم الاختيار، وأجمل لهم الاختبار، وتفقد لهم الأخبار.

وأما ما سوى ذلك، فهو داخل في حدود هذه الوصايا النافعة، ولولا أن الله أمرنا بالتذكير، لكانت سجايا المقر الأشرف السلطاني، الملكي، المنصوري، مكتفية بأنوار ألمعيته الساطعة، وزمام كل صلاح يجب أن يشغل به جميع أوقاته، هو تقوى الله، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾.

فليكن ذلك نصب العين، وشغل القلب والشفتين. وأعداء الدين من أرمن وفرنج وتتار، فأذقهم وبال أمرهم في كل إيراد للغزو وإصدار، وثِرْ لأن تأخذ للخلفاء العباسيين ولجميع المسلمين منهم الثار، واعلم أن الله نصيرك على ظلمهم، وما للظالمين من أنصار.

وأما غيرهم من مجاوريهم من المسلمين فأحسن باستنقاذك منهم العلاج، وطبّهم باستصلاحك، فبالطب الملكي والمنصوري ينصلح المزاج.

والله الموفق بمنه وكرمه.

(صبح الأعشى: ١٠/١٢٠ ــ ١٢٤، طبعة دار الكتب العلمية).

ملحق رقم (٦)

نسخة منشور كتب به عن الملك المنصور قلاوون لابنه الناصر محمد في سلطنة أبيه المذكور من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر

«الحمد لله الذي زين سماء الملك بأنور كوكب بزغ، وأعز ملك نبغ، وأشرف سلطان بلغ إلى ما بلغ ذوو الاكتهال من اختيار شرف الخلال وما بلغ.

نحمده حمداً تزيد به النعماء وتنمي، وتهمل به الآلاء وتهمي، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة خالصة من كل ريب، واقصة كل عيب، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بعثه الله تعالى بمكارم الأخلاق، ومعاداة ذوي النفاق، وساوى بين الصغير والكبير من أولي الاستحقاق، في الإرفاد والإرفاق. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما رق نسيم وراق، وما خصفت أوراق.

وبعد، فإن الهواتف أبين ما تشدو، إذا حفت الرياض بها من كل جانب، والسماء أحسن ما تبدو إذا تزينت بالكواكب السيارة والشهب الثواقب، والسعادة أحمد ما تحدو، إذا خصصّت بمن

إليه، وإلا ما تشد الركائب، وعليه، وإلا ما تثني الحقائق والحقائب، ومن هو للملك فلذة كبده، ونور مقلته وساعد يده، ومن تتيمن السلطنة بملاحظة جبينه الوضي، وتستنير بالأنور المضي، ومن تغضب الدنيا لغضبه، وتزهى إذا رضي، ومن نشأ في روض الملك من خير أصل زكي، وفاحت أزاهره بأعطر أرج وأطيب نشر ذكي، وطلع في سماء السلطنة نجماً ما للنيرين ما له من الإضاءة، ويزيد عليهما بحسن الوضاءة، ومن تشوف النصر له من مهده، وتشوق الظفر إلى أنه يكون من جنده، واستبشرت السلطنة بأن صار لها منه فرع باسق، وغير متناسق، وزند وارٍ وجناح وارف، وفخار تليد وعز طارف، وطرفان معلمان تنشر فيهما المطارف.

ولهذه المحاسن التي تشرئب إلى قصدها آمال الخلائق المنتجعة ـ اقتضى حسن البر الوصول، وشرف الإقبال والقبول، أن خرج الأمر العالي ـ لا برحت مراسمه متزينة زينة السماء بكواكبها، ومزاحمة سمك السماك بمناكبها ـ أن يجري في ديوان الجناب العالي المولوي، الملكي الناصري . . .

(صبح الأعشى : ١٣/ ١٧٢ ـ ١٧٣، طبعة دار الكتب العلمية).

ملحق رقم (٧)

كتب القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر عن المنصور قلاوون، عهد ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل وهذه نسخته

«الحمد لله الذي لم يزل له السمع والطاعة فيما أمر، والرضا والشكر فيما هدم من الأعمار وما عمر، والتفويض في التعويض إن غابت الشمس بقي القمر.

نحمده، على أن جعل سلطاننا ثابت الأركان، كل روضة من رياضه ذات أفنان، لا تزعزعه ريح عقيم، ولا يخرجه رزء عظيم، عن الرضا والتسليم، ولا يعتبط من حملته كريم إلا ويغتبط من أسرته بكريم.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تزيد قائلها تفويضاً، وتجزل له تعويضاً، وتحسن له على الصبر الجميل في كل خطب جليل تحريضاً.

ونشهد أن محمداً عبده ورسوله، الذي أنزل عليه في التسليم: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾. والنبي الذي أوضح به المناهج وبيّن به السبل، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، ما تجاوبت المحابر والمنابر في البكر والأصل، وما نثرت عقود ونظمت، ونسخت آيات وأحكمت، ونقضت أمور وأبرمت، وما عزمت آراء فتوكلت، وتوكلت فعزمتْ، ورضي الله عن أصحابه الذين منهم من كان للخليقة نعم الخليفة، ومنهم من لم يدرك أحد في تسويد النفس

الحصيفة، ولا في تبييض الصحيفة مُدَّه ولا نصيفه، ومنهم من يسَّره الله لتجهيز جيش العسرة، فعرف الله ورسوله معروفه، ومنهم من عمل صالحاً أرضى ربه، وأصلح في ذريته الشريفة.

وبعد، فإن من ألطاف الله تعالى بعباده، واكتناف عواطفه ببلاده، أن جعلنا كلما وهى للملك ركن شديد شيدنا ركناً عوضه، وكلما اعترضت للمقادير جملة بدّلنا آية مكان آية، وتناسينا ــ تجلُّداً ــ تلك الجملة المعترضة، فلم يحوج اليوم لأمسه، وإن كان حميداً، ولا الغارس لغرسه، وإن كان ثمره يانعاً وظله مديداً، فأطلعْنا في أفق السلطنة كوكباً سعيداً، كان لحسن الاستخلاف معداً، ومن لقبيل المسلمين خير ثواباً وخير مَرَداً، ومن يبشر الله به من الأولياء المتقين، وينذر من الأعداء قوماً لُدًا، ولم يبق إلا به أنْسُنا بعد ذهاب الذين تحسبهم (كالسيف فردا)، والذي ما أمضى حده ضريبة إلا (قَدَّ البيض والأبدان قدا)، ولا جهز راية كتيبة إلا أغنى غناء الذاهبين، وعدّ الأعداء عدًّا، ولا بعثه جزع فقال: (كم من أخ لي صالح) إلا لقيه ورع فقال: (وخلقت يوم خلقت جَلْدا)، وهو الذي بقواعد السلطنة أدرى، وبقوانينها الأعرف، وعلى الرعايا الأعطف، وبالرعايا الأرأف، وهو الذي ما قيل لبناء ملك هذا عليُّه قد وهى، إلا وقيل هذا بناء مثله منه أسمى ملك أشرف، والذي ما برح النصر يتنسم من مهاب تأميله الفلاح، ويتبسم ثغره فتتوسم الثغور من مبسمه النجاح، ويقسم نوره على البسيطة فلا مصر من الأمصار إلا وهو يشرئب إلى ملاحظة جبين عهده الوضاح، ويتفتق اشتقاق النعوت فيقول التسلّي للتملّي: سواء الصالح والصلاح، والذي ما برح لشعار السلطنة إلى توقله وتنقله أتم حنين، وكأنما كوشفت الإمامة العباسية بشرف مسماه فيما تقدم من زمن سلف، ومن حين، فسمّت ووَسَمت باسمه أكابر الملوك وأخاير السلاطين، فخوطب كل منهم مجازاً لا كهذه الحقيقة «بخليل» أمير المؤمنين، والذي كم جلا يبهي جبينه من بهيم، وكم غدا الملك بحسن روائه ويمن آرائه يهيم، وكم أبرأ مورده العذب هيم عطاش، ولا ينكر الخليل إذا قيل عنه إبراهيم، ومن تشخص الأبصار لكماله يوم ركوبه حسيره، وتلقى البنان سلاحها ذهلا، وهي لا تدري لكثرة الايماء إلى جلاله إذا يبدو مسيره، والذي ألهم الله الأمة لجوده ووجوده صبراً جميلا، وآتاهم من نفاسة كرمه وحراسة سيفه وقلمه تأميناً وتأميلا، وعظم في القلوب والعيون بما من بره سيكون، فسمته الأبوة الشريفة ولداً، وسماه الله «خليلا».

ولما تحتم من تفويض أمر الملك إليه، ما كان لوقته المعلوم قد تأخر، وتحين حينه فكمل زيادة كزيادة الهلال حتى بادر تمامه فأبدر، اقتضى حسن المناسبة لنصائح الجمهور، والمراقبة لمصالح الأمور، والمصاقبة لمناجح البلاد والثغور، والمقاربة من فواتح كل أمر ميسور، أن نفوض إليه ولاية العهد الشريف بالسلطنة الشريفة المعظمة، المكرمة المفخمة المنظمة، وأن يبسط يده المنيفة لمصافحتها بالعهود، وتحكمها في العساكر والجنود، وفي البحور والثغور، وفي التهائم والنجود، وأن يغدق ببسطها وقلمها كل قطع ووصل، وكل فرع وأصل، وكل نصر ونصل، وكل ما يحمي سرحاً ويهمي منحا، وفي المثيرات في الأعداء على الأعداء نقعاً، وفي المغيرات صبحاً، وفي المنع والإطلاق، وفي الإرفاد والإرفاق، وفي الخميس إذا ساق، وفي السيوف إذا بلغت التراقي وقيل من راق، وفي الرِّماح

إذا التفت الساق بالساق، وفي المعاهدات والهدن، وفي الفداء بما عرض من عرض وبالبُدن بالبَدَن، وفيها ظهر من أمور الملك وما بطن، وفي جميع ما تستدعيه بواعثه، في السرّ والعلن، وتسترعيه نوافثه، من كبْت وكُتب متفرّقين أو في قَرَن، عهداً مباركاً عُوَذُه وتمائمه، وفواتحه وخواتمه، ومناسمه ومياسمه، وشروطه ولوازمه، وعلى عاتق الملك الأعز نجاده وفي يد جبّار السموات قائمه، لا راد لحكمه، ولا ناقض لبرمه، ولا داحض لما أثبتته الأقلام من مكنون علمه.

ويــزيــده مَــرُّ الليــالي جِــدَّة وتقــادم الأيــام حسن شبــاب

وتلزم السنـون والأحقاب، استيـداعه للذراريّ والأعقـاب، فلا سلطان ذو قـدر وقدرة، ولا ذو أمر وإمْرة، ولا نائب في مملكة قربت أو بعدت، ولا مقدّم جيوش اتهمت أو أنجدت، ولا راع ولا رعيـة، ولا ذو حكم في الأمور الشرعية، ولا قلم إنشاء، ولا قلم حساب، ولا ذوو أنساب، ولا ذوو أسباب، إلا وكلٌّ داخل في قبول هذا العقد الميمون، ومتمسك بحكم كتابه المكنون، والتسليم لنصّه الذي شهد به من الملائكة الكرامُ الكاتبون، وأمست بيعته بالرضوان محفوفة، والأعداء يدعونها تضرعاً وخيفة، وليشكروا الصنيـع الذي بعد أن كانت الخلفاء تسلطن الملوك، قد صار سلطانهم يُقيم من ولاة العهد خليفة بعد خليفة.

وأما الوصايا، فأنت يا ولدنا الملك الأشرف ــ أعزك الله ــ بها الدّرِب، ولسماع شدوها وحَدوها الطرب، الذي للّغو لا يضطرب، فعليك بتقوى الله عز وجل فإنها ملاك سدادك، وهلاك أضدادك، وبها يراش جناح نجاحك، ويحسن اقتداء اقتداحك، فاجعلها دَفين جوانـح تأميلك ووعيك، ونصب عيني أمرك ونهيك؛ والشرع الشريف، فهو قانون الحق المتّبـع، ومأمون الأمر المستمـع، وعليه مدار إيعاء كل إيعاز، وبه يتمسك من أشار وامتاز، وهو جَنَّة والباطل نار: ﴿فمن زُحْزِحَ عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ فلا تخرج في كل حال عن لوازمه وشروطه، ولا تنكب عن معلقه ومنوطه.

والعدل فهو مثمر غروس الأموال، ومعمّر بيوت الرجاء والرجال، وبه تزكوا الأعمار والأعمال، فاجعله جامع أطراف مراسمك، وأفضل أيام مواسمك، وسِمْ به فِعْلك وسَمٍّ به فرضك وغَفْلك، ولا تفرد به فلاناً دون فلان، ولا مكاناً دون مكان، واقرنه بالفضل ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾.

وأحسن التخويل، وأجمل التّنويل، وكثّر لمن حولك التموين والتّمْويل، وضاعف الخير في كل مضاف لمقامك، ومُسْتضِيفٍ بإنعامك، حتى لا تعدم في كل مكان، وكل زمان ضيافة الخليل. والثغور فهي للمالك مَيَاسِمُها، فاجعل نواجذها تفتر عن حِسن ثنايا الصَّون، ومراشفها شَنِبَة للشفاء بحسن العون، وَمُنّها، بما يحمي السَّرْح منها، وأعِنها، بما يدفـع المكاره عنها، فإنها للنصر مقاعد، وبها حفظ البلاد من كل مار من الأعداء مارد. وأمراء الجيوش فهم السور الواقي بين يدي كل سور وما منهم إلا كل بطل بالنصر مشهور، كما سيفه مشهور. وهم ذخائر الملوك، وجواهر السلوك، وأخايِر الأكابر

الذين خَلَصُوا من الشكوك، وما منهم إلا من له خدمات سلفت، وحقوق عرفت، وموات على استلزام الرِّعاية للعهود وقفت، فكن لجنودهم متحبِّباً، ولمرابعهم مُخْصباً، ولمصالحهم مرتباً، ولآرائهم مستصوباً، ولاعتضادهم مستصحباً، وفي حمدهم مطنباً، وفي شكرهم مُسْهِباً. والأولياء المنصورين الذين هم كالأولاد، ولهم سوابق أَمَتُّ من سوابق الإيجاد، وهم من علمت استكانة من قربنا، ومكانة من قلبنا، وهم المساهمون فيها ناب، وما برحوا للدولة الظفر والناب، فأسهم لكل منهم من احترامك نصيباً، وأدم لهم ارتياحك، وألن جماحك. وقوهم بسلاحك، نجد منهم ضروباً، وترى كلا منهم في أعدائك ضروباً.

وكما أنا نوصيك بجيوش الإسلام، كذا نوصيك بالجيش الذي له الجَوَارِ المنشآت في البحر كالأعلام، فهو جيش الأمواه والأمواج، المضاف إلى الأفـواج من جيش الفجاج، وهـو الجيش السليماني في إسراع السير، وما سميت شوانيه غرباناً إلا ليجتمِع بها لنا ما اجتمـع لسليمان، صلى الله عليه وسلم، من تسخير الريـح والطير، وهي من الديار المصرية على ثَبَجِ البحر الأسوار، فإن قُذِفَت قذفت الرعب في قلوب الأعداء، وإن أقلعت قلعت منهم الآثار، فلا تُخْلِه من تجهيز جيشه، وسكن طيش البحر بطيشه، فيصبح لك جيشان كل منهما ذو كرٍّ وفر: هذا في برٍّ بحرٌ، وهذا ببحر بر. وبيوت العبادات فهي التي إلى مصلى سميِّك «خليل» الله تنتهي محاريبها، وبها لنا ولك وللمسلمين سرى الدعوات وتأويبها، فوفِّها نصيبها المفروض غير منقوص، ومُرْ برفعها، وذكْرِ اسم الله تعالى فيها للأمر المنصوص. وأخواتها من بيوت الأموال الواجِدات الواجبات، من حيث إنها كلها بيوت الله عز وجل: هذه للصلاة، وهذه للصِّلات، وهذه كهذه في رفـع المنار، وجمـع المبار، وإذا كانت تلك مما أَذِنَ الله أن ترفـع ويذكر فيها اسمه، فهذه ترفـع ويذكر فيها اسمه، حتى على الدرهم والدينار، فاصرف إليها اجتهادك فيما يعود بالتثمير، كما يعود على تلك بالتَّنوير، وعلى هذه بإشحانها بأنواع الصُّروف، كإشحان تلك باستواء الصفوف، فإنها إذا أصبحت مصونة، أجملت بحمد الله المعونة، وكفلت بالمؤنـة، والزيادة على المـؤنة، فتكمل هذه لكل ولي دنياه، كما كمَّلت تلك لكل وَليّ دينه. وحدود الله فلا يتعدَاها أحد، ولا يرأف فيها ولد بوالد ولا والد بولد، فـأقمها وقم في أمرها حتى تنضبط أتمّ الضبط، ولا تجعل يد الفتك مغلولة إلى عنقها، ولا تبسطها كل البسط، فلكل من الجنايات والقصاص شرط شرطه الله وحدٌّ حَدَّه، فلا يتجاوز أحد ذلك الحد، ولا يخرج عن ذلك الشرط. والجهاد، فهو الدَّيْدن المألوف من حيث نشأ نشأ ونشأتك (؟).

وفي ظهور الخيل، فمل على الأعداء كل الميل، وصبِّحهم من فتكاتك بالويل بعد الويل، وارمهم بكل شمريّ قد شمَّر من يده عن الساعد، ومن رمحه عن الساق، ومن جواده الذّيل، واذهب لهم من كل ذلك مذهب، وأبِر بنجوم الخِرْصان كل غَيّ وغيهب، وتكثر في غزوهم من الليل بكل أدهم، ومن الشفق بكل أحمر وأشقر، ومن الأصيل بكل أصفر، ومن الصبح بكل أشهب، واستنهب أعمارهم، واجعلها آخر ما يسلب، وأول ما ينهب.

ونرجو أن يكون الله قد خبأ لك من الفتوحات ما يستنجزها لك صادق وعده، وأن ينصر بك جيوش الإسلام، في كل إنجاد وإتهام وما النصر إلا من عنده.

وبيت الله المحجوج من كل فج، المقصود من كل نهج، فسيِّر سبيله، ووسع له الخير، وأحسن تسبيله، وأوصل من برِّك لكل من الحرمين ما هو له، لتصبح ربوعه بذلك مأهولة، واحمه ممن يريد فيه بإلحاد بظلم، وطهِّره من مكس وغرم، ليعود نفعك على البادي والعاكف، ويصبح واديه وناديه مستغنيين بذلك عن السحاب الواكف.

والرعايا، فهم للعدل زروع، وللاستثمار فروع، ولاستلزام العمارة شروع، فمتى جادهم غيث أعجب الزراع نباتهم، ونمت بالصلاح أقواتهم، وصلحت بالنماء أوقاتهم، وكثرت للجنود مستغلاتهم، وتوفرت زكواتهم وتنورّت مشكاتهم، والله يضاعف لمن يشاء.

هذا عهدنا للسيد الأجل، الملك الأشرف، صلاح الدنيا والدين، فخر الملوك والسلاطين، خليل أمير المؤمنين، أعز الله تعالى ببقائه الدين، فليكن بعروته متمسكاً، وبنفحته متمسكاً، وليتقلد سيف هذا التقليد، ويفتح مغلق كل فتح منه بخير إقليد.

وها نحن قد كثرنا لديه جواهره فدونه ما يشاء تحليته من تتويج مَفْرِق، وتختيم أنامل وتسوير زند، وتطويق جيد، ففي كل ذلك تبجيل وتمجيد، والله تعالى يجعل استخلافه هذا للمتقين إماماً، وللدين قِوَاماً، وللمجاهدين اعتصاماً، وللمعتدين انفصاماً، ويطفىء بمياه سيوفه نار كل خطب، حتى يصبح كما أصبحت نار سميِّه صلى الله عليه وسلم، برداً وسلاما، إن شاء الله تعالى.

(صبح الأعشى: ١٠/ ١٧٠ ــ ١٧٧، طبعة دار الكتب العلمية).

ملحق رقم (٨)

وصف الأبنية والعمائر التي شيّدها السلطان الملك المنصور قلاوون

ذكر عمارة التربة المنصورية والمدرسة والبيمارستان ومكتب السبيل:

قال: ولما رأى السلطان الملك المنصور التربة الصالحة أمر بإنشاء تربة ومدرسة وبيمارستان ومكتب سبيل، فاشتريت الدار القطبية وما يجاورها ـ وهي بين القصرين ـ من خالص مال السلطان، وعوّض سكان الدار القطبية[١] بالقصر المعروف بقصر الزمرّد. وكان انتقال سكان الدار القطبية منها إلى قصر الزّمرد ثاني عشر ربيع الأول من السنة[٢]؛ ورتّب الأمير علم الدين الشجاعي مشدّاً على العمارة، فأظهر من الاهتمام بالعمارة والاحتفال ما لم يُسْمع بمثله، فعمرت في أيسر مدة، ونجزت العمارة في شهور سنة ثلاث وثمانين وستمائة. وإذا شاهد الرائي هذه العمارة العظيمة، وسمع أنها عمرت هذه المدة القريبة، ربما أنكر[٣] ذلك.

ولما كملت العمارة وقف السلطان من أملاكه القياسر والرباع[٤]، والحوانيت والحمامات، والفنادق والأحكار، وغير ذلك؛ والضياع بالشام، ما يحصل من أجل ذلك وريعه وغلاّته في كل شهر جملة كثيرة. وجعل أكثر ذلك على البيمارستان ثم القبة، ورتّب وقف المدرسة إلا أنه يقصر عن كفايتها، ورتّب لمكتب السبيلُ من الوقف بالشام ما يكفيه.

ولما تكامل ذلك ركب السلطان وشاهده، وجلس بالبيمارستان ومعه الأمراء والقضاة والعلماء. فأخبرني بعض من شَهِد السلطان وشهد عليه، أنه استدعى قدحاً من الشراب فشربه، وقال: «قد وقفت هذا على مثلي فمن دوني». وأوقفه السلطان على الملك والمملوك، والكبير والصغير، والحرّ والعبد، والذكر والأنثى؛ وجعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوةً، ومن مات جهّز وكفّن ودُفِن.

ورتّب فيه الحكماء الطبائعية[٥]، والكحّالين[٦]، والجرائحية[٧]، والمجبّرين[٨]، لمعالجة الرمدى

---

(١) في الأصل «القبطية».

(٢) المقصود سنة ٦٨٢هـ.

(٣) في الأصل «انكرت».

(٤) في الأصل «الدباغ».

(٥) في الأصل «الطبايعة»، والرسم المثبت بالمتن من (Dozy: Supp. Dict. Ar.)، ومفرده طبائعي (physicien)، وهو المعروف الآن باسم طبيب الأمراض الباطنية.

(٦) هذا اللفظ جمع كحال، وهو طبيب العين (oculiste). انظر (Dozy: Supp. Dict. Ar.).

(٧) هذا اللفظ مفرد جرائحي ـ وجارحي أيضاً ـ، وهو طبيب الجراحة (chirurgien). انظر (Dozy: Supp. Dict. Ar.).

(٨) هذا اللفظ مفرد مجبر، وهو طبيب جبر العظام (orthopédiste).

والمرضى والمجرّحين والمكسورين من الرجال والنساء. ورتّب به الفراشين والفراشات والقَوَمة، لخدمة المرضى وإصلاح أماكنهم وتنظيفها[١]، وغَسْل ثيابهم وخدمتهم في الحمام؛ وقرّر لهم على ذلك الجامكيات الوافرة.

وعُمِلت التّخوت والفُرُش والطّراريح، والأنطاع والمخدّات واللحف والملاوات، لكلّ مريضٍ فرش كامل. وأفرد لكلّ طائفة من المرضى أمكنةً تختصّ بهم: فَجُعلت الأواوين الأربعة المتقابلة للمرضى بالحميات[٢] وغيرِها، وجُعلت قاعة للرمدى، وقاعة للجُرحاء، وقاعة لمن أفرط به الإسهال، وقاعة للنساء، ومكان حسن للممرورين[٣] من الرّجال، ومثله للنساء. والمياه تجري في أكثر هذه الأماكن.

وأفردت أماكن لطبخ الطعام والأشربة والأدوية والمعاجين، وتركيب الأكحال والشيّافات[٤] والسُّفوفات، وعمل المراهم والأدهان، وتركيب الدرياقات[٥]؛ وأماكن لحواصل العقاقير وغيرها من هذه الأصناف المذكورة، ومكان يُفرّق منه الشراب وغير ذلك من جميع ما يُحْتاج إليه. ورُتِّب فيه مكان يجلس فيه رئيس الأطباء، لإلقاء درسِ طب ينتفع به الطلبة. ولم يحصر السُّلطان ــ أثابه الله ــ هذا المكان المبارك بعده في المرضى، يقف عندها المباشر ويمنع من عداها؛ بل جعله سبيلاً لكل من يصل إليه في سائر الأوقات؛ غنيٌّ وفقير. ولم يقتصر أيضاً فيه على من يقيم به للمرضى، بل يرتّب لمن يطلب وهو في منزله ما يحتاج إليه من الأشربة والأغذية والأدوية، حتى إن هؤلاء زادوا في وقت من الأوقات على مائتين، غير من هو مقيم بالبيمارستان.

ولقد باشرتُه في شوّال سنة ثلاث وسبعمائة؛ وإلى آخر رمضان سنة سبع وسبعمائة، فكان يُصرف منه في بعض الأيام من الشّراب المطبوخ خاصة ما يزيد على خمسة قناطير بالمصري في اليوم الواحد، للمرتّبين والطوارىء، غير السكر والمطابيخ من الأدوية؛ وغير ذلك من الأغذية والأدهان والدرياقات وغيرها.

---

(١) في الأصل «تنضيفها».

(٢) في الأصل «الحمايات».

(٣) المقصود بالممرورين ــ ومفرده ممرور ــ من غلبت عليه المرة وهي المادة الصفراء تفرزها المرارة. (محيط المحيط).

(٤) الشيافات ــ والأشياف أيضاً ــ جمع شياف، وهو دواء مسحوق يستعمل للعيون (Collyre sec, topique dur, devant être appliqué sur les yeux). والشياف أيضاً الدواء الذي يجعل قمعاً ــ أو تلبيسة، أو فرزجة (suppositoire ــ، لمعالجة أمراض المستقيم (Anus). انظر Dozy: Supp. Dict. Ar.؛ محيط المحيط).

(٥) في الأصل «الدرناقات»، والرسم المثبت هنا مما يلي؛ وفي محيط المحيط أن الدرياق هو الترياق ــ ويقال الدراق أيضاً، وهو دواء مركب يؤخذ لدفع السموم. (محيط المحيط؛ Dozy: Supp. Dict. Ar.).

ورُتِّب في البيمارستان من المباشرين والأمناء من يقوم بوظائفه؛ وابتياع ما يُحتاج إليه من الأصناف، وضَبْطِ ما يدخل إلى المكان وما يخرج منه خاصة، من غير أن يكون لهم تعلق في استخراج الأموال، وإنما يبتاعون الأصناف ويحيلون بثمنها على ديوان صندوق المستخرج، ويكتبون في كل شهر عملَ استحقاق لسائر أرباب الجامكيات والجرايات من سائر أرباب الوظائف والمباشرين، يكتبه العامل ويكتب عليه الشّهود، ويأمر الناظر بصرفه، ويخلَّد ديوان الصندوق، ويُصرف على حكمه. وهذه الطائفةُ من المبشرين بالبيمارستان هم مباشرو الإدارة.

وأمَّا مباشرو الصندوق والرباع؛ فإليهم يَرجِع تحرير جهات الأوقاف في الخَلق والسكون والمعطل؛ واستخراج الأموال ومحاسبات المستأجرين؛ وصرف الأموال بمقتضى حوالة مباشري الإدارة، ومباشرة العمارة، وعملِ الاستحقاق؛ لا يتصرّفون في غير ذلك؛ كما لا يتصرف مباشرو الإدارة في صرف الأموال إلا حوالةً بأوراقهم.

وأما العمارة فلها مباشرون يتفرّدون بها: من ابتياع الأصناف واستعمال الصناع ومَرَمّة الأوقاف، وغير ذلك مما يدخل في وظيفتهم، وهم يحيلون بثمن الأصناف على الصندوق، كما يُفعل في الإدارة، وينُقل عليهم من الصندوق من المال ما يصرفونه لأرباب الأجر خاصة، ويكتبون في كل شهر عملَ استحقاق بثمن الأصناف وأرباب الأجر، ويخصمونه بما أحالوا به على الصندوق، وما وصل إليهم من المال، ويسوقونه إلى قابضٍ أو متأخر، وترفع كل طائفة من هؤلاء المباشرين حساباتهم، مياومةً ومشاهرة ومساناة، إلى الناظر والمستوفي. هذا ما بالبيمارستان.

وأما القبة المباركة المنصوريّة وهي التربة، فإنه رُتب فيها خمسون مقرئاً يقرؤون كتاب الله تعالى ليلاً ونهاراً بالنُّوَب، وجعُل لكل منهم في كل شهر عشرون درهماً. ورتّب بها إمام على مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى، وله في كل شهر ثمانون درهماً من أصل الوقف، وفي كل سنةٍ في ليلة ختم صلاة قيام رمضان خلعة من خزانة السلطان كاملةً مسخية مقتدرة. ورُتب بها رئيسٌ ومؤذنون يعلنون الأذان بالمئذنة الكبرى؛ ويقيمون الصلاة؛ ويُبَلِّغون خلف الإمام، وهم سبعة نفر: الرئيس وله في كل شهر أربعون درهماً؛ والمؤذنون ستة لكل منهم في كل شهر ثلاثون درهماً. ورُتِّبَ بها درسُ تفسير لكتاب الله تعالى، فيه درسٌ يُلقيه [مدرس]؛ رُتّب له في كل شهر أربعون درهماً. وطلبة عدتهم ثلاثون؛ لهم في كل شهر ثلاثمائة درهم، ودرسُ حديث يذكر فيه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، له مدرس ومعيد وطلبة؛ لهم في كل شهر نظيرُ ما لمدرس التفسير ومُعيده وطلبته؛ وزيادةً على ذلك قارىء يقرأ الحديث بين يدي المدرس في أوقات الدّروس؛ ويقرأ ميعاداً للعوام بين يديه أيضاً في صبيحة كلِّ يوم أربعاء، رُتِّبَ له في كل شهر ثلاثون درهماً. ورتّب لخازن متبها في كل شهر أربعون درهماً؛ وخزانةٌ كتبُها من الختمات الشريفة والربعات المنسوبة الخط، وكتب التفسير والحديث والفقه، واللغة والطب والأدبيات ودواوين الشّعراء، شيء كثير. ورتب بها الخدام اللازمة، يقيمون بالقبّة لحفظ حواصلها ومنع من يعبر إليها في غير أوقات الصلوات، وهم ستة، لكل منهم في كل شهر خمسون درهماً، وغير هؤلاء من القومة والفراشين والبوابين.

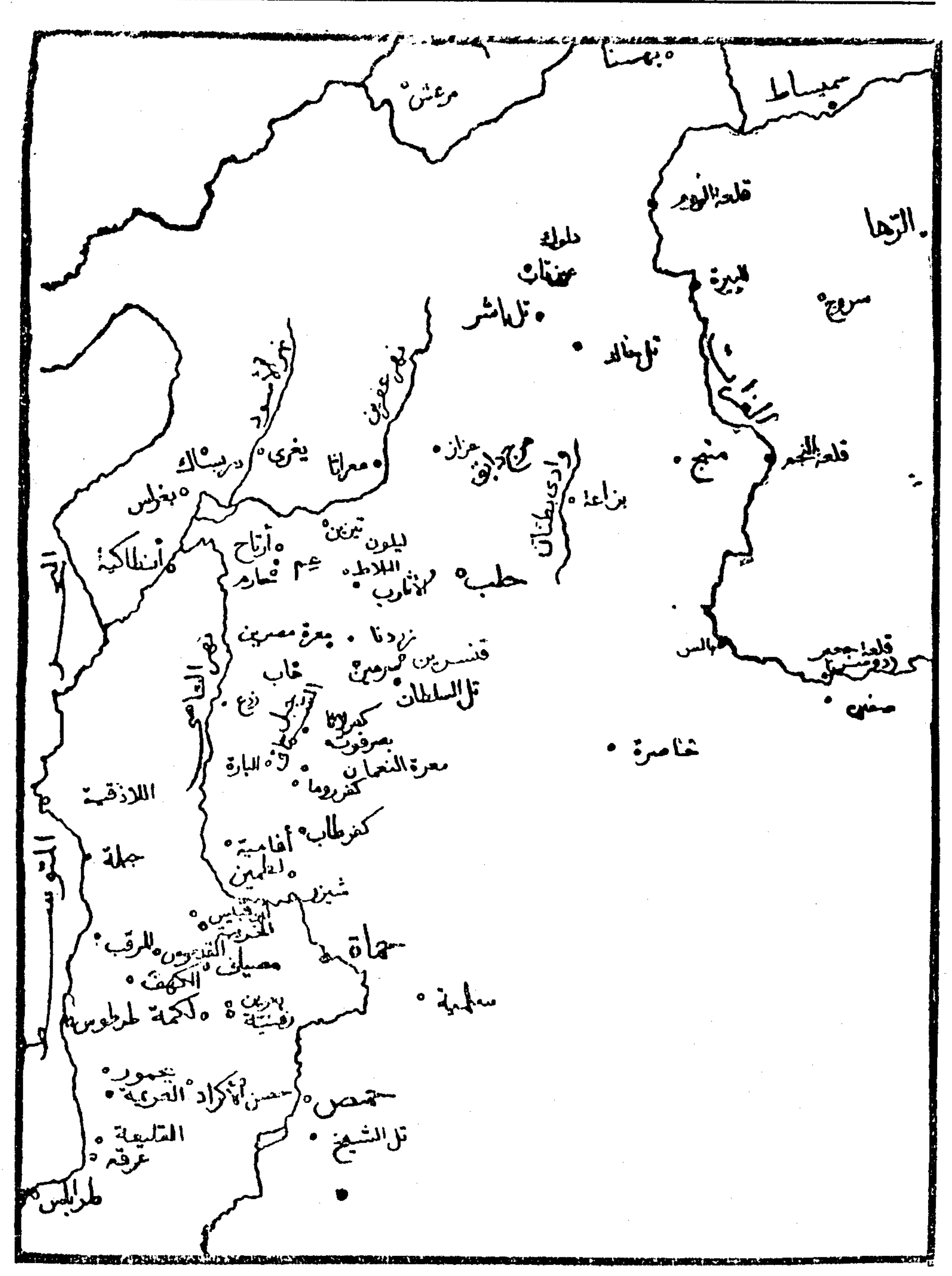
وأما المدرسة المباركة المنصورية، فإنه رتّب بها إمامٌ شافعيُّ المذهب، له في كل شهر ثمانون درهماً، ورئيسٌ ومؤذنون يعلنون بالأذان بالمأذنة الكبرى المذكورة، هم ومؤذنو القبة بالتربة، وهم رئيس وأربعة مؤذنون، لهم في كل شهر نظير ما لمؤذّني القبة. ورتّب بها مُتَّصَدِّرٌ لإقراء كتاب الله عز وجل، رتب له في كلّ شهر أربعون درهماً. ورتّب بها دروس للمذاهب الأربعة: الشافعيَّة والمالكيَّة والحنفية والحنابلة؛ لكل طائفة مدرس له في كل شهر مائتا درهم؛ وثلاثةُ معيدين لكل منهم خمسة وسبعون درهماً، وخمسون طالباً، لجميعهم في كل شهر سبعمائة وخمسون درهماً، وغير هؤلاء من القومة والفراشين وبواب [واحد].

وأما مكتب السبِّيل، فإنه رتّب فيه فقيهان يعلّمان [من كان] صغيراً من أيتام المسلمين كتابَ الله تعالى، ورتّب لهما جامكية في كل شهر وجراية في كل يوم، وهي لكل منهما في كل شهر ثلاثون درهماً، وفي كل يوم من الخبز ثلاثة أرطال، وكسوة في الشتاء، وكسوة في الصيّف، ورتّب للأيتام لكل منهم في كل يوم رطلان خبزاً، وكسوة في الشتاء، وكسوة في الصيف.

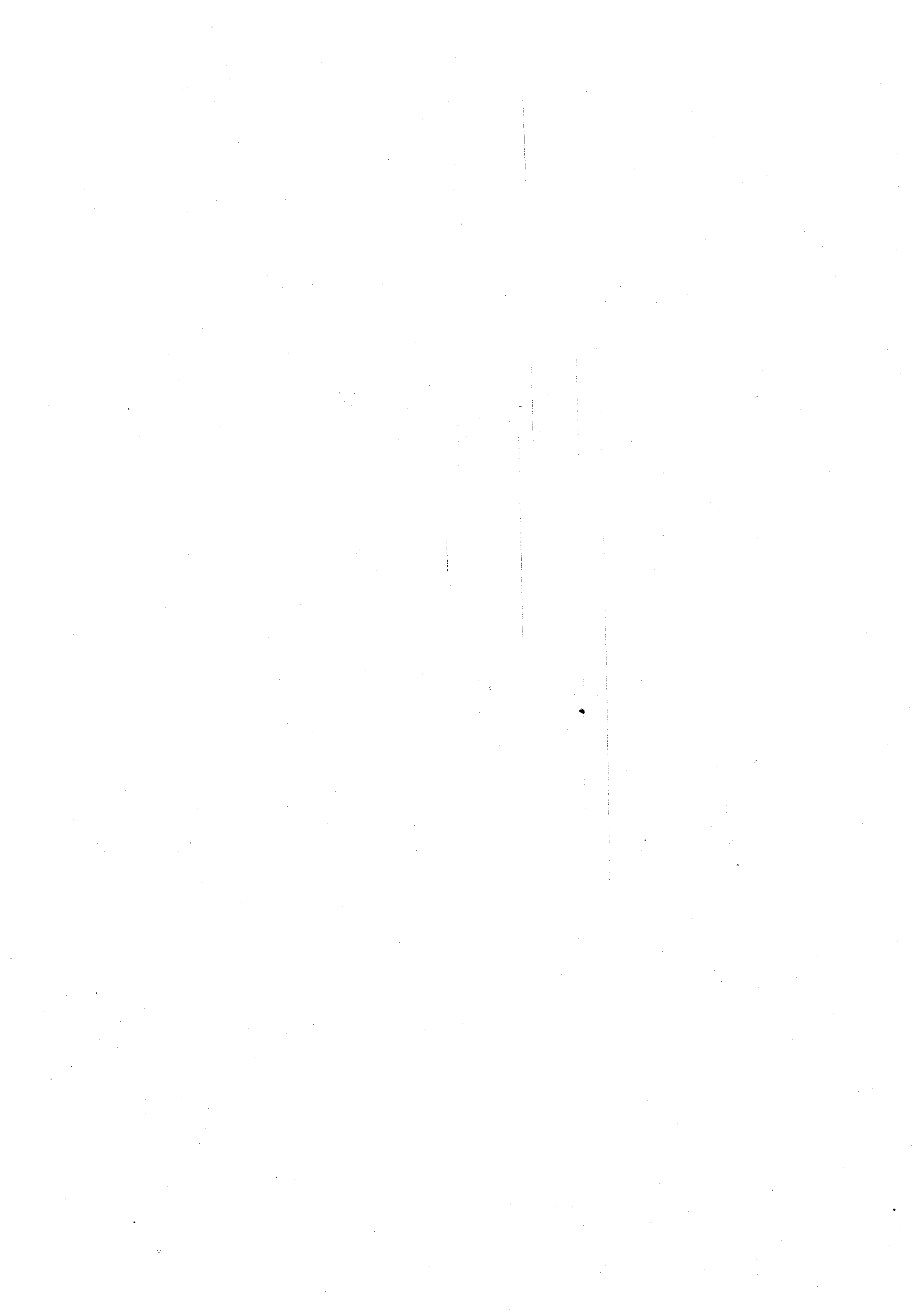
وتنوَّع السلطان أجزل الله ثوابه في وجُوه البِّر والقربات، وهذه الجهات المباركة المبرورة باقية مستمرّة، يزيد وقفها وينمو لحسن نيّة واقفها، قدّس الله روحه، ونوَّر ضريحه.



القسم الجنوبي من بلاد الشام



القسم الشمالي من بلاد الشام



ثبت المصادر والمراجع

الجزء السابع

١ ــ أخبار مصر، لابن المأمون ــ تحقيق أيمن فؤاد السيّد ــ المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة ١٩٨٣.

٢ ــ أخبار مصر، لابن مُيَسَّر ــ تحقيق أيمن فؤاد السيد ــ المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة ١٩٨١.

٣ ــ الأعلاق الخطيرة، لابن شدّاد ــ تحقيق يحيى عبَّارة ــ وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٨.

٤ ــ الأعلام، لخير الدين الزركلي ــ دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٦.

٥ ــ الألقاب الإسلامية، لحسن الباشا ــ مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧.

٦ ــ الانتصار لواسطة عقد الأمصار، لابن دقماق ــ دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٧ ــ بدائع الزهور في وقائع الدهور، لابن إياس ــ الجزء الأول ــ تحقيق محمد مصطفى ــ الهيئة المصرية، القاهرة ١٩٨٢.

٨ ــ بلدان الخلافة الشرقية، لسترانج ــ ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ــ المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٥٤.

٩ ــ تاريخ الإسلام، للذهبي (١ ـ ٦) ــ مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٦٧ ـ ١٣٦٩ هـ.

١٠ ــ تاريخ ابن الفرات (تاريخ الدول والملوك)، لناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (٧ ـ ٩) ــ تحقيق قسطنطين زريق وآخرين، منشورات الجامعة الأميركية، بيروت ١٩٤٢.

١١ ــ تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر)، لأبي الفداء عماد الدين إسماعيل ــ القاهرة ١٣٢٥ هـ.

١٢ ــ تاريخ الخلفاء، للسيوطي ــ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة الفجالة، القاهرة ١٩٦٩.

١٣ ــ تاريخ الزمان، لابن العبري ــ نقله إلى العربية الأب إسحاق أرملة ــ دار المشرق، بيروت ١٩٨٦.

١٤ ــ تاريخ مختصر الدول، لابن العبري ــ تحقيق الأب أنطوان صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، بيروت ١٩٨٣.

١٥ــ تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، لأحمد السعيد سليمان ــ دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩.
١٦ــ تشريف الأيام والعصور، لابن عبد الظاهر ــ تحقيق مراد كامل ومحمد علي النجار، منشورات وزارة الثقافة بالجمهورية العربية المتحدة.
١٧ــ التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، لمحمد قنديل البقلي ــ الهيئة المصرية ١٩٨٤.
١٨ــ التعريف بالمصطلح الشريف، لابن فضل الله العمري ــ تحقيق محمد حسين شمس الدين ــ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨.
١٩ــ تقويم البلدان، لأبي الفداء إسماعيل ــ باريس ١٨٤٠.
٢٠ــ تهذيب تاريخ ابن عساكر، للشيخ عبد القادر بدران ــ دمشق ١٣٥١ هـ.
٢١ــ الجوهر الثمين، لابن دقماق ــ تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي ــ عالم الكتب، بيروت ١٩٨٥.
٢٢ــ حسن التوسّل إلى صناعة الترسّل، لشهاب الدين محمود الحلبي ــ تحقيق أكرم عثمان يوسف ــ بغداد ١٩٨٠
٢٣ــ حسن المحاضرة، للسيوطي ــ مطبعة إدارة الوطن، القاهرة ١٢٩٩ هـ.
٢٤ــ حكايات الشطّار والعيّارين، للدكتور محمد رجب النجار ــ سلسلة عالم المعرفة، العدد ٤٥، الكويت ١٩٨١.
٢٥ــ الحلّة السيراء، لابن الأبّار ــ تحقيق الدكتور حسين مؤنس ــ الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٣.
٢٦ــ الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق ــ سهيلة ياسين الجبوري ــ بغداد ١٩٦٢.
٢٧ــ الخطط التوفيقية الجديدة ــ علي باشا مبارك ــ الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٨٠-١٩٨٦.
٢٨ــ خطط الشام ــ محمد كرد علي - مكتبة النوري، دمشق ١٩٨٣.
٢٩ــ الخطط المقريزية ــ دار صادر، بيروت.
٣٠ــ الدارس في تاريخ المدارس، للنعيمي ــ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠.
٣١ــ دائرة المعارف الإسلامية (النسخة العربية) ــ كتاب الشعب، القاهرة.
٣٢ــ الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب، لابن الشحنة ــ دار الكتاب العربي ــ دمشق ١٩٨٤.
٣٣ــ رحلة ابن بطوطة ــ دار صادر، بيروت.
٣٤ــ رسوم دار الخلافة، لهلال بن المحسن الصابىء ــ تحقيق ميخائيل عواد ــ دار الرائد العربي، ١٩٨٤.
٣٥ــ الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ــ لابن عبد الظاهر ــ تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦.

٣٦ـ الروضتين في أخبار الدولتين، لأبي شامة ـ دار الجيل، بيروت(نسخة مصورة عن طبعة القاهرة ١٢٨٨ هـ.).

٣٧ـ زبدة كشف الممالك، لابن شاهين الظاهري ـ باريس ١٨٩٤.

٣٨ـ السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي ـ تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

٣٩ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٤٠ـ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، لأحمد بن إبراهيم الحنبلي ـ تحقيق ناظم رشيد ـ وزارة الثقافة والفنون ـ بغداد ١٩٧٨.

٤١ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا، للقلقشندي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨٧.

٤٢ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

٤٣ـ عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، لبدر الدين محمود العيني ـ (عصر سلاطين المماليك) تحقيق الدكتور محمد محمد أمين ـ الهيئة المصرية العامة ١٩٨٧.

٤٤ـ العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ـ الدكتور فايد حماد عاشور ـ دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦

٤٥ـ فوات الوفيات، لابن شاكر الكتبي ـ تحقيق الدكتور إحسان عباس ـ دار صادر، بيروت ١٩٧٣.

٤٦ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ـ حاجي خليفة ـ دار صادر، بيروت.

٤٧ـ الكليات، للكفوي ـ تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري ـ وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٢.

٤٨ـ لسان العرب، لابن منظور ـ دار صادر، بيروت.

٤٩ـ مآثر الإنافة في معالم الخلافة، للقلقشندي ـ تحقيق عبد الستّار أحمد فراج ـ عالم الكتب، بيروت.

٥٠ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، لابن فضل الله العمري ـ تحقيق دوروتيا كرافولسكي.

٥١ـ المسالك والممالك، لابن خرداذبة ـ دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٨.

٥٢ـ معالم الكتابة ومغانم الإصابة، لابن شيث القرشي ـ تحقيق محمد حسين شمس الدين ـ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨.

٥٣ـ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، للمستشرق زامباور ـ أخرجه زكي محمد حسن بك وحسن أحمد محمود ـ مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة ١٩٥١.

٥٤ـ معجم البلدان، لياقوت الحموي ـ دار صادر بيروت ١٩٨٤.

٥٥ـ معجم متن اللغة، للشيخ أحمد رضا ـ دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٨.

٥٦ـ المعجم الوسيط ـ مجمع اللغة العربية، القاهرة.

٥٧ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، لابن واصل الحموي ـ (١-٣) تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٩-١٩٦٠ ـ والجزء الرابع، تحقيق حسين محمد ربيع، القاهرة ١٩٧٥.

٥٨ـ منطلق تاريخ لبنان، كمال سليمان الصليبي ـ بيروت ١٩٧٩.
٥٩ـ المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، لابن تغري بردي ـ الهيئة المصرية العامة.
٦٠ـ مؤرخ المغول رشيد الدين الهمذاني ـ تأليف فؤاد عبد المعطي الصيّاد ـ دار الكاتب العربي، القاهرة ١٩٦٧.
٦١ـ الموسوعة العربية الميسّرة ـ بإشراف محمد شفيق غربال ـ دار الشعب ومؤسسة فرانكلين، القاهرة.
٦٢ـ الموسوعة الفلسطينية ـ دمشق ١٩٨٤.
٦٣ـ النجوم الزاهرة، لابن تغري بردي:
ـ طبعة دار الكتب المصرية
ـ طبعة كاليفورنيا
٦٤ـ نزهة النفوس والأبدان، للخطيب الجوهري ـ تحقيق حسن حبشي ـ دار الكتب المصرية ١٩٧٠.
٦٥ـ هدية العارفين، لاسماعيل باشا البغدادي ـ دار الفكر، بيروت.
٦٦ـ الوافي بالوفيات، للصفدي ـ (١-٩) ـ دار صادر ١٩٦١.
٦٧ـ وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي ـ تأليف محمد ماهر حمادة ـ مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦.
٦٨ـ وفيات الأعيان، لابن خلكان ـ تحقيق إحسان عباس ـ دار الثقافة، بيروت ١٩٧٢.
٦٩ـ Dozy, R: Supplement aux Dictionnaires arabes. 2 Vols. Leyden 1881

فهرس الموضوعات

الموضوع — الصفحة

سلطنة المعزّ أيبك التركماني (ترجمته وأخباره على وجه الإجمال) ٣
السنة الأولى من سلطنة المعزّ أيبك وهي سنة ٦٤٨ هـ ١٨
السنة الثانية من سلطنة المعزّ أيبك وهي سنة ٦٤٩ هـ ٢٠
السنة الثالثة من سلطنة المعزّ أيبك وهي سنة ٦٥٠ هـ ٢٢
السنة الرابعة من سلطنة المعزّ أيبك وهي سنة ٦٥١ هـ ٢٧
السنة الخامسة من سلطنة المعزّ أيبك وهي سنة ٦٥٢ هـ ٢٨
السنة السادسة من سلطنة المعزّ أيبك وهي سنة ٦٥٣ هـ ٣٠
السنة السابعة من سلطنة المعزّ أيبك وهي سنة ٦٥٤ هـ ٣١

سلطنة المنصور علي بن أيبك التركماني (ترجمته وأخباره على وجه الإجمال) ٣٧

السنة الأولى من سلطنة المنصور علي بن أيبك وهي سنة ٦٥٥ هـ ٥٣
السنة الثانية من سلطنة المنصور علي بن أيبك وهي سنة ٦٥٦ هـ ٥٦
السنة الثالثة من سلطنة المنصور علي بن أيبك وهي سنة ٦٥٧ هـ ٦٥

سلطنة المظفّر قطز (ترجمته وأخباره على وجه الإجمال) ٦٧
السنة التي حكم فيها المظفّر قطز وهي سنة ٦٥٨ هـ ٨٢

سلطنة الظاهر بيبرس البندقداري (ترجمته وأخباره على وجه الإجمال) ٨٦
ذكر قضاة الشافعية منذ أيام الظاهر بيبرس حتى أيام المؤلف ١١١
ذكر قضاة الحنفية منذ أيام الظاهر بيبرس حتى أيام المؤلف ١١٦
ذكر قضاة المالكية (لم يذكر المؤلف سوى أولهم في أيام الظاهر بيبرس) ١٢١
ذكر فتوحات الظاهر بيبرس ١٢٤
ذكر مرض الظاهر بيبرس ووفاته ١٥٦

الموضوع	الصفحة
ذكر الوظائف المستحدثة في أيامه	١٦٤
عودة إلى ذكر فتوحاته	١٦٧
ذكر مبانيه	١٦٨
ذكر ما كان ينوب دولته من الكلف	١٧٤
السنة الأولى من سلطنة الظاهر بيبرس وهي سنة ٦٥٩ هـ.	١٧٦
السنة الثانية من سلطنة الظاهر بيبرس وهي سنة ٦٦٠ هـ.	١٨١
السنة الثالثة من سلطنة الظاهر بيبرس وهي سنة ٦٦١ هـ.	١٨٥
السنة الرابعة من سلطنة الظاهر بيبرس وهي سنة ٦٦٢ هـ.	١٨٧
السنة الخامسة من سلطنة الظاهر بيبرس وهي سنة ٦٦٣ هـ.	١٩١
السنة السادسة من سلطنة الظاهر بيبرس وهي سنة ٦٦٤ هـ.	١٩٢
السنة السابعة من سلطنة الظاهر بيبرس وهي سنة ٦٦٥ هـ.	١٩٤
السنة الثامنة من سلطنة الظاهر بيبرس وهي سنة ٦٦٦ هـ.	١٩٦
السنة التاسعة من سلطنة الظاهر بيبرس وهي سنة ٦٦٧ هـ.	١٩٨
السنة العاشرة من سلطنة الظاهر بيبرس وهي سنة ٦٦٨ هـ.	٢٠٠
السنة الحادية عشرة من سلطنة الظاهر بيبرس وهي سنة ٦٦٩ هـ.	٢٠١
السنة الثانية عشرة من سلطنة الظاهر بيبرس وهي سنة ٦٧٠ هـ.	٢٠٥
السنة الثالثة عشرة من سلطنة الظاهر بيبرس وهي سنة ٦٧١ هـ.	٢٠٧
السنة الرابعة عشرة من سلطنة الظاهر بيبرس وهي سنة ٦٧٢ هـ.	٢٠٩
السنة الخامسة عشرة من سلطنة الظاهر بيبرس وهي سنة ٦٧٣ هـ.	٢١٢
السنة السادسة عشرة من سلطنة الظاهر بيبرس وهي سنة ٦٧٤ هـ.	٢١٥
السنة السابعة عشرة من سلطنة الظاهر بيبرس وهي سنة ٦٧٥ هـ.	٢١٧
سلطنة الملك السعيد محمد بن الظاهر بيبرس (ترجمته وأخباره على وجه الإجمال)	٢٢٣
السنة الأولى من سلطنة الملك السعيد وهي سنة ٦٧٦ هـ.	٢٣٤
السنة الثانية من سلطنة الملك السعيد وهي سنة ٦٧٧ هـ.	٢٣٨
سلطنة العادل سلامش بن الظاهر بيبرس (ترجمته وأخباره على وجه الإجمال)	٢٤٣
السنة التي حكم فيها العادل سلامش وهي سنة ٦٧٨ هـ.	٢٤٦
سلطنة المنصور قلاوون الألفي (ترجمته وأخباره على وجه الإجمال)	٢٤٨
السنة الأولى من سلطنة المنصور قلاوون وهي سنة ٦٧٨ هـ.	٢٩١

الموضوع	الصفحة
السنة الثانية من سلطنة المنصور قلاوون وهي سنة ٦٧٩ هـ.	٢٩١
السنة الثالثة من سلطنة المنصور قلاوون وهي سنة ٦٨٠ هـ.	٢٩٤
السنة الرابعة من سلطنة المنصور قلاوون وهي سنة ٦٨١ هـ.	٢٩٩
السنة الخامسة من سلطنة المنصور قلاوون وهي سنة ٦٨٢ هـ.	٣٠٢
السنة السادسة من سلطنة المنصور قلاوون وهي سنة ٦٨٣ هـ	٣٠٥
السنة السابعة من سلطنة المنصور قلاوون وهي سنة ٦٨٤ هـ.	٣٠٨
السنة الثامنة من سلطنة المنصور قلاوون وهي سنة ٦٨٥ هـ.	٣١١
السنة التاسعة من سلطنة المنصور قلاوون وهي سنة ٦٨٦ هـ.	٣١٣
السنة العاشرة من سلطنة المنصور قلاوون وهي سنة ٦٨٧ هـ.	٣١٥
السنة الحادية عشرة من سلطنة المنصور قلاوون وهي سنة ٦٨٨ هـ.	٣١٩
السنة الثانية عشرة من سلطنة المنصور قلاوون وهي سنة ٦٨٩ هـ.	٣٢٣
ملاحق	٣٢٧
وصيّة منكوخان إلى أخيه هولاكو لما وجّهه لفتح غربي الصين	٣٢٧
الرسائل المتبادلة بين هولاكو والمستعصم العباسي قبيل سقوط بغداد	٣٢٨
رسالة هولاكو إلى السلطان صلاح الدين صاحب حلب	٣٣١
رسالة أحمد تكدار ملك المغول إلى السلطان المنصور قلاوون وجواب السلطان	٣٣٢
نسخة عهد الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي إلى السلطان قلاوون	٣٣٨
نسخة منشور كتب به عن المنصور قلاوون لابنه الناصر	٣٤٠
نسخة عهد المنصور قلاوون لولده الأشرف خليل	٣٤١
وصف الأبنية والعمائر التي شيّدها المنصور قلاوون	٣٤٦
خارطة لبلاد الشام تبين المواقع التاريخية الهامة التي ورد ذكرها في هذا الجزء	٣٥٠